الله

أهل الثناء والمجد

تأليف

الدكتور ناصر بن مسفر الزهراني

الله

الله ، **الله** ، **الله** ، ما أعذب الكلمة ، **الله** ما أحسن الاسم ، وما أجلّ المُسمّى . كلمة حلوة في النطق ، عذبة في السمع ، حبيبة إلى القلب ، قريبة من النفس ، ساكنة في الوجدان ، منقوشة في الفؤاد ، محفورة في الضمير ، ممتزجة بالدماء . باسْمه نبدأ وعليه نتوكل وإليه نلجأ ، وبعظمته نشدو ، وبجلاله نشيد ، وبصفاته نترنم ، وعلى نبيه نصلي ونسلم ، فهو الذي دعانا إلى **الله** ، وعرّفنا **بالله** ، ودلّنا على **الله** ، وعلّمنا كيف نُثني على **الله** ، فهو القائل : «أما إن ربَّك يحب الثناء» ، والقائل : «ولا أحد أحب إليه المدحة من **الله**» .

وهل أحدٌ أحقُّ بالثناء منه؟ وهل خُلق الإنسان ، وأُعطي اللسان ، وعُلّم البيان ، إلا ليُثني على **الله** ، ويُمجّد **الله** ، ويُسبّح **الله** ، ويذْكُر **الله**؟ من أحق بالثناء منه؟ ومن أولى بالمدح منه؟ ، ومن أجدر بالتمجيد منه؟

وجاء حديثٌ لا يُملُّ سماعُه
شهيٌ إلينا . نثرُهُ ونظامُهُ

إذا ذَكَرْتُهُ النفس زال عناؤها
وزال عن القلب الكئيب قَتامُهُ

وإن ثناءنا عليه ، وتمجيدنا له ، وإجلالنا له ، ولَهجنا بذكره : نعمةٌ منه ومِنّة من مننه ، فهو الذي هدانا لذلك ، ودلّنا على ما هنالك .

وهو فوق ما يثني عليه المثنون ، وفوق ما يحمده الحامدون .

وما بلغ المُهْدُون نَحْوك مِدحةً
وإن أطنبوا ، إنّ الذي فيك أعظمُ
لك الحمدُ كل الحمد . لا مَبْدأٌ له
ولا منتهى . والله بالحمد أعلمُ

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

ثناؤنا عليه . زُلفا لنا لديه ، وبَوْحُنا بشيءٍ من المكنون ، إنما نرجو به نجاةً ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون .

ومن عجبٍ أنّي أحِنُّ إليهمُ
وأسأل عنهم من لقيتُ وهمْ معي
وتطلُبُهمْ عيني وهم في سوادها
ويشتاقُهم قلبي وهم بين أضلعي

يا **الله** ما أعظم الخطب! ، وما أجل الموقف! ، وما أصعب الأمر! الضعيف يثني على القوي ، والمخلوق يمجّد الخالق ، والفاني يبجّل الباقي، والفقير يترنم بذكر الغني . القلب يرجف ، واللسان يتعثر ، والجنان يخفق ، والبنان يرتعش ، والكلمات تعجز ، والعبارات تُقَصّر ، والقُوى تنهار ، والفكر يحار . خشيةً وإجلالاً ، وحياء من الجبار .

أعلل قلبي في الغرامِ وأكتُمُ
ولكنّ حالي عن هوايَ يُترجِمُ
وإن فاض دمعي قلتُ جرحٌ بمقلتي
لئلا يرى حالي العذولُ فيفهم
وكنتُ خليّاً لستُ أعرفُ ما الهوى
فأصبحتُ صَبّاً والفؤادُ متيّمُ
رفعتُ إليكُمْ قصّتي اشتكي بها
غرامي ووجدي كي تجودوا وترحموا
وسطرتُها من دمع عينيْ لعلّها
بما حلّ بي منكُمْ إليكم تُترجِمُ

نخط بالبنان شيئاً مما علمنا الرحمن ، ونوظف البيان في رضا الواحد المنان ، امتثالاً لأمره ، واتباعاً لرسوله ، وأملاً في رضاه ، وطمعاً في مغفرته ، وحباً لذكره ، فهو عند حسن ظن عبده به ، وهو معه حيث ذكره ، فإن ذكره في نفسه ذكره **الله** تعالى في نفسه ، وإن ذكره في ملأ ذكره **الله** تعالى في ملأ خير منهم ، قال تعالى : **﴿ واذكروني أذكركم ﴾** .

وفي الحديث القدسي : «أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرتُهُ في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهم» .

فهو أحق من ذكر ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا له عبد ، له الحمد حمداً طيباً كثيراً مباركاً ، له الحمد ملء السموات والأرض وما بينهما ، وملء ما شاء من شيء بعد ، له الحمد حتى يرضى ، وله الحمد بعد الرضى ، وله الحمد عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ورضا نفسه ، ومداد كلماته ، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

لك الحمدُ طوعاً ... لك الحمدُ فرْضا
وثيقاً عميقاً ... سماءً وأرْضا
لك الحمدُ صَمْتاً ... لك الحمدُ ذكراً
لك الحمدُ خفقاً حثيثاً ... ونبْضا
لك الحمدُ ملءَ خلايا جناني
وكل كِياني .. رنُوّاً وغمْضا
إلهي وجاهي إليك اتجاهي
وطيداً مديداً ... لترضى فارْضى
فأنتَ قوامي .. وانت انسجامي
مع الكونِ ، والأمرُ لولاكَ فوضى

هذهِ همسات قلب مؤمن ، ونفثاتُ فؤادٍ مُوَحِّد ، هذا دعاءٌ ورجاء وثناءٌ

وبكاء ، وانطراحٌ ونداء ، لرب الأرض والسماء .

هذه قصة التوحيد تُسطَّر في قالب جديد ، وروح العقيدة ، يقدم في أفانين عديدة ، ومجمل اعتقاد السلف في الأسماء والصفات ، توشّحت به هذه الورقات .

هذا الكتاب توحيد وتمجيد ، وتعظيم وتبجيل ، وتسبيحٌ وتكبير .

هذه ومضات من خلجات الروح ، وأسطر من وثيقة الحب ، ونفحات من معين الإجلال ، وهمسات من هتاف الإيمان .

هذه عبارات حانية ، وأحرف زاكية ، تُسقى بماء واحد ، لتثني على ربٌ ماجد ، منها ما حبّرت واجتهدتُ ، ومنها ما انتقيته من الغير واستَجَدتُ .

هذه نفسٌ كاد يقتلها العطش فسُقيت بماء الوحي ، وزلال الإجلال ، ورحيق التوفيق ، فاهتزّت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

↙ إذا استسقى القلب المحبُّ ربَّه ، واشتكى إليه فاقته ، وأظهر فقره . مرّغ جبينه في محرابه ، ونثر دموعه في ساحته ، سيمده بغيث الرحمة ، وسقيا المعرفة ، فإن ضرب بعصاه الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم ، عين الإخلاص ، وعين الصدق ، وعين الحب ، وعين اليقين ، وعين التوكل ، وعين المعرفة ، وعين الرضى ، وعين الصبر ، وعين الأنس ، وعين الافتقار ، وعين الحياء ، وعين الخوف ، وسالت أودية بقدرها .

إنني آمل أن تجد قوافل المحبين في هذا مورداً طيباً فتنهل من معينه الصافي ، وأعينه السائغة العذبة ، فها أنذا قد نضحت للمحبين بدلوي ، وسقيت لهم بغربي من بئر المعرفة ، وسلسبيل الهدى ، وسوف أتولّى إلى

الظل الوارف لهذا الدين ، وأبتهل بلسان الحال والمقال : ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ .

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم
وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فلست أراه عن فنائك يبرح

ما أعظم الفاقة وأشد الحاجة إلى ما يسكب في القلوب من عظمة علام الغيوب سيما في مثل هذا الزمن الذي كثرت فيه الفتن ، وعظمت المحن ، وتدفق سيل الشهوات ، وكشّرت أنيابها الشبهات ، أُعلنت الحرب الشعواء على الفضائل ، وصُوِّبت السهام الرعناء على المكارم .

اللهم احفظ بلاد المسلمين من مكر الماكرين ، وغدر الغادرين ، وضلال الضالين .

إلهي .. ثنائي عليك نعمة منك ، وذكري لك منّةٌ منك ، وانطراحي بين يديك عطاءٌ منك وإليك . ، سبحانك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حباؤك إن شيمتك الحباءُ
عظيمٌ لا يُغيّره صباحٌ
عن الخلق الجميل ولا مساءُ
إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تَعَرُّضِه الثناءُ

فهذا بعض ما جاد به القلم ، وصدح به الخاطر ، وفاضت به النفس، وطفح به القلب ، وخطه البنان ، ولهج به اللسان . آمل أن يكون سلوة للمحبين ، وأنساً للعابدين ، وسروراً للخاشعين .

إن الذي يتعرض بالثناء لملك من ملوك الدنيا ويشدو بشيء من مناقبه أو يتلو بعضاً من محاسنه لا يخلو من العطية ، ولا يعدم الهدية ، وقد يكون أكثر الثناء وجُل المديح في غير مكانه ، فما بالك بمن يثني على مالك الملك وصاحب الفضل ، وواهب النعماء ، وعظيم العطاء ، رب السموات والأرض أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، لا أكرم منه جوداً ، ولا أعظم منه عطاءً ، ولا أوسع منه براً ، ولا أجل منه فضلاً .

إن أعظم مكافأة لمن يثني عليه أن أكرمه بأن جعل لسانه ينطق بمدحه ، وبيانه يترجم بحبه ، وقلمه يسطر بديع فضله وجميل صفاته ووافر هباته ، ماذا تساوي كلمات نسطرها أو عبارات ندبجها أو صفحات نخطها عن الذي خلقنا وما نعمل ، وأوجدنا وما نصنع . العقل الذي يتفكر ويتدبر ، والنفس التي تخشع وتتأثر ، والقلب الذي يؤمن ويتذكر ، كلها نعمٌ من الذي خلق فقدر لو عبده المرء سنوات عديدة ما كان ذلك مقابلاً لنعمة واحدة من نعمه عليه كالسمع أو البصر أو العقل ، لو كانت مياه البحور مداداً للكاتبين وأشجار الدنيا أقلاماً للمدونين ، ووجه الأرض ورقاً للمسطرين ، ونقش عليها ثناؤهم على الله لما أوفوه حقه من الثناء ، فهو فوق ما يصفه الواصفون ، وأعظم مما يثني به عليه المثنون ، فسبحانه جل في علاه ، له الشكر وله الفضل وله الحمد فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وله الحمد فهو قيّم السموات والأرض ومن فيهن ، وله الحمد فهو نور السماوات والأرض ومن فيهن ، عالم

الغيب والشهادة ، فاطر السماوات والأرض ، ربُّ كل شيءٍ ومليكه ، فالق الحب والنوى ، الاول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، الظاهر فليس فوقه شيء ، والباطن فليس دونه شيء ، وهو الحق ووعده الحق وقوله الحق ، واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

أوحشتني خلواتي بك من كل أنيسِ
ودعاني الودُّ والحبُّ إلى المعنى النفيسِ
فبدا لي أنّ مهر القرب أنفاسُ النفوسِ
فكتبتُ العهد للحُبِّ على أغلى الطروسِ

إنني آمل من المولى جل وعلا أن ينتفع الخطباء بهذا الكتاب في خطبهم ، فإن فيه ما لا يقل عن سبعين خطبة إيمانية وروحانية تربط الناس بالله وتحببهم إلى الله وتقربهم من رضاه ، ولقد خطبت بعدد من موضوعات هذا الكتاب ، فكانت من أحسن الخطب اثراً ، واجملها وقعاً وآمل أن ينتفع به الأئمة في مساجدهم فهو من أفضل ما يمكن قراءته على المصلين بعد الصلوات ، ليس لأنه كتابي ولكن لما احتواه من الثناء على الله عز وجل وبيان عظمته وتجلية شيء من مِنَنه ، وبعضٍ من نعمه ، فإن القلوب إذا تعلقت بالله ، وعظّمت الله ، وتعرفت على الله ، انصاعت لأمره ، ورضيت بحكمه ، ومضت على شرعه ، فكيف تطلب الاجتهاد ممن لم يتعرف على رب العباد؟ وكيف يكون الامتثال لمن لم يبجّل المتعال؟ وحينما تتامل وصيةِ المصطفى ﷺ لمعاذ – رضي الله عنه – حينما بعثه إلى اليمن تعرف أهمية التعرف على الخالق ، وانه الأساس الذي يبنى عليه الدين

وتقام عليه الشرائع : «إنك تقدُمُ على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة **الله** ، فإذا عرفوا **الله** فأخبرهم أن **الله** قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن **الله** قد فرض عليهم الزكاة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ في فقرائهم ، فإذا أطاعوك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس» .

وإنني آمل أن يفيد من هذا الكتاب الدعاة في دعوتهم ، والوعاظ في وعظهم ، وأن يفيد منه كل محب للجلال ، عاشق للجمال ، مبجل للكمال .

أسأل **الله** تعالى أن يغفر بهذا الجهد ذنبي ، وأن يرفع به قدري ، ويحط به وزري ، ويشرح به صدري ، وييسر به أمري ، وأن يرفع به من قرأه وينفع به من شكره .

حبيبيَ أمّا جفن عيني فمقروحُ
وأما فؤادي فهو بالشوق مجروحُ
يُذكرني مَرُّ النسيم عهودكم
فأزداد شوقاً كلما هبّت الريحُ
أراني إذا ما الليل أظلم أشرقتْ
بقلبيَ من نار الغرام مصابيحُ
أُصَلّي بذكراكم إذا كنت خالياً
ألا إن تذكار الأحبة تسبيحُ
يشح فؤادي أن يُخامر سِرَّهُ
سواكم وبعضُ الشحِّ في المرء ممدوحُ

إن الخلل والزلل من لوازم الناس – إلا من عصمه **الله** تعالى – فمن قصد هذا الكتاب فلا جناح عليه أن يَطَّوَّف بقلبه وفكره فيه ، فيُسدي نصحاً ، ويقدم توجيهاً ، ومن تطوع خيراً فإن **الله** شاكر عليم(١) .

اللهم إني أستغفرك من الزلل ، وأعوذ بك من الخلل ، وأبرأ إليك من الخطل ، وأعوذ بك من شر نفسي ، ومن الشيطان الرجيم .

ولو كتبتُ بدمع العين ملحمة
بديعةً جئتكم في ثوب معتذر
لم أستطع أن أجلّي عشر عاطفتي
في حُبّه لا ولا عشراً من العُشر

ناصر بن مسفر الزهراني
١٤٢٠/٨/١ هـ
مكة المكرمة

---

(١) لم نقم بتخريج النصوص في هذا الكتاب ، ولكن ليطمئن القارىء الكريم فلم نُورد في هذا الكتاب إلا كل حديث صحيح بإذن الله .

قصيدة

رحلة في موكب الجلال

تأليف

د / ناصر بن مسفر الزهراني

المقدمة

هذه معلقة ربانية ، ومديحة إلهية ، وومضات إيمانية ، ولقد كانت أمنيتي أن أعطر لساني بشيء من الثناء عليه ، وأضمخ بياني بعبير من عبق الانكسار بين يديه ، وأتوّج شعري بيسير من المدح فيه ، فهو نور الحياة ، وضياء الوجود ، ومعنى البيان ، وفخر القوافي ، وذكره عطر القصائد ، وعنوان المحامد .

آمل أنني قد حزت قصب السبق ، وأن يكون لي في مدحه لسان صدق ، فهذه رسالة صادقة من قلب محب إلى حبيب العارفين ، وأنيس المستوحشين ورب العالمين **﴿ الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنّة النعيم ﴾** .

رحلة في موكب الجلال

قرِّبوا ريشتي وهاتوا دواتي   واتركوني من التي واللواتي
لم يعد في فؤاد مثلي مكانٌ   للتغني بالحب والغانيات
كم تأملت من أعاجيب حُبٍّ   وغرامٍ في الأعصُر الخاليات
لأناس ذابوا هُياماً وشوقاً   وافتتاناً بروعة الفاتنات
كم فؤادٍ بلوعة الحب يُكوى   وصريعٍ للأعين القاتلات
فإذا بالغرام يغدو حديثاً   والمحبون كومةً من رفات
قصص في مجالس الأنس تروى   ثم تلقى في حيِّز المهملات
فتعاليت عن غرامٍ بئيسٍ   دنيويٍ مآله لانبتات
وسقيت الفؤاد من نهر حُبٍّ   يوقظ القلب من عميق السُّبات
كم شفى الحبُّ غلَّة من نفوس   وسقاها من سلسبيل فُرات
فاستمع يا زمان هذا مُحب   سوف يتلو أنشودة للرُّواة
يا خلايا الفؤاد يا كل نبضٍ   هات ما عندكم من الحب هاتِ
حدثينا عن الهوى حدثينا   وأبيني بأصدق البينات
أشعلي جذوة الهوى في نفوس   عن مراقي سعودها لا هيات
هذه نفحة من الطهر تسري   في فضاء يعج بالمغريات
ضَجَّ هذا الفضاء مما دهاه   من جحيم الآثام والمنكرات
وإذا بُثَّ في البرايا خطايا   جاءك البثُّ عابقاً من قناتي

هذه باقة من الورد نشوى   من أزاهير قلبي العاطرات
هذه قصة من الحب تعلى   في حروف فتّانة ساحرات
ومعانٍ أضحت بمحراب روحي   ذاكرات لربها ساجدات
هذه غرفة من الحب تسقي   بـرواها ضمائراً صاديات
هذه نسمة شذاها تجلي   في سماء الهوى بمسك فتات
وسُلاف البيان يحلو مذاقاً   لقلوب شفافة مرهفات
بعثتُ ذاتي على حبيب قريب   من فؤادي ومنه حبي وذاتي
تاه لبّي وذاب قلبي لربي   فهو حبي وسَلوتي في حياتي
وله كل ذرّة في كياني   ومماتي ومنسكي وصلاتي
يا مرادي هذي ترانيم حب   من فيوض المشاعر الخاشعات
أنت أهل الثناء والمجد فامنن   بجميل من الثناء المُواتي
ما ثنائي عليك إلا امتنان   ومثال للأنعم الفائضات
يا محب الثناء والمدح إني   من حيائي خواطري في شتات
ذابت النفس هيبةً واحتراما   وتأبّتْ عن بلع ريقي لهاتي
حسبنا وامتداحنا ليس إلا   ومضة منك يا عظيم الهبات
لو نظمنا قلائداً من جمانٍ   ومعانٍ خلابة بالمئات
لو برينا الأشجار أقلام شكرٍ   بمداد من دجلةٍ والفرات
لو نقشنا ثناءنا من دمانا   أو بذلنا أرواحنا الغاليات
لو نُشِرْنا في ذاته أو رُمِينا   برماح فتّاكة مشرعات
أو جهدنا نفوسنا في قيامٍ   وصيامٍ حتى غدت ذاويات
أو مزجنا نهارنا بدجانا   في صلاةٍ وألسن ذاكرات
أو قطعنا مفاوزاً من لهيبٍ   ومشينا بأرجل حافيات

أو سجدنا على شظايا رصاص   أو زحفنا زحفاً على المرمضات
أو بكينا دماً وفاضت عيون   بلهيب المدامع الحارقات
ما أبنّا عن همسة من معان   في حنايا نفوسنا ساكنات
أو أتينا لذرّة من جلال   أو شكرنا آلائك الغامرات
أي شيءٍ يقوله الشعر لما   يتغنى بخالق الكائنات
ما نسجناه من بيان بديع   ليس إلا خواطراً قاصرات
هُديَ الشعرُ لاقتناص المعاني   إنما الطيبون للطيبات
أي شيءٍ أتقى وأنقى وأرقى   من حروف بمدحه مُترعات
فالقُ الحب والنوى جل شأناً   وضياء الدجى ونور السُّراة
قابض باسط معزٌّ مذلٌّ   لم يزل مرغماً أنوف الطغاة
شافع واسع حكيم عليم   بالنوايا والغيب والخاطرات
خافضٌ رافعٌ بصير سميع   لدبيبِ للنمل فوق الحصاة
يهتف العابدون من كل جنس   وبلادٍ على اختلاف اللغات
لم يغب عنه همسة أو هتاف   للمنادين من جميع الفئات
نافعٌ مانعٌ قوي شديدٌ   قاصم ظهر كلِّ باغٍ وعات
كم تألّى ذوو عناد وكفر   فاستحالت عروشهم خاويات
كم أتى بطشه فأردى شعوباً   لاهيات في دورها آمنات
ظاهرٌ باطنٌ حسيبٌ رقيبٌ   ليس يخفى عليه مثل القذاة
أولٌ آخرٌ عليٌّ غنيٌّ   كيف نحصي آلاءه الوافرات
باعثٌ وارثٌ كفيل وكيل   وأمان للأنفس الخائفات
وجميلٌ جَمَالُه فاض طهراً   وصفاءً يرف بالمُبْدَعات
بارئٌ حافظٌ حميدٌ مجيدٌ   فارج الهمّ كاشف المعضلات

الوليّ المتين مـا خاب ظنٌّ … لنفوس في فضله طامعات
مؤمنٌ محسنٌ شكورٌ صبورٌ … للأذى والجحود والإفتئات
خالقٌ رازقٌ سميع مجيب … ويداه تفيض بالأعطيات
السلام القدوس كم من فيوضٍ … نتفيا ظلالها الوارفات
وله الكبرياء هل من وليٍّ … غيره قد أباد كلّ الولاة
مستوٍ فوق عرشه في علوٍّ … وقريبٌ بجوده للعُفاة
ليس شيء كمثله فهْو ربٌّ … من يضاهيه في صفات وذات
ما أتى من صفاته فهْو حقٌّ … وكمال برغم أنف النُفاة
إنه الواحد الذي لا يُضاهى … في معاني أسمائه والصفات
ناصرٌ قادرٌ على كل شيءٍ … وهْو حيٌّ منزه عن سبات
قاهرٌ غالبٌ قويٌّ عزيزٌ … ونصير للمهتدين الهداة
غافرٌ راحمٌ حليمٌ تجلّى … حلمه في عطائه للجُناة
تتألّى عليه بعض البرايا … وتراها في فضله راتعات
مرسل البرق منزل الغيث صفواً … وهْو محيي العظام بعد الفتات
صمد تصمد البرايا إليه … وأنيس الضمائر الموحَشات
المليك القدير ذو الطول بُشرى … لمحبي توحيده بالعِدات
ما أتوا كاهناً ولم يستغيثوا … بقبور مطمورةٍ في الكفات
قَصْدُهم أو دعاؤهم ليس إلا … للكريم العظيم ذي المقدرات
تلك فحوى العقيدة الحق تُتلى … بوضوحٍ في كُتْبه المُنْزلات
يا نبي الهدى ويا خير صوت … حين يُتلى مُتَيَّماً للحُداة
يا محباً تعلُّم الحبُّ منه … ثم آتى ثمارَه الناضجات
ما رأينا في دفتر المجد أسمى … منك حباً برغم كيد الوشاة

صُغْتَ للدهر قصة من نضالٍ   وفعالٍ أبية ذائعات
وحروفٍ منسوجةٍ من ضياءٍ   ما تُوارى عن شاشة الذاكرات :
لو رميتم مفاتح الأرض عندي   وأتيتم بالشمس والمقمرات
ليس في شِرْعة الهوى من نكوصٍ   أو عهودٍ مأجورةٍ مُشتراة
والأمورُ الصِّعاب تبدو لعَيْني   في رضى من أحبُّه هَيِّنات
فإذا أظلم الدجى قام يدعو   ويناجي بأدمع واكفات :
يا إلهي إن كنت راضٍ فإني   لا أبالي بما أتو من أذاتي
ومضى ثابت الخطى لا يبالي   بالتحدي والمكر والشائعات
أورق الحبُّ والرضى في قلوب   بَثُّ فيها معنى التقى والأناة
(أُحُدٌ) و(الأحزاب) و(الفتح) تروي   أروع الحب للأُبَاة الكُمَاة
بسيوفٍ غيورة صارمات   وخيول إلى الوغى ضابحات
كم رؤوس تَعْجَبُ الموتُ منها   ودماءٍ منثورة عابقات
أمهر الحبُّ جعفرٌ وخُبيبٌ   بنفوس من أجله زاهقات
يُبتلى آل ياسر ثم تُهدى   للمنايا (سُمَيْة) الساميات
ضَمَّخت سكة الهوى للصبايا   بعبير من همَّة القانتات
إنها درَّةٌ بعقدٍ مضيءٍ   يتحلى بالكُمَّل المحصناتِ
وبلال في وَقْدة الرملِ يُلقى   لينادي بـ (لا تهم) أو (مَنَاة)
كلما أمعنوا عذاباً ينادي   : (أَحَدٌ) لم تُطق سواها شفاتي
و(أبو جابر) يُنادى كفاحاً   ويُمَنّى بأحسن الأمنيات
و(خَبيبٌ) يُبَضّع الجسم حَيّاً   بسيوف غدّارة خائنات
لم يَلِنْ عزمُه وما صاغ حرفاً   من خضوعٍ أو ذلةٍ للغُواة
سَطّروا قصة الهوى بحروف   سوف تبقى عن البلى خالدات

هكذا الحب لوعة وامتثال   واشتياق يُصاغ في تضحيات
مبدع الكون يا لها من عقول   عن تملّي آياته ذاهلات
واسع الفضل كيف تُرجى نجاةٌ   لنفوسٍ عن هديه معرضات
هائماتٍ في غفلةٍ عن هداه   غارقاتٍ في حمأة الموبقات
وقلوبٍ كئيبة كيف تسلو   وهْي من فيض حبه مقفرات
كيف يسري معنى الرضى في نفوس   من شذى طيف أنسه خاليات
كم بهذا الوجود مما نراه   من صنوفٍ بفضله شاهدات
لو تأملت صفحة الكون مما   بثَّ فيه من رائعِ المعجزات
أرسلِ الفكرَ في فضاءٍ بعيد   وسماءٍ تعُجُّ بالنيِّرات
هل رأيت السماء والشمس تزهو   في ضحاها والبدر في الحالكات
هل تأملت منظر النجم لما   يسحر العين في دجى المظلمات
كلها الأرض والمجرات تبدو   عند ربي كحلْقة في فلاة
هل تأملت روعة الروض لما   يتبدى بأروع المزهرات
من غصون ريَّانة وورود   وفروع زكية مثمرات
وخرير المياه يُبدي لحوناً   يتهادى بين الربى والنبات
وغناءٍ يسري إلى كل قلب   لطيور صدَّاحة شاديات
ورُخاءٍ مأمورةٍ من رياح   حين تمضي إلى الربى لاقحات
كم ترى من حدائق مفعماتٍ   بغصون قطوفها دانيات
وحقول جميلةٍ لحبوب   تتجلى في أبدع السنبلات
هل تأملت أنهراً وبحوراً   كم بها من عوالم سابحات
هذه الفلك آية هل تراها   وهْي تفري عبابه ماخرات
منظر مذهل فلول البرايا   تمتطيه بأضخم الباخرات

رابط الجأش كم طوى في حشاه   من ضحايا أمواجه العاتيات
لم تغيّره حادثات الليالي   والبرايا ما بين غاد وآت
هل تأملت أمة النحل تغدو   لعبير من الشذى راشفات
ثم تُهدي بطونُها من رضاب   وشفاءٍ لأنفس مزمنات
في بناء مُعقَّد هندسيٍّ   يتحدى خوارق الهندسات
هل تأملت عالم النمل فيه   روعة في فلوله المنتشرات
في نظام ودقة لا تبارى   وتفان في الكسب والإقتيات
ليس للخامل الكسول احترام   في قوانين عيشها الصارمات
وألوفٌ من الخلائق تمضي   في دروب مرسومة واضحات
من فراش وزاحفٍ وطيور   وأليف يُقنى ومن كاسرات
وإذا جفت العيون السواقي   واستحالت رياضنا مجدبات
وبدا وجه أرضنا مكفهراً   قابلتك الغيوم بالبشريات
فإذا بالمغيث يزجي سحاباً   ويفيض الثجّاجُ من معصرات
تكتسي الأرض حُلَّة من نضارٍ   في وجوه وضاءةٍ مبهجات
لو تأملت أبدع الصنع فيما   بين جنبيك من بديع العظات
من فؤاد ومنطق واعتدال   والنهى والدلائل الباهرات
والبلايين من خلاياك تمضي   والكُريَّات أضخم الناقلات
لو تأملت في كتاب كريم   في معاني آياته المحكمات
في الضحى والأنعام والنحل فيضٌ   من ضياءٍ والنور والذاريات
من يعيد الروَاء للأرض لما   يطمس الجدبُ أوجهاً ضاحكات
من يعافي المريض من بعد سُقْمٍ   وقنوطٍ من طبٍّ مستشفيات
من يبثّ السرور في كل بيتٍ   بالبنين الأطهار أو بالبنات

من يسلي النفوس بالصبر لما   تُبتلى بالنوازل القاصمات
من يغيث القلوب مما دهاها   من هموم بئيسة جاثمات
من يواري عيوبنا من حبانا   بستورٍ من سِتْره مُسْدلات
من هدى العقل لاكتشاف بديعٍ   لعلوم عجيبة مذهلات
كلما زادت العقول اكتشافا   وابتكاراً تتيه في المهمهات
علمها واكتشافها ليس إلا   قطرةٌ من بحوره الزاخرات
إن في ساحة العلوم اهتداءً   ودليلاً للأنفس الحائرات
كم هدينا بفضله لعلومٍ   بمزايا توحيده هاتفات
إن في مسرحِ الحياة اعتبارا   في ثنايا آياتها الماثلات
يا جهولاً بربه يا غفولاً   عن صريح الآيات والبينات
كم ترى في حياتنا من فنون   ورسوم خلابة هائمات
أين عيناك عن تملّي جمال   في أفانين فضله الناطقات
في جمال الأكوان في كل همس   في بديع المسموع والمُبْصَرات
في شروق للشمس أو في غروب   في نجوم مطلة آفلات
في انبلاج الصباح في هداة الليل في لحونْ الشُداة
في سحاب مسخر في غمام   في بروق براقة ضاحكات
في سكون الصحراء في رسمة الوادي وفي ذرى الراسيات
في هتاف الطيور من كل فن   في غناء الحمائم الساجعات
في الشذى في الندى في الورود في بسمة الفجر في سكون البيات
في الربى في الضحى في الأنهار في طلعة البدر في الزواهر الحالمات
في التقاء البحرين ملح أجاج   ليس يبغي على الزلال الفرات
في رحيق الأزهار في نفحة العطر في رياضها الناضرات
في دلال المِلاح في رِقّة الحُبْ في المحاجر الآسرات

في قدود فتّانة في خدودٍ   في ثغور وضّاءة باسمات
في جمال الغزال في جفلة الظبْي في عيون المهاة
في اختيال الطاووس في عالم البحر في علوّ البزاةِ
في هدير الجِمال في سطوة الأسْد في انطلاقة الصافنات
في خفاء الأرواح في قصة النوم في حديثنا والسكات
في بديع الألوان في نغمة الصوت في قلوبنا الخافقات
في اختلاف الأذواق في بسمة المرء في دموعه الذارفات
في صنوف الأرزاق من كل طعم   في فيوضات جوده المغدقات
في مذاق الثمار في باسق النخل في الجنى في النواة
إنه الله سلوةً وضياءً   في سماء العُبّاد والعابدات
عد إلى ظله الظليل التماساً   للندى والرضى وحسن الصْلاة
حيث يكسوك حُلّة من حنان   وأمان في هجمة العاديات
وترنم بذكره فهو غرسٍ   سوف تجني ثماره اليانعات
إن صدق المحب يبدو جلياً   في عيون بالدمع مِغرورقات
وامتثالاً لأمره واحتراماً   لمواثيق حبه المُبْرمات
وقياماً بحقه من صلاة   وصيام ومنسك وزكاة
هذه همستي إلى كل قلب   عاشق للرضى وهذي وصاتي
ونداءً مضمّخ بعبيرٍ   لأناس يستروحون العظات
فاعمر الوقت بالتراتيل وانصب   تحت جنح الدجى وحين الغداة
واغنم العمر فالمنايا خفايا   كم دهى الخطب أنفساً غافلات
ليس تُغنيك توبة أو بكاء   حين تُمنى بهجمة النازعات
إنه موعد وما عنه مأوى   لو سكنت البروج والناطحات
أين أهل السلطان والجاه ممن   تاه فخراً في الأعصر الماضيات

أولَمْ يفتك الردى بقصور   وديار بأهلها آهلات
كدّر الموت صفوهم ثم بادوا   وتجلت رسومهم دارسات
أين من غرّه جمال ومال   من كبار السادات والسيدات
سكنوا باطن الثرى بعد عزٍّ   في ظلال المنازل الشامخات
أكل الترب حسنهم وتمشى الـ   ـدّود يرعى في أعظم باليات
إن في سرعة الزمان اعتباراً   كيف تمضي أيامه خاطفات
فلتبادر إلى اغتنام الليالي   ولحوق بالركب قبل الفوات
حين تمضي إلى إله عظيم   وعليم بالجهر والخافيات
جامع الناس في مقام رهيب   ومعيد العظام بعد الشتات
في مقام تكون فيه البرايا   خاضعات لربها مهطعات
فيه تجثو قوافل الناس خوفاً   ويحل الذهول بالمرضعات
لو رأيت الأبناء ولّوا فراراً   عن نداء الآباء والأمهات
هلعٌ يمطر الورى فاستكانوا   في وجيف وأعين شاخصات
وبكاء وحرقة ثم يدنو   كوكب الشمس من حفاة عراة
ليس للمرء ملجأ فيه إلا   بمزايا أعماله الصالحات
ولمن واجهوا فلول الخطايا   بدروع من التقى سابغات
ودعاة لهديه في البرايا   بقلوب رفيقة راحمات
يقطف المؤمنون أزهار أمنٍ   ويرون البشائر المرضيات
حورُ عينٍ وسندسٌ وثمارٌ   وفيوض من أنهر جاريات
في نعيم لا ينقضي ومزيد   لوجوه لربها ناظرات
يا إلهي إني مقرٌّ بذنبي   وخطايا جوارح مسرفات
ما جهلت المقام أو كان قلبي   مشرئباً إلى دروب العصاة

ضَعْفُ نفسي وحسن ظني بربي   جرني للقصور في واجباتي
يا رحيماً بعبده يا عفواً   يا محل الآمال والمكرمات
يا إلهي ومن إليه اتجاهي   ياربيع الأفكار والذكريات
رضِّني بالقضاء وامنن بفضل   وببردٍ للعيش بعد الوفاة
يا منى خاطري وسلوى فؤادي   ليس إلا إلى رضاك التفاتي
منك حولي وقوتي واتكالي   يا نصيري فلا تكلني لذاتي
جُدْ على عبدك المرجّي نوالاً   من عطايا آلائك المشرقات
واهد قلبي يا خالقي وارض عني   فالرضى منك منتهى الأمنيات
يَقْصُر اللفظ عن بيان لحبٍّ   ومعان في مهجتي مُضْمرات
أنت ألبستني من الفضل ثوباً   بل ثياباً فضفاضةً ضافيات
يا غياث الملهوف من كل كرب   يا معيناً للمرء في المعضلات
لا تدعني لحادثات الليالي   وأجرني مما به الغيب آت
وقني من لهيب نار تلظى   بسياج من التقى والثبات
يا جواداً بلطفه يا عفواً   لرزايا كبائرٍ أو هنات
يا ملاذاً تهفو البرايا إليه   والمرجّى لفكّ أسْرِ العُناة
امح عني صحائفاً من ذنوب   واعف عني يا غافر السيئات
فاقتراف الذنوب عنوان ضعفي   والتمادي في غيِّها من سماتي
يا أنيسي وعُدتي واعتمادي   وملاذي في ظلمة النائبات
وسروري وبهجتي ورجائي   وضيائي في مُدلج الحالكات
هذه لوعتي وهذي دموعي   واشتياقي وقصتي وشكَاتي
أبتغيها ذخراً ليوم عظيم   يا إلهي لعل فيها نجاتي
وصلاةٌ زكيةٌ وسلاماً   للنبي الكريم خير الدعاة

* إليه الملجأ *

إذا حَلَّ الهمُّ ، وخَيَّم الغم ، واشتد الكرب ، وعظم الخطب ، وضاقت السبل ، وبارت الحيل ، نادى المنادي : يا **الله** .. يا **الله** (لا إله إلا **الله** العظيم الحليم ، لا إله إلا **الله** رب العرش العظيم ، لا إله إلا **الله** رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم) ، فَيُفَرَّج الهم ، ويُنَفَّس الكرب ، ويُذلَّل الصعب ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ، ﴿ وما بكم من نعمة فمن **الله** ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون ﴾ .

إذا أجدبت الأرض ، ومات الزرع ، وجف الضرع ، وذبلت الأزهار وذوت الأشجار ، وغار الماء ، وقل الغذاء ، واشتد البلاء ، خرج المستغيثون بالشيوخ الرُّكَّع ، والأطفال الرُّضَّع ، والبهائم الرُّتَّع ، فنادوا : يا **الله** ، واستغاثوا : يا **الله** ، فينزل المطر ، وينهمر الغيث ، ويذهب الظمأ ، وترتوي الأرض ، ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ، وإذا بالماء يروي من العطش ، ويُنقِّي من الدنس .

إذا اشتد المرض بالمريض ، وضعف جسمه ، وشحب لونه ، وقلت حيلته ، وضعفت وسيلته ، وعجز الطبيب ، وحار المداوي ، وجزعت النفس ورجفت اليد ، ووجف القلب . انطرح المريض ، واتجه العليل إلى العلي الجليل ، ونادى : يا **الله** .. يا **الله** ، فزال الداء ، ودب الشفاء وسُمع الدعاء ﴿ وأيوبَ إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

إذا انطلقت السفينة بعيداً بعيداً في البحر اللجي ، وهبت الزوابع ، وتسابقت الرياح ، وتلبَّد الفضاء بالسحب ، واكفهر وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت الأمواج بالسفينة ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأشرفت على الغرق ، وتربص الموت بالركاب ، اتجهت الأفئدة ، وجارت الأصوات : يا الله .. يا الله ، فجاء عطفه ، وأشرق ضياؤه في الظلام الحالك ، فأزال المهالك : ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذا لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحيوة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ ، ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ .

إذا حلقت الطائرة في الأفق البعيد ، وكانت معلقة بين السماء والأرض فأشّر مؤشر الخلل ، وظهرت دلائل العطل ، فذعر القائد ، وارتبك الركاب ، وضجت الأصوات، فبكى الرجال ، وصاح النساء ، وفُجع الأطفال ، وعم الرعب ، وخيم الهلع ، وعظم الفزع ، ألَحّوا في النداء ، وعظم الدعاء : يا الله .. يا الله .. يا الله ، فأتى لطفه، وتنزلت رحمته ، وعظمت مِنَّته ، فهدأت القلوب ، وسكنت النفوس ، وهبطت الطائرة بسلام .

إذا اعترض الجنين في بطن أمه ، وعسرت ولادته ، وصعبت وفادته، وأوشكت الأم على الهلاك ، وأيقنت بالممات ، لجأت إلى منفس الكربات ،

وقاضي الحاجات ، ونادت: يا **الله** .. يا **الله** ، فزال أنينها ، وخرج جنينها .

إذا حلت بالعالِم معضلة ، وأشكلت عليه مسألة ، فتاه عنه الصواب ، وعز عليه الجواب ، مرغ أنفه بالتراب ، ونادى : يا **الله** .. يا **الله** ، يا معلم إبراهيم علمني ، يا مفهم سليمان فهمني ، (**اللهم** رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السماوات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)، فيأتي التوفيق وتُحل المغاليق .

فهو تعالى الملاذ في الشدة ، والأنيس في الوحشة ، والنصير في القلة . يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء . ويدعوه آملاً في الشفاء .

ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا ، والخلف من كل فائت ، والعوض من كل مفقود ، ﴿ **والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ .

ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظالمه ، فليس بين دعوة المظلوم وبين **الله** حجاب ، ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾ .

ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة ، ﴿ **رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ .

وكل واحد من هؤلاء آمل في أن يُجاب إلى ما طلب ، ويحقق له ما ارتجى ، فما ذلك على قدرة **الله** ببعيد وما ذلك على **الله** بعزيز .

أي سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة . فيدعوه بما دعا به محمد ﷺ من قبل : « **اللهم** رب السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى . منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، اعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول ، فليس قبلك شيء . وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عني الدين . واغنني من الفقر » .

فهو سلوة الطائعين ، وملاذ الهاربين ، وملجأ الخائفين ، قال أبو بكر الكتاني :

« جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة . فتكلم الشيوخ فيها . وكان الجنيد – رحمه **الله** – أصغرهم سناً . فقالوا له : هات ما عندك يا عراقي . فاطرق ساعة ، ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، ومتصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شربه من كاس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم : **فبالله** . وإن نطق : فعن **الله** . وإن عمل : فبامر **الله** . وإن سكن : فمع **الله** . فهو لله ، وبالله ، ومع الله ، فبكى الشيوخ ، وقالوا : ما على هذا مزيد . جبرك **الله** يا تاج العارفين » .

إليه وإلا لا تُشدُّ الركائبُ
ومنه وإلا فالمؤمّلُ خائبُ

وفيه وإلا فالغرامُ مُضيَّعٌ
وعنه وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ

من علق نفسه بمعروف غير معروف **الله** فرجاؤه خائب ، ومن حدَّث نفسه بكفاية غير كفاية **الله** فحديثه كاذب ، لا يغيب عن علمه غائب ، ولا يعزب عن نظره عازب ، ﴿ وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

* كل يوم هو في شأن *

الله .. ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ ، يغفر ذنباً ، ويفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً، ويضع آخرين، ويحيي ميتاً ، ويميت حياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويجبر كسيراً ، ويغني فقيراً ، ويُعلم جاهلاً ، ويهدي ضالاً ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ، ويفك عانياً ويشبع جائعاً ، ويكسو عارياً ، ويشفي مريضاً ، ويعافي مبتلىً ، ويَقْبَل تائباً ، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً ، ويقصم جباراً ، ويقيل عثرةً ، ويستر عورةً ، ويُؤمِّن رَوْعَة .

الله .. الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد . خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأخرج المرعى ، فجلعه غثاء أحوى . السماء بناها، والجبال أرساها ، والأرض دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها . يبسط الرزق ، ويغدق العطاء ، ويرسل النعم .

رب السماوات والأرض ، ورب العرش العظيم . فالق الحب والنوى،

منزل التوراة والإنجيل والفرقان . هو الأول فليس قبله شيء ، وهو الآخر . فليس بعده شيء ، وهو الظاهر فليس فوقه شيء ، وهو الباطن فليس دونه شيء . ينفس الكرب ، ويفرج الهم ، ويذهب الغم، ويقضي الدين ، ويغني من الفقر .

حبيب الطائعين ، وملاذ الهاربين ، وملجأ الملتجئين ، وأمان الخائفين . يحب التوابين ويحب المتطهرين

* أحقُّ من ذُكرْ *

الله تبارك وتعالى .. أحق من ذُكر ، وأحق من عُبد ، وأحق من حُمد، وأولى من شُكر ، وانصر من أُبتغي ، وأرأف من ملك ، وأجود من سُئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قُصد ، وأعدل من انتقم، حلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ
كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا
فبفضله وهو الكريم الواسعُ

هو الملك لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، والغني فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ولا صاحبة له ، والعلي فلا شبيه له ولا سمي له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل مُلك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قالص إلا ظله ،

وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويُعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل ، أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ . اخذ بالنواصي وسجل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كرم ، وعذابه عدل : **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾** .

* ذو الفضل العظيم *

الله .. رب العالمين ، وأرحم الراحمين ، وأقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، الذي له الخلق والأمر ، وبيده النفع والضر ، الأول بالحق ، الموجود بالضرورة ، المعروف بالفطرة ، الذي أقرت به العقول ، ودلت عليه كل الموجودات ، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات ، وأقرت بها الفطر . المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون ، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون . الذي خلق السماوات والأرض وانزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات ، وبث به في الأرض جميع الحيوانات **﴿ أمَّنْ جعلَ الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾** .

الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويغيث الملهوف إذا ناداه . ويكشف السوء ويفرج الكربات ، ويقيل العثرات .

الذي يهدي خلقه في ظلمات البر والبحر ، ويرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته . فيحيي الأرض بوابل القطر .

الذي يبدأ الخلق ثم يعيده . ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده .

الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويدبر الأمر ، **﴿ الذي بيده ملكوتُ كل شيء وهو يجيرُ ولا يُجارُ عليه ﴾** ، **﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدرهُ تقديرا ﴾** .

المستعان به على كل نائبة وفادحة ، والمعهود منه كل بر وكرامة . الذي عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات ، وسبَّحت بحمده الأرض والسماوات ، وجميع الموجودات .

بارىء البريات ، وغافر الخطيات ، وعالم الخفيات ، المُطَّلع على الضمائر والنيات ، أحاط بكل شيء علما ، ووسع كل شيء رحمة وحلما ، وقهر كل مخلوق عزة وحُكما **﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾** ، لا تدركه الأبصار ، ولا تُغَيِّره الأعصار ، ولا تتوهمه الأفكار ، **﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾** .

الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه ، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره ، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته ، ولا يُدْرَك النجاح إلا بتوفيقه ، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه ، ولا يقع أمر إلا بإذنه ، ولا يهتدي ضال إلا بهدايته ، ولا يستقيم ذو أوَدٍ إلا بتقويمه ، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه ، ولا يُتَخلص من مكروه إلا برحمته ، ولا يُحْفظ شيء إلا بكلاءته ، ولا يُفتتح أمر إلا باسمه ، ولا يتم إلا بحمده ، ولا يُدْرَك مأمول إلا بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته ، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته ، ولا طابت الجنة إلا

بسماع خطابه ورؤيته الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فضلاً وبراً .

فهو الإله الحق ، والرب الحق ، والملك الحق ، والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه . المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه . لايبلغ المثنون - وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء - ثناء عليه ، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه .

* مقيل العثرات *

الله .. أجود الاجودين وأكرم الاكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل ويُنميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ، ويحب أن يُسأل ، ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، ولا يجيب الدعوات ، ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات ، ويسترالعورات ، ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الهبات سواه؟ .

الله .. أوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من قُصِد ، وأعز من التُجِيء إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من

الوالدة بولدها ، واشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها .

وهوالملك لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، لن يُطاع إلا بإذنه ، ولن يُعصى إلا بعلمه ، يُطاع فيشكر ، وبتوفيقه ونعمته أطيع ، ويُعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعدة ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ النواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلُّها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض والسماوات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات.

ما اعتاض باذل حُبِّه لسواه منْ
عِوَضٍ ، ولو مَلَكَ الوجود بأسره

* ما بال القرون الأولى؟ *

الله .. هو التواب الرحيم ، ذو الفضل العظيم ، الواسع العليم العزيز الحكيم ، ابتلى إبراهيم بكلمات ، وسمع نداء يونس في الظلمات، واستجاب لزكريا فوهبه على الكبر يحيى هادياً مهديا ، وحناناً من لدنه وكان تقيا ، أزال الكرب عن أيوب ، وألان الحديد لداود، وسخر الريح لسليمان ، وفلق البحر لموسى ، ورفع إليه عيسى ، وشق القمر لمحمد عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام ، ونجّا هوداً وأهلك قومه ، ونجّا صالحاً

من الظالمين ، فأصبح قومه في دارهم جاثمين ، وجعل النار برداً وسلاما على إبراهيم ، وفدا إسماعيل بذبح عظيم ، وجعل عيسى وأمه آية للعالمين ، ونجَّا لوطاً وأرسل على قومه حجارة من سجيل منضود ، ونجَّا شعيباً برحمته ، وأهلك أهل مدين **﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾** .

أغرق فرعون وقومه ، ونجَّاه ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، وخسف بقارون وداره الأرض ، **﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾** .

ونجَّا يوسف من غيابة الجب ، وجعله على خزائن الأرض ، ونصر نوحاً على القوم الكافرين ، ونجَّاه وأهله من الكرب العظيم .

أضحك وأبكى ، وأمات وأحيا ، وأسعد وأشقى ، وأوجد وأبلى ، ورفع وخفض ، وأعز وأذل ، وأعطى ومنع ، ورفع ووضع .

هدى نوحاً وأضل ابنه ، واختار إبراهيم وأبعد أباه ، وأنقذ لوطاً وأهلك امرأته ، ولعن فرعون وهدى زوجته ، واصطفى محمد ﷺ ومقت عمَّه ، وجعل من أنصار دعوته أبناء ألد خصومه كخالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، فسبحانه عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته.

الله .. أرغم أنوف الطغاة ، وخفض رؤوس الظلمة ، ومزَّق شمل الجبابرة ، ودمَّر سدَّ مارب بفارة ، وأهلك النمرود ببعوضه ، وهزم أبرهة بطير أبابيل ، ويبتلي الأسد الضاري بذباب يسقط على عينه ، فيظل

في قبضته أسيراً .

ويسلط الحيَّة الصغيرة على الفيل العظيم ، فيخر منجدلاً عقيراً .

عذب امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وغفر لامرأة بغيٍّ لأنها سقت كلباً كاد يموت من العطش .

* يعلم خائنة الأعين *

الله .. ظاهر بعز سلطانه ، متصرف في أكوانه ، ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا ﴾ .

فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء ، وهو العزيز الفعال لما يريد ، الذي لا يغلبه شيء ، ولا يقهر إرادته شيء ، وهو القدير الذي لا يعجزه شيء ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويحيي العظام وهي رميم ، ويعيد الخلق كما بداهم أول مرة وهو أهون عليه ، وهو الحكيم الذي لا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يترك شيئاً سدى ، ولا يفعل فعلاً أو يشرع شرعاً إلا لحِكَمٍ ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

سبحانه من سميع بصير ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء .

تقول عائشة – رضي **الله** عنها – : الحمد **لله** الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المُجادلة – خولةُ بنت ثعلبة – تشكو إلى رسول **الله** ﷺ وأنا في جانب البيت ، وإنه ليخفى علي بعض كلامها ، فأنزل **الله** :

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

الله .. أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، عالم الخفيات ، فاطر السماوات ، يدبر الأمر ، ويفصل الآيات ، تسبح له الأرضين ومن فيهن والسماوات ، قال تعالى : **﴿ وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾** .

رفع السماوات بغير عمد ، ولم يكن له كفوا أحد ، نصب الجبال ، ومد الأرض **﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ﴾** .

شق البحار ، وأجرى الأنهار ، وكور النهار على الليل ، والليل على النهار : **﴿ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾** .

يرسل الرعد ، ويرينا البرق ، وينشىء السحاب الثقال ، فسبحان الكبير المتعال .

* ذو العزة والجبروت *

الله .. لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لما أعطى ولامعطي لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه

ممن يشاء ، ويعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب ، قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .

العزة له ، والجبروت له ، والعظمة له ، والكبرياء له ، والسلطان له، والملك له ، والحكم له ، والقوة له ، والتسبيح له ، والتقديس له ، ما أعظم شأنه! ، وأفخر ملكه! ، وأعلى مكانه! ، وأقربه من خلقه! ، وألطفه بعباده! أشرقت لنوره السماوات والأرض ، وأنار بوجهه الظلمات ، وحُجب جلاله عن العيون ، ونفذت إليه أبصار القلوب ، وناجته ألسنة الصدور . لا تراه العيون ، ولا تخالطه الأوهام والظنون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يحيط بصفاته الواصفون . عالم بمثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار والأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل ، وأشرق عليه النهار .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

متفردٌ بالكِبْرِ   يَاء فليس يشبهه أحدْ
لو شاء أغلق بابه   عمّن عصاه ومن جحدْ
طوبى لعبدٍ صالحٍ   لجلال سيّده سجدْ

في الحديث : « خلق الله الملائكة أصنافاً ، وإن منهم لملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة ، وملائكة ركوعاً خشوعاً من يوم خلقهم إلى يوم القيامة ، وملائكة سجوداً منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، فإذا

كان يوم القيامة تجلى لهم تبارك وتعالى ، ونظروا إلى وجهه الكريم ، قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » .

وفي الحديث الآخر : « ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون ﴾ » .

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

روي عن وهب بن منبه – رحمه الله – أنه يقول : قال عزير :

« اللهم بكلمتك خلقت جميع خلقك فاتى على مشيئتك لم تات فيه مؤنة ، ولم تنصب فيه نصباً ، كان عرشك على الماء والظلمة على الهواء، والملائكة يحملون عرشك ، ويسبحون بحمدك ، والخلق مطيع لك خاضع من خوفك ، لا يُرى فيه نور إلا نورك ، ولا يسمع فيه صوت إلا صوتك ، ثم فتحت خزائن النور وطريق الظلمة ، وكان ليلاً ونهاراً يختلفان بأمرك ، ثم أمرت الماء فجمد في وسط الهواء فجعلت منه سبعاً سميتهن السماوات ، وملائكتك يسبحون بحمدك غير محتاج إلى ذلك ، ثم أمرت الماء فانفتق من التراب ، وأمرت التراب أن يتميز من الماء ، فكان كذلك فسميت جميع ذلك الأرضين ، وجميع الماء البحار ، ثم زرعت في أرضك كل نبات فيها بكلمة واحدة من تراب واحد ، يسقى بماء واحد ، فجاء على مشيئتك مختلفاً أكله ، ولونه وريحه ، وطعمه ، منه الحلو ، ومنه الحامض ، والمر ، والطيب ريحه، والمنتن ، والقبيح ، والحسن ، ثم خلقت الشمس سراجاً ، والقمر نوراً ، والنجوم ضياءً ، ثم خلقت من الماء دواب الماء وطير

السماء ، فخلقت منها أعمى بَصَّرْتَه ، ومنها أصمّ أُذُنٍ فسمَّعْته ، ومنها ميت أنفس أحييته ، خلقت ذلك كله بكلمة واحدة ، منه ما عيشه الماء ، ومنه ما لا صبر له على الماء ، خلقاً مختلفاً في الأجسام والألوان ، جنسته أجناساً ، وزوجته أزواجاً ، وخلقته أصنافاً ، وألهمته الذي له خلقته ، ثم خلقت من التراب والماء دواب الأرض وماشيتها وسباعها ، **﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾** ، ومنهم العظيم والصغير ، تبارك الله أحسن الخالقين» .

ووراء هاتيك الستور محجب
بالحسن . كل العز تحت لوائه
لو أبصرت عيناك بعض جماله
لبذلت منك الروح في إرضائه
ما طابت الدنيا بغير حديثه
كلا ، ولا الأخرى بدون لقائه
يا خاسراً ، هانت عليه نفسه
إذ باعها بالغبن من أعدائه
لو كنت تعلم قدْر ما قد بعتَه
لَفَسَخْتَ ذاك البيع قبل وفائه
أو كنت كُفواً للرشاد وللهدى
أبصرتَ . لكنْ لستَ من أكفائه

* مَنْ أعظمُ منه جوداً ؟ *

الله .. سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته وجوده . فاقتضى ذلك خَلْق من يشرك به ويضاده في حكمه ويجتهد في مخالفته ويسعى في مساخطه . بل يُشَبِّهه سبحانه وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ويعافيه ، ويمكن له من الأسباب ما يتلذذ به من أصناف النعم ، ويجيب دعاءه ، ويكشف عنه السوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته **فلله** كم في ذلك من حكمة وحمد . ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته . كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى يسمعه من **الله** يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم » ، وفي الصحيح عنه ﷺ فيما يروي عن ربه : « كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يُعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ **الله** ولداً . وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته . وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله ، ويؤهله لإرسال رسله ، ويأمرهم بان يلينوا له القول ويرفقوا به .

قال الفضيل بن عياض – رحمه **الله** – : ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله : « من أعظم مني جوداً . الخلائق لي عاصون وأنا

أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا . أجود بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء . من ذا الذي دعاني فلم ألبه . ومن ذا الذي سألني فلم أعطه . أنا الجواد ومني الجود . أنا الكريم ومني الكرم . ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني . ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني . فأين عني يهرب الخلق ، وأين عن بابي يتنحى العاصون » .

وفي أثر إلهي : «إني والإنس والجن في نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي» . وفي أثر حسن : «ابن آدم ما أنصفتني خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد . كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غنيّ عنك ، وكم تتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ . ولا يزال الملك الكريم يعرج إليّ منك بعمل قبيح» . وفي الحديث الصحيح : «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» .

فهو سبحانه لكمال محبته وكمال أسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها . فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه . ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله . ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته . ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان . فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها . . فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة والنعم السابقة . الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، وله في كل شيء حكمة باهرة .

* عفوٌّ كريم *

سبحانه ما أعظمه وأرحمه ، سبقت رحمتُه غضَبَه ، وسبق عفوُهُ عقوبته ، لا أحد أصبر على أذى منه جل وعلا ، تجرأ عليه اليهود فقالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ ، هذه المقولة الخبيثة ، والشبهة الماكرة ، يوردها القرآن الكريم ليرد عليها ، وليخلد لعن قائليها ومقتهم على ألسنة الناس إلى يوم القيامة . ثم انظر إلى بلاغة القرآن وإعجازه حيث يورد الشبهة مختصرة موجزة لفظاعتها وشناعتها وخستها ، ثم يطيل ويفصل في الرد عليها ، وهذا هو الأسلوب الأمثل ، والمنهج الأقوم . فإن بعض الناس إذا أراد أن يتكلم عن شبهة معينة أطال في بيانها وتفصيلها، ثم أوجز واختصر في الرد عليها ، والواجب عكس ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ..﴾ ، وقصدهم بقولهم ﴿مغلولة﴾ أي بخيلة .

وقد رد الله عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال : ﴿غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ ، وقد وقع لهم ذلك فأصبحوا أبخل الناس ، وأحسد الناس ، وأجبن الناس ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾ .

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ ، فهو واسع الفضل ، جزيل العطاء ، ما من شيءٍ إلا عنده خزائنه ، وما بخلقه من نعمةٍ إلا منه وحده لا شريك له . خلق لعباده كل ما يحتاجون إليه في ليلهم ونهارهم ، وحضرهم وسفرهم ، وفي جميع أحوالهم ، قال تعالى : ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، فهو أكرم الأكرمين ، لا تغيض نفقاته بمرِّ السنين، ولا يمل سؤال السائلين ، ولا يتبرّم بإلحاح الملحّين ، ولا تختلف عليه حوائج الطالبين .

قال ﷺ : « إن يمين الله ملأى لا يغيضُها نفقة – يعني لا ينقصها – سحَّاءُ الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يَغِضْ ما فيه يمينه »

وتجرأ النصارى عليه – جل وعلا – فقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وقالوا: إن المسيح ابن الله ، فمقت الله أصحاب هذه المقولة ، وأعلن كفرهم وضلالهم ، ورد زورهم وبهتانهم ، فقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهو عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

ومع كل هذه الجراة دعاهم – جل وعلا – إلي التوبة ، وأعلن لهم أنه غفور رحيم لو تابوا إليه قَبلَ توبتهم ، وغسل حَوْبتهم ، فقال تعالى بعد ذلك : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ .

ثم عقب على ذلك بردٍّ موجز وكلام معجز ولفتة رائعة بديعة أشار فيها إلى أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، وهذه كناية عن أمر آخر ، وهو أن الذي يأكل الطعام يحتاج إلى إخراجه وهذه صفاتٌ بشرية لا تليق بمقام الألوهية ، فقال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل

وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ ، وتأمل قوله تعالى : **﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾** .

ويقف الكفار في وجه نبيه ﷺ ويحاربون دعوته ، ويمكرون به ليقتلوه أو يُثْبتوه ، وينفقون أموالهم في الصد عن سبيله ، ويشركون مع **الله** غيره ، ويدعون سواه ، ومع كل ذلك يقول الحليم الغفور الشكور الصبور : **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾** .

فسبحانه من خلاق عظيم ، جواد كريم!! ؛ الكرم صفة من صفاته، والجود من أعظم سماته ، والعطاء من أجلّ هباته ، فمن أعظم منه جوداً؟! الخلائق له عاصون وهو لهم مراقب ، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه ، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ، يجود بالفضل على العاصي ، ويتفضل على المسيء . من ذا الذي دعاه فلم يستجب له ، أم من ذا الذي سأله فلم يعطه ، أم من ذا الذي أناخ ببابه فنحاه؟ فهو ذو الفضل ومنه الفضل ، وهو الجواد ومنه الجود ، وهو الكريم ومنه الكرم .

وإن كرم **الله** تعالى وجوده وعطاءه شمل كل الأمور المادية والمعنوية؛ المادية كأنواع الرزق التي أخرجها لعباده ، وصنوف الثمار وألوان النعم ، وكنوز الأرض، وإنزال الغيث، والإمداد بالأموال والبنين وغير ذلك من جود رب العالمين . والمعنوية كَسعَة المغفرة ، وغفران الذنوب وعظمة الأجور، وشرح الصدور ورفع المنزلة، وإعلاء الدرجة .

هاكَ نفسي ، وكلُّ أهواء نفسي
وجَوى غُلْتي ، وتبريحَ بُؤْسي

واصطراعَ الطُّموحِ ملءَ جناني
واضطرابي ما بيْنَ عَزْمٍ وبأسِ
هاكَ ذاتي ، وأنت باريءُ ذاتي
وصفاتي ، وأنتَ مُرْهِفُ حِسّي
بين جسمي وبين روحي جهادٌ
أزليُّ الجذور مُذْ كان جِنْسي
في كياني – يا ربّ – رُوحي يشكو
قلق السعي بين مَهْدي ورمْسي
أسْبغِ الرحمةَ الرّؤومَ عليه
وارْعَ عزْمي ، ولا تكِلْني لنفسي

* أإله مع الله *

الله .. أوضح دلالته للمتفكرين ، وأبدى شواهده للناظرين ، وبين آياته للعالمين ، وقطع أعذار المعاندين ، وأدحض حجج الجاحدين ، فاستنارت آيات الربوبية ، وسطعت دلائل الألوهية ، واضمحلت غمرات الشك ، وزالت ظلمات الريب .

﴿ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون * أمن

يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

* هو الأول والآخر *

« أولٌ ليس له مبدىء ، آخرٌ جلَّ عن منتهى ، ظاهرٌ بالدليل ، باطنٌ بالحجاب ، يُثْبته العقل ولا يُدركه الحس ، إنما يقع الأشكال في وصف من له الأشكال ، وإنما تُضرب الأمثال لمن له أمثال ، فأما من لم يزل ولا يزال فما للحسِّ معه مجال ، عَظَمتُه عَظُمَت عن نيل كفِّ الخيال .

كيف يقال له كيف والكيف في حقه محال؟ . أنَّى تتخايله الأوهام وهي صُنعه؟ . كيف تَحدُّه العقول وهي فعْلُه؟ . كيف تحويه الأماكن وهي وَضْعُه؟ . انقطع سير الفكر ، وقف سلوك الذهن . بطلت إشارة الوهم ، عجز لُطْف الوصف . عشيت عين العقل ، خرِس لسان الحس .

مرامٌ شَطَّ مرمى العقل فيه
فدون مداه بِيْدٌ لا تَبيدُ

من بيان عظمته : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ ، من أثر قَسْره : ﴿ تُسبح له السموات ﴾ ، توقيعُ أمْرِه : ﴿ يأمر بالعدل ﴾ ، واقع زجره : ﴿ ينهى عن الفحشاء ﴾ ، يُنادى على باب عزته : ﴿ لا يُسأل ﴾ ، يُصاح على محجة حُجَّته : ﴿ لمن الأرض ومن فيها ﴾ .

نظر بعين الاختيار إلى آدم فحظي بسجود ملائكته ، وإلى ابنه شيث

فأقامه في منزلته ، وإلى نوح فنجاه من الغرق بسفينته ، وإلى إبراهيم فكساه حُلَّةَ خُلَّته ، وإلى إسماعيل فاعان الخليل في بناء كعبته ، وافتداه بذبح عظيم من ضجعته ، وإلى لوط فنجاه وأهله من عشيرته ، وإلى شعيب فأعطاه الفصاحة في خطبته ، وإلى يعقوب فرد حبيبه مع حبيبته ، وإلى يوسف فأراه البرهان في هَمَّته ، وإلى موسى فخطر في ثوب مكالمته ، وإلى داود فالان الحديد له على حدته ، وإلى سليمان فسخر له الريح يتنقل بها في مملكته ، وإلى أيوب فيا طوبى لركضته ، وإلى يونس فسمع ندائه في ظُلْمته ، وإلى زكريا فقرن سؤاله ببشارته ، وإلى عيسى فكم أقام ميتاً من حفرته ، وإلى محمد ﷺ فخصه ليلة المعراج بالقرب من حضرته ، والوصول إلى سدرته .

وأعرض عن إبليس فَخَزِيَ بِبُعده ولعنته ، وعن قابيل فقلب قَلْبه إلى معصيته ، وعن نمرود فقال أنا أحيي الموتى ببلاهته ، وعن فرعون فادعى الربوبية على جرأته ، وعن قارون فخرج على قومه في زينته ، وعن أبي جهل فشقي مع سعادة أمه وابنه وابنته ، هكذا جرى تقديره ولا اعتراض على قسمته ، ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ . (ابن الجوزي - رحمه الله -) .

* إن ربي على صراط مستقيم *

الله .. على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، والذي تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان ، والفضل ، ووضع الثواب في موضعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان

والعطاء والمنع والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به ، حيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء .

وهو جل وعلا يحب لعباده أن يمضوا في سيرهم إليه على صراط مستقيم ، وأمرهم في كل ركعة يركعونها ، وفي كل صلاة يقيمونها أن يدعوه جل وعلا بالهداية لذلك الصراط المستقيم وطلب الثبات عليه : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الهداية للصراط المستقيم نعمة عظمى ، وعطية كبرى ، لا ينالها إلا الذين أنعم **الله** عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والتابعين لنهجهم ، والسائرين على منوالهم ، وحسن أولئك رفيقا .

خط رسول الله ﷺ خطاً ثم قال : « هذا سبيل **الله** » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال : « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » وقرأ : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

* اللطيف الخبير *

الله .. كان بعباده خبيراً بصيرا ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، وأنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .

هدى من الضلالة ، وأنقذ من الجهالة ، وأنار الأبصار ، وأحيا الضمائر والأفكار ، ﴿ **الله** ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الله .. ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ .

لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، غافر الذنب ، قابل التوب ، شديد العقاب ، قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

الله .. محسن يحب المحسنين ، شكور يحب الشاكرين ، جميل يحب الجمال ، طيب يحب كل طيب ، كريم يحب الكرم ، تواب يحب التائبين ، حيي ستير يحب أهل الحياء والستر ، يستحي من عبده إذا مد يديه إليه أن يردهما صفرا ، ويستحي أن يعذب ذا شيبة شاب في الإسلام . غفور عفو يحب العفو عن عباده ، ويغفر لهم على ما كان منهم إذا استغفروه ، تكثر الذنوب ، وتعظم العيوب ، وتقسو القلوب فيخشى الإنسان من الخسران ، ويخاف الحرمان ، فيناديه ﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ ، ينادي عبده نداء المتلطف ، ويدعوه دعاء المشفق عليه : « يا عبدي وعزتي وجلالي لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرت لك ولا أبالي » .

ومن تقرّب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أتاه يمشي أتاه هروله ، فالباب مفتوح ولكن من يلج؟! ، والمجال مفسوح ولكن من يُقبِل؟! ، والحبل ممدود ولكن من يتشبث به؟! ، والخير مبذول ولكن من يتعرض له؟! ، فأين الباحثون عن الأرباح ، وأين خطّاب الملاح ، أين عشاق العرائس ، وطلابُ النفائس؟! .

من أقبل إليه تلقاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ، ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد ، ومن أراد رضاه أراد ما يريد ، ومن تصرف بحوله وقوته الان له الحديد ؛ أهلُ ذكره أهل مجالسته ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو رحيم بهم ، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب . الحسنة عنده بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة عنده بواحدة ، فإن ندم عليها واستغفر غفرها له ، يشكر على اليسير من العمل ، ويغفر الكثير من الزلل .

* حبيب التائبين *

الله .. يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، بل يفرح بتوبة عبده إليه ، أعظم من فرحة إنسان كان بأرض فلاة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فانفلتت منه ، فايس منها ، فجلس إلى جذع شجرة ينتظر الموت ، فاخذته إغفاءة ثم افاق ، فإذا بها واقفة عند رأسه ، وعليها طعامه وشرابه ، فقام إليها ، وأمسك بزمامها ثم صاح من شدة الفرح : **اللهم** أنت عبدي وأنا ربك ، فسبحانه ما أعظمه وأرحمه ، يفرح بتوبة عبده ليفوز بجنانه ، ويحظى برضوانه ، وهو – جل وعلا – ينادي عباده المؤمنين بقوله : **﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾** .

فالتوبة غسلُ القلب بماء الدموع وحُرقة الندم ، فهي حرقةٌ في الفؤاد ، ولوعةٌ في النفس ، وانكسارٌ في الخاطر ، ودمعةٌ في العين . إنها مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح

استقامة المائلين . التائب يضرع ويتضرَّع ، ويهتف ويبكي ؛ إذا هدأ العباد لم يهدأ فؤاده ، وإن سكن الخلقُ لم يسكن خوفُه ، وإذا استراحت الخليقة لم يفتر حنين قلبه ، وقام بين يدي ربه بقلبه المحزون ، وفؤاده المغموم مُنَكَّس رأسُه ، ومقشعرٌ جلدُه ، إذا تذكر عظيم ذنوبه ، وكثير خطئه ، هاجت عليه أحزانه ، واشتعلت حرقات فؤاده ، وأسبل دمعه ؛ فأنفاسه متوهِّجة ، وزفراته بحرق فؤاده مُتصلة ، قد ضمّر نفسه للسباق غداً ، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على جسر جهنم .

قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا ﴾ .

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترين المنايا كيف تلقطنا
لقطاً وتلحق أخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه
نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أتركها
خلفي وأخرج من دنياي عريانا
أبعد خمسين قد قضَّيْتها لعباً
قد آن أن تقصري قد آن قد آنا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجرنا
وكأن زاجرنا بالحرص إغرانا

أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانت تخر له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا
مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلوا مدائن كان العز مفرشها
واستفرشوا حفراً غبراً وقيعانا
يا راكضاً في ميادين الهوى مرحاً
ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعب
يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

ومن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفاً تقطع قلبه في الآخرة إذا حُقّت الحقائق ، وظهرت الوثائق ، وحضرت الخلائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، **﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ﴾** .

يقول ﷺ : **« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة »** ، هذا الذي غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، ومُحي عنه ما سلف وما خلف من زلل ، يتوب في اليوم مائة مرة، فكيف بمن تجارته المعاصي ، وبضاعته السيئات ، ثم يتنكر للاستغفار ويتجافى عن التوبة .

فالتوبة هروب من المعصية إلى الطاعة ، ومن السيئة إلى الحسنة ، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن ، إنها فرار من الخالق إلى أعتابه

وهروب من الجبار إلى رحابه ، وعياذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، وبه منه لا يُحصى ثناءٌ عليه ، لا ملجا منه إلا إليه ، ولا مفرّ عنه إلى سواه ، ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

والتوبة ملاذ مكين ، وملجأ حصين . دنس المعاصي يغسل بماء التوبة ، ولوثة الخطايا تزال بزلال الاستغفار .

أسات ولم أحسن وجئتك تائباً
وانى لعبدٍ من مواليه مَهربُ
يؤمّل غفراناً فإن خاب ظنه
فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

انظر إلى فضله جل وعلا وجميل عفوه وبديع كرمه ، فهو العلي العظيم ، الغني الكريم ، الحميد المجيد ، الذي لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، ومع ذلك يفرح بتوبة عبده إليه وانطراحه بين يديه ، هذا المعنى الجميل تعجز العبارات العادية عن بيانه ، وتقصر الألفاظ المجرّدة عن إعلانه ، فيقدمه النبي ﷺ في ثوب من التمثيل قشيب ، ولون من التصوير عجيب ، فيقول : « لله اشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بارضٍ فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فاتى شجرة فاضطجع في ظلها – وقد أيس من راحلته – فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فاخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بان عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ، ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا
وجميل عفوك .. ثم أني مسلم

ففي القلب شعث ، لا يَلُمه إلا الإقبال على **الله** . وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه . وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه ، وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له . ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسدَّ تلك الفاقة منه أبداً .

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى ، والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود ، يا غاية المنى
فكل الذي فوق التراب تراب

* جميل يحب الجمال *

جميلٌ هذا الوجود ، وبديعٌ هذا الكون ، جماله لا ينفد ، وحسنه لا ينتهي ، وإبداعه فوق الخيال ، وإن المرء بقدر قربه من ربه ، وتعرفه على خالقه يترقى في إدراك هذا الجمال ، وتلمس هذا الإبداع ، وتملي ذلك الحسن .

إن القلب إذا استيقظ من همود العادة وملالة الألفة ، وسبات الرتابة ، فإنه يدرك شيئاً من هذا النعيم ، ويتذوق بعضاً من ذلك الجمال .

إن الجميل سبحانه يحرم من أعرض عن ذكره ، وتنكر لنوره ، وتمرد على هدايته ، يحرمه من تذوق ما أبدعه من جمال ، ويحجبه عن استلهام ما رسمه من حسن ، وقد يرى ظاهراً من ذلك الجمال ، ولكنه محروم من الجوهر ، بعيد من الروح ، عميت عيناه ، وطُمست بصيرته ، وأظلم قلبه ، ينظر إلى المشهد الجميل ولا ينظر لعظمة من خلقه ، ويرى المنظر البديع فلا يسجد لمن أوجده ، فهم في غفلة سادرة ، وظلام دامس ، وشرود مقيت : **﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾** .

إنهم يسيرون في الأرض ويدرجون على ظهرها ، ويصطدمون بحسنها ويُحاصرون بجمالها ، ويُحاطون بروعتها ، فلا يهزهم الجمال الأخاذ ، ولا يوقظهم الحسن الباهر ، لا قلب يعقل ، ولا أذن تسمع ، ولا عين تبصر ، ولا فؤاد يهتز ، ولا نفس تطرب ، ولا ضمير ينيب ، ولا مشاعر تستجيب ، **﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾** .

إن العين المفتوحة ، والحس المرهف ، والقلب البصير ، والوجدان الحي ترى وتدرك هذا الجمال في كل جزئية من جزئيات هذا الكون ، وإن التأمل في ذلك الجمال والدخول إلى أعماقه يعمر النفس بالانس ، ويحيي القلب بالمتعة ، ويكون المرء في سعادة غامرة وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل المتقن .

كم في هذا الكون من جمال ساحر ، ومنظر فاتن ، وحُسن باهر ، وأجمل من كل ذلك الجمال ، وأروع من جميع ذلك الحسن ، أن ينظر ذوو الألباب إلى جمال هذا الكون ، وروعة إبداعه ، وعظيم صنعه ، ودقة إحكامه ، وعميق انسجامه ، فيؤمنون بأن وراء هذا الجمال جمالاً أعظم ، وحُسناً أكبر ، ونوراً أكمل ، وبهاءً أتم ، وأن جمال هذا الوجود بأسره ما هو إلا قطرة من فيض جماله وومضة من بديع كماله .

إن رؤية الجمال على حقيقته لا تكون إلا حينما ينظر القلب بنور **الله**، فتتكشف له الأشياء عن جواهرها الجميلة ، وروائعها البديعة ، ويتذكر **الله** كلما وقعت عينه أو حسه على شيئ بديع ، أو منظر حسن ، فيحس بالصلة ويشعر بالترابط بين المبدع وما أبدع ، والجميل وما جمّل ، والمحسن وما أحسن ، ويرى من وراء هذا الجمال جمال **الله** وجلاله وكماله .

والله جل وعلا جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال ، وعنصرالجمال في هذا الكون مقصود قصداً ، جمال مقصود وكمال بلا حدود ، والقرآن الكريم يوقظ القلوب لتتبع مواضع الحسن ، وآيات الجمال في هذا الكون البديع : ﴿ فتبارك **الله** أحسن الخالقين ﴾ ، ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ .

وتأمل كلمة : ﴿ أفلم ينظروا ﴾ ، إنه استفهام استنكاري لأولئك الذين لهم أعين لا يبصرون بها ، وقلوب لا يفقهون بها ، ولا يرون ذلك الجمال الساحر ، والإبداع الأخاذ ، والحسن الجذّاب الذي يدل على رب الأرباب ، ولذلك يكثر في القرآن الكريم الأمر بالنظر لأخذ العبرة وللإحساس بالجمال .

قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء .. ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنّا صببنا الماء صبّا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنباً وقضبا * وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ .

فأين الأعين الناظرة ، والقلوب المبصرة ، والأذهان المتوقدة ، والفطر السليمة ، والمشاعر الحية ، والأحاسيس المرهفة؟!! يا الله ما أروع هذا الكون وما أجمل هذا الوجود ، إن المتأمل فيه يبهر بجماله ، وروعة نظامه ، وعظمة إحكامه ، كل شيء فيه جميل ليله ونهاره ، صبحه ومساؤه ، أرضه وسماؤه

بدره وشمسه ، حرّه وبرده ، غيمه وصحوه ، أخضره وأغبره ، جباله وتلاله ، سهوله ووديانه ، برّه وبحره . كل شيء جميل ، وكل شيء بديع ، وكل شيء متقن ، وكل شيء متناسق ، وكل شيء منتظم ، وكل شيء بقدر ، وكل شيء بإحكام ، من الذرة الصغيرة إلى الجرم الكبير ، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام .

ماذا نذكر؟ وماذا نجلّي؟ وعن أي شيء نتحدث من هذا العالم البديع والخلق الرفيع؟ انظر إلى الإنسان وروعة خلقه ، وتباين أجناسه ، وتعدد لغاته واختلاف نغماته ، فهو جل وعلى قد أحسن كل شيء خلقه ، ومن أحسن مخلوقاته وأجملها : الإنسان : **﴿وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾** ، **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك﴾** ، **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾** .

انظر إلى السماء وهيبتها ، والنجوم وفتنتها ، والشمس وحسنها ، والكواكب وروعتها ، والبدر وإشراقه ، والفضاء ورحابته ، تأمل في السماء في ليلة حالكة وقد انتشرت فيها الكواكب ، وبُثت فيها النجوم ، وتأمل السماء في ليلة مقمرة ، والبدر حالم ، والكون من حوله مهوّم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد . انظر إلى الأرض كيف دحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها . هذه البحار ، هذه الأنهار ، هذا الليل ، هذا الصبح ، هذا الضياء ، هذه الظلال ، هذه السحب ، هذا التناغم الساري في الوجود كله ، هذا التناسق ، هذه الزهرة ، هذه الوردة ، هذه الثمرة اليانعة ، هذا اللبن السائغ ، هذا الشهد المذاب ، هذه النخلة ، هذه النحلة ، هذه النملة ، هذه الدويبة الصغيرة المجهزة بالأرجل أو الشعيرات أو الملامسة والمرونة لتشق طريقها ، وتتعامل مع واقعها . هذه السمكة ، هذا

الطائر المغرد ، والبلبل الشادي ، هذه الزاحفة ، هذا الحيوان جمال لا ينفد ، وحسن لا ينتهي ، وقرة عين لا تنقطع : ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ .

تشرق الشمس فترسل أشعتها الذهبية وتبهج القلوب ، وتسبي الأفئدة بروعة إشراقها ، وبديع جمالها .

مخبأة ، أما إذا الليل جنها
فتخفى ، وأما بالنهار فتظهرُ
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى
دُجي الليل وانجاب الحجاب المستَّرُ
وألبس عرض الأرض لوناً كأنه
على الأفق الشرقي ثوب مُعَصْفر
تجلّت ، وفيها حين يبدو شعاعها
ولم يحل للعين البصيرة منظر
بلون ، كدرع الزعفران يشوبه
شعاع تلالا ، فهو أبيض أصفر
إلى أن علت وابْيَضَّ منها اصفرارها
وجالت كما جال المهيْجُ المسهَّر
وجللت الآفاق ضوءاً ينيرها
فخرَّ لها صدر الضحى يتسعَّر
ترى الطل يُطوى حين تعلو وتارة
تراه إذا مالت إلى الأرض يُنشر

وتدنف حتى ما يكاد شعاعها
يبين إذا غابت لمن يتبصر
كما بدأت ، إذ أشرقت ، في مغيبها
تعود كما عاد الكبير المعمَّر
فأفنت قروناً ، وهي في ذاك لم تزل
تموت وتحيا كل يوم وتُنْشَر

قال تعالى : **﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرانه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾** .

ثم تذهب الشمس لتغيب فتعجز الأقلام ، وتتضائل ريشة الرسام عن محاكاة الجمال ، وتقريب الصورة ، وترجمة الروعة .

كان الشمس إذ غربت غريق
هوى في البحر أو وافى مغاصا
فأتبعها الهلال على غروب
بزورقه ، يريد لها خلاصا

* * *

إني أرى شمس الاصيل عليلة
ترتاد من نحو المغارب مغربا
مالت لتحجب شخصها فكانها
مدت على الدنيا بساطاً مُذْهبا

* * *

وكأنما الشمس المنيرة إذ بدت
والبدر يجنح للغروب وما غربْ
متحاربان لذا مجنٌ صاغه
من فضة ، ولذا مجنٌ من ذهبْ

ويبزغ القمر المنير بنوره الأخاذ ، وضوءه الباهر ، فيتغنى به الشعراء ، ويتيه به الأدباء .

انظر إلى حُسن هلال بدا
يهتك من أنواره الحِندِسا
كَمِنْجل قد صيغ من فِضَّة
يحصد من دهر الدجى نرجسا

وليس أجمل لدى المحب من الخلوة بحبيبه في ضوء القمر ، ومناجاة أنيسه في معية البدر. ويرتفع البصر المتامل إلى السماء المزينة بالكواكب ، المجملة بالمصابيح ، فيرى العجب العجاب ، ثم يرجع البصر فلا يرى في هذا الخلق من تفاوت ، ولا يبصر في ذلك الإبداع من تناقض .

قال تعالى : ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ .

يقول صاحب الريشة الساحرة ، والظلال العاطرة : (ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جمالاً ياخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد الوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب .. بل إنه ليختلف من ساعة لساعة .

ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء! .

وهاتان النجمتان المفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان ! .

وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان ! .

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة .. ! .

وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .

إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات ! .

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة ، في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون . ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه) آهـ [الظلال] .

وتتلبد السماء بالسحب ، وتسود بالغيوم ، ثم يرعد الرعد ، ويبرق البرق ، فإذا المزن يجود بوابل صيب ، وماء طيب ، هنيئاً مريئاً ، زلالاً غدقاً ، عذباً فراتاً ، فتهتز الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ، وما أجمل السحاب حينما يجود بوابل هتّان .

مُستضحك بلوامع مستعبر
بدوامع لم تمرها الأقذاءُ
فله بلا حزن ولا بمسرة
ضحك يؤلفُ بينه وبكاءُ
ثقلت كُلاه وانهرت أصلابه
وتبعّجتْ من مائه الأحشاءُ

قال تعالى : ﴿هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ .

وانظر إلى وصف شاعر آخر وهو يتأمل جمال السحب ، وروعة المطر ، وبزوغ الشمس :

تبسمت الريح ريح الجنوب
فهاجت هوى غالباً وادكارا
وساقت سحاباً كمثل الجبال
إذا البرق أومض فيه أنارا
إذا الرعد جلجل في جانبيه
فروّى النبات وأروى الصحارى

تطالعنا الشمس من دونه
طلاع فتاة تخاف اشتهارا
تخاف الرقيب على سرها
وتحذر من زوجها أن يغارا
فتستر غُرتها بالخمار
طوراً وطوراً تزيل الخمارا
فلما مراها هبوب الجنوب
وانهمر الماء منه انهمارا
تبسمت الأرض لما بكت
عليها السماء دموعاً غزارا
فكان نواجذها الأقحوان
وكان الضواحك منها البهارا

ينظر المتأمل إلى الطبيعة الساحرة فتملك لبه ، وتهز إحساسه ، وتثير مشاعره ، أشجار ملتفة ، ثمار يانعة ، وورود عابقة ، زهور متفتحة ، أنهار جارية ، طيور مغردة ، وبلابل صادحة شلالات ساحرة ، وجبال شامخة ، وهاد واسعة ، وحدائق غنّاء ، ومروج خضراء .

يا صاحِبَيَّ تقصَّيا نظريكُما
تريا وجوه الارض كيف تصوَّرُ
تريا نهاراً مُشمساً قد شابه
زهر الرُّبا فكأنّما هو مُقمر
دنيا معاشٌ للورى حتى إذا
جُلي الربيع فإنّما هي منظرُ

أضحت تصوغ بطونها لظهورها
نوراً تكادُ له القلوب تنوّرُ
من كلّ زاهرةٍ ترقرقُ بالندى
فكأنّها عينٌ عليه تحدّرُ
تبدوا ويحجبها الجميم كأنها
عذراءُ تبدو تارةً وتخفّرُ
حتى غدت وَهَداتُها ونجادها
فئتين في خلع الربيع تبختّرُ
مُصفرَّةً مُحمرَّةً فكأنها
عُصَبٌ تَيَمنُ في الوغا وتمضّرُ
من فاقعٍ غضُّ النّبات كأنّهُ
درٌّ يُشَقّقُ قبل ثم يزعفرُ
أو ساطعٍ في حمرةٍ ، فكأنّ ما
يدنوا إليه من الهواء مُعصفرُ
صُنْعُ الذي لولا بدائع صُنعه
ما عاد أصفر ، بعد إذ هو أخضرُ

قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

وتأمل كلمة : ﴿ انظروا ﴾ فهي دعوة صريحة إلى التأمل وإمتاع النظر ، وإطلاق البصر ، ليتملّى روعة هذا الجمال الساحر ، فليس الأمر لمجرد التمتع

بهذه النعم في أكلها ، بل يجب أن يضاف إلى المتعة الحسية متعةً معنوية ، وهي تأمل الجمال والاستمتاع بالمنظر .

أسفر عن بهجته الروض الأغرّ
وابتسم الدوح لنا عن الزهرْ
أبدى لنا فصل الربيع منظراً
بمثله تفتن الباب البشرْ
وشْيّاً ولكن حاكه صانعه
لا لا بتذال اللبس لكن للنظرْ
عاينه طرف السماء فانثنى
عشقاً له يبكي بأجفان المطرْ
فالأرض في زيّ عروس فوقها
من أدمع القطر نثار من دررْ

ألست ترى وشي الربيع المنمنما
وما رصع الربعي فيه ونظّما
فقد حكت الأرض السماء بنورها
فلم أدر في التشبيه أيهما السما
فخضرتها كالجو في حسن لونه
وأنوارها تحكي لعينيك أنجما
فمن نرجس لما رأى حسن نقشه
تداخله عجْبٌ به فتبسما
وأبدى على الورد الجني تطاولاً
فأظهر غيظ الورد في خده دما

وزهر شقيق نازع الورد فضله
فزاد عليه الورد فضلاً وقدما
وظل لفرط الحزن يلطم خده
فأظهر فيه اللطم جمراً مضرَّما
ومن سوسن لما رأى الصبغ كله
على كل أنوار الرياض تقسما
تجلبب من زرق اليواقيت حُلَّةً
فأغرب في الملبوس منه وأحكما
وأنوار منثور تخلّف شكلها
فصار بها شكل الربيع متمُّما

* * *

ترنح عطف البان في الحلل الخضر
وغنى بألحان على عوده القَمْري
وراقت أزاهير الحدائق بالضحى
نواظر أحداق بنوُارها النضْر
وأشرق خد الورد يبدي نضاره
وأشرق جيد الغصن في لؤلؤ القطرِ

* * *

أما ترى قُضُبَ الأشجار قد لبست
أنوارها تتثنى بين جلاَّس
منظومة كسموط الدر لابسة
حسناً يبيح دم العنقود للحاسي

وغردت خطباء الطير ساجعة
على منابر من دُرٍّ ومن آس

قال تعالى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ انظر إلى كلمة : ﴿ بهيج ﴾ وما تضفيه على النفس ، وتزرعه في الوجدان ، وتبثه في الفؤاد من الإحساس بالجمال ، والاستمتاع بالطبيعة .

انظر إلى جمال الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، يطبق الليل بظلامه الدامس وسكونه الرهيب ، وسواده المهيب ، ثم ينبلج الصباح ، وتستأنف الحياة ، وتنتشر المخلوقات ، ويستعاد النشاط ، وتنبعث الهمم .

قال تعالى : ﴿ وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

الصبح ينشر فوق مسـ ـلك الليل كافور الضياء
والبرق يذهب ما تفضـ ـضه الغيوم من السماء

ومدّ علينا الليل ثوباً منمقاً
وأشعل فيه الفجرُ فَهْو يحرّق
وصَبَّحنا صبحٌ كأن ضياءه
تعلّم منا كيف يبهى ويُشرق

* * *

قد اغتدى والليل في جلبابه
كالحبشيّ فرّ من أصحابه
والصبحُ قد كشّف عن أنيابه
كأنما يضحكُ من ذهابه

إلى أن رأيت النجم وهو مغرّبْ
وأقبل رايات الصباح من الشرق
كأن سواد الليل والصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الزُّرق

وهذا أحد الشعراء وقد تأمل الشمس والهلال والثريا فقال :

شمس هوتْ وهلال الشهر يتبعها
كأنها سافر قدّام مُنتقب
تبدوا الثريا وأمر الليل مجتمع
كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وقال الآخر عن الثريا :

تبدوا الثريا كفاغرٍ شرهٍ
يفتح فاه لأكل عنقود

ويقف العاشق أمام الوجه الجميل ، والعيون الساحرة

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له
وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويتأمل الشّعر المسدول :

غدائره مستشزرات إلى العلى
تَضِلُّ العِقاص في مثنىً ومرسل

يا نضرة ساقت إلى ناظرٍ
أسباب ما يدعو إلى حتفه
من وجه ظبيٍ حسنٍ دلُّهُ
يقصّرُ الواصف عن وصفه
في البدر من صفحته لمحةٌ
ولمحةٌ في الظبي من طرفه
مواقع الانفس في ثغره
وفي ثناياه وفي كفُه

ويذوب القلب ، وترقص المشاعر على نغمات الصوت الخلاب .

وكان حلو حديثها   قطع الرياض كُسين زهرا
وكان تحت لسانها   هاروت ينفث فيه سحرا

* * *

يا قوم أُذني لبعض الحي عاشقةٌ
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
فأسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً
يزيد صبّاً محبّاً فيك أشجانا

ويبهر المرء بالجبين الوضاء ، والقوام المعتدل ، فيفتتن به ، ويتيه بجماله .

بيضاء تسحب من قيامٍ شعرها
وتغيب فيهِ وهو جَثْلٌ أسحمُ

فكأنها فيه نهارٌ ساطع
وكأنه ليلٌ عليها مظلمُ

* * *

وجه يدل الناظرين علـ   ـيه في الليل البهيم
في خدّه ورد الجما   ل يُعلّ من ماء النعيم

* * *

كأن ثيابه أطلعن   من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حُسناً   إذا ما زدته نظرا

ومن ليس له دين يردعه ، أو إيمان يمنعه ، أو حياء يرفعه ، ربما وصل به الأمر إلى العبودية الكاملة ، لذلك الجمال الساحر ، والخلق العجيب

كون جميل ، ومخلوقات بديعة ، وحسن خلاّب ، انظر إلى الطيور المغردة ، والبلابل الشادية ، انظر إلى حسن تغريدها ، وجميل تطريبها ، وانظر إلى حسن منظرها في جو السماء ، فأنت مدعو إلى إمتاع الرؤية وإبهاج القلب بإطلاق البصر والبصيرة في هذا الجمال : **﴿ أفلم ينظروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾** .

انظر إلى الأنعام الجملية ، والحيوانات العجيبة . تنوع أشكالها ، تعدد ألوانها ، كثرة أنواعها ، اختلاف طباعها ، خلقها الله جل وعلا لينتفع بها الناس ما بين أكل منها ، أو ركوب عليها ، أو استفادة من لحومها وشحومها وأصوافها وأشعارها وأوبارها ، وما إلى ذلك ، وليس هذا هو القصد فقط ، بل أوجدها لتلبي متعة الجمال عند الإنسان ، فالإنسان لا يجدر به أن تكون

نظرته حسية فقط أو لمجرد تلبية حاجات الطعام والشراب والركوب ، بل يجب أن يجمع إلى ذلك متعة النظر ، وخاصية الجمال ، والإحساس بالحسن والارتقاء بالشعور ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

وكما ذكرنا سالفاً فإن القرآن يلفت النظر دائماً إلى هذه المسألة الهامة في التعامل مع الكون ، وهي مسألة إجالة النظر ، والتنبيه على الرؤية ، وإثارة شعور الإحساس بالجمال .

هذا هو البحر بجماله وجلاله وعظيم عجائبه وكثرة غرائبه ، مخلوقات عجيبة الشكل ، جميلة المنظر ، متقنة الإبداع ، رائعة الاشكال ، ساحرة الألوان ، حلية ثمينة ، ودرر غالية ، لؤلؤ جذاب ، وسفن وبواخر تمخر العباب .

قال تعالى : ﴿وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ .

وانظر إلى كلمة : ﴿ وترى﴾ فهي تدعوا إلى إطلاق البصر من قيود النظر الحسية المادية إلى تملّي آفاق الجمال ، والسياحة في مراتع الحسن .

إن على هذا المخلوق الجميل الذي يحب الجمال ، وينفعل بالجمال ، ويعش الجمال ، ويتوق للجمال أن يتعرف على الخالق الجميل ، والإله العظيم ، والبر الرحيم ، فيسجد لجلاله ، ويؤمن بجماله ، ويدين لكماله ،

ومن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال ، وهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته . وأتمُّهم معرفةً مَنْ عَرَفَه بكماله وجلاله وجماله ، والله تعالى ليس كمثله شيء في سائر صفاته ، ولو فَرَضْتَ الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه . ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة من آثار صنعته ، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال .

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله ، ولنور وجهه أشرقت الظلمات.

وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السماوات والأرض من نور وجهه ، فهو سبحانه نور السماوات والأرض ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره .

ومن أسماء الله الحسنى « الجميل » . وفي الصحيح عنه ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » .

وجماله سبحانه على مراتب : جمال الذات ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، وجمال المخلوقات ، وجمال الأسماء . فأسماؤه كلها حسنى . وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة ، ومخلوقاته غاية في الجمال ، آية في الحسن ، وأما جمال الذات وما هو عليه ، فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره ، وليس عند المخلوقين منه إلا

تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده .

والله سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده ، وأن يكون منظره جميلاً ، وملبسه جميلاً ، ومأكله جميلاً ، ومشربه جميلاً ، ومركبه جميلاً ومسكنه جميلاً ، في غير ما كبر ولا إسراف ولا مخيلة ، فإن ذلك من الجمال الذي يحبه ، وذلك من شكره على نعمه ، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة ، والجمال الباطن بالشكر عليها . ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينة تجمل ظواهرهم ، وتقوى تجمل بواطنهم ، فقال : ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ .

وقال في أهل الجنة : ﴿ولقّاهم نضرةً وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾ ، فجمل وجوههم بالنضرة ، وبواطنهم بالسرور ، وأبدانهم بالحرير وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة ، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة ، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله .

* شمس التوحيد *

الله .. سبحانه إله واحد ليس له شريك ، وليس له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله . كل ما في الكون من إبداع ونظام وتوافق وانسجام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد ، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من مدبر وأكثر من منظم لاختل نظامه ، واضطربت سننه ، ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ .

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا **الله** ،وأن **الله** رب كل شيء ومليكه . كما كان عُبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون بل التوحيد يتضمن – من محبة **الله** ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع والعطاء ، والحب والبغض – : ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي ، والإصرار عليها .

هو تعالى واحد في ربوبيته ، فهو ربُّ السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن ، خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدّعي أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض ﴿ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ .

وهو تعالى واحد في ألوهيته فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه . لا خشية إلا منه ، ولا ذل إلا إليه ، ولا طمع إلا في رحمته ، ولا اعتماد إلا عليه ، ولا انقياد إلا لحكمه . والبشر جميعاً – سواء كانوا أنبياء وصديقين أم ملوكاً وسلاطين – عباد **الله** ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فمن ألّه واحداً منهم ، أو خشع له وحنى رأسه ، فقد جاوز به قدره ، ونزل بقدر نفسه .

قال ابن القيم – رحمه **الله** – : «إذا طلعت شمس التوحيد ، وباشرت جوانبها الأرواح ، ونورُها البصائر تجلت بها ظلمات النفس والطبع . وتحركت بها الأرواح في طلب من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فسافر القلبُ في بيداء الأمر ونزل منازل العبودية منزلاً منزلاً . فهو ينتقل من

عبادة إلى عبادة ، مُقيم على معبود واحد . فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه ، توقظه إذا رقد ، وتذكره إذا غفَل ، وتحدو به إذا سار ، وتقيمه إذا قعد ، إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله . ليس لأحد معه من الأمر شيء ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها . وما يُمْسك فلا مُرسل لهُ من بعده وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ .

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية : رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي ، والنبوات ، والكتب والشرائع ، والمحبة والرضى ، والكراهة والبغض ، والثواب والعقاب . وشاهَدَ الأمر نازلاً ممن هو مستوٍ على عرشه ، وأعمالُ العباد صاعدة إليه ، ومعروضة عليه . يَجزي بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى نَضْرة وسروراً ، ويقْدم إلى ما لم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثوراً .

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة : رأى الوجود كله قائماً بهذه الصفة . قد وَسِع منْ هي صفته كُلَّ شيء رحمة وعلماً . وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه . فاستوى على عرشه برحمته . لتسع كل شيء . كما وسع عرشه كل شيء » .

من أشرك مع الله غيره فما عظّم الله ، ومن دعى غيره فما عظمه ، ومن لجا إلى سواه فقد جار وظلم ، ومن طاف بضريح أو دعا نبياً أو رجا ولياً فقد خرج عن الدين ، وكفر بالملة ، وتعدّى على الواحد الأحد .

قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

وقال ﷺ : « من عمل عملاً أشرك مع الله فيه غيره تركه الله وشركه » ، فهو تعالى أغنى الشركاء عن الشرك .

وقال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله – عز وجل – فليطلب ثوابه عن عند غير الله – عز وجل – فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شيء يؤثر فيها . ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية . فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ، وإلا استحكم صار طبعاً يتعسر عليه قلعه .

* إحذر الرياء *

وإذا أردت أن تعرف خطورة الأمر ، وفداحة الخطب في عدم إخلاص العمل لله ، فتأمل هذا الحديث الذي ترتعد له الفرائص ، ويرجف له القلب ويهتز به الفؤاد :

عن عقبة بن مسلم أن شُفَيًّا الأصبحيّ حدثه : « أنه دخل المدينة فإذا

هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : مِن هذا ؟ قالوا : أبو هريرة، قال : فدنوت منه ، حتى قعدت بين يديه ؛ وهو يُحدث الناس ، فلما سكت وخلا قُلت له : أسالك بحقٍ وبحقٍ ، لمَّا حدثْتني حديثاً سمعته من رسول **الله** ﷺ وعقلْتَه وعَلمْتَه ، فقال أبو هريرة : أفعــل ، لاحدثنُك حديثاً حدُثنيه رســول **اَللــه** ﷺ عَقلْتُه وعلمتُه ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغة – أي أغمي عليه إغماءة من هول الموقف – فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال: لأُحدثنُك حديثاً حدثنيه رسول **الله** ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، فقال : افعل ، لأُحدثنًك حديثاً حدثنيه رسول **الله** ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشَغَ أبو هريرة نشغةً شديدةً ، ثم مال خاراً على وجهه ، فأسندتُه طويلاً ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول **الله** ﷺ :

«إن **الله** تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامة يَنزلُ إلى العباد ليقضي بينهم – وكلٌ أمة جاثية – فأول من يُدعى به رجل جمع القرآن ، ورجلٌ قُتل في سبيل **الله** ، ورجل كثيرُ المال ، فيقول **الله** عز وجل للقارىء : ألم أعلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يا ربٌ ، قال : فما عَملتَ فيما علمت ؟ قال : كنتُ أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول **اللهَ** عز وجل له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول **الله** تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال : فلان قارىء وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال ، فيقول **الله** عز وجل : ألم اوسِّع عليك حتى لم ادعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا ربٌ ؛ قال : فماذا عملت فيما آتيتُك؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدّق . فيقول **الله** له : كذبت ، وتقول

الملائكة كذبتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال فلان : جواد ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قُتلت؟ فيقول : أي ربِّ ! أَمَرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلتُ ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبتَ ، ويقول الله : بل أردت أن يقال: فلان جريء ، فقد قيل ذلك » . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلقِ الله تُسعَّرُ بهم النارُ يومَ القيامة » .

وقد بكى معاوية حينما سمع هذا الحديث حتى غشي عليه ، فلما أفاق ، قال صدق الله ورسوله ، قال الله عز وجل : ﴿ **من كان يريد ثواب الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ .

فإذا كان هذا المصير المرعب ، والمآل المفزع لمن عمل عملاً صالحاً ، ولكنه أشرك مع الله غيره ، ورجى معه سواه ، فكيف بمن ينشىء العمل من أساسه لغير الله تعالى .

* كلمة التقوى *

إن الشرك بالله تنكُّرٌ لجلاله ، وكفران بحقّه ، واستهانة بعظمته ، وتعدٍّ على سلطانه ، ولقد أرسل الله رسله ، وأنزل كتبه للدعوة إلى توحيده – جل وعلا – ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثّل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة « التوحيد » ، وكلمة « الإخلاص » ، وكلمة « التقوى » ، وهي : « لا إله إلا الله » .

كانت « لا إله إلا الله » إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية .

وكانت « لا إله إلا الله » نداء عالمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وغيرها إلى عبادة **الله** وحده .

وكانت « لا إله إلا الله » عنوان منهج جديد ، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف ، إنه منهج **الله** الذي لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ، ولا تخضع إلا لسلطانه .

وكانت « لا إله إلا الله » إيذاناً بمولد مجتمع جديد ، يغاير مجتمعات الجاهلية ، مجتمع متميِّز بعقيدته ، متميِّز بنظامه ، لا عنصرية فيه ولا إقليميةولا طبقية ، لأنه ينتمي إلى **الله** وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات ، وفطر **الله** عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق **الله** على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والأموال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى **الله** من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الإسلام : ومفتاح دار السلام ، وبها

انقسم الناس إلى شقي وسعيد ، ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة و « من كان آخر كلامه لا إله إلا **الله** دخل الجنة » .

وروح هذه الكلمة وسرها : إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يُحَب غيره فإنما يُحَب تبعاً لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يُطاع إلا أمره ، ولا يُتحسب إلا به ، ولا يُستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه .

لا إله إلا **الله** .. توحيداً يباين عقائد المشركين .
لا إله إلا **الله** .. تنزيهاً يناقض دعاوى المبطلين .
لا إله إلا **الله** .. إقراراً بما أنكرته عقول الجاحدين .
لا إله إلا **الله** .. يقيناً لا يشوبه تردد الشاكّين .
لا إله إلا **الله** .. الملك الحق المبين .
لا إله إلا **الله** .. إسلام من قال له ربه : أسلم قال أسلمت لرب العالمين .
لا إله إلا **الله** .. شهادة نرجو بها مجاورة الرب الكريم ، في جنات النعيم ، مع الذين أنعم **الله** عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

قال موسى – عليه السلام – : « يا رب علمني دعاءً أدعوك به وأناجيك » ، قال : « يا موسى قل : لا إله إلا الله » ، قال موسى : « كل الناس يقولون لا إله إلا الله » ، قال : « يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله » .

لا إله إلا الله .. لها أنوار ساطعة ، وأشعة كاشفة ، وهي تُبدِّد من ضباب الذنوب وغيومها بقدرة قوة ذلك الشعاع وضعفه . فلها نور . وتفاوت أهلها في ذلك النور – قوة وضعفاً – لا يحصيه إلا الله تعالى .

فمن الناس : من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس ، ومنهم : من نورها في قلبه كالكوكب الدري ، ومنهم : من نورها في قلبه كالمشعل العظيم ، وآخر : كالسراج المضيء . وآخر : كالسراج الضعيف .

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته .

لقد أُلزم المسلمون بإعلان هذه الكلمة ورفع الصوت بها والنداء بها ما لا يقل عن خمس وعشرين مرّة في اليوم والليلة من خلال الأذان والإقامة ، تقرع بها الأسماع ، وتُحيى بها الضمائر ، وتُزكى بها الأفئدة .

يقول عنها ﷺ : « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

ويقول ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر

رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

سئل أحد العلماء : لماذا كان أفضل الدعاء يوم عرفة : لا إله إلا الله مع أنها ثناء وليست بدعاء ، فقال له أحد أما سمعت قول الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضه الثناء
خليل لا يغيره صباح
عن الخلق الجميل ولا مساء

هذا في حق المخلوق فكيف بالخالق جل وعلا .

* كلمة التقوى في القرآن *

لهذه الكلمة المشرّفة « لا إله إلا الله » كلمة السعادة والنجاة والفوز العظيم والتوحيد الخالص ، أسماء عديدة في القرآن الكريم ، منها :

١ - **كلمة الإخلاص** : قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ ، أي العبادة .

ولا يتم الإخلاص لله تعالى في العبادة إلا بتوحيده وإفراده بالألوهية والربوبية ، ونفي الشريك والمماثل له تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو

السميع البصير ﴾ ، وقد سميت سورة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في القرآن سورة الإخلاص لورودها كلها في التوحيد الخالص .

٢ - **كلمة الإحسان** : أحسن بها العبد إلى نفسه بتوحيد الله تعالى ، قولاً باللسان ، واعتقاداً بالجنان ، وعملاً بالأركان ، فأحسن الله تعالى إليه بالجزاء الاوفى والمثوبة العظمى ، قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ، ولا إحسان أعظم من جزائه تعالى عليه ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، والحسنى جنة الخلد في النعيم المقيم والزيادة النظر في الجنة إلى وجه الله الكريم .

٣ - **كلمة العدل** : قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما : العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، والإحسان: الإخلاص فيها حتى لا تشوبها شوائب . وقيل : العدل مع الناس والإحسان مع نفسك بالطاعة والانقياد إلى الله تعالى .

٤ - **الطيب من القول** : قال تعالى : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ ، ولا قول أطيب وأطهر وأزكى من قول : لا إله إلا الله ، هداهم الله إليه فهداهم إلى الإسلام ، وهو صراط الله الحميد ، والصراط المستقيم .

٥ - **الكلمة الطيبة** : أي المقبولة عند الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ ، أي كلمة التوحيد كشجرة طيبة الثمار كثيرة المنافع ، تؤتي أكلها كل حين

بإذن ربها . قيل : هي النخلة .

٦ - **الكلمة الثابتة** : وصفت بالثبات لأن أول من شهد بها هو الله تعالى قال سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ ، وهو القول الحق المحكم الذي يثبت الله به المؤمنين في الحياتين ، كما قال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ ، وأول منازل الآخرة القبور عند الموت .

٧ - **كلمة التقوى** : اتقى بها أهلها أن يصفوه تعالى بما وصفه به المشركون ، فوقوا أنفسهم سوء العذاب ، قال تعالى : ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ ، فهم أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهي مفتاح محبة الله ومفتاح الجنة ، وهم أهل التقوى وأهل المغفرة .

٨ - **الكلمة الباقية** : التي لا تزول ولا تحول ، قال تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ ، أي في عقب إبراهيم الخليل – عليه السلام – الذي قال لأبيه وقومه : ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ ، ولذلك قال المفسرون : إنها كلمة التوحيد .

٩ - **كلمة الله العليا** : المستعلية على كل شيء لأحقيتها وعظمتها ، قال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ ، بها استعلى هذا الدين الحنيف على سائر الأزمان ، كما قال تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ، لأنه هو الدين الحق ولو كره المشركون .

١٠ - **المثل الأعلى** : قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ولله المثل الأعلى﴾ ، هو قول : لا إله إلا الله ، والمثل الصفة ، قال تعالى : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها .

١١ - **كلمة السواء** : قال تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ ، قال أبو العالية : كلمة السواء هي كلمة التوحيد ، وسميت كلمة السواء لأنها الصراط المستقيم المستوي على طرفي الإفراط والتفريط .

١٢ - **كلمة النجاة** : حيث لا نجاة من عذاب الله إلا بها ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ، ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ، وعن جابر - رضي الله عنه - سئل رسول الله ﷺ عن الوجبتين فقال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » .

١٣ - **دعوة الحق** : قال تعالى : ﴿له دعوة الحق﴾ ، أي لله تعالى الدعوة الملابسة للحق الثابت ، وهي كلمة التوحيد كما رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر : هي لا إله إلا الله . أهـ ، ومعنى كونها له تعالى أنه شرعها وأمر بها ، وجعل افتتاح الإسلام بها بحيث لا يقبل بدونها ، وأما دعوة الكافرين فهي باطل من القول وضلال مبين ، كما قال تعالى : ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ .

١٤ - **العهد** : قال تعالى : ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ ، قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله بدليل قوله تعالى : ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ ، وعهده تعالى هو الإيمان الذي أمر به بقوله : ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ ، وهو أول العهود ، لقوله تعالى : ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ .

١٥ - **كلمة الاستقامة** : قال تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا﴾ ، قال ابن مسعود : ثم استقاموا أي : قالوا لا إله إلا الله ، فنفوا الشركاء والاضداد.

١٦ - **مقاليد السماوات والأرض** : قال تعالى : ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ ، أي مفاتيحها ، قال ابن عباس : هي قول لا إله إلا الله ، إذ الوحدانية سبب لعمارة العالم ، كما أن الشركة سبب لخرابه ، قال تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ .

١٧ - **القول السديد** : الذي يسد عن صاحبه أبواب جهنم يوم القيامة ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

١٨ - **البر** : قال تعالى : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ ، فالبر إشارة إلى الإيمان والتوحيد .

١٩ - **الدين الخالص** : قال تعالى : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ، أي لله تعالى العبادة الخالصة له والخضوع والانقياد له لا لغيره ، وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في ألوهيته لا شريك له .

٢٠ - **الصراط المستقيم** : قال تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ، ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به﴾ ، ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ ، وهو قول لا إله إلا الله ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ .

٢١ - **كلمة الحق** : قال تعالى : ﴿إلا من شهد بالحق﴾ ، وهو قول : لا إله إلا الله .

٢٢ - **العروة الوثقى** : قال تعالى : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ ، وهي كلمة التوحيد .

٢٣ - **كلمة الصدق** : قال تعالى : ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ ، وهو قول لا إله إلا الله .

* الله أكبر *

الله أكبر .. **الله** أكبر .. **الله** أكبر .. ننادي للصلاة بإعلان العظمة **الله** أكبر ، ونفتتح الصلاة بإعلان العظمة : **الله** أكبر ، تكبيرة الإحرام فهي إشارة إلى أن هذا الذين وجهنا له وجوهنا وحنينا له ظهورنا ومرغنا له جباهنا هو الكبير المتعال ، إذا ترنمنا بقوله : **الله** أكبر ، فهو إعلان بالانخلاع من الدنيا وشهواتها ، والحياة وملذاتها ، والنفس وشهواتها ، ونتوجه إلى **الله** عز وجل ، فهو أكبر من كل شيء ، وأعز من كل شيء ، وأجلّ من كل شيء ﴿ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ ، ونركع ونسجد بإعلان العظمة :

الله أكبر ، ونبتدأ دعاء السفر بقولنا : **الله** اكبر .. **الله** اكبر .. **الله** أكبر ثلاث مرات ، وهي إشارة للمسافر ان اعتماده يجب ان يكون على **الله** ، وثقته **بالله** ، واعتصامه **بالله** ، وخوفه من **الله** ، فإن كان متجهاً في سفره إلى عظيم **فالله** أكبر وأعظم ، وإن كان خائفاً من بطش عدو أو كيد كائد **فالله** أكبر وأجل ، وإن كان مشغولاً بتجارته وأمواله **فالله** أكبر وأجل . ونصعد شرفاً فنترنم بالعظمة : **الله** أكبر ، ونبدأ الجهاد فنعلن العظمة : **الله** أكبر ، ويعجبنا الأمر فنصدح بالعظمة : **الله** أكبر ، ويهل هلال العيد فنشدو بالعظمة : **الله** أكبر كبيرا ، ونفتتح صلاة العيدين بسبع تكبيرات في الركعة الأولى ، وخمس تكبيرات في الثانية **﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾** ، ونؤدي النسك فنلهج بالعظمة : **الله** أكبر ، **الله** أكبر **﴿ولتكبروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين﴾** ، ونصعد الصفا والمروة فلا نجد أعظم ولا أجل من قول: **الله** أكبر ، **الله** أكبر ، ونرمي الجمار فتضج الأصوات بالعظمة : **الله** أكبر .

رضينا بك **اللهم** رباً وخالقاً
وبالمصطفى المختار نوراً وهاديا

لو أن أشجار الأرض جميعاً جُعلت أقلاماً ، وجُعل البحر مداداً ، وأمده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات **الله** الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ، ونفذ ماء البحر ولو جاء أمثالها مددا **﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾** .

* هل تعلم له سميا؟ *

الله .. أعرف المعارف ، وعلم الأعلام ، الله .. قيل هو : الاسم الأعظم ، فهو رأس الأسماء ، وهو علم على ذات الحق ، وهو الجامع لصفات الجمال والجلال والكمال كلها.

وهو الاسم الذي تفرد به الحق سبحانه وخص به نفسه ، ولم يتسمَّ به غيره ﴿هل تعلم له سميا﴾ ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم أكثر من ألف وسبعمائة مرة . يقرأه القارئون ، ويترنم به المرتلون ، ويسعد به المؤمنون هو التعريف الذي عرف الله جل وعلا به نفسه إلى موسى : ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ، من هو الله؟!!

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ .

الله يا أعذب الألفاظ في لغتي
ويا أجل حروفٍ في معانيها
الله يا أمتع الأسماء كم سَعدتْ
نفسي وفاض سروري حين أرويها

من حافظ على الصلوات الخمس ، وأدى السنن الرواتب ، وأتى

بالأذكار المشروعة في اليوم والليلة فقط فإن هذا الاسم (**الله**) يتردد على لسانه في اليوم والليلة زهاء ألفي مرة ، ولو كانت كلمة أخرى تتردد عشرات المرّات في اليوم والليلة لشعر المرء بها ، وأدرك تكرارها إلا هذه الكلمة الرائقة فقد سكنت الإحساس وامتزجت بالأنفاس وخضعت لعظمتها الجِنَّة والناس.

فسبحانه من حكيم عليم ، عظيم كريم ، سميع بصير ، لطيف خبير ، عليٌّ قدير ، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ .

قال ﷺ : « إن **الله** عز وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

* سبحانه *

﴿ **تسبح له السموات والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا** ﴾ .

سبحان **الله** عدد خلقه ، سبحان **الله** رضا نفسه ، سبحان **الله** زنة عرشه ، سبحان **الله** مداد كلماته .

سبحان الله ما تعاقبت الليالي والأيام ، والحمد لله عدد الشهور والأعوام ، ولا إله إلا الله الذي لا تتصور عظمته الأوهام .

والله أكبر ذو الجلال والإكرام ، والعزة التي لا ترام ، مُدَهّر الدهر ، مُدبّر الأمر ، ومُقدّر اليوم ، والليلة ، والسنة ، والنهار .

« من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

بدأت سبع سور في القرآن الكريم بتسبيح الله تعالى وتقديسه وتنزيهه ، وهي : الإسراء – الحديد – الحشر – الصف – الجمعة – التغابن – الأعلى :

قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ .

وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى في سورة الصف : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى في سورة الجمعة : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى في سور التغابن : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴾ .

وقال تعالى في سورة الأعلى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

سبحانه سبحانه ، ما أعظم شانه .
سبحانه سبحانه ، ما أدوم سلطانه .
سبحانه ، ما أوضح برهانه .
سبحانه ، ما أقدم سلطانه .
سبحانه ، ما أوسع غفرانه .

« لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس » .

سبحت له السموات وأملاكها ، والنجوم وأفلاكها ، والأرض وسكانها والبحور وحيتانها ، والسادات وعبيدها ، والأمطار ورعودها والملوك ومماليكها ، والأشجار وثمارها ، والديار وأطلالها ، والأُسود وأشبالها .

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴾ .

التسبيح تنزيه وتمجيد واستحضار لمعاني صفات الله الحسنى ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإيحاءاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية يجب أن

تعيشها وتتذوقها بالقلب والشعور ، فليس التسبيح مجرد كلمة تقال ، ولفظة تردد : سبحان **الله** .. ولذلك غالباً ما يرد بعد هذه الكلمة الأمر بالنظر في ملكوت **الله** أو التذكير بنعمه ، أو بيان عظمته ، وتلك إشارة إلى المعنى العميق للتسبيح ، وأن يعيشه المرء بقلبه ووجدانه مستلهماً عظمة الواحد الأحد وبديع صفات الفرد الصمد : **﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاءً أحوى ﴾** .

ولو وقفنا مع قوله : **﴿ والذي قدّر فهدى ﴾** لاحتجنا إلى مجلدات لنبين بديع ما اشتملت عليه من المعاني .

سبحانه ما أعظمه ، خلق كل شيء فسواه وأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه ، وقدّر لكل مخلوق وظيفته وغايته ، فهداه إلى ما خلقه من أجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه .

سبحان من لم تزل له حُججٌ
قامت على خلقه بمعرفتهْ
قد علموا أنه الإله ولـ
ـكنْ عَجَز الواصفون عن صفته

سبحان من بهرت عظمته عقول العارفين .
سبحان من بهرت أنواره بصائر السالكين .
سبحان من ظهرت بدائعه لنواظر المتأملين .
سبحان مقيل عثرات المذنبين .
سبحان غافر خطايا المستغفرين .

وسبحان **الله** .. ما أشرقت أنوار ذكره على وجوه العابدين ، وما امتدت إلى عطائه أكف السائلين .

وسبحان **الله** كما هو أهله ، تبارك **الله** وتعالى جَدُّه ، كيف يحيط المخلوق بوصف خالقه ؟ متى يقوم المرزوق بشكر رازقه؟ .

سبحان من يشكر المحسنين على إحسانهم ، وإنما إحسانُهم من إحسانه. سبحان من تُعامله العبادُ بعصيانهم ، ويعاملهم بغفرانه . سبحان من لولا حلمه لعاجل العاصي بالعقوبة قبل توبتة من عصيانه .

سبحان **الله** عدد ما خلق في السماء ، وسبحان **الله** عدد ما خلق في الأرض ، وسبحان **الله** عدد ما بين ذلك ، وسبحان **الله** عدد ما هو خالق .

سبحانك كلٌّ معترفٌ بجودك .. فإنك لفطرته خالق ، ولفاقته رازق ، وبناصيته آخذ ، وبعفوك من عقابك عائذ ، وبرضاك من سخطك لائذ ، إلا الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، فالقضاء فيهم نافذ ..

يا مالكاً هو بالنواصي آخذُ
وقضاؤه في كل شيء نافذُ
أنا عائذٌ بك يا كريم ولم يخب
عبدٌ بعزّك مستجيرٌ عائذُ

سبح المسبحون بحمد **الله** اللطيف الخبير ، ولم يبلغوا من تعظيمه مثقال ذرة .

واجتهد العارفون في العلم بصفات العلي الكبير ، ولم يشربوا من بحر معرفته مكيال قطرة .

وشمّر المجتهدون في طلب القرب من جناب العزيز الحكيم ، ثم ماتوا وفي قلوبهم من القرب حسرة .

سبحان من أقام من كل موجود دليلاً على عزته ، ونصب عَلَمَ الهدى على باب مَحَجَّته . الأكوان كلها تنطق بالدليل على وحدانيته ، وكل موافق ومخالف يمشي تحت مشيئته ، ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ .

« سُبُّوح ، قدّوس ، ربُّ الملائكة والروح » .

سبحان من فاوت بين القلوب ، فمنها ما لا يصلح إلا لخدمة الدنيا ومنها ما لا يصلح إلا للتّعبد ، ومنها روحانيٌ مشغول بمحبة الخالق .

فإذا أشرقت على القلب أنوار صفاته ؛ اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال ، ولا تناله عبارة .

سبحانه جل وعلا ، لا يلهيه شيء عن شيء ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تختلف عليه اللغات ، ولا تشتبه عليه الأصوات ، تأتي الوفود المختلفة ، وتقف الجموع المتباينة ، والشعوب المتغايرة ، فيلجأون إلى **الله** في يوم عرفة ، وينادونه ويدعونه ويسألونه ويرجونه بلغات متباينة ، ولهجات متعددة ، ونغمات متنوعة ، ونبرات مختلفة ، فيسمع دعاءهم ، ويعرف نداءهم ، ويميز أصواتهم ، ويدرك لغاتهم ، ويقضي حاجاتهم ، بل هو الذي أخبر جل وعلا في الحديث القدسي على لسان نبيه ﷺ قائلاً : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .

يا أخا العقل توقَّرْ   وتجمَّلْ وتصبَّرْ
ساءك الدهرُ بشيءٍ   وبما سرَّك أكثرْ
يا كبيرَ الذنب عفوُ   الله من ذنبك أكبرْ
أكبرُ الأشياء عن أصـ   ـغر عفوِ الله أصغرْ
ليس للإنسان إلا   ما قضى اللهُ وقدَّرْ
ليس للمخلوقِ تدبـ   ـيرٌ بل اللهُ المدبِّرْ

قال ﷺ : «أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة؟» فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب ألف حسنة؟ ، قال : «يسبح مائة تسبيحة ، فيكتب له ألف حسنة ، أو يحط عنه ألف خطيئة» .

لقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم أكثر من سبعين مرَّة ، ومن ذلك .

قال تعالى : ﴿ وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وترى الملائكة صافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

أمر ﷺ بقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، فامتثل الأمر قولاً وفعلاً ، ولم يجد أجمل ولا أكمل من هذه العبارة المشرقة للترنم بها في الركوع والانحناء لجلال الجبار ، فجعلها في الركوع « سبحان ربي العظيم » .

وأمر ﷺ بقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، فامتثل الأمر قولاً وفعلاً ، ولم يجد أجمل ولا أكمل من هذه الجملة الآسرة للمناجاة بها في حال السجود للباري ، وتمريغ الوجه للجبار ، فجعلها في السجود « سبحان ربي الأعلى » ، وما أجمل كلمة « الأعلى » التي تنتهي بهذا المد وتختم بألف الإطلاق لينطلق معها الخيال والفكر والتأمل إلى رحاب ممدودة امتداد هذا الأفق البعيد ، والكون الفسيح ، ولينطلق ويمتد التسبيح يملأ أرجاء هذا الكون ويعمره بجلال التنزيه والتقديس .

كُلُّ امريءٍ فكما يدين يدان
سبحان من لم يَخْلُ منه مكانُ
سبحان من يعطي المنى بخواطر
في النفس لم ينطق بهن لسان
سبحان من لا شيء يحجب علمه
فالسر أجمع عنده إعلان
سبحان من هو لا يزال مُسَبَّحاً
أبداً وليس لغيره السُّبحان
سبحان من تجري قضاياه على
ما شاء منها غائب وعيان
سبحان من هو لا يزال ورزقه
للعالمين به عليه ضمان
سبحان من في ذكره طرق الرضى
منه وفيه الروح والريحان
ملك عزيز لا يقارن عزُّه
يُعصى ويُرجى عنده الغفران
ملك له ظهر القضاء وبطنه
لم تُبل جدة ملكه الأزمان
ملك هو الملك الذي من حلمه
يُعصى بحسن بلائه ويُخان
يبلى لكل مسلط سلطانه
والله لا يبلى له سلطان

* ومن آياته *

الله .. دلائل عظمته كبيرة ، وآيات توحيده كثيرة ، قال تعالى :

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ .

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ .

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ .

إلهنا ما أعدلكْ   مليكَ كلِّ مَنْ ملكْ
لبيكَ قد لبيتُ لكْ
لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ   والملكَ ؛ لا شريكَ لكْ
ما خابَ عبدٌ سالكْ   أنت لهُ حيثُ سلكْ
لولاك يا ربُّ هلكْ
لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ   والملكَ لا شريكَ لكْ
كلُّ نبيٍّ وملكْ   وكلُّ مَنْ أهَلَّ لكْ
وكلُّ عبدٍ سالكْ   سبَّحَ أو لبّى فلكْ
لبيك إن الحمد لك   والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك   والسابحاتُ في الفلكْ
على مجاري المُنْسلَكْ
لبيك إن الحمد لك   والملك ؛ لا شريك لك
اعملْ وبادرْ أجلكْ   واختِم بخيرِ عملكْ
لبيك إن الحمد لك   والملك ؛ لا شريك لك!!

* الشوق إلى لقاء الله *

وما شَرَقِي بالماء إلا تذكَّراً
لماء به أهْلُ الحبيب نُزُولُ
وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً
ولكنني للنائبات حَمُولُ

أمـا في النجوم السـائرات وغيـرها
لعينيْ على ضوء الصبـاح دليل؟

الله .. يفرح بقربه المؤمنون ، ويشتاق إلى لقائه المتقون ، والشوق أثر من آثار المحبة ، وهو سفر القلب إلى المحبوب في كل حال ، فالجسد هنا والروح هناك ، قال تعالى : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾ .

قيل : هذا تعزية للمشتاقين ، وتسلية لهم ، أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليّ . فقد أجّلتُ له أجلاً يكون عن قريب إنه آت لا محالة . وكل آتٍ قريب .

وفيه لطيفة أخرى . وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء .

لولا التعـلل بالرجـاء لقُطّعت
نفس المحب صـبابة وتشـوقـا
ولقـد يكاد يذوب منه قلبه
مما يقـاسي حسـرة وتحـرقـا
حتى إذا روحُ الرجـاء أصابه
سكن الحريقُ إذا تعلل باللقـا

وقد كان النبي يقول في دعائه : « **أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك** » .

وكان النبي ﷺ دائم الشوق إلى لقاء **الله** . لم يسكن شوقه إلى لقائه قط .

قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله ، فإذا لاحظ جلاله هابه

وعظمه ، وإذا لا حظ جماله أحبه واشتاق إليه .

كلما زاد كربُهُ في هوى من يحبُّهُ
طار نحو الحبيب من شدة الشوق قلبُهُ
دَنِفٌ كاد ينقضي بيْد البَيْنِ نحبُهُ

يقول يحيى بن معاذ : (يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربه) .

ساكن في القلب يعمرُهُ
لست أنساه فأذكرُهُ
غاب عن سمعي وعن بصري
فسويدا القلب تبصره

وكان أبو عبيدة الخواص يمشي في الطريق ، ويصيح : واشوقاه إلى من يراني ولا أراه .

يا من شكا شوقه من طول فرقته
اصبر لعلك تلقى من تحب غدا
وسر إليه بنار الشوق مجتهداً
عساك تلقى على نار الغرام هدى

* الأنس بالله *

الله .. جل جلاله أنس المؤمن ، وسلوة الطائع ، وحبيب العابد ، والأنس به ثمرة المعرفة ، ونتيجة المحبة ، ودليل الولاية ؛ وبرهان العناية ، ومؤهل الرعاية .

إذا امتلأ القلب بجلاله تحلو الحياة ، وتعذب الدنيا ، وتستنير البصيرة وتنكشف الهموم ، وتهاجر الغموم ، ومن أنِس **بالله** انس بالحياة ، وسعد بالوجود ، وتلذذ بالأيام ، قلبه مطمئن ، وفؤاده مستنير ، وصدره منشرح ، نُقشت محبة **الله** في قلبه ، وسكنت صفات **الله** في ضميره ، ومثلت أسماء **الله** أمام عينيه ، فهو يحفظ أسماءه ، ويتأمل صفاته ، ويستحضر في قلبه الرحمن ، الرحيم ، الجميل ، الحليم ، البر ، اللطيف ، المحسن ، الودود الكريم ، العظيم .. إلى غير ذلك من صفات الجلال وأسماء الكمال ، فتثير أنساً بالباري ، وحباً للعظيم ، وقرباً من العليم .

إن الشعور بقرب **الله** من عبده يوجب الأنس به ،والسرور بعنايته ، والفرح برعايته ، ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ .

إن الأنس **بالله** لا يأتي بلا سبب ، ولا يحصّل بلا تعب ، بل هو ثمرة للطاعة ، ونتيجة للمحبة ، فمن أطاع **الله** وامتثل أمره واجتنب نهيه وصدق في محبته ، وجد للأنس طعماً وللقرب لذة ، وللمناجاة سعادة .

إذا كان حب الهائمين من الورى
بليلى وسلمى يسلبا اللب والعقلا
فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي
سرى قلبه شوقاً إلى الملأ الأعلى

الأنس **بالله** أن تسعد بشريعته ، وتشكر لنعمه ، وتتفكر في ملكوته وتطرب لذكره ، وتتلذذ بسماع كلامه ، وترضى به رباً ، وبكتابه نهجاً ، وبنبيه رسولاً .

إن كثرة الذنوب تحجب الأنس بعلام الغيوب ، وتمنع السعادة بعناية عالم الغيب والشهادة ، المستأنس **بالله** جنته في صدره ، وبستانه في قلبه ، ونزهته في رضاء ربه ، وسياحته في مغاني الكمال ، ومراتع الوصال ، ومناظر الجلال ، ومواطن الجمال .

يا منتهى وحشتي وأنسي
كن لي إن لم أكن لنفسي
أوهمَني في غد نجاتي
حلمُك عن سيئات أمسي

المؤمن يأنس **بالله** في وحشته ، ويسلو به في خلوته ، ويسعد به في غربته ، لا شيء أمتع لدى المحبين من الخلوة بمحبوبهم والحديث إليه ، ومناجاته في أوقات التجلي إذا هدأت العيون ، وسكنت النفوس ، واستثقلت المضاجع بالنائمين ، قام المحبون ليعيشوا لحظات الأنس ، ودقائق السعادة في ثلث الليل الآخر .

ولقد ورد الوعيد الشديد عن المرور بين يدي المصلي ، وما أظن ذلك إلا لأنه يقطع أحلى ساعات الأنس ، ويشوش على ألذ دقائق المناجاة ، ولذلك جعلت قرة عين النبي ﷺ في الصلاة .

إذا تصدع شمل الود بينهمُ
فللمحبين شمل غير منصدع
وإن تقطع حبل الوصل يومئذ
فللمحبين حبل غير منقطع

إن المحب لله جل وعلا يأنس به ويأنس بطاعته ويأنس بذكره ، ويستوحش إذا شغل عنه .

سئل أبو سليمان الداراني – رحمه الله – : ما أقرب ما يُتقرب به إلى الله عز وجل ، فبكى ، ثم قال : مثلي يسأل عن هذا؟ أقرب ما يُتقرب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره جل وعلا :

قال بعض العلماء : العارف بالله أنس بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله فأعزه في خلقه .

إذا كان للناس أنس بما   ينالونه من متاع الحياة
فإن سروري وأنسي بمن   هداني وسيّرني في رضاه
أسلّي فؤادي بآلائه   ولا أنحني لعظيم سواه

يقول تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ .

إذا فرغت من القيام بواجب الدعوة والتعليم والنصح والتوجيه ، إذا فرغت من الناس ومطالبهم ، إذا فرغت من القيام بأعباء الحياة ومتطلبات المعيشة والتي هي كلها من العبادة لله ، فيجب أن تجعل جزءاً من الوقت خالصاً لله لا يشركه فيه أحد ، ولا حتى هموم الدعوة أو الإسلام ، لتأنس فيها بربك ، وتتلذذ بمناجاته ، وتسعد بالانطراح بين يديه ، فيعمر ذلك الأنس قلبك ، ويزيل همّك ، وينسيك أتعاب الحياة وأوصاب الدنيا . ولأنّ تلك الخلوة بالحبيب هي الزاد للطريق ، وهي الوقود للعمل ، وهي التي تبرد حرارة الشوق إلى من بذلتَ وقتكَ من أجله ، إلى من شرح صدرك ، ووضع عنك وزرك ، ورفع لك ذكرك .

إن ديدن المؤمنين وعنوان مسيرتهم : ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ ، والرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه والأنس بعبادته والسرور بطاعته ، هي رأس مال العبد ، وملاك أمره ، وقوام حياته ، وأصل سعادته ، وعنوان فلاحه.

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخرٌ عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيذة
حباً لذكرك فليلمني اللُّوَّمُ

يقول ابن القيم – رحمه الله – حدثني تقي الدين بن شقير قال : خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس سمعته يقول :

وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك النفس بالسر خاليا

* وما بكم من نعمة فمن الله *

الله .. هو الذي يتحبب إلى عباده بالنعم :

- ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ .
- ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ﴾ .
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ .

- ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨ ﴾.
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾.
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ ﴾.
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ ﴾.
- ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ ﴾.
- ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾.
- ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١١ ﴾.
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٩ ﴾.
- ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧ ﴾.

* هل جزاء الإحسان إلا الإحسان *

الإحسان دليل على النبل ، واعتراف بالفضل ، وعرفان للجميل ، وقيام بالواجب ، واحترام للمنعم ، ينبىء عن الصفاء ، وينطق بالوفاء ، ويترجم عن السخاء ؛ بالإحسان يُشترى الحب ، ويُخطب الودّ ، وتُكسب النفوس ، ويُهيمن على القلوب ، وتستعبد الأفئدة .

الإحسان عطاء بلا حدود ، وبذل بلا تردد ، وإنعام دونما منّ ، وإكرام لا يلحقه أذى ، والله تعالى أي إحسان إلا إحسانه ، وأي إنعام إلا إنعامه ، وأي كرم إلا كرمه ، وأي جود إلا جوده ، وأي فضل إلا فضله ، وأي لطف إلا لطفه ، وأي عطاء إلا عطاؤه ، وأي برٌ إلا بره ، خلق الإنسان في أحسن تقويم وصوّره فأحسن صورته ، وامتد إليه إحسانه وهو نطفة في ظلمات ثلاث ، وعمَّه بإحسانه طفلاً ، وأنبته نباتاً حسناً ، ورباه بنعمه وأحسن مثواه ، وأحسن إليه شاباً يافعاً وعاقلاً راشداً ، وشيخاً مسناً ، ووصى الإنسان بوالديه إحساناً ، وأمره الله تعالى بالإحسان مع كل شيء وإلى كل شيء ، وفي كل شيء ، ورتب عليه عظيم الأجر ، وبديع القدر ، ووافر الإكرام ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

دعاك إلى الإحسان لأنه أحسن إليك : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ ، ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ .

الأولى أن يقابل الإحسان بالإحسان رغم أن البون شاسع ، والفرق كبير بين إحسان وإحسان ، فماذا تساوي قطرة من إحسان منك مع بحور الفضل وأنهار الإحسان وقنوات العطاء منه جل وعلا ، بل وإن إحسانك ماهو إلا من

إحسانه إليك ولطفه بك أن هداك لذاك فهو المحسن الغفور الودود .

إلهي إذا ما عشتُ في الأرض محسناً
فليس بفيض من ذكائي ولا فضلي
فأنت الذي يسرتني وهديتني
إلى الخير والإحسان يا واسع البذل

الإحسان من أفضل منازل العبودية ، بل هو حقيقتها ولبها وروحها وأساسها ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

فهو لب الإيمان ، وروح الإسلام ، وكمال الشريعة ، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال ، وأعظم درجات الإحسان هي الإحسان مع الله جل وعلا ، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقين ، حتى يشمل البهائم والعجماوات ، يقول ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » .

وقد ورد في الحديث الصحيح : « أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببئرٍ ، قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها » .

وكل أصول وفروع المعاشرة وآدابها ، وكل قوانين التعامل ترجع إلى الإحسان ، فهو يشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة ، وعلاقاته بالبشرية جميعاً ، بل وعلاقاته بسائر المخلوقات .

والمحسن محبوب من المخلوقين ، ومحبوب من الخالق ، ولذلك كانت منزلة المحسنين عند الله تعالى عظيمة ، ومرتبتهم كبيرة ، ودرجاتهم عالية ،

قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ، أي ليس من جزاء لإنعامي عليكم بالإيمان والتوحيد إلا الجنة ، وبين تعالى أنه مع المحسنين بتوفيقه وحفظه وتأييده ، فقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

وأعلن جل وعلا محبته للمحسنين في أكثر من آية فقال : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ ، وأخبر تعالى أن رحمته قريبة من المحسنين ، فقال : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ وطمأن المحسنين بأن إحسانهم محفوظ ، وعملهم مشكور ، وفعلهم مبرور ، فقال : ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، بل أدخل السرور عليهم ، وأعلن البشارة لهم ، فقال في آيات كثيرة : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ .

بل لقد أعطى على الإحسان ما لم يعط على غيره فقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

فهو تعالى يخبر أن من أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الله الحسنى في الدار الآخرة ، وأسكنه الجنة وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وزاده مقابل إحسانه زيادة عظمى أكمل مما مضى ، وأجمل مما ذكر ، وهي النظر إلى وجهه الكريم جل وعلا ، وتأمل هذا الجزاء البديع والمنزلة الرفيعة التي استحقها المحسن لأنه عاش عمره ، وقضى حياته وهو يعبد الله كأنه يراه ، ويراقبه في كل حركة وسكنة وكأنه ماثل أمامه يستحيي منه ، ويخاف بطشه ويخشى عقابه ، ويقدره حق قدره فحقق الله له الرؤية ، وأنعم عليه بأن كشف له الحجاب لينظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم .

قرأ ﷺ هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو؟ ألم يثقّل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم » ، ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ .

والثواب العظيم في جنة المولى
وفيها يكون الرضى والخلودُ
كل نفسٍ تحظى بما تشتهيه
حورُ عينٍ فيها وطلعٌ نضيدُ
لبن سائغٌ وشهدٌ مصفّى
ولدى ربك الكريم المزيدُ

* الافتقار إلى الله *

قد يعطى الإنسان أموالاً ، وقد يمنح عقاراً ، وقد يرزق عيالاً ، وقد يوهب جاها وقد ينال منصباً عظيماً ، أو مركزاً كريماً ، أو زعامة عريضة ، أو رياسةً مكينة ، قد يحف به الخدم ، ويحيط به الجند ، وتحرسه الجيوش ، وترضخ له الناس ، وتذل له الرؤوس ، وتدين له الشعوب ، ولكنه مع ذلك كله فقير إلى الله ، محتاج إلى مولاه ، ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ .

إن لذة الحياة ، ومتعة الدنيا ، وحلاوة العمر ، وجمال العيش ، وروعة الأنس ، وراحة النفس هي في شعور الإنسان بفقره إلى الديان ، ومتى غرس في القلب هذا الشعور ، ونقش في الفؤاد هذا المبدأ فهو بداية الغنى ، وانطلاقة الرضى ، وإطلالة الهناء ، وإشراقة الصفاء ، وحضور السرور ، وموسم الحبور .

حقيقة غنى المرء في الحياة أن يعيش فقيراً إلى الله ، وهذه هي حقيقة العبودية وخلاصة التقوى ، فالمرء في صلاته في ركوعه في سجوده في دعائه في كل عباداته يعلن الخضوع لله والاستسلام له والتذلل بين يديه والافتقار إليه .

إن العبادة بجميع مظاهرها وشتى أحوالها وكامل أفعالها وأقوالها مظهر صادق للافتقار ، بل هي المظهر الأسمى والأسلوب الأرقى ، انظر إلى الصلاة إلى ألفاظها ، إلى أدعيتها ، خشوع وخضوع ، بكاء ودموع ، تذلل وانطراح انظر إلى الركوع الذي هو انحاء لعظمة الغني ، وتمهيد لافتقار أكبر وانطراح أعظم وهو السجود ، وهل يُعلن الفقر إلا في السجود حيث يهوي الرأس على الثرى؟ ، ويُمرغ الجبين في الأرض ، ويغرس الأنف في التراب ، افتقاراً لرحمة الوهاب .

انظر إلى الصوم ، حيث يُمنع الأكل ، ويُحظر الشراب ، ويُجوّع البطن ويُحيي الليل ، ويُشد المئزر ، ويُوقَظ الأهل ، وتُصَفّ الأقدام ، وتُسكب العبرات ، وتُرفع الدعوات معلنة فقرها إلى جود المنان وعطاء الرحمن .

انظر إلى الزكاة ، حيث يبذل الغني ماله ، وينفق دراهمه ، ويرسم من الغنى لوحة للفقر إلى الله ، وصورة للفاقة إلى مولاه .

انظر إلى الحج فهو من أروع مناظر الافتقار ، وأصدق مظاهر الحاجة ، يتخلى الغني عن ثياب الغنى ، ويخلع المرء عمامته ، ويتجرد من ملابسه ، ويقبل في رداء وإزار ، وكأنه لا يملك شيئاً ، ولا يجد مالاً ، ينزل من قصوره ويتخلى عن دوره ، فيأتي حاسر الرأس ، شاحب اللون ، خاشع القلب ، واجف الفؤاد ، يعلن فقره لرب العباد مردداً أعذب كلمات الفاقة ، وأصدق عبارات الحاجة ، وأروع لحون الفقر ، معلناً أن الملك **لله** ، والعبودية **لله** ، والحمد **لله** ، والنعمة **لله** ، والغنى **لله** (لبيك **اللهم** لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) .

إن من لم يُشْرِب قلبه حقيقة الفقر ، ويُشعر نفسه بشدة الحاجة وعظيم الفاقة للواحد الأحد الفرد الصمد الغني الكريم العلي العظيم ، فلن يعرف للعبودية طعماً ، ولن يجد للسعادة رسماً ، وهو عن البصيرة أعمى .

تبرأت من حولي وطولي وقوتي
وإني إلى مولاي في غاية الفقر
غِنى المرء بالرحمن أغنى من الغنى
به يُكتسى ثوب المهابة والقدر
له الفضل كل الفضل أسْلمتُ مهجتي
إليه فمالي حين أنساه من عذر

إن الفقر أن يكون المرء بأحاسيسه ومشاعره ووجدانه مفتقراً إلى **الله** تعالى ، ولا يعني ذلك أن يعيش المرء فقيراً من أمر الدنيا فيترك السعي فيها ويرفض اكتساب الرزق وجمع المال وعمارة الحياة ، ويظن أن ذلك هو الافتقار الحقيقي ، فقد يكون المرء من أكثر الناس مالاً وأوفرهم عيالاً وأعظمهم ثروة ، ومع ذلك هو شديد الافتقار إلى العزيز الجبّار .

لقد كان الأنبياء في ذروة الفقر إلى **الله** تعالى مع غناهم وملكهم وعزهم كإبراهيم – عليه السلام – مكرم الضيفان الذي كانت له الأموال والمواشي ، وسليمان وداود – عليهما السلام – وما آتاهما **الله** من الملك ، ونبينا ﷺ الذي امتن عليه ربه بقوله : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ فقد أغنى قلبه **بالله** وأغناه بالمال ، ولكنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ؛ لأنه كان غنياً **بالله** فقيراً إلى رضاه ، فهؤلاء العظماء كانوا أغنياء في فقرهم فقراء في غناهم ، فالفقر الحقيقي هو دوام الافتقار إلى الباري في كل شيء ، وأن يشهد الإنسان في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وفقراً ملحاً إلى **الله** تعالى وإلى لطفه وكرمه وعنايته وحفظه وتيسيره وتدبيره ، وإن هذا الفقر إلى **الله** تعالى هو حقيقة الغنى وأصل العزة في الدنيا والآخرة لا يزداد به المرء إلا رفعة ، ولا ينال به إلا عزاً ، ولا يجني منه إلا فضلا ، فهل يكون فقيراً من استغنى **بالله** جل وعلا؟ وهل يكون فقيراً من كان **الله** معه **والله** ناصره **والله** معينه **والله** حافظه ، امتلأت نفسه بجلال **الله** ، واستغنى قلبه بذكر **الله** ، وغردت جوارحه بمَنِّ **الله** ، إن استعان **فبالله** ، وإن اتكل **فعلى الله** ، وإن التجأ **فإلى الله** ، استغنى الناس بالمال واستغنى بالعزيز المتعال ، وفرحوا بالحطام وفرح بأنس العزيز العلام .

وإن المرء مهما أوتي في الحياة من مال أو جاه أو رفعة أو منصب فهو فقير إلى ربه ، محتاج إلى كرمه ، وكل ما أوتيه ما هو إلا ذرة من كرم الكريم ومن عطاء الغني : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

لقد تجرأ اليهود كعادتهم في قلة الحياء ، وسوء الأدب ، وشناعة الأعمال ، ووقاحة الأقوال ، فقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، قالوها ومضوا لشأنهم غير مبالين بفظاعتها ، ولا مهتمين لشناعتها ، ولا مكترثين لهولها ، ولكنها مرصودة لهم ، مسجلة عليهم ، مسطورةٌ في سجل قبائحهم . ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ ولم يحفل القرآن بالرد على هذه المقولة أو استعراض الأدلة في دحضها وإبداء زيفها وكشف عوارها ، فهي أقل من ذلك .

وليس يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

بل جاء بعدها الحديث عن عددٍ من مساوىء اليهود ، وبعضٍ من قبائحهم ، وطرفٍ من نقائصهم وخياناتهم .

ثم في ختام الحديث عن ذلك جاءت إشارة عابرة ، وآية موجزة فيها الرد كل الرد ، والجواب أحسن الجواب فقال تعالى : ﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ فمن يملك السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن وهو على كل شيء قدير ، هل يكون فقيراً؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

أين هؤلاء السفلة من عظمة نبيهم موسى - عليه السلام - حينما خرج خائفاً يترقّب فلما ورد ماء مدين وسقى للمرأتين ثم تولى إلى الظل الظليلِ ، لم ينسه ذلك الظل ظلاً أعظم ، ومأوىً أكرم ، ولطفاً أشمل ، ورعاية أكمل ، فلبس ثوب الفقر ، وارتدى جلباب الفاقة ، وأعلن حالة

المسكنة ، ورسم لوحة الذل ، في عبارات حانية ، وكلمات هادئة ، ومناجاة صادقة : ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ فقير إلى كرمك ، فقير إلى لطفك ، فقير إلى جودك ، فقير إلى حسن عطائك في الدنيا والآخرة ، لقد لجأ الفقير إلى الغني الحميد ، والركن الركين ، والظل الظليل ، فسُمعت الدعوة ، وأُجيب النداء ، وأُغدق العطاء في طرفة عين ، ولمحة بصر : ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ إن دعوة هذا الشيخ الكبير جاءت استجابة من السماء لدعاء موسى الفقير ، فنال من خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

يا من يرى ما في الضمير ويسمع
أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقعُ
يا من يُرجّى للشدائد كلها
يا من إليه المشتكى والمفزعُ
يا من خزائن رزقه في قول كن
امنُنْ فإن الخير عندك أجمعُ
ما لي سوى فقري إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقري أدفعُ
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة
فلئن رددت فأي باب أقرعُ
من ذا الذي أدعو وأهتف باسمه
إن كان فضلك عن فقيرك يمنعُ
حاشا لجودك أن تُقَنِّط عاصياً
الفضل أجزل والمواهب أوسعُ

قال تعالى : ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ أين الولي من دونه جل وعلا؟ وأين الشفيع؟ وأين النصير؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينهما ، وهو فالق السماوات والأرض وما بينهما ؛ فأين هو الولي أو الشفيع الخارج على سلطانه؟ أفلا تتذكرون!! إن تذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الافتقار إلى **الله** ، واللجوء إليه وحده دون سواه .

يجب أن يعرف الإنسان عظيم فقره ، وشدة حاجته ، وكبير فاقته إلى ربه جل وعلا ، وأن **الله** تعالى هو الغني الحميد ، ولكن بفضله وكرمه ولطفه وجوده أولى هذا الإنسان عناية فائقة ، وأنزله منزلة كريمة ، ومنّ عليه منناً عظيمة ، أنزل إليه كتبه ، وأرسل له أنبياءه ، وسخّر له الكون بما فيه ، واستخلفه في الأرض ، وفجّر له أنهارها ، وأخرج له كنوزها ، ثم وعده بالنعيم المقيم - إن أطاعه - في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

- كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه **الله** - على جلالة قدره ، ووفرة علمه ، إذا مُدح أو اثني عليه يتأثر تأثراً بالغاً ويقول : (ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولي فيّ شيء) ، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المكديٌ وابن المكدي
وهكذا كان أبي وجدّي

ومن أبياته - رحمه **الله** - :

أنا الفقير إلى رب البريات
أنا المسكين في مجموع حالاتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة
ولا عن النفس لي دفع المضرّات
وليس لي دونه مولاً يدبّرني
ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
ولست أملك شيئاً دونه أبداً
ولا شريكٌ أنا في بعض ذرّات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً
كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

انظر إلى هذه العناية الإلهية العظمية بالإنسان ، أنزل عليه الكتب ، وأرسل له الرسل ، وسخّر له ما في الكون جميعاً منه ، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد ، وهيأ له إن أطاعه ما لا عين رات ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ رغم أنه مخلوق صغير ضئيل جاهل قاصر عاجز ، إنه ساكن من سكان هذه الأرض التي هي بطولها وعرضها وامتدادها ما هي إلا تابع صغير جداً من توابع الشمس التي تكبرها بحوالي مائة وستة وأربعين مرّة ، وهذه الشمس ما هي إلا نجم مما لا عد له ولا حصر من النجوم الضخمة الهائلة المتناثرة في الفضاء والتي قال العلماء إن عددها يزيد على عدد حبات الرمل المنتشرة على شواطىء بحار الدنيا ، وكل هذه الكواكب التي بعضها يكبر الأرض بمئات المرّات ما هي إلا جزء من المجموعة الشمسية فما بالك ببقية المجرات والأفلاك والسماوات السبع والأرضين .

﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ اللهم أغننا بك عمن سواك أنت الغني الكريم .

لقد كان النبي ﷺ يعلن افتقاره إلى **الله** وشدة حاجته إليه وعدم غناه عن فضله أو لطفه ولو لطرفه عين ، ويدعوه أن لا يكله إلى نفسه ، يلجأ إليه في السراء والضراء ، وينطرح بين يديه في النعماء والباساء .

وقف في معركة بدر يدعو ربه ويناشده ويسأله النصر وقد أعلن فقره وأسلم أمره ، رفع كفيه حتى سقط رداءه من على منكبيه من كثرة ابتهاله إلى ربه .

ودخل مكة فاتحاً منتصراً ، عزيزاً معززاً ، كريماً مكرّما ، عظيماً معظّما بعدده وعتاده ، وقوته ورجاله ، فكان راكباً على دابته ، حانياً ظهره حتى كادت ذقنه تمس رحل الدابة من شدة انحناءه خضوعاً لله وافتقاراً لمولاه .

وكلّمه رجل وهو يرتعد إجلالاً وخوفاً من هذا القائد العظيم ، والفاتح الهمام ، فقال له ﷺ : « هوّن عليك فإني لست بملك وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

وإذا أجدبت الأرض ، ومات الزرع ، وجف الضرع ، خرج ﷺ يطلب جود الغني ، وكرم الكريم ، فيخرج للاستسقاء « مبتذلاً متواضعاً متضرعاً » .

وإن المتأمل في جميع الأدعية القرآنية والأدعية النبوية يجدها تنبض بالفقر ، وتعلن الحاجة ، وتنطق بالفاقة إلى **الله** تعالى ، وقد عرف العلماء الدعاء بأنه : « إظهار غاية التذلل والافتقار إلى **الله** والاستكانة له » ، وقال بعضهم : « هو لسان الافتقار بشرح الاضطرار » .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به

واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتُخرج الحي من الميت وتُخرج الميت من الحي وترزق من تشاءُ بغير حساب ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنونٍ * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

إن فيها إعلان الافتقار إلى الله تعالى في كل شيء ، والبراءة من الحول والطول والقوة إلا به جل وعلا والانصراع على أعتابه ، والاعتصام بجنابه .

ثم تأمل بعض أدعيته ﷺ ، ومن ذلك :

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت . أنت ربي وأنا عبدك . ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً . إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . لبيك وسعديك والخير كله في يديك . والشر ليس إليك . أنا بك وإليك . تباركت وتعاليت . أستغفرك وأتوب إليك » . وإذا ركع قال : « اللهم لك ركعت وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ، ومُخي وعظمي وعصبي » وإذا

رفع قال : «**اللهم** ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد» . وإذا سجد قال : «**اللهم** لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوّره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك **الله** أحسن الخالقين» . ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : «**اللهم** اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» .

ويقول ﷺ : «لا إله إلا **الله** وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . **اللهم** لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

ويقول ﷺ : «**اللهم** لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» .

وانظر إليه ﷺ إذا أخذ مضجعه وأوى إلى فراشه بماذا يترنم من عبارات الافتقار **لله** والاستسلام له والتفويض لأمره وسؤاله الحفظ وطلبه العناية والرعاية :

«**اللهم** أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» .

إلى غير ذلك من هذه الدرر الرائعة ، والمناجاة الماتعة ، والأحاديث الذائعة .

وخلاصة الأمر أن غنى الإنسان ورفعته وعزته في الدنيا والآخرة بقدر افتقاره إلى مولاه جل وعلا .

لفتة قرآنية :

عظمة هذا القرآن تهز النفوس المؤمنة ، وروعة إعجازه تسبي القلوب المتدبرة ، وبديع إشاراته تروي الأذهان المتفتحة ، تأمل معي هاتين الآيتين الواردتين في موضوع الافتقار :

قال تعالى في سورة فاطر : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ .

فبين جل وعلا أنه من كمال غناه وعظيم قدرته أنه إن شاء أذهبكم وأتى بخلق جديد فما ذلك عليه بعزيز ، ولا هو عنده بمحال ، فهو الغني الكريم ، وهو الخالق المتصرف ، أوجدكم من العدم ، وأحياكم من موات ، وليس بمعجز له أن يهلككم ويأت بغيركم ، وهو الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

ثم يؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى وبعبارات أكثر تهديداً وأشد وعيداً فيقول جل وعلا في سورة محمد : ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ ، فهنا تأكيد على وجوب الإيمان بأن الله تعالى هو الغني ، وأن الناس هم الفقراء إليه ، وتأكيد على أن التولي عن شرعه والتخاذل عن دينه والإعراض عن هدايته سبب للبعد والهلاك .

يجب على الناس أن يدركوا هذه الحقائق وأن يعرفوا فضل الله عليهم

وعظيم لطفه بهم ، وأن لا ينغرّوا بما أوتوا من العلم ، وما نالوا من القوة ، فإن ذلك كله لا يغني عنهم من **الله** شيئاً ، فإن لم يعلنوا فقرهم إلى **الله** وحاجتهم إلى رضاه والتزامهم بهداه ، فقد عرضوا أنفسهم للوعيد الشديد ، والنكال الأكيد في الدنيا والآخرة .

* مهرجان العظمة *

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ .

ويا عجباً كيف يعصى الإله بل كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

انظر إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً ، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً وبصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو عظماً واحداً من أصغر عظامها أو عرقاً من أدق عروقها أو شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك ، فانظر إلى صنع **الله** الذي أتقن كل شيء ، وانظر إلى الناس وأحوالهم وأشكالهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والأخلاق والرغبات ، والاهتمامات والملكات ، والقدرات ، والحظوظ ، وانظر في تركيبهم ، وكم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾** ، وإذا كان هذا صنعه وتلك عظمته في قطرة من ماء مهين فما هو ظنك بصنعه في ملكوت السماوات وعلوها وسعتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها

وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، **﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾** أي قد وسّعنا أرجائها ورفعناها بغير عمد حتى امتثلت كما هي ، فهي أحكم صنعاً وأكثر إبداعاً وأعظم شاهداً على العظمة من خلق الإنسان : **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾** .

ثم انظر إلى الأرض وعظيم خلقها وكيف جعلها الله فراشاً ومهاداً وذللها لعباده ، وجعل فيها الأرزاق والأقوات والمعايش ، وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد ، ودحاها وبسطها وجعل ظهرها وطناً للأحياء ، وبطنها وطناً للأموات **﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾** ، أي مهدناها وبسطناها .

إن السماء والأرض من أجل الآيات وأعظم الشواهد على عظمة المولى وقدرة الخالق : **﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبثّ فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾** .

انظر إلى بديع خلق الله : **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾** زوجين : صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف والجن والإنس ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ، والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والجنة والنار ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والمتحرك والساكن ، والحر والبرد .. إلخ .

تأمل غرائب الأشجار ، وبديع الثمار ، وروائع الأزهار .. الأزهار عجب عجاب ، أنواع باهية ، وألوان زاهية ، كم يجد المرء من النشوة ، وكم يغشى القلب من اللذة ، وهو يشمّ عبقاً لوردةٍ زكية ، أو يتأمل منظراً لزهرة ندية .

انظر إلى زهر الربيع وما جلت
فيه عليك طرائف الأنوار
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعاً
شهدتْ بحكمة مُنزل الأمطار

ويقول آخر :

الورد بين مُضَمَّخ ومضرَّج
والزهر بين مكلل ومتوَّج
طلع النهار ، ولاح نور شقائق
وبدت سطور الورد تِلْو بنفسج
فكأن يومك في غلالة فضة
والنبت من ذهب على فَيْرُوزج

وقال آخر في صفة نهر حوله أشجار الجلنار (زهر الرمان) :

ونهر تمرحُ الأمواج فيه
مراح الخيل في رهج الغُبارِ
إذا اصفرت عليه الشمس خلنا
نمير الماء يُمزج بالعقار
كأن الماء أرض من لجينٍ
مُغَشَّاةٌ صفائح من نَضار

وأشجار مُحمَّلة كؤوساً
تضاحك في احمرار واخضرار
إذا أبصرن في نهرٍ سماءً
وهبن له نجوم الجلَّنارِ

ثم انظر ما على الأرض من أصناف الثمار اليانعة ، والفواكه الماتعة المختلفة الطعم ، المتباينة الشكل ، العجيبة الصنع ، كل ذلك هيأه الله جل وعلا للإنسان : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربٌّ غفور ﴾ .

لقد حرّكت هذه المناظر الفاتنة قلوب الشعراء ، وقرائح الأدباء ، فتفننوا في وصفها بروائع الشعر ، وفاضت مشاعرهم بجميل القول ، هذا احدهم يتغنى بالموز قائلا :

أطعمتهُ موزاً شهيّ المنظرِ
مستحكَم النضج ، لذيذ المخبرِ
كأن تحت جلده المزعفر
لفُاتُ زُبْدٍ عُجنت بِسُكَّرِ

وقال آخر يصف الموز أيضاً :

في ريحه ، ولونه وطعمه
كالمسك ، أو كالتبر أو كالضَّرَب
وافت به أطباقه منضداً
كأنه مكاحلٌ من ذهب

وقال آخر يصف الكمثرى :

وكمثراء بستان شهي الطعم والمنظر
له طعمٌ إذا ذيق كما الورد أوالسكر

وقال آخر يصف الخوخ :

كأنما الخوخ على دوحه
وقد بدا أحمره العندمي
بنادق من ذهب أصفر
قد خضبت أنصافها بالدم

وقال آخر يصف الخوخ أيضاً :

وخوخة بستانٍ ذكيٌ نسيمها
من المسك والكافور قد كسبت نشرا
مُلبّسة ثوباً من التّبر نصفه
مصوغٌ ، وباقيه كياقوتة حمرا

وقال آخر يصف المشمش :

ومشمش جاءنا من أعجب العجب
أشهى إلي من اللذات والطرب
كأنه وهبوبُ الريح ينشرُهُ
بنادقٌ خرطتُ من خالص الذهب

وقال آخر يصف الرمان :

رمانة صبغ الزمان أديمها
فتبسمت في ناضر الأغصان
فكأنما هي حُقة من عسجد
قد أودعت خرزاً من المرجان

وقال آخر يصف النخيل والبلح :

كأن النخيل الباسقات وقد بدت
لناظرها حسناً قباب زبرجد
وقد علقت من حولها زينة لها
قناديل ياقوت بأمراس عسجدِ

وقال آخر يصف النخل أيضاً :

فالنخل من باسق فيه وباسقة
يضحك الطلع في قنوانه الرُّطبا
أضحت شماريخه في الخبر مُطلعةً
إما ثريا ، وإما معصما خَضِبا
تُريك في الظل عقياناً فإن نظرتْ
شمس النهار إليها خِلْتَها لهبا

وقال آخر يصف البطيخ :

رأيتها في كف جلابها
وقد بدت في غاية الحسن
كسلة خضراء مختومة
على الفصوص الحمر في القطن

وقال آخر في وصفها :

رب صفراء أتتنا وهي في أحسن حُلَّةْ
تعتريها صفرة في لونها من غير علةْ
حلوة الريق ، حلال دمها في كل ملَّةْ
نصفها بدر ، فإن قسمتها فهي الأهلِّه

وقال آخر في العنب :

والعقد مشتبك الأفنان ، توسُعنا
أجناسها في تساوي شربها عجبا
فبعضها قطَّرت آاغصانها سبجاً
وكرمة قطرت اغصانها ذهبا
كأنما الورق المخضرّ دونهما
غيران يكسوهما من سندس حُجُبا

السبج : خرز أسود .

وقال آخر يصف قصب السكر :

تحكيه سُمر القنا ولكن
تراه في جسمه طلاوه
وكلما زدته عذاباً
زادك من ريقه حلاوه

وقال آخر يصف النبق :

وسدرة كل يوم   من حُسنها في فنون
كأنما النبقُ فيها   وقد بدا للعيون
جلاجلٌ من نُضارٍ   قد عُلقت في الغصون

وقال آخر يصف اللوز الأخضر :

كأنما قلوبه   من توأم ومُفرد
جواهر لكنما الاصـ   ـداف من زبرجدٍ

وقال آخر يصف الجزر :

انظر إلى الجزر الذي
يحكي لنا لهب الحريقِ
كَمِذَبة من سندس
ولهَا نصابٌ من عقيقِ

وقال الآخر في وصف التين :

أنعم بتين طاب طعماً واكتسى
حسناً وقارب منظراً من مخبر
في بُرد ثلج في نقا تبْر وفي
ريح العبير وطِيْب طعم السُكّرِ
يحكي إذا ما صُفّ في أطباقه
خيَماً ضُربْن من الحرير الأحمر

وقال آخر يصف الفستق :

والقلب ما بين قِشْرَيْه يلوح لنا
كَألسُنِ الطير من بين المناقير

وقال آخر يصف النارنج :

وكأنما النارنج في أغصانه
من خالص الذهب الذي لم يُخلط
كرة رماها الصولجان إلى الهوا
فتعلّقتْ في جوّه لم تسقط

النارنج نوعان : أحدهما حامض معروف ، والآخر حلو وهو البرتقال .

وقال آخر يصف الليمون :

يا حبذا ليمونة تُحدثُ للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

إلى غير ذلك من الأنواع والأشكال التي لا حصر لها ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

وانظر الحكمة والإبداع في خلق الأوراق ، وكم ترى في ورقة واحدة من العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها مما يبهر الناظر . إنك أحياناً ترى في ورقة واحدة من بديع الصنع وعجيب التركيب ما يجعلك تسبح بحمد الخالق ، وتشهد بعظمة الصانع ، ثم انظر كم على وجه الأرض من الأوراق صغيرها وكبيرها ، أخضرها ويابسها ، ومع ذلك فإن **الله** تعالى يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه ، ولا تسقط إلا بعلمه : ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** ﴾ .

انظر إلى هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض والطير محلقة فيه ، سابحة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فإذا شاء سبحانه حركه بحركة الرحمة فجعله رخاءً ورحمة وبشراً بين يدي رحمته ، ولاقحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل : ﴿ **وهو الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سُقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به كل الثمرات** ﴾ ، وإذا شاء تعالى جعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً ، وتأتي العواصف التي تقتلع بلداناً بأكملها ، ومدناً بأسرها : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً**

صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ .

انظر إلى آية الليل والنهار وهما من بدائع آيات الله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ ، جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات ، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون : ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ .

إذا سكن الليل ، وهدأت العيون ، وغارت النجوم ، ذكرنا عظمة الله ﴿ قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ .

وإذا بزغ الفجر ، وسطع الضياء ، وأشرقت الشمس ، ذكرنا عظمة الله ﴿ قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ .

إذا تأملنا البحر وما فيه من عجائب ، وما به من غرائب ، ونظرنا للأمواج الهادرة ، والسفن الماخرة ، ذكرنا عظمة الله ، ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

إذا وقعت العين على زهرة تتفتق أكمامها ، ويفوح عبيرها ، ويزكو شذاها ، ذكرنا عظمة الله .

ولما نزلنا منزلاً طلُّهُ الندى
أنيقاً وبستاناً من النُّور حاليا
أجدَّ لنا طيْبُ المكان وحسنُه
مُنَى فتمنَّينا فكنتَ الأمانيا

إذا رأينا الأشجار المنوعة ، والثمار اليانعة ، والأغصان الملتفة ، والبساتين الغناء ، والمروج الخضراء ذكرنا عظمة الله .

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

وتنوعت بسط الرياض فزهرها
متباين الأشكال والألوانِ
من أبيضٍ يَقَقٍ وأصفر فاقعٍ
أو أزرقٍ صافٍ وأحمر قانِ
والظل يسرع في الخمائل خطوه
والغصنُ يخطُر خطرة النشوانِ
والشمس تنظر من خلال فروعها
نحو الحدائق نظرة الغيرانِ
الأرض تعجب كيف يضحك والحيا
يبكي بدمع دائم الهملانِ
حتى إذا افترُتْ مباسم زهرها
وبكى السحاب بمدمعٍ هتَّانِ

طفح السرور عليَّ حتى إنه
من عظم ما قد سرَّني أبكاني

انظر إلى الأرض كل سنة في آخر فصل الشتاء ، وقد لقيت من شدة البرد وجهد البلاء ، فعرِّيت أشجارها ، وخرست أطيارها ، وهمد حسيسها وأوحشت آنيتها ، وعبست مباسمها ، ودرست مراسمها ، فيتداركها البر الرحيم بألطافه ، فإذا هي قد اخضر يابسها ، وافتر عابسها وفاضت أنهارها ، وصدحت أطيارها ، وهب نسيمها الراكد ، وحيي رميمها الهامد . فاصغ أيها اللبيب تسمع الفهم والفكرة ، إلى ما تقوله الناشئات بلسان العبرة ، فإنها تقول بلسان الحال : سبحوا بحمد الكبير المتعال ، واستدلوا بقدرته على إحياء الأرض الموات ، إنه قادر على إخراج الأموات بعد الشتات .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

إذا رأينا الفجر قد تنفس ، والضوء قد انبلج ، والطيور قد غردت، والبلابل قد صدحت ، ذكرنا عظمة الله .

إذا رأينا الجبال الشاهقة ، والأعلام الشامخة ، ذكرنا عظمة الله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ .

هذه جبال معمَّمة بالثلوج ، وأخرى مكسوة بالأشجار ، وتلك صخرية جرداء ، جبالٌ تفتن النظر بجمالها وعظمتها ، وتعاريجها وارتفاعها . في أعاليها يتعانق السحاب ، وفي هيكلها تتلون الصخور ، وفي باطنها المناجم تعجُ بالخيرات ، وفي أسفلها الوديان تموجُ بالحياة ، ثم هي تشمخ بقممها كأنما تريد أن تناطح السماء .

إذا رأينا النهار المتألق ، والشمس الساطعة ، والقمر المنير ، والكواكب السيارة ، ذكرنا عظمة **الله** .

وكأن البدر لما   لاح من تحت الثريا
ملك أقبل في التا   ج يُفدَّى ويُحيَّا

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ .

إذا رأينا ما وصل إليه عقل الإنسان وعلمه من صناعات مذهلة ، ووسائل متقدمة ، وأن العقل الذي أوجد وابتكر ، وفكر وأبدع هو خلق **الله** ذكرنا عظمة **الله** .

إذا رأينا مملكة النحل وإبداعها ، ومجموعات النمل وأنواعها ، وكل ما خلق **الله** من مخلوقات عجيبة ، وحيوانات بديعة ، وهوام ودواب ، وفراش وزواحف وطيور وسباع وغيرها ، وكيف تمضي جميعاً وفق ناموس مرسوم ، وحياة منظمة ، وتناسق بديع ، ذكرنا عظمة **الله** .

تأمل سطور الكائنات . فإنها
من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خَطٌ فيها – لو تأملت خطها –
الا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها
فصامتها يَهْدِي ، ومَنْ هو قائل

وربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلا تَحَرُّكها ، فإذا سكنت فالسكون يواريها ، ثم إذا لوَّحْتَ لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة ، وتفاصيل خلقتها ، ويبصرها ويطلع على ضميرها ، وقد يكون في مخلوقاته ما هو أصغر منها وأصغر ، بل ذلك موجود فعلاً فيما يُعرف بالذرة التي يُحتاج إلى أدق الأجهزة الحديثة لرؤية آثارها فقط ، وليس حقيقتها .

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الألْيَلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخُّ في تلك العظام النُّحَّلِ
اغفر لعبد تاب من فرطاته
ما كان منه في الزمان الأول

الله .. تتجلى عظمته في الجبال ، والسماء والبحار ، وتتجلى قدرته في المراعي النضرة ، والأزهار الباسمة ، والأوراق الخضراء، والمروج الغناء.

انظر إلى البدر كيف دوّره ، والإنسان كيف صوّره ، والليل كيف محاه

والنهار كيف جلاّه ، ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ .

انظر إلى البحر كيف يلتقي المالح بالعذب ، ثم لا يبغي أحدهما على الآخر ، ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ، ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ .

يقف المؤمن ينادى البحر :

أيها البحر لا يَغُرَّنْك حولٌ
واتساع وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرّةٌ قد حَوَتْها
ذرّةٌ في فضاء ربي تدور
إنما أنت قطرةٌ في إناءٍ
ليس يدري مداه إلا القدير

ويجلس أمامه العاشق المدنف ، والمحب المتاوه ، فيشكو إليه هجر الحبيب ، وبعد الرفيق ، وكأنه يشتكي إلى عاقل بصير ، ولطيف خبير . وكم من محب فقد حبيبه ، وأليف فارق أليفه ، فوجد في البحر سلوة! ويجلس إليه المهموم الذي ضاقت به نفسه ، وأظلمت أمامه الحياة ، ولم يجد في البر مأوى يسكن إليه ، أو ركناً يأوي إليه فيشتكي له الهم ، ويبثه الغم ، ويتنفس الصعداء على شاطئه ، فيقوم عنه وقد هدأ همه ، وخفت وطأةُ غمه ؛ فكم من دموع أريقت على شاطئه ، وكم من نفس بكت على ساحله!! الخلوة مع الله تعالى على البحر لها طعم آخر ، والخلوة

مع النفس على البحر لها طعم آخر!! والخلوة مع الحبيب على البحر لها مذاقٌ آخر !! .

البحر صبور لا ييأس ، مُجدٌّ لا يمل ، قوي لا يضعف ؛ يحارب الصخور الصماء فيقلبها بصبره ، وينال من قسوتها وصلابتها مع رقته وسلاسته ، ويذيبها في نفسه ، فإذا هي لا شيء ، وإذا هو كل شيء . كم مرّت به من أمم؟! وكم عبرت عليه من دول؟! وكم استمتع بروعته من أناس؟! فمضوا وانقضوا ، وتولوا وانتهوا ، وهو لا يزال صامد ثابت ، رابضٌ في مكانه ، معتز بقوته ، لا يخشى ملكاً لملكه ، ولا جباراً لجبروته ، ولا غنياً لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، ولا بائساً لبؤسه عمقه هائل، موجه مضطرب حركته دائمة ، قوته ضخمة ، بطشته قاتلة ، وَثْبته مدمّرة ، باعث للحب ، مؤنس للقلب ، مثير للإجلال ، داعٍ إلى الإكبار، يسرح معه الخيال ، وتحلو إليه المناجاة ، وتنطلق معه النفس .

ولقد ركبت البحر يزار هائجاً
كالليث فارق شبله بل أحنقا
ولقد شهدتُ به حكيماً عاقلاً
ولقد رأيت به جهولاً أخرقا
مستوفز ما شاء أن يلهو بنا
مُتَرفّقٌ ما شاء أن يترفقا
تتنازع الأمواج فيه بعضها
بعضاً على جهلٍ تنازعنا البقا
بينا يراها الطرف سوراً قائماً
فإذا بها حالت فصارت خندقا

والفلك جارية تشق عبابه
شقاً كما تفري رداءً أخلقا
تعلو فنحسبها تؤم بنا السما
ونظن أنا راكبون مُحَلِّقا
حتى إذا هبطت بنا في لجة
أيقنت أن الموت فينا أحدقا

* بينهما برزخ لا يبغيان *

ونختم الحديث عن البحر بهذه الوقفة مع بعض آيات **الله** تعالى في البحر .

قال تعالى : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

اقتضت حكمة **الله** تعالى أن يكون الماء أكبر من اليابس على الكرة الأرضية ، فالماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ، ويشغل اليابس الربع . وتقسيم الماء على هذا النحو لم يجيء مصادفة ولا جزافاً ، فهو مقدر تقديراً عجيبا ، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة ، ويقول العلماء : « وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان » .

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله .

وتصب جميع الأنهار تقريباً في البحار ، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها .

واللؤلؤ والمرجان المذكوران في الآية هما من أعجب المخلوقات البحرية التي تنطق بعظمة الله تعالى وقدرته ، والمتأمل فيما في البحر من مخلوقات وما سخر الله تعالى في جوفه ، يجد العجب العجاب، والحكمة الإلهية ، والعظمة الربانية! .

قال تعالى : ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ .

ومن إعجاز القرآن العظيم في البحر قوله تعالى : ﴿مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان﴾ ، وقوله تعالى ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، بعد دراسة ورحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام وهي تجوب بحار العالم .

فبين البحار والأنهار برزخ وفاصل مائي يفصل بين البحر والنهر ، وبين البحار بعضها البعض فاصل وبرزخ يفصل بينها . فسبحان الخلاق العظيم ، وتبارك الواحد العظيم!! .

* وجعلنا من الماء كل شيء حي *

من أعظم آياته هذا الماء الرقراق ، والسلسبيل المتدفق ، الذي به قوام الحياة ، وأساس البقاء : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ، والماء بناؤه غريب وخبره عجيب فإذا تدفق الماء ، وأقبلت أمواجه ، أقبل معه البشر والعطاء والنماء والرغد والهناء ، بالماء تقوم الحقول ، وتتكاثر الحبوب ، وتميس الحدائق ، وتهمهم الجداول ، وتتراقص الخمائل ، وتشدو البلابل ، وتتمايل السنابل .

يأتي إلى أحبابه فيميس بين الزهور ، ويتجول في الحدائق ، كَيَدِ الطبيب على جفن المريض ، ويقبل إلى أعدائه فيزبد ويرعد ، ولا تمنعه السدود ، ولا ترده الحدود ، فيكسر الجسور ، ويقتلع الصخور ، ويدمر البيوت ، ويجعل عاليها سافلها حتى يأذن الله بسكونه ، ويأمر بهدوئه ، قال تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ ، فهو جندي من جنود الخالق .

من سيول يمجها الواديان
وثلوجٍ يذيبها العصران
ذو استواءٍ إذا جرى والتواءٍ
هل تأملتَ مزحف الأفعوان
فهو حيث استدار وقفُ لجينٍ
وهو حيث استطار سيفٌ يمان

إن مسته رحمة الله كان لطفاً وهناءً وبركة ، وإن مسه غضب الله كان دماراً وهلاكاً وسخطاً ونكداً ، قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السَّوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ .

إن **الله** تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار فتتبخر فيصعد إلى السماء ماءً عذباً لا ملوحة فيه ، فسبحان **الله** العظيم ، يرفع ماء البحر بخاراً ولا يرفع معه الملح الممتزج به ! ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ – أجاجاً يعني : مالحاً لا يطاق ولا يشرب– ومن حكمة **الله** أن هذا البخار المتصاعد في السماء لا يستمر في صعوده إلى القمر أو المريخ فيصب هناك وتحرم منه الأرض ، بل يتكثف في طبقات الجو العالية ، حيث درجة الحرارة منخفضة ، ويرفع في السماء لكي يبتعد عن مستوى الجبال لئلا تعوق انتقاله من بلد إلى بلد ، فبعد أن يتكون السحاب الركامي ، ويتكثف ويتجمع ويصدر أمر **الله** إليه ، يهبط حيث يريد مولاه ، وبأمره خالقه ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ .

ومن لطف **الله** تعالى بعباده أن ينزل عليهم هذا الغيث بقدر ، فلو سقطت جبال السحب الكثيفة الهائلة كما هي لهلك الناس .

هذا الذي أنزل سيلاً في البلدْ
فكيف لو صَبَّ جبالاً من بردْ
أنزله رفقاً بنا مدْرارا
وبعضَه سخره أنهارا

ومن لطفه تعالى أنه إذا أنزل الماء لم يبقه متجمعاً فوق الأرض فتصبح الأرض غير صالحة للسير عليها ، بل سلكه ينابيع في الأرض وحفظه في الآبار والعيون **﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾** .

فهو تعالى يحفظ هذا الماء في صحونٍ من الصخور الجوفية من غير أن يغور ويعمق في الأرض **﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾** .

* آيـة الكرسي *

آية جليلة القدر ، عظيمة الشأن ، رفيعة المنزلة ، بعيدة المكانة ، بيِّنة المهابة ، لها حلاوة وعليها طلاوة ، تنزل على القلب برداً سلاماً ، يسعد بها الفؤاد ، وتأنس لها النفس ، وتَسْتَرْوح بها الروح ، حبيبة إلى الرحمن ، حافظة للإنسان ، طاردة للشيطان ، حفظها أمن وأمان ، وقراءتها روح وريحان ، والترنم بها نعيم وسلوان . وهي أعظم وأجل آية في القرآن .

سأل النبي ﷺ أُبيَّ بن كعب : « أيّ آية في كتاب الله أعظم؟ » ، قال: الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال أُبيّ : آية الكرسي . قال : « ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين ، تقدس الملك عن ساق العرش » .

أية الكرسي بعيدة أسرارها ، عظيمة أخبارها ، حتى الشياطين عرفت مقدارها ، يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – : وكّلني رسول الله ﷺ

بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، قال : إني محتاج ، وعليّ عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخلّيتُ عنه . فأصبحت ، فقال النبي ﷺ : « يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة؟ » قال : قلت يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته وخلّيتُ سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : « إنه سيعود » فرصدته فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني ، فإني محتاج ، وعلي عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة؟ » قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة وعيالاً فرحمتُه فخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ، ثم تعود . فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت : ما هن . قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة؟ » قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال : « ما هي؟ » قلت : قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ ، وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعْلَم

من تخاطب مُذْ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا ، قال : « ذاك شيطان» .

﴿الله لا إله إلا هو﴾ : **الله** علم الأعلام ، وأعرف المعارف ، **الله** الذي له جميع معاني الألوهية ولا يستحق العبودية إلا هو ، فهو المتفرد بالإلهية على جميع الخلائق ، وهذه هي الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل ، هذه هي الوحدانية الناصعة ، فالعبودية لله ، والطاعة لله ، والحاكمية لله .

﴿الله﴾ بداية مشرقة ، وكلمة مؤنسة ، جاءت في أول الآية كالتاج على الرأس ، والفجر في الأفق ، والبسمة في الشفاه ، ثم أتى بعدها مباشرة بالصفة الأسمى ، والقضية العظمى ، جاءت كلمة التقوى ، وعنوان الدين ، وأساس الملة ، الكلمة التي من أجلها أنزلت الكتب ، وأرسل الرسل ، وأقيم سوق الجنة والنار وهي : **﴿لا إله إلا هو﴾** .

﴿الحي القيوم﴾ : الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، المقيم لغيره ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون فضله ، والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق ، **فالله** جل وعلا يتفرد بالحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية ، **﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾** ، ولذلك كان من دعائه ﷺ : « يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث» .

والقيوم بمعنى قيامه سبحانه على كل موجود ، وقيام كل موجود به ، فلا قيام لشيء إلا مرتكناً إلى وجوده وتدبيره ، فالمسلم يعلم أن ضميره وحياته ووجوده وكل شيء من حوله مرتبط **بالله** الواحد الأحد .

﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ : أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء ، لا يغيب عن شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم ، فقوله : ﴿ لا تأخذه سنة ﴾ أي لا تغلبه سِنَة ، وهي الوسن والنعاس ؛ ولهذا قال : ﴿ ولا نوم ﴾ ؛ لأنه أقوى من السِّنَة . وفي الصحيح عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حاجبه النور – أو النار – لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ : إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه ولا يخرج أحد منهم عن هذا الطور ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا ﴾ ، وهو الذي له الملك والتصرف والسلطان والكبرياء .

﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد على أن شفع عنده إلا أن يأذن له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة : « آتي تحت العرش فأخر ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تسمع ، واشفع تشفع » قال : « فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » .

إن كل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك ، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ﴾ . والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى ، ولا يرتضي إلا توحيده

واتباع رسله . وقد جاء الكلام في ثوب من الاستفهام المقصود به النفي ، أي لا أحد يملك الشفاعة عنده إلا بإذنه جل وعلا .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، كقوله إخباراً عن الملائكة : **﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾** .

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي : لا يطلع أحد على شيء من علم **الله** إلا بما أعلمه **الله** عز وجل وأطلعه عليه ، ، ويحتمل أن يكون المراد : لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم **الله** عليه ، كقوله تعالى : **﴿ ولا يحيطون به علما ﴾** .

فالله جل وعلا يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها ، ويعلم ما خلفهم من الأمور الماضية التي لا عد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية : **﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾** ، وأن الخلق مهما أوتو من علم وقدرة فلا يحيط أحد بشيء من علم **الله** أو معلوماته إلا بما شاء منها ، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشريعة والقدرية ، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته : **﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾** ، وقد قال أعلم الخلق به وهم الرسل والملائكة : **﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾** .

﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ : يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأن كرسيه وسع السموات والأرض ، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والأنظمة التي جعلها في المخلوقات .

﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي : لا يثقله ولا يُكرثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿وهو العلي﴾ بذاته على جميع مخلوقاته ، وهو العلي بعظمة صفاته ، وهو العلي الذي قهر المخلوقات ، ودانت له الموجودات ، وخضعت له الصعاب ، وذلت له الرقاب .

﴿العظيم﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء ، والمجد والبهاء ، الذي تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء – وإن جلت عن الصفة – فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

وبعد هذا التأمل في رحاب هذه الآية يجد المُتأمّل الحق لهذه الآية أن تكون آعظم آيات القرآن لما احتوته من المعاني التي هي من أجل المعاني ويحق لمن قرأها متدبراً متفهماً أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان .

يجب أن ننقش هذه الآية الكريمة في أذهاننا ، ونزرعها في وجداننا ، وتسري مع دمائنا ، يجب أن نربي أبنائنا على حفظها ، ونأمرهم بتعلمها وقراءتها في كل أوقاتهم وأحوالهم ولا سيما عند نومهم ، فهي بعد الله جل وعلا من خير ما يحفظهم به ، وهي خير لهم مما تُحشى به أذهانهم وتُصم به آذانهم مما لا فائدة فيه .

* إلى السماء *

هذه رسالة صادقة يبعث بها أحد الشعراء إلى الذي : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ ، رسالة من أجمل ما قرأت لكأني بها تخترق الحجب وتنفذ في صدقها وروعتها وجمالها إلى عالم غيب السماوات والأرض ، بواسطة : «أما إن ربك يحبُّ الثناء» إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلى الذي تعلقت به قلوب المحبين وهفت إليه أفئدة المتقين غفر الله لقائلها وناقلها وقارئها ، والقصيدة للشاعر محمد العلائي «مجلة الرسالة» :

لك الأمر لا يدري عبادك ما بيا
لك الأمر لا للناصحين ولا ليا
وهذي معاذيري وتلك صحائف
عليها خطاياها .. وفيها اعترافيا
وفيها من الأمس الدفين وحاضري
وفيها من الآتي وفيها ابتهاليا
وفيها تهاويلٌ .. ومهجة شاعر
ينام بها يأساً ويصحو أمانيا
وفيها أعاجيب يكفِّر همها ..
ذنوبي وإن كانت جبالاً رواسيا!!
ونازعني شوقٌ إليك وهزَّني
من الغيب ما يهفو إليه رجائيا
وجئت من الدنيا الأثيمة هارباً
بصفويَ من أكدارها ونقائيا

وفي النفس ما أخشى ظلام ضبابه
على نور إيماني ومسرى حيائيا
وذكرى من الماضي الشهيد وعالم
ورائيَ منه خدعة وأماميا!
وناديت أحلامي إليك وخافقاً
تهيّب أسباب المنى والتماديا!!
أناديك في ضعف . وأخجل أن ترى
جراحَ أمانيه ولون دمائيا
لك الأمر . أشواقي ببابك والمنى
ولي أملٌ ألا يطول انتظاريا
دعوتك بالسرُ المغيّب في دمي
وألهمني حبي وفاض عتابي
ولاح نشيد جئت أشرع لحنه
فهابتك أرضي واستحتك سمائيا
لك الأمر . مالي أرتجيك فيلتوي
لساني وأمضي بالتوسُّل شاكيا
ذكرُتُك في نفس هداها ضلالها
إليك وعافت وحدتي وارتيابيا
ومنَيْت روحي من سناك بلمحة
أضمّد آلامي بها وجراحيا
وارسلته فيما لديك لعله
يعود بأسباب المحبة راضيا

تعليتَ لم أذكر سواك بمحنتي
ولم أرْجُ إلا من يديك جزائيا
وفوَّضت عن علم إليك إرادتي
وحسبيَ ما أدّى إليه اختياريا
لك الأمر . شاقتني سماؤك وانتهى
إليك بأحلام الضمير مطافيا
وأنزلتُ آمالي وفيها ملامح
تردُّ أمامي ما تركت ورائيا !
يُطالعني منها زمان عرفتُه
بريح لياليه ولون سهاديا !!
تُقلِّب ذكراه الدفين وماضياً
تهرَّب منه في الشعاب خياليا !!
أطلَّت مآسيه ببابك فاستمعْ
إليها حديثاً لم يسعه بيانيا
ضياؤك أغرى باليقين جوارحي
وفجّر أعماقي وأفضى بذاتيا
لك الأمر أسباب ضعافٌ وخاطري
ببابك يخشى رجعتي وانحرافيا
دعوتك ملءَ النفس ألا تردَّه
مغيظاً وألا تستعيد سؤاليا !!
وحاشاك أن أرضى مع النفس مذهباً
بغير يقين منك يهدي شعاعيا !

كفانيَ أوهاماً فهب لي تميمة
بها أتّقي نفسي وشرٌّ ذكائيا!!
وبارك فجاج الأرض إلا مواضعاً
شربن دموعي أو شهدن عشاريا
تناسيتها لولا حديث أهاجه
تلفت أشواقي وخوف ارتداديا
وجدد لي همس الرحيل مكارهاً
تولّى شجاها والجراح كما هيا
وأيامي اللاتي ذهبن وعالماً
دفنت به عهدَ الصِّبَا وشبابيا
وأودعته سراً حراماً ولم أزل
أعود فأبكيه دموعاً غواليا
لك الأمر . هذا من يديك عدالة
وهذا قليل في مقام اتصاليا
أتيتك والحق الصريح يمدُّني
إليك ولحن البشر ملءُ فؤاديا
وفي النفس فجر من يقين وموكب
من الخير يحدوه إليك ولائيا
وفيها رجاءٌ فاض منك جلاله
وآفاق نور يستحيها ضيائيا
وأحببت حتى أسكرتني مودُّتي
وذاب يميني رحمة وشماليا!!

وهامت بآلام الحياة وسائلي
وفاضت على ما ليس مني هباتيا
وأرسلت أنسامي عبيراً وبهجة
لتنفح أشواك الرُبى والأفاعيا!!
وآمنت حتى كاد يذهب خاطري
وتصعد أنفاساً إليك حياتيا!
ولم يبق حرف منك إلا اسرَّه
ضميري وأبدته إليك سمائيا!!
لك الأمر آفاق تراءت لخاطري
وعاودني منها دبيب شكاتيا!
وذكرني بشرُ السماء منازلاً
اتيتك منها عابس الوجه داميا
اقلّب اوهامي يميناً ويسرة
وأرفع آمالاً إليك روانيا!!
ينازعني ماض شرقت بعذبه
وراودت فيه ما أشاب النواصيا
إذا طاف منه حول نفسيَ طائف
ذكرت زماني والسنين الخواليا
هناك وفي أرض عليها ملاعبي
وأطياف آبائي ولغْوُ دياريا
وفيها تعلاتي وراحُ مشاربي
وزلات أهوائي ودمع متابيا

وأحلامي الموتى وذات مواجعي
وأطلال مأساتي ورجع بلائيا
لك الأمر . ألهاني حديث أعاده
عليك ضميري واستحاه لسانيا !!
وأسرفت في ذكر المساء ولم أكن
لأسرف لولا رجفة من صباحيا
لك الأمر . نادت بالرحيل خواطري
وهبت على نفسي رياح اغترابيا
وذكّرتها أن الشعاب جديدة
وأن عليها من سناك هواديا !
وأن شعابَ الأمس واجهتُ غيُّها
على غير إيمان فكانت مهاويا !!
هي الأرض تبلوني لتبلو وخطبها
على نور إدراكي وضوء نفاذيا !!
لك الأمر . مالي في وداعك باهتا
ومالي أخطو شاحب النفس نائيا
لك الأمر . لاحت من بعيد مذاهبي
وآذن حاديها وآن ارتحاليا !!
ورَفَّتْ عليها من سناك مآثر
ورفت عليها غايتي وصلاتيا
تَنسَّمْتُ أمواج الرحيلِ وأشرفت
عليَ أمانية فَبَارِك شراعيا !!

* لا تخفى عليه خافية *

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ .

يا للروعة والجمال ، والعظمة والكمال ، إيجاز وإعجاز ، إمتاع وإقناع ، سهولة وإبداع . هذه الآية الموجزة تنبىء بعظمة **الله** ، وتخبر بسعة علمه ، وشمول إحاطته ، وكريم رحمته .

لقد وردت هذه الآية بهذا النص في موضعين ، الموضع الأول في سورة سبأ ، وهي الآية الثانية منها ، والموضع الثاني في سورة الحديد ، وهي جزء من الآية الرابعة .

والفرق بينهما في المقدمة والخاتمة ، في سورة سبأ قدم لها بالحمد **لله** والثناء عليه وأنه أهل الثناء والمجد والتقديس والحمد ؛ لأنه الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، وختمت بقوله تعالى : **﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾** .

وفي سورة الحديد قدم لها بالتسبح **لله** تعالى وأن ما في السماوات والأرض يسبح له ؛ لأن له ملك السموات والأرض وهو الذي يحي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وختمت الآية بقوله : **﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾** .

ولنتأمل هذه الآية البديعة في الموضعين اللذين وردت فيهما في كتاب **الله** تعالى .

في سورة سبأ قال تعالى : **﴿ الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في الأرض وما**

يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ .

وفي سورة الحديد قال تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

إنها آية بديعة ، ألفاظ ساحرة ، ومعان آسرة ، تأخذ بزمام النفس ، وتستولي على اللب ، وتنقش أثرها في القلب ، هذه الآية لو أراد الإنسان أن يعطيها حقها من الدراسة ، ونصيبها من التأمل لمكث أياماً وليالي ولم يرجع من ذلك إلا بما يرجع به من ملأ مزودته من ماء نهر عذب رقراق .

إنها تصور علم الله الشامل المحيط الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته مهما علم المخلوقون من ظواهر الأشياء ، فهم جميعاً في قبضته ، وأثر من آثار عظمته ، وذرة من ذرات صنعه ، أدعوك أن تسرح بخيالك وتسيح بفكرك فيما تنبيء به هذه الآية من هذا الكتاب العظيم .

« لو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين! .

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها ؟

كم من شيء يلج في الأرض ؟ كم من حبة تختبيء في جنبات هذه الأرض ؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة؟ وكم وكم مما يلج في الأرض مما لا عد له ولا حصر من شتى الأنواع والأحياء والأشياء وعين الله عليه ساهرة لا تنام؟!.

وما يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور يتكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور؟ وكم وكم مما يُرى ومما لا يُرى ، ومما يعلم البشر ومما يجهلونه وهو كثير؟؟ .

وكم مما ينزل من السماء؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب؟ وكم من شعاع محرق؟ وكم من شعاع منير؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر؟ .. وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله؟.

وكم مما يعرج فيها؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما يعرفه الإنسان؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستترة لم يسمعها إلا الله في علاه؟ .

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا

يعلمه إلا الله؟ .

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟! .

كم في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء ؟ وعلم الله الكامل الهائل اللطيف العميق يحيط بها كلها في كل مكان وفي كل زمان .. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر .. ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ » .

ثم لماذا هذا الختام الجميل للآية : ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ .

قد يتوهم من يسمع هذه الآيات الدالة على العظمة ؛ المشيدة بالكبرياء أن هذا الرب العظيم القدير المالك المتصرف المهيمن ، أنه رب ليس في كونه الهائل وتدبيره المذهل ، ليس فيه مجال للرحمة وطريق للعفو وقبول المفرطين ، فيأتي دفع هذا التوهم في ختام الآية ويعلن جل وعلا أن هذا الرب الخالق المالك الرازق العليم الخبير السميع هو مع ذلك كله رحيم وسعت رحمته كل شيء وهو الغفور ، يغفر الذنب ويقبل التوب ويعفو عن السيئات .

وفي الآية الثانية تختتم الآية بمعنى مغاير لهذا المعنى : ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ ، فهذا الخالق الرازق المالك المتصرف الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض لا ينطرق إلى أذهانكم أنه يغفل عما تعملون ، أو لا يعرف ماذا تفعلون ، والواجب عليكم وقد عرفتم

عظمته ، ورأيتم قدرته ، وعلمتم بديع صنعه ، وشمول علمه ، الواجب عليكم أن تعبدوه وتطيعوه وتراقبوه ، فهو معكم أينما كنتم وهو بما تعملون بصير .

إن شعور المؤمن بمعية الله له يرفعه ويطهره ويجعله مشغولاً بهذه المعية عن غيرها ، ويجعله في حذر دائم وخشية دائمة لمن هو معه أينما كان .

الآيات التي تتحدث عن علم الله تعالى وشموله وإحاطته كثيرة جداً في كتاب الله تعالى ، آيات تأخذ بالألباب وتهز النفوس وتزرع العظمة والإجلال والمحبة والإكبار ، وهذه الآيات لها أهميتها ، ولها أثرها العميق لدى أولي الألباب ، فالمرء حينما يعلم سعة علم الله تعالى وإحاطته وشموله ومراقبته ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه ذرة ، وأنه معه أينما كان ، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، يعلم خلجات الأنفس ، وخواطر القلوب وخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، إذا تمثل المرء هذه الحقائق استقامت حياته وخشعت جوارحه ، وطابت أقواله ، وحسنت أعماله ؛ لأنه يعلم أنه في قبضة العليم الخبير ، السميع البصير الذي أخبر عن نفسه بقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ، وهو القائل : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ ، وهو القائل : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

* سبحان الله عما يصفون *

الله جل وعلا وصف نفسه بصفات عديدة ، وتسمى بأسماء بديعة في كتابه العظيم وعلى لسان نبيه الكريم ﷺ ، وهذه الأسماء والصفات التي وصف نفسه بها أو وصفه بها نبيه ﷺ يجب الإيمان بها إيماناً جازماً ، وأنها صفات كمال وجمال وجلال نؤمن باتصاف المولى بها ولكننا نجهل كيفيتها فذلك مما لم تدركه عقولنا ولم تصله أفهامنا ، وإن السلف الصالح - رضوان الله عليهم - كانوا يدركون هذه الحقائق العظيمة ، فلذلك لم يزجوا بأنفسهم في متاهات الشك وساذج الأسئلة ، فلم يعرف عن أحد من الصحابة أنه كان يخوض في ذلك أو يسأل النبي ﷺ عن كيفية صفات الله تعالى ، فقد آمنوا بقوله : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . هذه هي عقيدة سلف الأمة ، وقد قررها وحرّرها عدد من علماء الإسلام كالإمام الطحاوي الحنفي - رحمه الله - ، وأبو الحسن الأشعري ، وابن تيمية ، وابن القيم ، والذهبي - رحمهم الله جميعاً - .

* العلماء يُقرّرون عقيدة السلف *

الإمام ابن تيمية :

وقد أوجز الإمام ابن تيمية - رحمه الله - مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات فقال : (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه . وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من

غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

وقد حذّرنا **الله** من الانحراف عن النهج الذي قرره **الله** في كتابه في أسمائه تعالى وصفاته ، فقال : **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾** وأصل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة القبر .

وقال تعالى منزهاً نفسه عما يصفه به الملحدون في أسمائه ، الضالون المشركون : **﴿سبحان الله عما يصفون﴾** ، **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾** ، واستثنى من ذلك ما وصفه به عباده المخلصون : **﴿إلا عباد الله المخلصين﴾** وفي الآية الأخرى سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه ووصفوا **الله** به : **﴿وسلام على المرسلين﴾** .

الإمام الذهبي :

يقول الإمام الذهبي – رحمه **الله** – : (فإذا أحببت يا عبد **الله** الإنصاف ، فقف مع نصوص القرآن والسنن ، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات ، وما حكوه من مذاهب السلف ، فإما أن تنطق بعلم ، وإما أن تسكت بحلم ، ودع المراء والجدال ، فإن المراء في القرآن كفر ، كما نطق بذلك الحديث الصحيح ، وسترى أقوال الأئمة في ذلك على طبقاتهم بعد سرد الأحاديث النبوية . جمع **الله** قلوبنا على التقوى وجنبنا المراء والهوى ، فإننا على أصل صحيح ، وعقد متين ، من أن **الله** تقدس اسمه لا مثيل له ، وأن إيماننا بما ثبت من نعوته كإيماننا بذاته المقدسة عن الأشباه من غير أن نتعقل الماهية ، فكذلك القول في صفاته ،

نؤمن بها ، ونعقل وجودها ، ونعلمها في الجملة من غير أن نتعقلها أو نشبهها أو نكيفها أو نمثلها بصفات خلقه ، تعالى **الله** عن ذلك علواً كبيراً فالاستواء – كما قال مالك الإمام وجماعة – معلوم ، والكيف مجهول .

الشيخ حافظ الحكمي :

ويقول الشيخ العلامة حافظ الحكمي – رحمه **الله** – : «وجل **الله** عن أن يشبه الأنام في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله لان الصفات تابعة لموصوفها ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات ، ولو اهتدى المتكلمون لهذا المعنى – الذي هدى **الله** إليه أهل السنة والجماعة – لَمَا نفوا عن **الله** ما وصف به نفسه ووصفه به رسول **الله** ﷺ و لَمَا عطلوه عن صفات كماله ونعوت جلاله فراراً بزعمهم من التشبيه فوقعوا في أعظم من ذلك ولزمهم أضداد ما نفوه من الصفات الثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع سلف الامة ، وسبب ضلالهم أنهم تقدموا بين يدي **الله** ورسوله واتهموا الوحيين فيما نطقا به ووزنوهما بعقولهم السخفية وأذهانهم البعيدة وقوانينهم الفاسدة التي هي ليست من **الله** في شيء ، ولا من علوم الإسلام في ظل ولا فيء ، وإنما هي أوضاع مختلفة أدخلها الأعادي على أهل الإسلام لقصد إظهار الفساد ، ولغرس شجرة الإلحاد المثمرة تعطيل الباري عز وجل عن صفات كماله وعلوه واعتقاد الحلول والاتحاد .

جاؤوا بها في قالب التنزيه
لله كي يغوون كل سفيه
قالوا صفات كماله منفية
عنه مخافة موجب التشبيه

تعطيلهم سموه « تنزيهاً » له
ليروّجوا فاعجب لذا التمويه
والوحي قالوا نصه لا يوجب الـ
ـعلم اليقين فأي دين فيه
ما الدين إلا ما عن اليونان قد
جئنا به طوبى لمن يحويه
نبذوا كتاب **الله** خلف ظهورهم
وبقوا حيارى في ضلال التيه

فسموا النور الذي أنزل **الله** عز وجل على رسوله ﷺ تفصيل كل شيء وتبياناً لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء ، وبيان النبي ﷺ من جوامع كلمه التي اختصه **الله** بها ، فسموا ذلك كله « آحاداً ظنية لا تفيد اليقين » ، وسموا زخارف أذهانهم ووساوس شيطانهم « قواطع عقلية » ، لا و**الله** ما هي إلا خيالات وهمية ووساوس شيطانية ، هي من الدين بريئة وعن الحق أجنبية توجب الحيرة وتعقب الحسرة ، كثيرة المباني قليلة المعاني كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، ويا ليته إذا جاءه لم يجده شيئاً لكن وجده السم النقيع والداء العضال ، فخاخ هلكة نصبها الأعداء لاصطياد الأغبياء ، وخدعة ماكر في صورة ناصح فعل عدو **الله** اللعين في قصته مع الابوين – عليهما السلام – في دلالتهما على الشجرة التي نهاهما ربهما عنها : **﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور﴾** .. إلى آخر الآيات ، وكذلك كتب الكلام والمنطق اليوناني أدخله الأعداء علينا وسموه علم التوحيد تلبيساً وتمويهاً وما هو إلا سلم الإلحاد والزندقة ، وجحدوا صفات الباري عز وجل

وسموا ذلك تنزيهاً ليغروا الجهال بذلك ، وإنما هو محض التعطيل . وسموا أولياء **الله** المؤمنين الذين عرفوه بأسمائه وصفاته مشبهة لينفروا الناس عنهم مكراً وخديعة ، فاصبح المغرور بقولهم المخدوع بمكرهم حائراً مخذولاً لأنهم لما عزلوا كتاب **الله** عن البيان وحكموا عقولهم السخيفة في نصوص صفات الديان لم يفهموا منها إلا ما يقوم بالمخلوق من الجوارح والأدوات التي منحه **الله** إياها ومتى شاء سلبه ، ولم ينظروا المتصف بها من هو ، فلذلك نفوها عن **الله** عز وجل لئلا يلزم من إثباتها التشبيه ، فشبهوا أولاً وعطلوا ثانياً ، فلما نفوا عن **الله** صفات كماله لزمهم إثبات ضدها وهو النقائص ، فمن نفى عن **الله** كونه سميعاً بصيراً فقد شبهه بما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً وكذلك سائر الصفات ، وماذا عليهم لو أثبتوا **لله** عز وجل ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ كما شاء **الله** تعالى وعلى الوجه الذي أراد ، فجميع صفاته صفات كمال وجلال تليق بعظمة ذاته ونفيها ضد ذلك » آهـ.

* قواعد مهمة في الأسماء والصفات *

وهناك قواعد مهمة في الأسماء والصفات ذكرها ابن تيمية – رحمه **الله** – وغيره من العلماء ، ومنها :

القاعدة الأولى : القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر:

بهذه القاعدة نرد على عدة طوائف :

أ – الذين يثبتون بعض الصفات كالذين يثبتون **لله** الحياة والعلم والقدرة

والسمع والبصر والكلام والإرادة ويجعلونها صفات حقيقية ثم ينازعون في محبة **الله** ورضاه ، وغضبه وكراهيته ويجعلون ذلك مجازاً أو يفسرونه بالإرادة أو يفسرونه بالنعم والعقوبات .

فيقال لهؤلاء : لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه ، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر ، فإن كنتم تقولون حياته وعلمه .. كحياة المخلوقين وعلمهم ، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته كذلك ، وإن قلتم له حياة وعلم وإرادة .. تليق به ولا تشبه حياة المخلوقين وعلمهم وإرادتهم ، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته وغضبه كذلك ، وإن قلتم إن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فكذلك يقال : الإرادة ميل النفس إلى جلب مصلحة أو دفع مضرة ، فإن قلتم هذه إرادة مخلوق ، قلنا : هذا غضب مخلوق .

ب - الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات ، فيقولون : حيٌ بلا حياة ، عليم بلا علم .. إلخ .

فهؤلاء يقال لهم : لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ، فإنك إن قلت إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي التشبيه أو التجسيم لأنا لا نجد متصفاً بالصفات إلا وهو جسم ، قلنا : وكذلك في الأسماء ، إذ لا نجد ما هو مسمى بحيٍ وعليم وقدير إلا ما هو جسم ، فانف أسماء **الله** فإن قالوا : هذه الأسماء تليق بكماله وجلاله قلنا : وكذلك صفاته .

ج - الذين ينفون الأسماء والصفات فإنهم بزعمهم ينفون ذلك حتى لا يشبهوا **الله** بالموجودات فيقال لهم : نفيتم علمه وحياته .. كما نفيتم أنه عليم حي خشية أن تشبهوه بالموجودات ، ولكن يلزم قولكم

هذا تشبيه الله بالمعدومات .

القاعدة الثانية : القول في الصفات كالقول في الذات :

فالله سبحانه له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه ذوات المخلوقين وأفعالهم .

إذ يلزم من أقرّ بأن **لله** حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول : إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم .

فإذا قال قائل أنا أنفي استواء **الله** خشية من تشبيه **الله** بخلقه ، فيقال له : انف وجود **الله** وذاته ، لأنه يلزم من ذلك تشبيه **الله** بخلقه ، فإن قال: **لله** وجود يخصه وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين ، قلنا : وكذلك نزوله واستواؤه .

القاعدة الثالثة : الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات :

فإننا نعلم أن ما أخبرنا **الله** تعالى به مما في الجنة من لبن وعسل وخمر .. حق ، وهذه الحقائق وإن كانت موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا فإنها لا تماثلها . بل بينها وبين ما في الدنيا من المباينة ما لا يعلمه إلا **الله** تعالى ، فالخلق أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق ، بل قد تسمى في الدُّنيا عدّة أشياء باسم واحد ، ويكون لكل واحد حقيقة تخصه، فإننا نقول مثلاً : يد الجمل ، ويد المحفظة ، ويد الإنسان ، واليد في كل لفظ من الألفاظ الثلاثة لها معنى يخصها .

يقول الشيخ حافظ الحكمي - رحمه الله - : «فالواجب علينا أيها العبيد الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وإمرارها كما جاءت واعتقاد أنها حق كما أخبر الله عز وجل وأخبر رسوله ﷺ ، وعدم التكييف والتمثيل ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا بأسمائه وصفاته وأفعاله ولم يبين كيفيتها فنصدق الخبر ونؤمن به ونكل الكيفية إلى الله عز وجل ، فصفات ذاته تعالى من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها ، وكذلك صفات أفعاله من الاستواء على العرش والنزول إلى سماء الدنيا والمجيء لفصل القضاء بين عباده وغير ذلك ، كلها حق على حقيقتها ، علمنا اتصافه تعالى بها ما علمنا في كتابه وسنة رسوله ﷺ ، وغاب عن جميع المخلوقين كيفيتها ولم يحيطوا بها علماً ، كما قالت أم سلمة - رضي الله عنها - وربيعة الرأي ومالك بن أنس وغيرهم - رحمهم الله تعالى - : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق والتسليم ، وكذلك القول في جميع صفاته عز وجل ، وإنا والله لكالون حائرون في كيفية سراية الدم في أعضائنا وجريان الطعام والشراب فينا ، وكيف يدبر الله تعالى قوت كل عضو فيه بحسب حاجته ، وفي استقرار الروح التي هي بين جنبينا ، وكيف يتوفاها الله في منامها وتعرج إلى حيث شاء الله عز وجل ويردها إذا شاء ، وفي كيفية إقعاد الميت في القبر وعذابه ونعيمه ، وكيفية قيام الأموات من القبور حفاة عراة غرلاً ، وكيفية الملائكة وعظم خلقهم ، فكيف العرش الذي لا يقدر قدره إلا الله عز وجل ، كل ذلك نجهل كيفيته ونحن مؤمنون به كما أخبرنا الله عز وجل عنه على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - إيماناً بالغيب وإن لم نعلم

الكيفية ، فكيف بالخالق عز وجل وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، آمنا به كل من عند ربنا ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) اهـ .

من نونية ابن القيم :

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله –

فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثـ
ـم اجعله داخل كفّة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيُّها
أولى لدى الميزان بالرجحان
لسنا نُشبّه وصفه بصفاتنا
إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نُخليه من أوصافه
إن المعطل عابد البهتان
من مثّل الله العظيم بخلقه
فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطّل الرحمن من أوصافه
فهو الكفور وليس ذا إيمان

* * *

هذا ومن توحيدهم إثبات أو
صاف الكمال لربنا الرحمن

كعُلُوِّه سبحانه فوق السما
وات العُلا بل فوق كل مكان
فهو العليُّ بذاته سبحانه
إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو الذي حقًّا على العرش استوى
قد قام بالتدبير للأكوان
حيٌّ مُريدٌ قادرٌ متكلمٌ
ذو رحمةٍ وإرادةٍ وحنان
هو أوّلٌ هو آخر هو ظاهر
هو باطن هي أربعٌ بِوِزان
ما قبله شيءٌ كذا ما بعده
شيءٌ تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيءٌ كذا ما دونه
شيءٌ وذا تفسير ذي البُرهان
فانظر إلى ما فيه من أنواع مـعـ
ـرفة لخالقنا العظيم الشان
وهو العليّ فكل أنواع العُلـ
ـو له فثابتة بلا نُكران
وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ
ـعظيم لا يُحصيه من إنسان
وهو الجليل فكل أوصاف الجلا
ل له مُحققة بلا بطلان

وهو الجميل على الحقيقة كيف لا
وجمال سائر هذه الأكوان
من بعض أثار الجميل فربها
أولى وأجدرُ عند ذي العرفان
فجماله بالذات والأوصاف وال
أفعال والأسماء بالبرهان
لا شيء يشبه ذاته وصفاته
سُبحانه عن إفْكِ ذي بُهتان
وهو المجيد صفاته أوصاف تع
ظيم فشأن الوصف أعظم شان
وهو السميع يرى ويسمع كل ما
في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر
فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا
يخفى عليه بعيدها والدّاني
وهو البصير يرى دبيب النملة الس
وداء تحت الصخر والصّوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها
ويرى نياط عُروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها
ويرى كذاك تقلب الأجفان

وهو العليم أحاط علماً بالذي
في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه
فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما
قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمرٌ لم يكن لو كان كيـ
ـف يكون ذا إمكان

ولا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق المسميات ، فإن الله تعالى قد سمى نفسه سميعاً بصيراً ، وأخبرنا أنه جعل الإنسان سميعاً بصيراً ، وسمى نفسه الرؤوف الرحيم ، وأخبر أن نبيه ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وسمى نفسه الملك فقال : ﴿ملك يوم الدين﴾ ، ﴿ملك الناس﴾ وسمى بعض خلقه ملكاً فقال : ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ ، وهو العزيز وسمى بعض عباده عزيزاً .. وغير ذلك ، فلا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق الأسماء ومقتضياتها ، فليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ولا الرأفة كالرأفة ولا الرحمة كالرحمة ولا العزة كالعزة ، كما أنه ليس المخلوق كالخالق ولا المحدث الكائن بعد أن لم يكن كالأول الآخر الظاهر الباطن ، وليس الفقير العاجز عن القيام بنفسه كالحي القيوم الغني عما سواه وكل ما سواه فقير إليه ، فصفات الخالق الحي القيوم قائمة به لائقة بجلاله أزلية بأزليته دائمة بديموميته ، لم يزل متصفاً بها ولا يزال كذلك ، لم تسبق بضد ولم تعقب به ، بل له تعالى الكمال المطلق أولاً وأبداً : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، فمن شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه .

* له الأسماء الحسنى *

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ ، له تعالى تسعةٌ وتسعون اسماً من أحصاها وحفظها دخل الجنة ، يقول ﷺ : «إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» ، وليس معنى ذلك حفظ هذه الأسماء حفظاً باهتاً جامداً لا روح فيه ، ولا معرفة لحقوقه ، ولكنه حفظها ومعرفتها والقيام بعبوديتها . وكما أن القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به فكذلك الأسماء لا تنفع من لا يقوم بفحواها ، ويعيش مبناها ومعناها ، وهذا الحديث لا يعني أن هذه هي أسماؤه – جل وعلا – فقط ، فله أسماء غيرها لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : «أسألك بكل اسم هولك ، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» .

فأسماؤه تعالى أربعة أقسام : قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ، ولم ينزل به كتابه . وقسم أنزل به كتابه ، فتعرف به إلى عباده . وقسم علمه بعض خلقه من رسله وأصفيائه وأوليائه . وقسم استأثر به في علم الغيب عنده فلم يطلع عليه أحد من خلقه .

فهو تعالى كما قال ﷺ : «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

ولم يرد حديث صحيح يسرد أسماء الله تعالى سرداً لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها ، ولعل الإمام ابن حجر العسقلاني قد قارب الصواب عندما عد تسعة وتسعين اسماً أخذها من القرآن الكريم ، وهو بذلك يوافق

حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – في عدها ، ونحن نذكرها كما ذكرها الحافظ ابن حجر – رحمه الله – :

١ – الله ٢ – الرب ٣ – الإله ٤ – الواحد ٥ – الرحمن
٦ – الرحيم ٧ – الملك ٨ – القدوس ٩ – السلام ١٠ – المؤمن
١١– المهيمن ١٢– العزيز ١٣– الجبار ١٤– المتكبر ١٥– الخالق
١٦– البارىء ١٧– المصور ١٨– الأول ١٩– الآخر ٢٠– الظاهر
٢١– الباطن ٢٢– الحي ٢٣– القيوم ٢٤– العلي ٢٥–العظيم
٢٦– التواب ٢٧– الحليم ٢٨– الواسع ٢٩– الحكيم ٣٠– الشاكر
٣١– العليم ٣٢– الغني ٣٣– الكريم ٣٤– العفو ٣٥– القدير
٣٦ – اللطيف ٣٧– الخبير ٣٨– السميع ٣٩– البصير ٤٠–المولى
٤١– النصير ٤٢– القريب ٤٣– المجيب ٤٤– الرقيب ٤٥–الحسيب
٤٦– القويّ ٤٧– الشهيد ٤٨– الحميد ٤٩– المجيد ٥٠– المحيط
٥١– الحفيظ ٥٢– الحق ٥٣ – المبين ٥٤– الغفار ٥٥– القهار
٥٦– الخلاق ٥٧– الفتاح ٥٨– الودود ٥٩–الغفور ٦٠– الرؤوف
٦١– الشكور ٦٢– الكبير ٦٣– المتعال ٦٤– المقيت ٦٥– المستعان
٦٦– الوهاب ٦٧– الحفي ٦٨– الوارث ٦٩– الولي ٧٠– القائم
٧١– القادر ٧٢– الغالب ٧٣– القاهر ٧٤– البر ٧٥– الحافظ
٧٦– الأحد ٧٧– الصمد ٧٨– المليك ٧٩– المقتدر ٨٠– الوكيل
٨١– الهادي ٨٢– الكفيل ٨٣– الكافي ٨٤–الاكرم ٨٥– الاعلى
٨٦– الرزاق ٨٧ – ذو القوة المتين ٨٨ – غافر الذنب ٨٩ – قابل التوب
٩٠ – شديد العقاب ٩١ – ذو الطول ٩٢ – رفيع الدرجات
٩٣ – سريع الحساب ٩٤ – فاطر السماوات ٩٥ – بديع السماوات والأرض
٩٦– نور السماوات والأرض ٩٧– مالك الملك ٩٨، ٩٩ – ذو الجلال والإكرام

* من معاني الأسماء *

هذا شرح موجز ، وتعريف يسير ، لبعض أسماء **الله** الحسنى ، وهو مأخوذ من كتيب قيِّم للشيخ محمد حسنين مخلوف - رحمه **الله** - :

الله : عَلَمٌ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد . وهو أعظم أسمائه تعالى لدلالته على الذات العلية الجامعة لكل صفات الألوهية المنعوتة بنعوت الربوبية ، المنفردة بالوحدة في الذات والصفات والأفعال المعبودية بحق ، فلا إله إلا **الله** ، ولا رب سواه ، ولا معبود بحق إلا هو ، وهو اسم انفرد به سبحانه فلم يُسَمَّ به غيره أصلاً كما ذكره الإمامان أبو حنيفة والشافعي والجمهور ، وغيره من الأسماء صفات له عز وجل تجري عليه وتدل على المعاني الثابتة له تعالى ، كالحياة والعلم والقدرة على وجه الكمال والتقديس . قال تعالى : ﴿ **الله** لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ، ﴿ **الله** نور السماوات والأرض ﴾ ، ﴿ اعبدوا **الله** ما لكم من إله غيره ﴾ .

الرحمن الرحيم : اسمان عربيان له تعالى . من الرحمة وهي تقتضي التفضل والإحسان ، ويراد بها غايتها ، وهي إرادة إيصال الخير والثواب لمن يشاء من عباده ، ودفع الشر عنهم أزلاً ، أو هي إيصال الخير لهم ودفع الشر عنهم فيما لا يزال ، وعلى الأول يكون الرحمن والرحيم من صفات الذات ، وعلى الثاني من صفات الفعل .

ومعناهما : الرحمن بما ستر في الدنيا وأفاض من الخير على المحتاجين من عباده ، والرحيم بما غفر في العقبى وجاد بالفضل والإنعام على العباد ، أو الرحمن الذي إذا سُئل أعطى ، والرحيم الذي إذا لم يُسأل يغضب ، أو

الرحمن بإزالة الكروب والعيوب ، والرحيم بإنارة القلوب بالغيوب ، أو الرحمن لتعليم القرآن ، والرحيم للمؤمنين بتشريف التسليم والتكريم ، قال تعالى : ﴿الرحمن * علم القرآن﴾ ، وقال : ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ ، أو الرحمن الرحيم بكل ذلك وهو الأولى .

والرحمن عند الأكثر أبلغ من الرحيم ، ولذا اشتهر في الدعاء يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، ومعلوم أن رحمته تعالى في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، وذلك بإيصال الرزق ، وخلق الصحة ، ودفع الأسقام والمصائب ، بخلاف رحمته في الآخرة فإنها مختصة بالمؤمنين ، وفي الأثر عن عيسى – عليه السلام – أنه قال : « الرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة » .

وقد اختص **الله** تعالى باسم الرحمن فلم يسم به غيره جاهلية وإسلاماً كما اختص بلفظ الجلالة .

القدوس : المنزه عن سمات النقص والعيوب وموجبات الحدوث ، أو من تقدست عن الحاجات ذاته وتنزهت عن الآفات صفاته ، أو من تقدس عن مكان يحويه وعن زمان يبليه مشتق من القدس وهو الطهارة والنزاهة ولذا يقال « البيت المقدس » أي المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب وقيل لأمير الوحي جبريل – عليه السلام – روح القدس لطهارته من العيوب في تبليغ الوحي إلى الرسل – عليهم السلام – ، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أي نطهر أنفسنا لك .

المؤمن : المصدق نفسه وكتبه ورسله فيما بلغوه عنه إما بالقول وإما بخلق المعجزات ، مأخوذ من الإيمان وهو التصديق ، أو المؤمن عباده من

المخاوف بخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم ، من الأمن ضد الخوف قال تعالى : ﴿ المؤمن المهيمن ﴾ .

المهيمن : الرقيب الحافظ لكل شيء المبالغ في المراقبة والحفظ ، أو الشاهد على خلقه بما يصدر منهم من أقوال وأعمال ، فهو العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأكوان ، وهو الرقيب عليهم لقوله : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ ، أو من اجتمع فيه العلم بجميع الأشياء والقدرة التامة على تحصيل جميع المصالح ، والمواظبة على تحصيلها ، ولن يجتمع ذلك على الكمال إلا لله تعالى وحده ، أو الذي يعلم السر والنجوى ، ويسمع الشكر والشكوى ، ويدفع الضر والبلوى ، قال تعالى : ﴿ المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ .

الجبار : الذي يقهر عباده على كل ما يريد ويقسرهم عليهم ، أو المنيع الذي لا يُنال ، يقال للنخلة إذا طالت وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها نخلة جبارة ، أو المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه إصلاحهم من جبر الكسر إذا أصلحه ، والله تعالى مصلح لأمور الخلق كلهم . قال تعالى : ﴿ الجبار المتكبر ﴾ .

المتكبر : البليغ الكبرياء والعظمة ، أو الذي يكبر عما يوجب نقصاناً أو حاجة ، أو المتعالي عن صفات المخلوقات بذاته وصفاته العلية ، أو الملك الذي لا يزول سلطانه ، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد . قال تعالى : ﴿ هو الله لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **فالحكم لله العلي الكبير** ﴾ .

الخالق : المقدر للأشياء المكون لها على مقدار معين بقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ، قال تعالى : ﴿ **تبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ أي المقدرين ، ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ فالخلق هو التقدير المستقيم ، والأمر هو قوله تعالى : ﴿ **كن فيكون** ﴾ ، أو الخالق المبدع للأشياء الموجد لها من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ ، أي أبدعناه وأوجدناه بقدر : ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ ، ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ ، ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم** ﴾ ، أي موجد ومبدع غيره تعالى يرزقكم؟ ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ أي كما أبدعنا وأوجدنا الخلق أولاً نعيده ثانياً بقدرتنا ، ﴿ **قل الله خالق كل شيء** ﴾ أي الموجد المبدع لكل شيء أو المقدر لكل شيء بعلمه وقدرته وإرادته وحكمته .

البارىء : الموجد للأشياء بريئة من التفاوت وعدم تناسب الأجزاء مأخوذ من البرء وأصله خلوص الشيء عن غيره ، فهو أخص من الخالق ، أو المقدر لها بمقاديرها بحكمته ، قال تعالى : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم** ﴾ ، أو المميز الأشياء بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة .

المصور : الذي صور جميع الموجودات ورتبها على اختلافها وكثرتها وتنوعها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها عن غيره أو المبدع لصورها وكيفيتها كما أراد ، قال تعالى : ﴿ **خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ ، ﴿ **وصَوركم فأحسن صوركم** ﴾ ، فأعطاكم الصور الحسنة التي أرادها لكم .

فالله تعالى يخلق الأشياء ويقدر مقاديرها ويبرئها ويصورها على

حسب الحكمة والمصلحة جل جلاله ، قال تعالى : ﴿هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى﴾ .

الغفار : الذي أسبل الستر على الذنوب في الدنيا وتجاوز عن عقوبتها في الآخرة من الغفر بمعنى الستر لغة ، ويطلق مجازاً على العفو والصفح ، قال تعالى : ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ، ﴿واستغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ ، ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ .

وهو تعالى غافر وغفور ، قال تعالى : ﴿غافر الذنب﴾ ، ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ ، ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ ، ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ .

والغفور أبلغ من الغافر والغفار أبلغ من الغفور ؛ لأنه وضع للتكثير ومعناه أنه يغفر الذنب أبداً ، والله ذو مغفرة ، قال تعالى : ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ .

القهار : الذي طلحت عند صولته صولة المخلوقين ، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين ، أو الذي يقصم ظهور الجبابرة فيقهرهم بالإذلال والإهانة والنكبات والإهلاك ، من القهر وهو الغلبة وصرف الشيء عما طبع عليه بالقسر .

قال تعالى : ﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾ ، ﴿وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾ ، ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ ، ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ ، والقهار مبالغة في القاهر وهو تعالى القاهر والغالب

على أمره ، قال تعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ ، وقال : ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

الرزاق : المتولي خلق الأرزاق المتفضل بإيصالها إلى العباد والمسبب لها الأسباب ، قال تعالى : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ، وهو مبالغة ي حد الرزق ، قال تعالى : ﴿والله خير الرازقين﴾ ، ﴿وإن الله لهو خير لرازقين﴾ ، ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء﴾ ، ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو﴾ ، ﴿إن الذين تعبدون من دونه لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ .

ورزق **الله** تعالى لعباده رزقان : رزق الأبدان بالأطعمة والأكسية نحوها ، ورزق الأرواح بالعلوم والمعارف والإدراكات الصحيحة والإلهامات لصادقة ، وهو أشرف الرازقين فإن ثمرته حياة الأبد في سعادة ، وثمرة رزق لظاهر قوة البدن إلى مدة قريبة الأمر ، وقد تكون في شقاوة .

الفتاح : الحاكم بين الخلائق مبالغة في الفاتح من الفتح ، بمعنى الحكم ، والله تعالى قد ميز الحق من الباطل ، فأوضح الحق وبيّنه وقضى به ، ودحض لباطل وأظهره وحكم ببطلانه ، أو الذي يفتح خزائن الرحمة والخيرات النصرة والظفر والمعارف على عباده ويسهل لهم ما كان صعباً وييسر ما كان عسيرا من أمور الدنيا والدين ، قال تعالى : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ ، ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ ، ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾ .

اللطيف : هو الذي لطفت أفعاله وحسنت ، أو الذي لا تدركه الحواس أو العليم بخفيات الأمور ودقائقها ، أو الذي يعلم دقائق المصالح وغوامضها ثم يسلك في إيصالها لمستحقيها سبيل الرفق دون العنف ، أو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، قال الراغب : قد يعبر باللطافة على تعاطي الأمور الدقيقة ، وقد يعبر بها عما لا تدركه الحاسة ، وقد يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم ، قال تعالى : ﴿ والله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ ، وقال تعالى على لسان يوسف – عليه السلام – تبياناً للطفه به ورفقه بعد أن ألقاه إخوته في الجب : ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ بعد قوله : ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مُخْضَرَّةً إن الله لطيف خبير ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

الشكور : المثني على المصطفين من عباده ، أو الذي يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل فيقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات ، والشكور مبالغة من الشاكر ، وهو من الشكر ، وأصله الزيادة ، يقال شكير الشجرة لما نَبَتَ في أصلها من القضبان الصغار وشَكِرَتِ الأرضُ إذا كثر نباتها وناقة شكيرة إذا كانت ممتلئة الضرع من اللبن .

وقال الراغب : الشكر من العباد ثلاثة أضرب : شكر القلب ، وهو تصور النعمة وإدراكها ، وشكر اللسان : وهو الثناء على المنعم ، وشكر

الجوارح : وهو مكافأة المنعم بقدر استحقاقه كما قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ ، وأما في حقه تعالى فمعناه إنعامه تعالى على عباده الطائعين ومثوبته لهم على ما أدوا من العبادة والطاعة .

وإذا شكر العبد ربه على نعمه زاده نعماً وأفضل عليه كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وذلك من مزيد الفضل والعطاء ، ولا شكور في الحقيقة إلا الله تعالى الذي يعطيك مع استغنائه عنك وأنت منكر مع افتقارك إليه .

قال تعالى : ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ ، ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ ، ﴿ والله شكور حليم ﴾ .

والله تعالى شاكر قال تعالى : ﴿ وكان الله شاكراً عليما ﴾ ، وهذا الشكر فضل منه تعالى ونعمة ، فهو يعطي عباده ويجزل العطاء مع استغنائه عنهم ويشكرهم على قيامهم بحقه وشكر نعمائه مع افتقارهم إليه ، قال تعالى : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ .

الكبير : الذي كبر وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله عن مشابهة مخلوقاته أو الذي فاق مدح المادحين ووصف الواصفين فهو أكمل الموجودات وأشرفها أو ذو الكبرياء والعلو والعظمة والرفعة والتنزه عن أوهام الخلق ومداركهم فله تعالى كبرياء الذات والصفات والأفعال .

الحفيظ : البالغ الغاية في الحفظ لما يريد حفظه مبالغة في حافظ من الحفظ بمعنى ضد السهو أو بمعنى الحراسة ، فهو تعالى حافظ السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ ، ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ ، لا يثقله ولا يشق عليه ، وحافظ كتابه من التحريف

والتبديل والتغيير قال تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، وحفيظ على كل شيء قال تعالى : ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ ، ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ ، وحفيظ على أعمال خلقه ومحصيها عليهم للحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ .

المقيت : المتكفل بأرزاق خلقه وإعطائهم أقواتهم ، أو الحفيظ ، أو خالق الأقوات ، أو المقتدر من قولهم : قاته يقوته قوتاً أطعمه قُوتَه وأقاته يُقيته، جعل له ما يقوته قال تعالى : ﴿وكان الله على كل شيء مقيتا﴾ ، وفي الحديث : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت أو يقيت » .

الحسيب : الكافي : تقول العرب : نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني أي أعطاني ما كفاني حتى قلت له : حسبي أي كافي ومنه قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ ، قال ابن عباس أي كافيك الله وكافيهم وكل كفاية إنما هي من الله تعالى ، أو الحسيب بمعنى المحاسب كالنديم بمعنى المنادم ثم يعبر به عن الكافيء بالحساب قال تعالى : ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ أي محاسباً لهم على أعمالهم ومكافئاً لهم عليها : ﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ .

ومحاسبة الله تعالى عباده يوم القيامة تذكيرهم بما عملوا في الدنيا من الحسنات والسيئات وتعريفهم جزاءها من المثوبات والعقوبات ، قال تعالى : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا﴾ ، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا﴾ .

الكريم : هو الذي لا يضيع من توسل إليه ، ولا يترك من التجأ إليه ، وإذا أضيف الكرم إلى الله تعالى فهو اسم لكمال إحسانه وإنعامه ، يبتدىء بالنعمة من غير استيجاب ، ويتبرع بالإحسان من غير سؤال ، ويعفو عن السيئات ، ويغفر الذنوب ، ويخفي العيوب ، ويكافىء بالثواب الجزيل على العمل القليل ، وقد جعل كل ما في الأرض لمنفعة عباده ، فقال : ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ ، وأعد للمتقين في الآخرة جنة عرضها كعرض السموات والأرض ، وسخر للإنسان كل ما في السموات والارضين ، فقال : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ ، وهو تعالى أكرم الأكرمين ، قال تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ ، وهو الكريم المنعم المتفضل ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ، ﴿ فإن ربي غني كريم ﴾ .

الرقيب : الحفيظ الذي لا يغفل ، أو الحاضر الذي لا يغيب ، أوالعليم الذي لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه ، يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ويعلم ما في البر والبحر ، ويعلم ما في الصدور ، ويعلم أقوالهم وأحوالهم ، وهو بكل شيء عليم ، قال تعالى : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ ، ﴿ فلما توفيتني كُنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ ، ﴿ وكان الله على كل شيء رقيبا ﴾ . والعبد إذا وصف بالرقيب فمعناه الموكل بحفظ الأشياء المترصد لها المحترز عن الغفلة عنها ، يقال : رقبت الشيء أرقبه رقبة إذا راعيته وحفظته .

الواسع : الذي فضله شامل ، ونواله كامل ، أو المتسع علمه فلا يجهل

وقدرته فلا يعجز ، وفضله فلا يبخل ، قال تعالى : ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ ، أي وسع علمه أو ملكه الكائنات ، وقال تعالى : ﴿والله واسع عليم﴾ ، وهو عبارة عن سعة علمه وقدرته وأفضاله ورحمته ، قال تعالى : ﴿وسع ربي كل شيء علما﴾ ، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ .

الودود : المحب للطائعين من عباده ، المتحبب إليهم بإنعامه وإحسانه ، من الود وهو الحب ، ومحبة **الله** لعباده هي الإنعام عليهم ، والإحسان إليهم والرضا عنهم ، والثناء عليهم ، والعفو عنهم ، والغفران لذنوبهم ، أو المتحبب إلى أوليائه بمعرفته ، وإلى المذنبين بعفوه ورحمته ، وإلى عباده برزقه وكفايته ، أو المودُود في قلوب أوليائه لكثرة وصول إنعامه وإحسانه إليهم ، قال تعالى : ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ ، ﴿وهو الغفور الودود﴾ .

الوكيل : الموكول إليه أمور العباد ومصالحهم ، المتصرف فيها كما يشاء ، وقد وكل العباد إلى **الله** تعالى أمورهم واعتمدوا على إحسانه لعجزهم عن تحصيل مهماتهم وقدرته تعالى عليها : ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وكافيه ، وقال تعالى : ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ ، ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ ، ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ ، وقد قيل : **الله** الوكيل ابتداك بكفايته ، ثم تولاك بحسن رعايته ، ثم ختم لك بجميل ولايته .

المتين : شديد القوة ، فلا يضعف بحال عما يريد ، مشتق من المتانة وهي شدة الشيء واستحكامه وصلابته ، وهو مبالغة في معنى القوي ، قال تعالى : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ .

الصمد : المقصود في الحوائج على الدوام لِعِظَم قدرته وكمالها . من صَمَدَ إليه إذا قصده ، فهو تعالى السيد المصمود إليه المقصود في جميع الشئون ، وعن ابن مسعود : الصمد هو السيد الذي عَظُم سؤدده ، وعن السُّدِّي : هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب ، وعن الحسين بن الفضل : هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وعن ابن عباس : هو الكبير الذي ليس فوقه أحد ، وعن أبي هريرة : هو الذي يحتاج إليه كل أحد ، وهو مستغن عن كل أحد وقيل : هو الذي تُرفع إليه الحاجات ، وتطلب منه الخيرات ، أو هو الذي ليس فوقه أحد ، أو الباقي بعد خلقه ، أو الذي يَغلب ولا يُغلب ، أو المقدَّس عن الآفات ، المنزه عن المخالفات ، أو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء ، قال تعالى : ﴿**الله الصمد**﴾ .

التواب : الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات كثيراً ، قال تعالى : ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**﴾ ، ﴿**إنك أنت التواب الرحيم**﴾ ، ﴿**وأنا التواب الرحيم**﴾ ، ﴿**فإن الله هو التواب الرحيم**﴾ .

التواب مبالغة في التائب من التوبة بمعنى العودة والرجوع ، يقال : تاب أي رجع ، فمعنى كونه تعالى تواباً كونه كثير العودة بأصناف إحسانه على عباده ، وذلك بأن يوفقهم بعد الخذلان ، ويعطيهم بعد الحرمان ، ويخفف عنهم بعد التشديد ، ويعفو عنهم بعد الوعيد ، ويكشف عنهم أنواع البلاء، ويفيض عليهم أنواع الآلاء ، فهو تعالى ناسخ المكروه بالمحبوب وقابل التوبة من الذنوب ، وكاشف الضر عن المكروب .

ومعنى التوبة في حق العبد رجوعه إلى الندم والتأسف والتحسر ، وإلى العبودية والطاعة والإنابة إلى الله ، وطلب العفو والغفران ، قال تعالى : **﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾** ، **﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴾** .

العفوّ : ذو العفو ، وهو ترك المؤاخذة على الذنب والتجافي عنه ، أو هو إزالة الذنوب بالكلية ومحوها من ديوان الكرام الكاتبين ، من العفو بمعنى الإزالة والمحو ، يقال عَفَتِ الديار إذا دَرَسَتْ ذهبت آثارها ، فالله تعالى بعفوه يمحو الذنوب وآثارها ، والعفو ابلغ من المغفرة ، وهي مشتقة من الغفر بمعنى الستر ، والمحو أبلغ من الستر .

قال تعالى : **﴿ إن الله لعفو غفور ﴾** ، **﴿ وكان الله عفواً غفورا ﴾** .

الرؤوف : ذو الرأفة وهو نهاية الرحمة ، أو هو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى أوليائه بالعصمة ، قال تعالى : **﴿ و الله رؤوف بالعباد ﴾** ، **﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾** ، **﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾** .

النور : الظاهر بنفسه المظهر لغيره ، أو المظهر لكل ما أخرجه إلى الوجود وسمى الله نفسه نوراً من حيث أنه هو هذا النور ، أو المدبر أو المنزّه عن كل عيب يقال امرأة نُوار أي بريئة من الريبة بالفحشاء ، أو المنوّر للأكوان قال تعالى : **﴿ الله نور السموات والأرض ﴾** ، ويطلق النور على الحق كما تطلق الظلمة على الباطل ويشير إليه قوله تعالى : **﴿ الله ولي الذين آمنوا**

يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ ، أي من أنواع الباطل إلى الحق والمراد بالحق الذي فُسّر به النور في هذه الآية ما يقابل الباطل ، وهو يتناول التوحيد والشرائع ، وما دل عله دليل عقلي أو سمعي ، وقيل الهدى ، وقيل العلوم والمعارف التي يفيضها على قلب المؤمن ، وقيل غير ذلك في معنى النور في هذه الآية ، وقد قال تعالى : ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ ، أي بعدله ونصبه موازين قسطه وحكمه بالحق بين عباده ، وقال : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ أي بصيرة وهدى لا كمن أبى الإسلام فطبع على قلبه فقسا وضل : ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ .

* ثمرة العلم بالأسماء والصفات *

يقول الشيخ عمر الأشقر : (إن العلم بأسماء الله وصفاته هو العاصم من الزلل ، والمقيل من العثرة والفاتح لباب الأمل ، والمعين على الصبر ، والواقي من الخمول والكسل .

إن النفوس قد تهفوا إلى مقارفة الفواحش والذنوب ، فتذكر ان الله يراها ويبصرها ، وتذكر وقوفها بين يدي الله فترعوي وتجانب المعصية .

ويقع الإنسان في الذنب والمعصية ، ثم يذكر سعة رحمة الله ، فلا يتمادى في الخطيئة ، ولا يوغل في طريقة الهاوية ، بل يعود إلى الله ربه التواب الرحيم قارعاً بابه ، فيجد الله تواباً رحيماً .

وتتناوش العبد المصائب والمكاره ، فلا يجزع ولا يهلع ، ويلجأ إلى

الحصن الحصين ، والركن الركين ، ويقابل المكاره بنفس راضية .

ويقارع الأشرار فيجدُّون في منع الرزق عنه ، وقصم العمر منه ، ويعلم الفارس في مجال الصراع أن الأرزاق والأعمار بيد **الله**).

يقول الإمام ابن القيم – رحمه **الله** تعالى – : (فعلم العبد بتفرُّد الرب تعالى بالضرر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمنا بسمعه وبصره وعلمه يقضي بأنه لا يخفى عليه مثقال ذرَّة في السماوات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يثمر للعبد حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي **الله** ، ويجعل تعليق هذه الأعضاء بما يحبه **الله** ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفة العبد بغنى الرب وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

ومعرفة العبد بجلال **الله** وعظمته وعزّته تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها .

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجد له محبة خاصة ، بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات).

ويقول في موضع آخر عن تأثير العلم بأسماء الله وصفاته وأوامره وأفعاله في نفوس العباد : (إن أحد أسرار القرآن العظام هو تحديثه عن رب العباد حديثاً يجلي فيه القرآن الرب لعباده عبر صفاته ، فتارة يتجلّى الرب عبر آيات الكتاب في جلباب الهيبة والعظمة والجلال ، فتخضع الأعناق ، وتنكسر النفوس ، وتخشع الاصوات ، ويذوب الكبر ، كما يذوب الملح في الملح .

وتارة يتجلّى في صفات الجمال والكمال ، وهو كمال الأسماء ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال الدالّ على كمال الذات ، فيستنفذ حبّه من قلب العبد قوة الحب كلها ، بحسب ما عرفه من صفات جماله ، ونعوت كماله ، فيصبح فؤاد العبد فارغاً إلا من محبته ، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإبداء كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم
وتابى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة طباعاً لا تكلفاً .

وإذا تجلّى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد ، وانبسط أمله ، وقوي طمعه ، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره ، وكلما قوي الرجاء جدّ في العمل كما انّ الباذر كلّما قوي طمعه في المغلّ غلّق أرضه بالبذر ، وإذا ضعف رجاؤه قصّ في البذر .

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسّخط والعقوبة انقمعت النفس الأمّارة ، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات ، وانقبضت أعنّة رعونتها ، فاحضرت

المطيّة حظّها من الخوف والخشية والحذر .

وإذا تجلّى بصفات الأمر والنهي ، والعهد والوصية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وشرع الشرائع ، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لاوامره ، والتبليغ لها ، والتواصي بها ، وذكرها وتذكيرها ، والتصديق بالخبر ، والامتثال للطلب ، والاجتناب للنهي .

وإذا تجلّى بصفات السمع والبصر والعلم انبعثت من العبد قوة الحياء ، فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره ، أو يسمع منه ما يكره ، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه ، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى .

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحب والقيام بمصالح العباد ، وسوق أرزاقهم إليهم ، ودفع المصائب عنهم ، ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم ، انبعثت من العبد قوّة التوكل عليه والتفويض إليه ، والرضا به ، وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه .

والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ، ورضاه بما يفعله به ، ويختاره له .

وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته ، والانكسار لعزته ، والخضوع لكبريائه ، وخشوع القلب والجوارح له ، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ، ويذهب طيشه وقوّته وحدّته .

وجماع ذلك : أنه سبحانه يتعرّف إلى العبد بصفات إلاهيته تارة ،

وبصفات ربوبية تارة ، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة ، والشوق إلى لقائه ، والأنس والفرح به ، والسرور بخدمته ، والمنافسة في قربه واللهج بذكره ، والفرار من الخلق إليه ، ويصير هو وحده همّه دون ما سواه ، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه ، والافتقار إليه ، والاستعانة به ، والذّل والخضوع والانكسار له .

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في ألوهيته ، وألوهيته في ربوبيته ، وحمده في ملكه ، وعزّه في عفوه ، وحكمته في قضائه وقدره ، ونعمته في بلائه ، وعطاءه في منعه ، وبرّه ولطفه وإحسانه ورحمته في قيّوميّته ، وعدله في انتقامه ، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجوّزه .

ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه ، وعزه في رضاه وغضبه ، وحلمه في إمهاله ، وكرمه في إقباله ، وغناه في إعراضه .

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف ، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين ، وأفكار المتكلفين ، أشهدك ملكاً قيّوماً فوق سماواته على عرشه يدبّر أمر عباده ، يأمر وينهى ، ويرسل الرسل ، وينزل الكتب ، ويرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ، ويعطي ويمنع ، ويعزُّ ويذلّ ، ويخفض ويرفع ، يرى من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السر والعلانية ، وفعّال لما يريد ، موصوف بكل كمال ، منزّه عن كل عيب ، لا تتحرك ذرّة فما فوقها إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ليس لعباده دونه وليٍّ ولا شفيع) .

* دعاء الله بأسمائه الحسنى *

يقول الشيخ عمر الأشقر : (أسماء الله وصفاته تدل على عظمته تبارك وتعالى ، ومن هنا كثرت أسماؤه وصفاته ، وقد قيل : « العظيم من كَثُرتْ صفات كماله » .

وإذا كانت صفات الله وأسماؤه تدل العباد على عظمة الباري - جل وعلا - وكماله وسؤدده ، فإنها أعظم سبيل يستطيع العباد سلوكه لتعظيم الله وتقديسه وتمجيده ودعائه .

وقد أمرنا الحق بدعائه بأسمائه الحسنى فقال : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ ، والدعاء في اللغة والحقيقة هو : الطلب ، أي اطلبوا منه بأسمائه .

ودعاء الله بأسمائه الحسنى مرتبتان كما أشار إلى ذلك ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

الأولى : دعاء ثناء وعبادة : وقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نمجده ونثني عليه فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « ما من أحد أحب إليه المدح من الله » ، وقد وعد الله بذكر من يذكره ، قال تعالى : ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ . وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة - رضي

الله عنه – قال : قال النبي ﷺ : « يقول **الله** تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » . وأخبرنا الحق أن الذاكر **لله** يطمئن قلبه ، وتهدأ نفسه : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ .

الثانية : دعاء طلب ومسألة : وقد أمرنا تبارك وتعالى بدعائه والطلب منه ووعدنا بالإجابة : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ .

ودعاء **الله** وسؤاله لا ينبغي أن يكون إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا يقال : يا موجود ، أو يا شيء ، اغفر لي وارحمني .

وقد نبّه علماؤنا إلى أن السائل ينبغي أن يتخير في كل سؤال الأسماء المناسبة للطلب الذي يطلبه ، يقول ابن القيم – رحمه **الله** – : « يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم ، ومن تأمّل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا » . ويقول : « يأتي السائل بالاسم الذي يقتضيه المطلوب ، كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ، ولا يحسن أن تقول : إنك أنت السميع البصير » .

ويقول ابن العربي : « يطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزّاق ارزقني ، يا هادي اهدني » ، ونبّه ابن العربي إلى أن بعض أسمائه تبارك وتعالى أسماء عامة تصلح لأن يدعى بها في كل موضع ، وفي كل الامور ، مثل : **الله** ، الرب) .

* القول الأسنى في نظم الأسماء الحسنى *

هذه قصيدة جُمعت فيها اسماء الله الحسنى ، وهي للشيخ حسين بن علي بن محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – ، وهي مطبوعة في عام ١٣٧٥ هـ ، في كتيب بعنوان القول الاسنى في نظم الاسماء الحسنى ، ومما اخترناه من أبياتها ما يلي :

جميع الثنا والحمد بالشكر أكمَلُ
ولله مجموع الثلاثة أجعلُ
واشكره شكراً كثيراً لانه
مقرّ الثنا أهلٌ له مُتأهّل
له الحمد أعلى الحمد والشكر والثنا
أعزّ وازكى ما يكون وأفضل
له الحمد حمداً طيباً ومباركاً
كثيرٌ فضيل حاصلٌ مُتحصّل
إلى الله أهدي الحمد والشكر والثنا
له الحمد مولانا عليه المُعوّل
وأشهد أن الله لا رب غيره
كريم رحيم يُرتجى ويُؤمّل
عفوٌ يُحب العفو من كل خلقه
عن الجود والإحسان لا يتحوّل
إذا سُئل الخيرات أعطى جزيلها
ويرفع مكروه البلا ويُزوّل

تبارك فهو **الله** جل جلاله
جواد كريم كامل لا يُمثَّل
يسحُّ من الخيرات سحّاً على الورى
فيُغني ويُقني دائماً ويُحوِّل
تجلُّ عن الأوصاف عزّة ذاته
أعزّ من الأوصاف أعلى وأكمل
إذا أكثر المُثني عليه من الثنا
فذو العرش أعلا في الجلال وأجمل
وفي اسمه «الخلاق» لم يخلق الورى
سواه «جواد» دائم ليس يغفل
وفي اسمه «الباري» برى كل خلقه
وألطافه تترى دواماً وتنزل
«عليم» فلا يخفى عليه من الورى
ولو غاب في شبرٍ من الأرض خردل
«حسيب» فيُحصي كل شيء وفي الذي
جرى بيننا يوم القيامة يفصل
«خبير» فيقضي ما يشاء وكل ما
قضاه مضى حتماً ولا يتفتل
«لطيف» بألطاف كثير وبعضها
يُرى ظاهراً بين الورى يتخلل
«سميع» فلا صوت خفيٍّ يفوته
وإن دقّ جداً واختفى ليس يُشكل

و«بَرٌّ» يحب البر يرفعُ أهله
على الناس في يوم الجزاء يُفضّل
«حكيم» فيقضي ما يشاء بحكمه
«حليم» فلا يخشى فواتاً فيعجل
«كبير، جليل، واحد، واجد» له
من الجود والإحسان ما ليس يُجهل
تبارك لا يُحصى على ذاته الثنا
ولو بالثنا كُلُّ الخلائق أجملوا
إذا كان شكر العبد نُعماه نعمةً
فأين يطاقُ الشكر ؟ من أين يحصُل؟
فسبحان من كُلُّ الورى سجدوا له
إذا سبَّحوا أو كبَّروه وهلّلوا
قضى اللهُ أن لا يعبُد الخلقُ غيره
وأن لا به شيء – وإن جلَّ – يُعدلُ
«عليم» بأحوال الورى وبما جرى
وما ليس يجري لو جرى كيف يحصل
«لطيف» فلا يخفى عليه من الورى
خَفيٌ ولا ينسى ولا الرب يذهل
«حفيظ» فيُحصي كلَّ شيء وعلمه
على المختفي أين اختفى؟ يتغلغل
له تُرفع الأعمال في كل لحظة
بأيدي كرام كاتبين وتُحملُ

عليه اعتمادي واتّكالي ورغبتي
وإصلاح شأني مُجملٌ ومُفصّل
تعالى فاخلاق البريا بما قضى
وقدّره من أيّ شكل تشكّلوا
إلهي لك الفضل الذي عمم الورى
وجوداً على كل الخليقة مُسبَل
وغيرك لو يملك خزائنك التي
تزيد مع الإنفاق لا بُد يبْخل
وإني بك اللهم ربي لواثقٌ
ومالي بباب غير بابك مدخل
أعوذ بك اللهم من سوء صُنعنا
ومن أن تكن نُعماك عنّا تحوّل
إلهي فثبتني على دينك الذي
رضيت به ديناً وإياه تقبلُ
وهب لي من الفردوس قصراً مُشيّداً
ومنْ بخيرات بها أتعجل
ولله حمد دائمٌ بدوامه
مدى الدهر لا يفنى ولا الحمدُ يكمل
مدادُ كلام الله عدة خلقه
رضى نفسه ينمو ويسمو ويفضل
يزيد على وزن الخلائق كلها
وأرجح من وزن الجميع وأثقل

* أعرف المعارف *

اختلف اللغويون في لفظ الجلالة « الله » فقال بعضهم إنه عَلَمٌ غير مشتق ، ، وهو اسم موضوع هكذا « الله » وليس أصله (إلاه) وليس من الأسماء التي يجوز فيها اشتقاق فعْل كما يجوز في الرحمن الرحيم .

وقيل إنه مشتق وأصله إلاه ، ثم دخلت عليه الألف واللام ، فقيل (الإله) ، ثم حذفت همزته تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، وأدغم اللامان من التفخيم ، ولكن اللام ترقق إذا كسر ما قبلها .

يقول الراغب الأصفهاني : (« الله » قيل : أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليها الألف واللام ، فخصّ بالباري تعالى ، ولتخصصه به قال تعالى: ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ ، وإله جعلوه اسماً لكل معبودٍ لهم ، وكذا اللات ، وسمّوا الشمس إلاهة لاتخاذهم إياها معبوداً .

وألَه فلان يَألَه الآلهة: عبَد ، وقيل: تألّه فالإله على هذا هو المعبود.

ويقول : قيل أصله : ولاه ، فابدل من الواو همزة ، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والهاً نحوهُ ؛ إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات ؛ وإما بالتسخير والإرادة معاً كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: اللهُ محبوبُ الأشياء كلها ، وعليه دل قوله تعالى : ﴿ **وإنْ من شيءٍ إلا يُسبح بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم** ﴾) .

وقيل : (أصله منْ لاَهَ يلوهُ لياهاً ، أي : احتجب . قالوا : وذلك إشارة إلى ما قال تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ ، والمشار إليه بالباطن في قوله : ﴿ **والظاهر والباطن** ﴾) .

وإلهٌ حقُّه ألا يجمع ، إذ لا معبود سواه ، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه ، فقالوا : الآلهة . قال تعالى : ﴿أم لهم آلهةٌ تمنعهم من دوننا﴾ ، وقال : ﴿ويذرك وآلهتَكَ﴾ ، وقرىء : (وإلاهتَكَ) أي : عبادتك . ولاهِ أنت ، أي : للّهِ ، وحذف إحدى اللامين .

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : (﴿الله﴾ عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات) .

ويقول : (وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له . وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم ، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي : ألا ترى انك تقول : يا الله ، ولا تقول : يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام . وقيل : إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجّاج :

لله در الغانيات المُدّهِ   سبحن واسترجعن من تألُّهي

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التأله ، من أله يأله إلاهة وتألهاً ، كما روي أن ابن عباس قرأ : « ويذرك وإلاهتَك » قال : عبادتك أي : انه كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُد ، وكذا قال مجاهد وغيره) .

ويقول فخر الدين الرازي : (وقيل : إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي: سكنت إليه ، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته

لانه الكامل على الإطلاق دون غيره ، قال **الله** تعالى : **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾** ، قال : وقيل : من لاه يلوه : إذا احتجب . وقيل : اشتقاقه من أله الفصيل : إذ ولع بأمه ، والمعنى : أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال ، قال : وقيل : مشتق من أله الرجل يأله : إذا فزع من أمر نزل به فألهه ، أي : أجاره ، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو **الله** سبحانه ؛ لقوله تعالى : **﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾** ، وهو المنعم لقوله : **﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾** ، وهو المطعم لقوله : **﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾** وهو الموجد لقوله : **﴿قل كل من عند الله﴾**) .

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم **الله** تعالى عبراني لا عربي ، ثم ضعّفه ، وهو حقيق بالتضعيف كما قال ، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال : واعلم أن الخلق قسمان : واصلون إلى ساحل بحر المعرفة ، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة ؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم ؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال ، فتاهوا في ميادين الصمدية ، وبادوا في عرصة الفردانية ، فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته .

«اللهم» قيل : معناه : **يا الله** ، فأبدل من الياء في أوله الميمان في آخره ، وخُصّ بدعاء **الله** ، وقيل : تقديره : **يا اللهُ** أُمّنا بخير .

ويقول الزمخشري : (وكانوا – أي المشركين – يقولون لأصنامهم : آلهة والعزى إله ، وأما الذي عوض فيه الألف واللام فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه) .

ويقول السمين الحلبي : (واختص « الله » بالباري تعالى ، فلم يجسر أحد من المخلوقين أن يتسمى به ، ولذلك قال تعالى : ﴿**هل تعلم له سميا**﴾) .

ويقول صاحب تفسير روح البيان : (وقال فرعون مصر للقبط ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ ولم يقدر أن يقول : « **أنا الله** ») .

يقول الفقيه محمد سيد الشنقيطي – رحمه الله – :

الله مشتقٌ وقيل : مرتجل   وهو أعرفُ المعرّفات جل
ألَه أي : عبد ، أو من الألَه   وهو اعتماد الخلق أو من الوله
أو المحجُبُ عن العيان   منْ : لاهت العروس في البنيان
أو ألهَ الحيرانُ من قول العربْ   أو منْ: ألِهْتُ ، أي: سكنتُ للأرب

وقال الغزالي – رحمه الله – : (فأما قوله « اللهُ » فهو اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المتفرد بالوجود الحقيقي ، فإن كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته ، وإنما استفاد الوجود منه – سبحانه – وكل ما عداه من حيث ذاته هالك ، ومن الجهة التي تليه موجود ، فكل موجود هالك إلا وجهه ، والأشبه أنه جار في الدلالة على هذا المعنى مجرى أسماء الأعلام ، وكل ما ذُكر في اشتقاقه وتعريفه تعسف وتكلف) .

وقال السفاريني : (« اللهُ » علم للذات الواجب الوجود لذاته ، المستحق لجميع الكمالات ، وهو مشتق عند سيبويه ، واشتقاقه من ألَهَ (على وزن فَعِلَ) إذا تحيّر ، لتحيّر الخلق في كنْه ذاته تعالى وتقدّس . وقيلَ :

من لاَهَ يليهُ إذا علا ، أو من لاَهَ يلُوهُ ، إذا احتجب ، وهذا الاسم عربيٌ عند الأكثر ، وزعم بعضهم أنّه مُعرَّب ، فقيل عبْريٌ وقيل سوريانيٌ قال السّفاريني : والقوْل بانه مُعرّب ساقط لا يُلتفت إليه) .

أما عن التعريف الاصطلاحي للفظ الجلالة « الله » ، فيقول الغزالي : (هو الاسم الدال على الذات الجامعة لصفات الإلهيّة كُلها حتى لا يشذّ منها شيء ، وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني ، من علم وقدرة أو فعل أو غير ذلك ، وهو أخص أسمائه تعالى ، إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً ، وسائر الأسماء قد يُسمى بها غيره ، ولهذين الوجهين يُشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء) .

وقال السفاريني : (وهو – أي لفظ الجلالة – الاسم الأعظم عند أكثر أهل العلم ، وعدم الإجابة لأكثر الناس مع الدعاء به لتخلّف بعض شروطه التي من أهمها الإخلاص وأكل الحلال ، وقد قُدِّم على الرحمن الرحيم في البسلمة لأنه اسم ذات في الأصل ، وهما اسما صفة في الأصل ، والذات متقدمة على الصفة) .

* معرفة الله *

قال ابن القيم – رحمه الله – : « معرفة الله سبحانه نوعان ، الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي .

والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه . وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي

عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم وكلٌ أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها . وقد قال أعرف الخلق به : «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ، وأخبر ﷺ أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (الرب تعالى يدعو عباده في القرآن الكريم إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته .

والثاني : التفكر في آياته وتدبرها ، فتلك وهذه آياته المسموعة المعقولة .

فالنوع الأول كقوله سبحانه : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ ، وقوله عز من قائل: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ ، ومثل هذا كثير في القرآن .

الثاني : كقوله سبحانه : ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ .

وقوله عز من قائل : ﴿أفلم يدبروا القول﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ ، وهو كثير أيضاً .

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال ، والأفعال دالة على الصفات فإن المفعول يدل على فاعل فعله ، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم ، أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة ، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل ، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر ، وما

فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى ، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته ، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته ، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته ، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد ، وما فيها من احوال النبات والحيوان (وتصريف الرياح والسحاب والمياه) دليل على إمكان المعاد وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات ، وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها ، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته ، وصدق ما أخبرت به رسله عنه ، وهي شاهدة تصدّق الآيات المسموعات ، ومُنبّهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ، أي إن القرآن حق ، وقد أخبر سبحانه أنه لا بُدَّ أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوّة حق ، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله ، فآياته (الكونية) شاهدة بصدقه وهو - أي القرآن - شاهد بصدق رسوله بآياته (المتلوة) ، فهو عز وجل الشاهد والمشهود له ، وهو الدليل والمدلول عليه ، وهو سبحانه أعرف من كل معروف ، وأبين من كل دليل؛ فالأشياء عُرفت به في الحقيقة ، وإن كان عُرف بها في النظر والاستدلال) .

* العارفون بالله *

قال ابن الجوزي – رحمه **الله** – : (العارف **بالله** تقل عنده مرارات الأقدار ؛ لقوة حلاوة المعرفة ، وليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشاً من العارفين **بالله** عز وجل ، فإن العارف به مستأنس به في خلوته .

فإن عَمَّت نعمةٌ علم من أهداها ، وإن مرّ مرٌّ حلا مذاقه في فيه ، لمعرفته بالمبتلي ، وإن سأل فتعوّق مقصوده ، صار مراده ما جرى به القدر ، علماً منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة ، وثقته بحسن التدبير . فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة ، صارت مرارة الأقدار حلاوة ، كما قال القائل :

عذابه فيك عَذْب   وبُعْدُه فيك قُرْب
وأنت عندي كروحي   بل أنت منها أحبُّ
حسبي من الحب أني   لما تُحب أُحبُّ

العارف **بالله** قلبه مراقب لمعروفه ، قائم بين يديه ، ناظر بعين اليقين إليه ، فقد سرى من بركة معرفته إلى الجوارح ما هذّبها .

فإن نطقت فلم أنطق بغيركمُ
وإن سكتُّ فأنتم عقد إضماري

إن سكت تفكر في إقامة حقه ، وإن نطق تكلم بما يرضيه ، لا يسكن قلبه إلى زوجة ولا إلى ولد ، ولا يتشبث بذيل محبة أحد . وإنما يعاشر الخلق ببدنه ، وروحهُ عندَ مالكِ رُوحه .

فهذا الذي لا هم عليه في الدنيا ، ولا غم عنده وقت الرحيل عنها، ولا وحشة له في القبر ، ولا خوف عليه يوم الحشر .

فأما من عُدم المعرفة فإنه مُعثَّر ، لا يزال يضج من البلاء ؛ لأنه لا يعرف المبتلي ، ويستوحش لفقد غرضه ؛ لأنه لا يعرف المصلحة ، ويستأنس بجنسه ؛ لأنه لا معرفة بينه وبين ربه ، ويخاف من الرحيل ؛ لأنه لا زاد له ولا معرفة بالطريق .

وسبب الهموم والغموم : الإعراض عن الله عز وجل ، والإقبال على الدنيا . وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته ، فأما من رُزق معرفة الله تعالى استراح ، لأنه يستغني بالرضا بالقضاء ، فمهما قُدّر له رضي .

وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يدخل في قلبه اعتراض ، لأنه مملوك مُدبَّر فتكون همته في خدمة الخالق . ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ، ولا الالتذاذ بالشهوات . فتراه متأدباً في الخلوة به ، مستأنساً بمناجاته ، مستوحشاً من مخالطة خلقه ، راضياً بما يُقدَّر له ، فعيشه معه كعيش محبٌ قد خلا بحبيبه ، لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره .

فأما من لم يرزق هذه الأشياء ، فإنه لا يزال في تنغيص مُتكدر العيش لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه ، فيبقى أبداً في الحسرات ، مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة .

يا مُنتهى الآمال أنـ   ـت كفلتني وحفظتني
وعدا الزمانُ عليَّ كي   يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي مُتَخشِّعاً   لما رآك نصرتني
وكسوتني ثوب الغنى   ومن المغالب صنتني
فإذا سكتُّ بدأتني   وإذا سألتُ أجبتني
أو إن أجُدْ بالمال فا   لأموال انت أفدتني
فإذا شكرتُك زدتني   فمنحتني وبهرتني

النهار يزيد في كرب المحب ، والليل روضة يجد فيها المحب ضَالَّة وجْده شراب المناجاة يروي ظمأ العشاق ، لو رأيت المحب في الليل يتململ ويناجي حبيبه .

أشار القلب نحوك والضميرُ
وسرُّ السرِّ أنت به خبيرُ
وإني إن نطقتُ بكُم أنادي
وفي وقتِ السكوت لكم أشيرُ
أيا من لا يضافُ إليه ثان
أتاك الوالهُ الصبُّ الفقيرُ
ولي أملٌ تحققُهُ ظُنوني
ولي قلبٌ كما تدري يطيرُ
وإن تمننْ وتغفر لي ذنوبي
فأنتَ عليه يا ربي قديرُ

* مراتب معرفة الله *

من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف ، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته .

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه ، فإنه يعرف رباً قد اجتمعت له

صفات الكمال ونعوت الجلال ، منزه عن المثال ، بريء من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال ، فعال لما يريد فوق كل شيء ومع كل شيء ، وقادر على كل شيء ، ومقيم لكل شيء آمر ، ناه ، متكلم بكلماته الدينية والكونية ، أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء ، أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين . فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل إليه ، وبحال السالكين بعد الوصول إليه .

* أفضل الناس أعرفهم بالله *

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (أصل التفاضل بين الناس إنما هو بمعرفة الله ومحبته . وإذا كانوا يتفاضلون فيما يعرفونه من المعروفات ، وإذا كانوا يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم والتصديق بهم فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم ، وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الإنسان وصفاتها ، والتصديق بها ، أو في معرفة الجن وصفاتهم وفي التصديق بهم ، أو في معرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب ، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته (أعظم) بل إن كانوا متفاضلين في معرفة أبدانهم وصفاتهم وصحتها ومرضها ، وما يتبع ذلك فتفاضلهم في معرفة الله تعالى أعظم وأعظم ، إن كل ما يُعلم ويقال يدخل في معرفة الله تعالى ، إذ لا موجود إلا وهو خلقه وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال شواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العُلى ، وكل كمال في المخلوقات من أثر كماله ، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أحق به ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق

فالخالق أحق بتنزيهه عنه ، لقد ثبت في الحديث الشريف أن لله أسماءً استأثر بها في علم الغيب عنده ، وأسماءُ لله متضمنه لصفاته ، وليست أسماء أعلام محضة ، وإذا كان من أسمائه ما اختص هو بمعرفته ، ومن أسمائه ما خص به ما شاء من عباده ، عُلم أن تفاضل الناس في معرفته أعظم من تفاضلهم في معرفة كل ما يعرفونه) .

* من أقوال العارفين *

قال ابن عباس – رضي **الله** عنه – في تفسير قوله تعالى : ﴿ **نور على نور** ﴾ : (كذلك قلب المؤمن يعرف **الله** عز وجل ويستدل عليه بقلبه ، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور ، وكذا إبراهيم عليه السلام عرف **الله** عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله ، فعلم أن له رباً وخالقاً ، فلما عرّفه **الله** عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال : ﴿ **أتحاجوني في الله وقد هدان** ﴾) .

ويقول الغزالي – رحمه **الله** – : (أخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال ﷺ : « **أنا أخوفكم لله** » ، وكذلك قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ ثم إذا كمُلت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب) .

وقال أيضاً : (الخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من **الله** خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة **بالله** تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يُخاف من غير جناية) .

وقال – رحمه الله – كذلك : (لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر) .

ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – : (اعْلَمْ أن الله تعالى خلق في صدرك بيتاً وهو القلب ، ووضع في صدره عرشاً لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى وهو مستوٍ على عرشه بذاته بائن من خلقه . والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب وعلى السرير بساط من الرضا ، ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره . وفتح إليه باباً من جنة رحمته والأُنس به والشوق إلى لقائه . وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس ، وجعل في وسط البُستان شجرة معرفته تعالى ، فهي تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبُّر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه ، وعلّق في ذلك البيت قنديلاً أسرجه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده فهو يستمد ﴿ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نار ﴾) .

وقال بعضهم : (من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة ، فمن ازدادت معرفته زادت هيبته) . وقال أيضاً : (المعرفة توجب السكينة) وقيل : (علامتها أن يُحس بقرب قلبه من الله فيجده قريباً منه) .

وقال أحمد بن عاصم : (من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ، وقول

النبي ﷺ : « أنا أعرفكم بالله وأشدُّكم له خشية » .

وقال الحسن البصري – رحمه الله – : (من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذُهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته) .

وقال بعضهم : (العارف من أنس بالله فاوحشه من الخلق ، وافتقر إلى الله فاغناه عنهم ، وذل لله فاعزه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغفر الله فاحوجهم إليه) .

ويقول الجنيد : (لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر ، وكالسحاب يُظلُّ كل شيء ، وكالمطر يَسْقي ما يُحب وما لا يحب) .

وقال يحيى بن معاذ : (يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه) .

وقال بعضهم : (من عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله) .

وقال ابن الجوزي – رحمه الله – : (من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة ، فالرضا من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفته سبحانه رضيت بقضائه) .

وقال أيضاً : (لله در العارفين بزمانهم إذا باعوا ما شانهم بإصلاح

شأنهم . ما أقل ما تعبوا وما أيسر ما نصبوا ، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا ، شمروا عن سوق الجد في سوق العزائم ، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم ، وجادوا مخلصين فربحوا إذ خسر حاتم ، وأصبحوا منزل النجاة وأنت في اللهو نايم ، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم؟ متى تندب الذنوب ندب المآتم؟ يا رجالاً ما بانت رجوليتهم إلا بالعمايم ، يا إخوان الأمل قد بقي القليل وتفنى المواسم ، أين أنت من القوم؟ ما قاعد كقائم .

صحب الله راكبين إلى العز
طريقاً من المخافة وعرا
شربوا الموت في الكريهة حُلواً
خوف أن يشربوا من الضيم مُرّا

أنف القوم من مزاحمة الخلق في سوق الهوى ، وقوي كرب شوقهم فلم يحتملوا حصر الدنيا ، فخرجوا إلى فضاء العز في صحراء التقوى ، وضربوا مخيم الجد في ساحة الهدى ، وتخيروا شواطىء أنهار الصدق فشرعوا فيها مشارع البكا ، وانفردوا بقلقهم فساعدهم ريم الفلا ، وترنمت بلابل بلبالهم في ظلام الدجى ، فلو رأيت حزينهم لطلب الرضا على جمر الغضا ، فيا محبوساً عنهم في سجن الحرص والمنى ، إن خرجت يوماً من سجنك لترويح شجنك من غم البلوى ، عرّج بذاك الوادي .

* معرفة الأنبياء بالله *

الله .. لقد كان لهذا الاسم هيبته ، ولهذا اللقب جلاله في قلوب الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، والعلماء الربانيين ، إذا تذاكروا

عظمة **الله** طاشت عقولهم ، ووجلت قلوبهم ، فإذا استيقظوا من ذلك سارعوا إلى **الله** بالأعمال الزاكية ، والأقوال الطيبة ، **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾** .

أبو البشر آدم - عليه السلام - :

آدم عليه السلام حينما وقع في الذنب ندم ندماً شديداً وأسف على ما فات ، وعرف خطأه واعترف بذنبه ، وانطرح بين يدي ربه .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ .

وقيل أن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : **﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾** .

وروي أن آدم - عليه السلام - قال : يا رب ، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته عليَّ قبل أن تخلقني ، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال : بل شيء كتبتُه عليك قبل أن أخلقك . قال : فكما كتبته عليَّ فاغفر لي . قال : فذلك قوله تعالى : **﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾** .

وروي عن ابن عباس قال : فتلقى آدم من ربه كلمات ، قال : قال آدم - عليه السلام - : « يا رب ، ألم تخلقني بيدك؟ قيل له : بلى . ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له : بلى . وعطستُ فقلت : يرحمك **الله** ، وسبقت رحمتُك غضبك؟ قيل له : بلى ، وكتبت عليَّ أن أعمل هذا؟ قيل له : بلى قال : أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال : نعم » .

وروي عن مجاهد أنه كان يقول في قوله **الله** تعالى : **﴿ فتلقى آدم من**

ربه كلمات ﴾ قال : الكلمات : **اللهم** لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين ، **اللهم** لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فارحمني ، إنك خير الراحمين **اللهم** لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم .

يروى أن آدم – عليه السلام – كان يبكي بعد هبوطه من الجنة حتى يخوض في دمعه ، فكان جبريل يأتيه فيقول كم هذا البكاء؟ ولسان حاله يجيب :

يا عاذل المشتاق دعه فإنه
يطوي على الزفرات غير حشاكا
لو كان قلبك قلبه ما لمته
حاشاك مما عنده حاشاكا

نبي الله نوح – عليه السلام – :

نوحٌ – عليه السلام – كان دائم اللهج بذكر **الله** ، كثير الشكر **لله** كثير الحمد **لله** ، لم يأكل شيئاً قط إلا قال : الحمد **لله** ، ولم يشرب شرباً قط إلا قال : الحمد **لله** ، ولم يمش مشياً إلا قال : الحمد **لله** ، ولم يلبس لباساً إلا قال : الحمد **لله** ، فأثنى **الله** عليه بقوله : ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾.

وهو – عليه السلام – حينما لجأ إلى **الله** تعالى ، وعليه اعتمد ، وإليه استند ، وزرع في قلبه التوكل عليه جل شانه ، أعلن التحدي الصارخ لقومه

ودعاهم إلى الهجوم ، وأغراهم بالنزال ، فلما ابو إلا الإعراض ، ورفضوا إلا العناد ، اضحت العاقبة أليمة ، والنتيجة وخيمة ، وكان خبر نوح عجيباً ، ونبؤه عظيما :

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .

نبي الله دانيال - عليه السلام - :

ومما يروى أن نبيّ الله دانيال - عليه السلام - قبض عليه بُخْتُنصَّر وحبسه في مكان ، وأخذ أسدين فاضراهما ، وجوّعهما ، ثم حبسهما معه ، وأغلق عليهما ، وبعد مرور خمسة أيام فتح السجن فوجد دانيال قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجُبّ لم يعرضا له ، فقال له بُخْتُنصَّر : اخبرني ماذا قُلت فدُفع عنك؟ قال : قُلت : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي لا يُخيّب من رجاه ، والحمد لله الذي لا يكلُ من توكل عليه إلى غيره ، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمدُ لله الذي يكشف ضُرّنا عند كربنا ، الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ، الحمدُ لله الذي يجزي بالصبر نجاةً » .

نبي الله أيوب - عليه السلام - :

ومن أعظم العارفين **بالله** ، والمستسلمين لقضائه ، والراضين بحكمه ، نبي **الله** أيوب – عليه السلام – فقد ابتلي بضرٍ في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرةٍ سليماً سوى قلبه . ولم يبق له من حال الدنيا شيءٌ يستعين به على مرضه وما هو فيه . غير أن زوجته حفظت ودُه لإيمانها **بالله** ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعةٍ طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته – رضي **الله** عنها – فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساء إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه فلما طال المطال واشتد الحال ، وانتهى القدرُ المقدور ، وتمّ الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين ، وإله المرسلين ، وأرحم الراحمين فقال : **﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾** فعند ذلك استجاب له ، وقبل دعوته ، ولبّى نداءه فأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ذلك ، فأنبع **الله** عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان أخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً وذلك كلُه ثمرة الصبر ، ونتيجة الاحتساب ، وفائدة الرضا ، قال تعالى : **﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربَه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنه أواب﴾** .

« قـولـه تعـالـى : ﴿ وأيوب إذا نادى ربه أني مسني الضـر وأنت أرحم الراحمين ﴾ ، جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين ، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلي هذا كشفت عنه بلواه » .

خليل الله إبراهيم - عليه السلام - :

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – معلم التوحيد ، فإن من معاني التوحيد الثقة بالله ، والاعتصام به ، والتوكل عليه ، والإيمان بقضاءه وقدره ، في إيمان حازم ، ويقين جازم ، وهذه المعاني تمثلت في حياته – عليه السلام – وضرب فيها المثل الأعلى ، والقدوة الأسمى ، ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وهو الذي لما ائتمر به الملأ ، واجمعو كيدهم ، وأججوا نيرانهم ليحرقوا إبراهيم ، أيقن أن الله معه ، وناصره وملاذه وملجؤه ، فقال : « حسبي الله ونعم الوكيل » ، يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وفي رواية عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل » .

وقد زرع إبراهيم – عليه السلام – هذه المعاني العظيمة في أقرب الناس إليه ، وأولاهم به ، وهي زوجه هاجر – عليها السلام – ، التي عُمر قلبها بجلال الله ، وطفحت نفسها أنساً بالله وثقة به ، وتوكلاً عليه : فحينما جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء؟ فقالت ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : « آلله أمرك بهذا؟ » ، قال : « نعم » ، قالت : « إذاً لا يضيعنا الله » ، ثم رجعت .

نبي الله يوسف - عليه السلام - :

ولقد كان يوسف – عليه السلام – مستحضراً عظمة الله ومهابته، وإطلاعه ومراقبته فحينما داهمه الخطر ، وأُريد على الخطأ ، فتزينت له الحسناء ، ودعي إلى الفحشاء : ﴿ **قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ ، وحينما أودع السجن زاد تعلقاً بربه ، وقوي إيمانه ، وزاد يقينه ، وأخذ يدعوا إلى الله تعالى وهو في السجن ، ويزرع مهابته وحبه وتقواه في نفوس السامعين متى أتيحت له الفرصة : ﴿ **يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ .

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي
متأخَّرٌ عنه ولا مُتقدمُ
أجد الملامة في رضاك لذيذةً
حباً لذِكْرك فلْيَلُمني اللوَّمُ

«قوله تعالى عن نبيه يوسف انه قال : ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ ، جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب ، وإظهار الافتقار إليه ، والبراءة من موالاة غيره سبحانه . وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد ، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء» .

نبي الله يونس - عليه السلام - :

وذلك يونس - عليه السلام - حينما ضعفت نفسه ، وضاق صدره ، وضج بقومه، فذهب مغاضباً وتركهم مهاجراً من دون ان يأذن الله تعالى له ترك عبء الدعوة وغادرهم ظناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والاقوام متعددون ، وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الخانق إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة مشحونة ، فركب فيها ، وانزلوه بينهم منزلاً كريماً لما رأوا على وجهه من علامات الكرم والطهر والصفاء ، فلما ابتعدوا عن الشاطىء ، هاجت الأمواج ، وهبت الأعاصير ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وانخلعت القوائم ، وأيقنوا بالهلاك ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا من الركاب ، وأنه لا بد من إلقاء أحدهم على الأقل ، ليسلم البقية ، فساهموا فجاء السهم على يونس ، ولكنهم ضنّوا به على البحر تكريماً لشانه ، ولما رأوا من مكانه فعادوا

للمساهمة فعاد السهم على يونس ، وكذلك المرة الثالثة .

فألقى يونس بنفسه في اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ ، أي مستحق للرمي لأنه لم يصبر على تكاليف الرسالة ، وترك قومه قبل أن يأذن له **الله** تعالى . فأوحى **الله** إلى الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً .

وعندما أحس يونس بالضيق في بطن الحوت ، في تلك الظلمات الهائلة ، ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وضاق صدره ، واعتلج همه، وعظم كربه ، فزع إلى **الله** تعالى : إلى غياث الملهوف ، وملجأ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وانطلق لسانه بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ وتأتي الاستجابة السريعة ، وانظر إلى التعقيب بالفاء ، حيث قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ .

فأوحى **الله** إلى الحوت ، أن يلقي يونس بالعراء فخرج على الشاطىء سقيماً هزيلاً مدنفاً عليلا ، فتلقته عناية **الله** ، وحفت به رحمته . فأنبت **الله** عليه شجرة من يقطين ، وهو نبات لا ساق له وله ورق عريض . ودبت إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة .

قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك – رضي **الله** عنه – : أن يونس

عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال : « **اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** » أقبلت الدعوة تحف بالعرش ، قالت الملائكة : « يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة » ، فقال الله تعالى : « أما تعرفون ذلك؟ » ، قالوا : « يا رب ومن هو؟ » ، قال عز وجل : « عبدي يونس » ، قالوا : « عبدك يونس الذي لا يزال يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة؟ » ، قالوا : « يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء » ، قال « بلى » ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء .

وروي في حديث آخر ، أنه ﷺ قال « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى : دعوة يونس بن متى » ، فقال سعد بن أبي وقاص يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ ، قال : « هي ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدرعليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ » .

نبي الله موسى - عليه السلام - :

وهذا نبي الله موسى – عليه السلام – حينما فرّ بالمؤمنين معه من بني إسرائيل فادركهم فرعون وجنوده ، فإذا بالبحر أمامهم والعدو من ورائهم بعدده وعتاده ، من جيوش مجيشة ، وسيوف مصلته ، فلم يتأثر موسى لذلك ، ولم يخف مما هنالك ؛ لأنه قد عرف الله ، واتصل بالله ، ولجأ إلى الله ، ﴿ **قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك**

البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾ .

وقد علم موسى – عليه السلام – بمعية الله له ، فقد ناداه قبل ذلك حينما خاف هو وأخوه هارون من فرعون ، قال تعالى : **﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾** .

وكان اتكاله على الله عظيماً ، ونهجه سليماً ، وقد بثَّ في نفوس أتباعه أن الإيمان بالله تعالى يستوجب التوكل الحق عليه ، واللجوء الجازم إليه : **﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾** .

ويروى أن موسى – عليه السلام – لما خرج هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التي ذكر الله . وهو وحيد غريب خائف جائع . فقال : « يا رب وحيد مريض غريب » . فقيل له : يا موسى ، الوحيد : من ليس له مثلي أنيس . والمريض : من ليس له مثلي طبيب ، والغريب : من ليس بيني وبينه معاملة » .

فليس غريباً من تنائت دياره
ولكن من تنأون عنه غريب

ومما روي عن موسى – عليه السلام – أنه قال : يا رب، من أهلك الذين هم أهلك ، الذين تظلّهم في ظل عرشك ؟ قال : هم البريئةُ أيديهم ، الطاهرةُ قلوبهم ، الذين يتحابُّون بجلالي ، الذين إذا ذُكرت ذُكروا بي ، وإذا ذُكروا ذُكرت بذكرهم . الذين يسبغون الوضوء عند المكاره ، والذين ينيبون

إلى ذكري كما تُنيب النسور إلى وكورها ، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبيُّ بحب الناس . ويغضبون لمحارمي إذا استُحلّت كما يغضب النمرُ إذا حرب .

نبي الله عيسى - عليه السلام - :

أما المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - فقد خضع للألوهية ودان بالعبودية منذ أن كان في المهد صبياً : ﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً * والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وهكذا عاش عيسى - عليه السلام - داعياً إلى الله ، محذراً من الشرك به والمخالفة لأمره : ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

نبي الله يحيى - عليه السلام - :

وهذا يحيى بن زكريا - عليهما السلام - جمع بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات ، ثم خطبهم فقال : « إن الله أوحى إليّ بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمر بني إسرائيل أن يعملوا

بهن ، أولهن : أن لا تشركوا بالله شيئاً ، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه داراً . فقال : اعمل وارفع إليّ فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده ، فأيكم يرضا أن يكون عبده كذلك ، فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً ، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا ، فإن الله يُقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت ، وآمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرّة مسك ، كلهم يحب أن يجد ريحها ، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك ، وآمركم بالصدقة ، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقرّبوه ليضربوا عنقه ، فجعل يقول : هل لكم أن أفدي نفسي منكم ، وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه ، وآمركم بذكر الله كثيراً ، ومثل ذكر الله كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه ، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله .. » الحديث .

* أعلم الناس بالله *

محمد ﷺ أعرف الناس بالله ، وأخشاهم لله ، وأتقاهم لله قام حتى تفطرت قدماه إجلالاً وشكراً لمولاه .

تقول عائشة – رضي الله عنها – ، قام ﷺ ليلة من الليالي ، فقال: « يا عائشة ذريني أتعبد لربي » ، قالت : والله إني لأحب قربك ، وأحب ما يسرُّك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه

يبكي ، قال : يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكورا ، لقد نزلت عليّ الليلة آياتٌ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ » .

كان ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام ، فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .

كان في الناس من لا يعرف الله أصلاً ، فأنار محمد ﷺ بصيرته ، وقاده من ضميره إلى مولاه . وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة ، يظن له ولداً يشفع ، أو شريكاً ينفع ، فجاء محمد ﷺ يقرر عقيدة الوحدانية المطلقة ، وينفي أن يكون لله ابن أو بنت أو ندٌّ أو ضدٌّ ، أوشبيه في العظمة أو معقب في الحكم : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * وما اختلفتم فيه من شيء فحُكمُه إلى الله ، ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾ .

ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفة في الأولين والآخرين ، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سناه ، ولا يغيم ضحاه .

والمسلم المتأسي برسوله يحس أن لهذه المعرفة سمات خاصة تبدو في حديثه ﷺ فهي واضحة صادقة حارة نفّاذة ؛ نعم ، لا غموض ولا افتعال في حديث هذا النبي عن **الله** ، وفي ربط الناس به .

وقد مكث ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى توحيد **الله** ، وتعظيم **الله** .

وقد جاءه ﷺ رجل فقال : ما شاء **الله** وشئت ، فاشتد غضبه ، واحمر وجهه ، وقال له : «أجعلتني **لله** نداً ، قل ما شاء **الله** وحده» .

وجاءه رجل ، فقال : يا رسول **الله** إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فبابٌ أتشبث به ، فقال له : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر **الله**» .

وأمر بعتق الجارية لأنها سُئلت : أين **الله**؟ فقالت : في السماء .

وإذا ادلهمت به الأمور ، واشتدت الخطوب ، وعظمت الكروب ، لجأ إلى **الله** «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو ينزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضا ، ولا حول ولا قوة إلا بك» .

واختفى بغار ثور ومعه الصديق - رضي **الله** عنه وأرضاه - فجاء المشركون بفرسانهم وسلاحهم حتى وقفوا على باب الغار ، فقال له الصديق: يا رسول **الله** ، و**الله** لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا ، فقال له ﷺ : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين **الله** ثالثهما» ، فنزل القرآن يمجد هذا الحدث الأسمى ، والموقف الأجل ، والمراقبة الصادقة : ﴿إلا تنصروه فقد نصره

الله إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

ثم انظر إلى هذه الثقة النبوية العظيمة في **الله** جل جلاله ، تتجلى لك في هذه القصة الرائعة ، والحادثة الماتعة :

كان ﷺ عائداً من إحدى غزواته ، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة ، فنزل رسول **الله** ﷺ ، وتفرّق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول **الله** ﷺ تحت سَمُره ، فعلق بها سيفه ، ونام في ظلها ، فجاء رجل من المشركين ، فاخترط سيف رسول **الله** ﷺ ، فاستيقظ والسيف في يده صَلْتاً ، فقال له : من يمنعك مني؟ ، فقال ﷺ في رباطة جأش ، وثبات نفس ، ويقين مؤمن : «**الله**» ، فسقط السيف من يد المشرك ، فأخذ ﷺ السيف ثم قال له : «من يمنعك مني؟» ، فقال : كُنْ خير آخذ ، فقال : «تشهد أن لا إله إلا **الله** ، واني رسول **الله**؟» ، قال : لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلّى سبيله ، فأتى المشرك أصحابه ، فقال : أتيتكم من عند خير الناس .

ولقد عظمت الاحاديث ، وكثرت الآثار والاخبار التي رويت عن النبي ﷺ مما يحمل في طياته التعظيم والإجلال للواحد المتعال ، وللكلام الإنساني درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يترك أثراً ، ولايبلغ هدفاً ، وعندما يذكر محمد ﷺ ربه راغباً أو راهباً يشتد النبض في الكلمات المناسبة ، وتحتدّ العاطفة في المشاعر الحارة فلا يملك قارىء أوسامع إلا أن يخشع ويستكين **لله** رب العالمين . وذلك واضح بين في مئات الأحاديث المروية عنه ﷺ ، ولا سيما في الأذكار والأدعية ، ومن ذلك قوله في

الحديث : « **اللهم** لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت . **اللهم** أعوذ بعزتك ؛ لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا تموت ، والجن والإنس يموتون » .

وقوله إذا خرج من بيته : « بسم **الله** ، توكلت على **الله** ، **اللهم** إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل ، أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أوأجهل أو يُجهل علي » .

وقوله إذا أوى إلى فراشه : « **اللهم** أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت » .

وقوله إذا أصبح : « **اللهم** بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور » ، وإذا أمسى قال : « **اللهم** بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك المصير » .

وقوله ﷺ : « **اللهم** بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، **اللهم** إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفذ ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، **اللهم** زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهديين » .

إلى غير ذلك من هذه الكلمات والعبارات والأذكار والدعوات التي

تصل المرء بربه، وتعمر بذكر **الله** وقته ، وتحيي فؤاده ، وتجلي بصيرته ، وتزرع في قلب المؤمن الأنس **بالله** والمهابة والخشية من **الله** .

* انظر كيف عظموا الله *

كان ﷺ يزرع في نفوس أصحابه الثقة **بالله** ، والأنس به ، والتسليم له ، ولما عظموا **الله** جل وعلا وآمنوا به ، ووثقوا بنصره ، تربعوا على عرش الدنيا ، وأذعنت لهم الإنسانية ، وهزوا كيان البشرية .

يقول علي بن أبي طالب - رضي **الله** عنه - : لقد سبق إلى جنان عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتماراً ، لكنهم عقلوا عن **الله** مواعظه ، فوجلت منه قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم ، وخشعت له جوارحهم ، ففاقوا الناس بطيب المنزلة ، وعلوّ الدرجة عند الناس في الدنيا ، وعند **الله** في الآخرة . آهـ .

أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - :

لقد كان أبو بكر الصديق - رضي **الله** عنه - رجلاً أسيفاً بكّاءً كثير الوجل والخوف من **الله** جل وعلا ، ولم يسبق الأمة بكثير صلاة أو صيام ، وإنما سبقهم بشيء وقر في قلبه ، وهو إيمان عميق ، وتصديق وثيق .

لما حضرته الوفاة قالوا له : ألا ندعو لك طبيباً ، قال : « إن الطبيب قد رآني ، فقال : إني فعّال لما أريد » .

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

وكان في وجه عمر خطان أسودان من كثرة البكاء ، وكان يسمع بكاؤه من آخر الصفوف ، وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ فسقط مغشياً عليه ، وبقي أياماً مريضاً يزوره الناس ، وكان إذا أظلم عليه الليل يضرب قدميه بالدره ، ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم يا عمر؟ وكان ينعس وهو قاعد ، فقيل له : ألا تنام يا أمير المؤمنين؟ قال : «إذا نمت الليل ضيعت حظي مع الله ، وإذا نمت النهار ضيعت رعيتي» وحين حضرته الوفاه يقول لابنه : «ضع خدي على التراب عل الله ان يرى حالي فيرحمني» .

بكى عمر الفاروق خوفاً وخشية
وقد كان في الأرض الإمام المثاليا
وقال بصوت الحزن يا ليت أنني
نجوت كفافاً لا عليَّ ولا ليا

وقد لقي راعياً في يوم من الأيام ، فقال له : بعنا شاة من غنمك ، فقال الراعي ، الغنم لسيدي وليست لي ، قال له عمر : قل له أكلها الذئب فقال الراعي : فأين الله؟ فأخذ عمر يبكي ، ويقول : إي والله أين الله؟ إي والله ، أين الله؟ .

عثمان بن عفان - رضي الله عنه - :

أما عثمان بن عفان – رضي الله عنه وأرضاه – فأمره عجب ، لقد كان من إجلاله لله ، وحياءه من الله، لا يغتسل واقفاً ، وإنما يغتسل جالساً

حياءً من الله ، ولا غرو فهو الرجل الذي تستحي منه الملائكة .

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

أما علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد كان صواماً قواماً فارساً بالنهار ، راهباً بالليل . صلى صلاة الفجر في يوم من الأيام فجلس حزيناً مطرقا ، فلما طلعت الشمس قبض على لحيته ، وبدأ يبكي ويبكي ، ثم قال : لقد رأيت أصحاب النبي ﷺ فما رأيت شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم كامثال ركب المعزى من كثرة السجود قد باتوا لله سجّدا وقياما يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا طلع الفجر ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهطلت أعينهم بالدموع والله لكأنّ القوم باتوا غافلين .

أُبيٌّ بن كعب - رضي الله عنه - :

أما أُبيٌّ بن كعب – رضي الله عنه وأرضاه – فقد قال لـه النبي ﷺ : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » ، فلما سمع أُبيٌّ بالخبر قال في لهفة وشوق وإجلال وإعظام : أوَ سمَّاني لك ؟ قال : « نعم » ، فانهار أُبيٌّ رضي الله عنه بالبكاء .

طفح السرور عليّ حتى إنّه
من عِظم ما قد سرّني أبكاني

أُبيٌّ لم يتحمل الموقف ، ولم يصمد للنبأ ، لانه أيقن ماذا يعني تسمية الله له باسمه ، وماذا يعني تردُّد اسمه في الملأ الأعلى ، حيث الواحد الأحد حيث العظمة والكبرياء ، حيث سدرة المنتهى ، حيث العرش والكرسي .

بلال بن رباح - رضي الله عنه - :

أما بلال – رضي الله عنه وأرضاه – الذي امتلأ قلبه بنور الله ، وعُمر فؤاده بجلال الله وعظمة الله ، فقد هان لديه كل عظيم ، وعَذُبَ عنده كل تعذيب ، يوضع في رمضاء مكة الحارقة ، وتوضع الصخور الكبيرة على صدره وهو يهتف بكلمة المحبة : أحدٌ أحد . . أحدٌ أحد .

خباب بن الأرت - رضي الله عنه :

عن الشعبي قال : دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه ، وقال : ما على الأرض أحدٌ أحقُ بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد ، قال له خباب : من هو يا أمير المؤمنين؟ قال : بلال . فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ما هو باحق مني . إن بلالاً كان له في المشركين ما يمنعه الله به ، ولم يكن لي أحد يمنعني ، فلقد رأيتني يوماً أخذوني ، وأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رَجُلٌ على صدري فما اتقيت الأرض إلا بظهري ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص .

لقد كان خباباً – رضي الله عنه – صانعاً للسيوف ، فلما علم المشركون بإسلامه حولوا جميع الحديد الذي كان بمنزله إلى قيود وسلاسل كل يحمى عليها في النار حتى تستعر وتتوهج ثم يطوّق بها جسده ويداه وقدماه ، ولكن ذلك كله لم يثنه عن دين الله ، وما ازداد به إلا صبراً وثباتاً وقوة ويقينا .

خالد بن الوليد - رضي الله عنه - :

وإليك هذه الكلمات الموجزة التي نشير بها إشارة عابرة إلى ما كان

عليه الصحابة من إيمان عميق ، ويقين وثيق ، ومن أراد المزيد فما عليه إلا بمراجعة سيرهم وأخبارهم وقصصهم وأعاجيبهم وحروبهم وجهادهم ، ليرى أحداثاً عظيمة ، وتاريخاً مذهلاً لأمة زرعت في قلوبها مهابة **الله** وجلاله .

أما الكلمات فهي لخالد بن الوليد – رضي **الله** عنه وأرضاه – ، قالها حينما كان يجاهد في سبيل **الله** ، وكانت أعداد العدو هائلة ، وجيوشه مذهلة ، وقوّته ضاربه ، فسئل عن قتاله لأمثال هؤلاء مع قلة جيشه ، وضآلة عدده وعتاده ، فقال : « أرى و**الله** أنا إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة فهم أكثر منا وأقوى علينا ، وإن كنا إنما نقاتلهم ب**الله** ، ول**له** ، فما أرى أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً تغني عنهم شيئاً » .

أرأيت هذا الموقف الخالد ، فل**له** در خالد ، لقد كان لهم من المواقف ما يبهج القلب ، ويسر الخاطر ، ويمتع الفؤاد .

عبد الله بن حرام – رضي الله عنه – :

انظر قبل ذلك إلى قصة عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبي جابر – رضي **الله** عنهما – حينما أراد أن يتقرب إلى ربه جل وعلا لم يجد شيئاً يثبت به حبه وإجلاله إلا نفسه ، فاقبل في حب وتعظيم ، وخشية وإجلال ، وخرج للقاء المشركين في غزوة أحد ، فقتل شهيداً في سبيل **الله** – جل وعلا – ، فقال ﷺ لولده جابر يوماً : « يا جابر ما كلم **الله** أحد قط إلا من وراء حجاب ، ولقد كلم أباك كفاحاً – أي مواجهة – ، فقال له : يا عبدي سلني أعطيك ، فقال يا رب أسألك أن تردّني إلى الدنيا لأُقتل في سبيلك ثانية ، قال **الله** له : إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا

رب فأبلغ من ورائي بما أعطينا من نعمة، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ » .

أبو الدحداح - رضي الله عنه - :

أما أبو الدحداح - رضي الله عنه وأرضاه - فإنه من شدة إجلاله لربه ومحبته له بذل أغلى ما يملك من أمواله استجابة لمولاه وطمعاً في نيل رضاه.

فقد كان له بستان في المدينة هو أفضل بساتينها ، وفيه ستمائه نخلة اسمه « بيرحاء » ، سمع قول الله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، فقال : يا رسول الله ، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟! قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أعطني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ، ثم ذهب إلى زوجته أم الدحداح ، فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك ، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل .

خبيب بن عدي - رضي الله عنه - :

كان خبيب آية في الفداء ، أعجوبة في التقوى ، مثالاً في النسك ، معجزة في الحب ، لقد أسره المشركون وعذبوه عذاباً شديداً ، ولقد كان في سجنه موثقاً في الحديد ، وكان يُرى وهو يأكل العنب في وقت لم يكن موسماً للعنب ﴿ هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

قرّر المشركون أن يصلبوه ويقتلوه ، فطلب منهم أن يأذنوا له بصلاة ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، لقد كانت أمنية خبيب أن يمرغ وجهه للحبيب وأن يستدر عطف العظيم ورحمة القريب ، ليقبله في عباده الصالحين ، فلما

سلّم قال : والله لو لا أن تحسبوا أن بي جزعاً من الموت لازددت صلاة ، ثم شهر ذراعيه نحو السماء قائلاً : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تُبق منهم أحدا ، ثم راح يتلو أنشودة الحب ، ومقطوعة الوداع ، في يقين راسخ ، وإيمان يتحدى الجبال الشامخة :

لقد أجمع الأحزاب حولي ، وألّبُوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجْمعِ
وكلُّهم مبدي العداوة جاهد
عليّ لأني في وثاق بمضْيعِ
وقد قرّبوا أبناءهم ونساءهم
وقُرّبتُ من جذعٍ طويل مُمنّعِ
إلى الله أشكوا غربتي بعد كُربتي
وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبّرني على ما يُراد بي
فقد بضّعوا لحمي وقد ياس مطمعي
وقد خبّروني الكفر والموتُ دونه
فقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذارُ الموت إني لميّتٌ
وإن إلى ربي إيابي ومرجعي
ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً
على أي شقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يُبارك على أوصال شلْوٍ مُمزّع

فلست بمبدٍ للعدو تخشُّعاً
ولا جزعاً ، إني إلى **الله** مرجعي

فقال له أبو سفيان : أيسرُّك أن محمداً عندنا تُضربُ عنقُه وإنك في أهلك ، فقال : لا و**الله** ، ما يسرُّني أني في أهلي ، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه!! .

حبيب بن زيد - رضي الله عنه - :

ولهذا الصحابي الجليل قصة أشبه بالخيال ، وحادثة أعجب من العجب يقف الفكر أمامها مشدوهاً ، والعقل حائراً ، والفؤاد خاشعاً ، رائعة من روائع الحب ، وقصة من أبدع قصص التضحية ، تُتوَّج بها القصص ، ويفخر بها الزمان ، ويتيه بها التاريخ .

أرسله رسول **الله** ﷺ برسالة إلى مسيلمة الكذّاب فسجنه مسيلمة وعذبه ، ثم جمع قومه في يوم مشهود ، وجيء بمبعوث رسول **الله** ﷺ فقال له مسيلمة : أتشهد أن محمداً رسول **الله**؟ قال حبيب : نعم أشهد أن محمداً رسول **الله** ، فغضب مسيلمة ثم قال له : أتشهد أني رسول **الله** فأجابه حبيب في سخرية لاذعة : إني لا أسمع شيئاً ، فهاج مسيلمة هياجاً شديداً واشتد غضبه وعلا صوته ، ثم أمر جلاّده أن يبدأ قصةً في العذاب تُسطِّر أسوأ مظاهر الوحشية ، وتبين أفظع ألوان القسوة والهمجية ، فبدأ الجلاد ينخس جسم حبيب بسن سيفه ، ثم راح يقطع جسده وهو حي قطعة قطعة ، وبُضعةً بُضعة ، وعضواً عضواً ، والبطل العظيم لا يزيد على همهمةٍ يردد بها (لا إله إلا **الله** محمد رسول **الله**) ، بقي عليها حتى لفظ أنفاسه الطاهرة .

لقد باع حبيب روحه للحبيب ، فاستلذ طعم العذاب في ذاته ، وأسلم الأمر للعظيم فجعل نار العذاب عليه برداً وسلاماً ، أي جلال هذا ، وأي عظمة تلك ، وأي حب وأي فداء وأي صبر وأي إيمان . لقد ضُرب بين حبيب وأعداء ربه بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، لقد كان بإمكان حبيب أن يجد مخرجاً ، أو يلتمس عذرا ، أو يستجيب ظاهراً، ولو فعل ذلك لما أثم : ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ، ولكنه وجدها فرصة ليعقد أعظم وأجمل وأربح صفقة في الحياة مع أجل وأحب مشترٍ : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التواة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ .

الحسن البصري - رضي الله عنه - :

ومن أشد الناس ذكراً **لله** ومعرفةً به وإجلالاً له : الحسن البصري - رحمه **الله** - الذي أثر عنه من كلمات الثناء ، وعبارات الدعاء ، ما ينبيء عن قلب حي ، وذهن متوقد ، ونفسٍ مؤمنة ، كان إذا جلس في مجلسه قال :

اللهم لك الحمدُ بما بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالأهل والمال ، ولك الحمدُ باليقين والمعافاة .

اللهم لك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالاهل والمال ، بسطت رزقنا وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما

سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ كثيراً كما تُنعم كثيراً ، أعطيت خيراً كثيراً ، وصرفت شراً كبيراً ، فلوجهك الجليل الباقي الدائم ؛ الحمد لله رب العالمين .

عروة بن الزبير - رضي الله عنه - :

أما العالم الرباني ، والإمام الروحاني : عروة بن الزبير – رضي الله عنه وأرضاه – فقد كان في أحد أسفاره ، ثم ابتلي بداء الآكلة في رجله، فاجتمع الأطباء على أنه لا بد من قطعها ، فقالوا له نسقيك مرقد ومخدر لئلا تحس بالوجع ، فقال : لا والله ، ولكني إذا كنت في الصلاة فإنني مع الله ، ولا أدري عن شيء ، فلما قام إلى صلاته قطعوها فلم يتحرك ، فلما نظر إلى رجله وهي في أيدي الأطباء تناولها بيده ، ثم قال : الحمد لله ، أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام قط .

وفي اليوم نفسه رفست الدابة أحبُّ أبنائه إلى قلبه فمات ، فقال : الحمد لله على كل حال ، لقد لقينا في سفرنا هذا نصبا ، ثم اتجه إلى السماء في خشوع وخضوع وتذلل وافتقار ، ورفع يديه قائلاً : اللهم كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة ، وكان لي بنون سبعة ، فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، فلك الحمد على ما أعطيت ، ولك الشكر على ما أبقيت .

الإمام ابن أبي ذئب - رحمه الله - :

أما الإمام ابن أبي ذئب – رحمه الله – وهو علم من الأعلام ، وشيخ من شيوخ الإسلام ، لهذا العالم الجليل نبأ عظيم ، وقصة ماتعة ، وحادثة

ذائعة ، تجلّي تعظيمه لله ، وإجلاله لله ، فعليه رحمة الله :

لما حج المهدي دخل مسجد رسول الله ﷺ ، وكان ابن أبي ذئب جالساً في المسجد يسبح الله ، ويعظم الله ، ويذكر الله ، فلما دخل المهدي لم يبق أحد من الجالسين في المسجد إلا وقف ، أما ابن أبي ذئب فلم يقم من مكانه ، فقال له أحد الحاضرين منكراً ذلك عليه : قم فإن هذا أمير المؤمنين ، فقال الإمام : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، لقد تذكر الإمام عظمة الله – جل وعلا – وجلال الموقف بين يديه يوم تعنو الوجوه له ، ويقوم الناس له ، فمنعه ذلك من القيام لغيره – جل وعلا – وهذه النية الصادقة جعلت المهدي – رحمه الله – يهتز ويرتعد ويتأثر بهذه الموعظة الجليلة ، واللفتة المؤثرة، فقال المهدي للرجل : دعه دعه ، فلقد قامت كل شعرة في رأسي .

سفيان الثوري - رحمه الله - :

أما سفيان الثوري – رحمه الله – فقد طاف وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه فنظر إلى السماء فوقع مغشياً عليه خوفاً وخشية وإجلالاً ومهابة لله ، وقد كان شديد التفكر في عظمة الله وقدرته ، وكان من شدة تفكره وخوفه يبول الدم في أحيان كثيرة .

الفضيل بن عياض - رحمه الله - :

أما الفضيل بن عياض فوقف يوم عرفة يدعو ويبكي حتى غربت الشمس ، ثم نظر إلى السماء وأخذ بلحيته وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت.

يقول إبراهيم بن الأشعث : ما رأيت أحداً كان خوف **الله** في صدره أعظم من الفضيل كان إذا ذُكر **الله** أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به خوف ، وحزنٌ شديد ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من يحضره ويشفق عليه ، وكنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي بكاءً شديداً وكأنه ذاهب إلى الآخره ، وكان يقول : رهبة العبد من **الله** على قدر علمه **بالله** ، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة.

محارب بن دثار - رحمه الله - :

وهذا مُحارب بن دثار كان قاضٍ من قضاة الكوفة ، يقول أحد جيرانه: كنا إذا أظلم الليل ، ونامت العيون نسمع محارب بن دثار وهو يدعو ويرجو ويهتف ويبكي في ظلمة الليل ، وكان مما يقول :

« يا **الله** أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد ، أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد ، أنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد ، أنا الغريب الذي وصيته فلك الحمد ، أنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد ، أنا العزب الذي زوجته فلك الحمد ، أنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد ، أنا العاري الذي كسوته فلك الحمد ، أنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد أنا الغائب الذي ردّيته فلك الحمد ، أنا الراجل الذي حملته فلك الحمد أنا المريض الذي شفيته فلك الحمد ، أنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد ، أنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد ، فلك الحمدُ ربنا حمداً كثيراً على حمد لك .

لقد كان السلف – رحمهم **الله** فرساناً بالنهار ، رهباناً بالليل ، قدموا **لله** أرواحهم ، وبذلوا في سبيله أنفسهم ، وصفت له سرائرهم ، وأشرقت

بحبه قلوبهم ، ودمعت من خشيته أعينهم ؛ عملوا بالكتاب ، واتبعوا الرسول ، واجتهدوا في الطاعة ، ومع ذلك أطار الخوف قلوبهم ، وأسهر الإشفاق أعينهم ، وأقضّت النار مضاجعهم ، ثم انظر في أحوال كثير من الناس اليوم ، قلة في الطاعة ، وتقصير في العبادة ، ومخالفة للسنة ، ومقارفة للمعاصي ، ومنادمة للخطايا ، ثم لا عينٌ تدمع ، ولا قلبٌ يخشع ، ولا خوفٌ يردع ، ولا تذكّرٌ لهول المطلع! .

إبراهيم التيمي - رحمه الله - :

يقول إبراهيم التيمي : «مَثَّلْتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثّلت نفسي في النار ، آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، ثم قلت لنفسي : يا نفس أيُّ شيءٍ تريدين؟ قالت : أريد أن أُرَدّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، قال : فأنت في الأمنية فاعملي» .

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع
كُلهم بين خائف ... مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدجى ... طالعاً بعد طالع
واستهلت عيونهم ... فائضات المدامع
ودعوا يا مليكنا ... يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا ... للعيون الدوامع
اعف عنا ذنوبنا ... للوجوه الخواشع
أنت إن لم يكن لنا ... شافع خير شافع

الإمام محمد بن النضر - رحمه الله - :

وهذا الإمام محمد بن النضر الحنفي النيسابوري ، الذي كان شيخ وقته ، وإمام علماء عصره ، جاءه رجل ، فقال له : إن لي جيراناً من أهل الأهواء ، لا يشهدون الجمعة ، فقال له الإمام : ما تقول في من يردُّ على أبي بكر وعمر؟ ، قال الرجل : رجل سوء ، قال الإمام : فإن ردّ على النبي ﷺ ؟ قال الرجل : يكفر ، قال الإمام : فإن ردّ على العليّ الأعلى؟ ، ثم غشي عليه - أي أنه لم يستطع أن يتحمل هول الموقف ، وفداحة الخطب ، حينما تصور أحداً يرد على **الله** - ثم أفاق بعد ذلك فقال : ردوا عليه ، والذي لا إله إلا هو لقد قال **الله** : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾** .

العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - :

وممن عرفناه بالولاية العظيمة والتقوى العاطرة ، والخشوع **لله** ، والخضوع لجلاله ، والمداومة على ذكره ، واستحضار هيبته ، وكثرة البكاء من خشيته ، هو الإمام العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه **الله** - فلم تر عيني ولم تسمع أذني بمثله في زماننا الحاضر فهو بقية السلف ، ودرة الزمان ، وباختصار إن هذا الشيخ ليس فيه من سمات أهل الدنيا إلا أنه يعيش بينهم ، أما قلبه وفكره ووجدانه فهو في الدار الآخرة ، كان يبيت يناجي ربه ويدعو ويرجو ويهتف ويبكي ثم إذا ارتفع النداء بادر إلى المسجد ثم صلى الفجر في خشوع وخضوع ثم أتى بكامل الأوراد ثم أُتي له بالأوراق كلها ثم يبدأ بقراءة المعاملات والنظر في حاجات الناس ، ثم قراءة بعض مسائل العلم ثم قبل أن يخرج من بيته وهو في كامل طهره ووضوئه ،

متطهراً متطيباً متسوكا ، يتجه إلى الله تعالى ويدعوه أن يحفظه وأن يعينه وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين .

في سفر من أسفاره الطويلة أحس أن الركب قد تعبوا وظهرت عليهم وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وذلك بعد منتصف الليل ، فقال لهم : مارأيكم لو نمنا هنا ثم في الصباح نكمل السفر ، فوافق كل من كان معه حيث غلبهم النوم ويريدون أن يستريحوا ، فلما نزلوا من السيارة كل منهم ذهب إلى ناحية فنام فيها ، أما الشيخ فإنه لما نزل طلب ماء وتوضأ ثم شرع يصلي ماشاء الله له ثم نام ، ولما قاموا لصلاة الفجر وجدوا الشيخ قد سبقهم للقيام ووجدوه يصلي !! فتعجبوا منه ومن جلده على العبادة ، حيث كان هو آخر من نام وأول من قام فسبحان الذي أعطاه هذه القوة والعزيمة – رحمه الله رحمة واسعة – .

* رضي عنهم ورضوا عنه *

أن يرضا العبد عن ربه فذلك واجب عليه مطلوب منه والمنّة فيه لربه حيث هداه لذلك ، لكن الشرف الاسمى والمرتبة العظمى ، والدرجة القصوى أن يرضا الله جل جلاله عن العبد .

إن أعظم نعيم يبشر الله تعالى به أهل الجنة بعد دخولها أن يقول لهم لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا ، فيقول تعالى : رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

فرضاه تعالى عن عبده لا يكون إلا بعد محبة الله له وقبوله له ، يقول

تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ، ومعنى ذلك أن الله تعالى رضي عنهم أفعالهم ورضوا عنه ما جازاهم به .

إن رضا العبد عن الله بمعنى أن لا يكره ما يجري به قضاؤه ، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره ومنتهياً عن نهيه .

ولما كان أعظم الرضا هو رضا الله سبحانه وتعالى ، ورد في القرآن الكريم بصيغة (الرضوان) وهو الرضا الكثير ، قال تعالى : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ .

إن طريق المؤمن لنيل رضا الله تعالى عنه هو أن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ، يجب على المؤمن أن يرضا بفعل ما أمر به وأن يرضا بترك ما نُهي عنه .

ومن رضا المؤمن عن ربه أن يرضا بما قدره الله عليه وما ابتلاه به من فقر أو مرض أو غير ذلك ، والرضا بهذا مستحب من العبد على القول الراجح ، أما الواجب فهو الصبر .

كتب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى أبي موسى – رضي الله عنهما – قائلاً : «أما بعد فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضَ وإلا فاصبر» .

إن الرضا عن الله تعالى يثمر المحبة ، ويقرب العبد من ربه ، وهو دليل على نقاء القلب ، وقوة اليقين ، وعميق التقوى .

إن رضا الله تعالى عن العبد هو كما أسلفنا في امتثال أوامره واجتناب

نواهيه ، ولكن هنالك نصوصاً ورد ذكر الرضا فيها صريحاً نذكر طرفاً منها تشجيعاً لمن أراد أن يفوز برضوان الله ، ويحظى بمحبته جل وعلا :

قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ .

يقول ﷺ : « إن الله ليرضا عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

ويقول ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالد ، وسخط الرب في سخط الوالد » .

ويقول ﷺ : « السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » .

ويقول ﷺ : « ما من مسلم ، أو إنسان ، أو عبد ، يقول حين يمسي وحين يصبح : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة » .

ويقول ﷺ : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » .

أورد ابن القيم – رحمه الله – حديثين للنبي ﷺ وهما :

قوله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً » .

وقوله ﷺ : « من قال حين يسمع النداء رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً غُفرت له ذنوبه » .

ثم قال بعدها : هذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي . وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته . والرضا برسوله ، والانقياد له ، والرضا بدينه والتسليم له . ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً ، وهي سهلة بالدعوى واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان ، ولا سيّما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها ، من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً ، فهو على لسانه لا على حاله .

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتل إليه ، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه ، فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا . وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له ، والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده . ويتضمن إفراده بالتوكل عليه ، وبالاستعانة به والثقة به ، والاعتماد عليه ، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به . فالأول : يتضمن رضاه بما يُؤمر به . والثاني : يتضمن رضاه بما يُقدره عليه .

وأما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له ، والتسليم المطلق إليه ، ولا يُحكم عليه غيره ، ولا يرضى بحكم غيره البتة ، لا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه ، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضا إلا بحكمه فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم ، وأحسن أحواله : أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم

به عند العجز عن استعمال الماء الطهور .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال : أو حكم ، أو أمر ، أو نهى ، رضي كل الرضا ، ولم يبق في قلبه حرج من حُكمه وسلّم له تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها ، أو قول مقلده وشيخه وطائفته .

* ادعوني أستجب لكم *

الدعاء ملاك الأمر ، وروح العبادة ، ومرضاة الرحمن ، وملاذ الإنسان ، ولبّ الدين ، وجوهر الخشوع ، فهو توثيق لعرى التوحيد ، وتمجيد للعزيز المجيد ، وانطراح على أعتاب الكريم ، وطمع في ذي العرش العظيم ، والدين كله قائم على أركان من الدعاء : شهادة أن لا إله إلا **الله** دعاء ، الصلاة دعاء ، الزكاة دعاء ، الصوم دعاء ، الحج دعاء ، فالدعاء تتجلى فيه حقيقة العبودية ، وتكمن فيه روح الافتقار إلى الجبار ، « وليس شيء أكرم على **الله** عز وجل من الدعاء» .

إنه زاد المؤمن ، وسلوة العابد ، وملاذ الخائف ، وملجأ المكروب ، وسلاح المناضل ، يحبه **الله** ويفرح به ، ويغضب على من تركه .

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبني آدم حين يسئل يغضب

وكل ما أكثرت الدعاء كلما عَلَتْ درجاتك وزادت حسناتك ، يقول ﷺ : « ما من مسلم يدعو **الله** عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه **الله** بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يُعجِّل له دعوته ، وإما

أن يدخرها له في الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » فقال الصحابة : إذاً نكثر يا رسول الله ، فقال : « الله أكثر » ، فسبحانه ما أعظمه كثرة دعائك له ترفع منزلتك عنده ، وشدة إلحاحك عليه تزيد محبتك لديه وهو جل وعلا حيي كريم يستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيها خيراً فيردهما صفراً ، وهو قريب ممن دعاه ، سميع لمن ناجاه . سئل ﷺ : أقريبٌ ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ .

ويقول أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً ، ولا نعلو شرفاً ، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، فدنا منا فقال : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته » .

ولفضله جل وعلا وكرمه فإنه يدعو عباده دائماً وأبداً : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

وهو جل وعلا ينزل – نزولاً يليق بجلاله – إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له » .

الدعاء شأنه عظيم ، وموقعه كريم ، وأثره كبير ، يخفف حدّة الأقدار

وقد يدفعها ، وفي الحديث : « ادعوا فإن الدعاء يرد القضاء » .

ويقول ﷺ : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البرُّ ، وإن الرجل يُحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

الدعاء به يُحفظ الأبرار ، ويُصان الأخيار ، ويتحصن الأطهار ، فنسيانه ضياع ، وتركه شقاء ، والتهاون به عجز ، يقول ﷺ : « أعجز الناس من عَجَز عن الدعاء ، وأبخل الناس من بخل بالسلام » .

أمر الله تعالى به ووعدنا بالإجابة عليه : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ، وفي الحديث يقول تعالى : « يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لي وواحدة بيني وبينك ، فأما التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكه ، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة » .

ولقد ورد الأمر بالدعاء في القرآن الكريم في نصوص كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ .

الدعاء مخ العبادة وخالصها ، من أعظم ما يقرب من رب العالمين ، وينفع في الدنيا والدين ، وبه ينقطع الرجاء من المخلوقين ، وتُنزل الحوائج بمالك يوم الدين ، به يكمل الرجاء ، ويعظم الأمل ، ويزداد الطمع ، ويتجلى الافتقار ، ويظهر الخشوع ، ويزيد الخضوع ، ويشتد الانكسار لعظمة الجبار ، فالمؤمن لاهج بذكر ربه ، مكثر للدعاء ، مؤمل في العطاء ، متصل بالسماء .

تعالى الواحد الصمد الجليل
وحاشى أن يكون له عديل
هو الملك العزيز وكل شيء
سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه
وإن سبيله لهو السبيل
وإن له لمنًا ليس يُحصى
وإن عطاءه لهو الجزيل
وإن عطاءه عدل علينا
وكل بلائه حسن جميل
وكل مفوُه أثنى عليه
ليبلغه فمُنْحسر كليل
أيا من قد تهاون بالمنايا
ومن قد غرّه الأمل الطويل
ألم تر أنما الدنيا غرور
وأن مقامنا فيها قليل؟

أمن يجيب المضطر إذا دعاه :

من كرم الباري جل وعلا أنه لا يخيب من رجاه ، ولا يضيع من دعاه ، وبقدر حاجة الإنسان إليه وانطراحه بين يديه ولجوئه إليه ، بقدر ما تكون الإجابة ، ويأتي الفرج ، ويُستجاب الدعاء ، بل إن من كرمه أنه يجيب دعوات أناس غير مسلمين في حالة اضطرارهم إليه وانطراحهم بين يديه وثقتهم في لطفه وطمعهم في كرمه ، فهو يجيب نداءهم ، ويكشف ضرهم كرماً منه فهو الكريم ، وتحبيباً لهم لعلهم يؤمنون ، ولكن كثيراً من الناس

يتناسون الفضل ، ويتنكرون للجميل ، ويكفرون المعروف ، قال تعالى : **﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾** .

ولقد امتن الله تعالى على العباد بأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وأن ذلك دليل من دلائل الألوهية ، وبرهان من براهين الوحدانية ، ولكن الناس قليلاً ما يتذكرون : **﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾** .

وإن الناس إذا أغلقت في وجوههم الأبواب وضاقت بهم الأرض واشتد بهم الكرب وعظم عليهم الخطب ، ولم يجدوا في المخلوقين ملجأ ولا ملاذاً ، فإنهم بدافع الفطرة في نفوسهم يلجئون إلى الله تعالى ويلوذون بجنابه وينطرحون على أعتابه : **﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾** .

إن التنكر للباري والكفران للنعمة ، ومجازاة الإحسان بالإساءة هو من تلبيس الشيطان وتزيينه للأتباع ، وهو من عمل المسرفين وغرور المغرورين .

بعض الناس لا يعرف المسجد ، ولا يعرف الدعاء ، ولا يعرف الصدقة إلا إذا عركته الأيام ، وهاجمته الأحداث ، فإذا ما زال همه وكشف غمّه نسي ما كان يدعو إليه من قبل .

قال تعالى : **﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾** .

نحن ندعو الإله في كل كرب
ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجوا إجابة لدعاء
قد سددنا طريقها بالذنوب

ما من إنسان إلا وله تجربة مع الله جل وعلا في تفريج همٍّ ، أو تنفيس كربة ، أو دفع ضرر ، أو منع خطر ، أو نيل محبوب ، أو حصول مطلوب ، فإن بابه مفتوح ، وعطاءه ممنوح ، وكرمه عظيم ، وجوده كبير . فكم من حاجة قضيت ، ومن دعوة قبلت ، ومن بركة نزلت ، ورحمة غشيت ، ونفحة نيلت ، وخطيئة غفرت ، وزلة محيت ، وتوبة قبلت ، ، وعقبة أزيلت ، ومحنة أزيحت ، ومنحة أثمرت . لداعين دعوا ربهم ، وأناس لجؤوا إلى خالقهم؟ .

إن على المؤمن أن يكثر الدعاء ، ويلجأ إلى رب الأرض والسماء في كل أوقاته وفي جميع أحيانه ، وإن كثرة الدعاء في الرخاء سبب لإجابة الدعاء في أوقات الشدة وساعات الكرب وأيام المحن ، وفي الحديث : «من سرّه أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء» .

من موانع الإجابة :

هناك موانع تمنع قبول الدعاء ، وتقف في طريق الإجابة ، وهي موانع كثيرة ، وأسباب متعددة ، ولكنه يجمعها جميعاً الذنوب ، فإن كثرة الذنوب والتمادي في العصيان تبعد المرء عن الرحمن ، ومن تلك الأسباب ما يلي :

١ - عدم الإقبال على الله بصدق والتوجه إليه في عزيمة ، يقول ﷺ :

« ادعوا **الله** وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن **الله** لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ » .

ويقول ابن بطال – رحمه **الله** – : « ينبغي للداعي أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء الإجابة ، ولا يقنط من الرحمة ، فإنه يدعو كريماً » .

٢ – عدم الجزم في المسألة والإلحاح في الدعاء ، يقول ﷺ : « إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولن **اللهم** إن شئت فاعطني فإنه لا مستكره له » .

٣ – عدم الصلاة على النبي ﷺ يقول عمر بن الخطاب – رضي **الله** عنه –: « إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تُصلي على نبيك ﷺ » .

ويقول أبو سليمان الداراني – رحمه **الله** تعالى – : « من أراد أن يسأل **الله** حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي فإن **الله** عز وجل يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما » .

٤ – استعجال الإجابة ، يقول ﷺ : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي » .

٥ – وهو من أهم الأسباب : أكل الحرام أو شرب الحرام أو لبس الحرام ، فإن هذه من أقوى موانع الإجابة ، ولعلها السر الأكبر في عدم قبول دعوات الناس ، ومع ذلك يقول أحدهم دعوت فلم يستجب لي ، تأمل أحوال

الناس اليوم لتعرف عدم قبول دعائهم ، بنوكٌ ربوية ووظائف محرمة ، ومهن غير مشروعة ، وأطعمة ممنوعة ، وأشربة مكروهة ، وألبسة ممقوتة .. إلخ .

يقول ﷺ : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله قد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ ، وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغُذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك» .

٦ – ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : كيف يستجاب الدعاء لمن لم يامر بالمعروف ولم ينه عن المنكر؟ كيف يقبل الله تعالى من لم يغضب لحرماته إذا انتهكت وينكر المعاصي إذا ظهرت؟ بقدر حبك لله وغيرتك على شرعه ، بقدر قبوله لك ورضاه عنك وإجابته لدعوتك .

وقد روي عنه ﷺ قوله : «يا أيها الناس إن الله تعالى يقول مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، وتسالوني فلا أعطيكم» ، «وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يستجب لدعائهم» .

٧ – عدم رد المظالم إلى أهلها ، يقول سفيان الثوري – رحمه الله – : «بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون

فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم - عليهم السلام - لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء ، فإني لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها ، ففعلوا فمطروا من يومهم » .

دعوات مستجابات :

ذكر ﷺ بعض الناس الذين تستجاب دعواتهم إذا دعوا ، ومن ذلك :

١ - قال ﷺ : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم » .

٢ - وقال ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يُفطر ، والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتي لأنصرنّك ولو بعد حين » .

٣ - وقال ﷺ : « ثلاثة لا يرد دعاؤهم : الذّاكر الله كثيراً ، ودعوة المظلوم ، والإمام المقسط » .

٤ - الدعاء بظهر الغيب ، قال ﷺ : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » .

وذكر ﷺ أوقاتاً وأحوالاً تستجاب فيها الدعوات ، ومن ذلك :

١ - قال ﷺ : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » .

٢ - وقال ﷺ : « أقرب ما يكو ن الرب من العبد في جوف الليل الآخر ،

فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن».

وقال ﷺ : «يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فاغفر له» .

٣ - وقال ﷺ : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ فأكثروا الدعاء» .

٤ - وقال ﷺ : «إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، قال : وهي ساعة خفيفة» ، وأرجح الأقوال أن هذه الساعة هي التي بعد صلاة العصر إلى قبل الغروب .

٥ - ويقول ﷺ : «من تعارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد الله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر ، أو دعا استجيب ، فإن توضأ قُبلت صلاته» .

يقول ابن مفلح - رحمه الله : «فالعارف يجتهد في تحصيل أسباب الإجابة من الزمان والمكان وغير ذلك ، ولا يمل ولا يسام ويجتهد في معاملته بينه وبين ربه - عز وجل - في غير وقت الشدة ، فإنه أنجح ، فالواجب النظر في الأمور ، فإن عَدمَ الإجابة فليعلم أن ذلك إما لعدم بعض المقتضى ، أو لوجود مانع ، فيتهم نفسه لا غيرها ، وينظر في حال سيد الخلائق وأكرمهم على الله عز وجل ، كيف كان اجتهاده في وقعة بدر وغيرها ، ويثق بوعد ربه - عز وجل - في قوله : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ ، وليعلم أيضاً أن كل شيء عنده بأجل مسمى» .

آداب الدعاء :

للدعاء آداب كثيرة منها :

١ - أن يكون الإنسان متطهراً متطيباً متسوكاً ، فإن ذلك أجمل وأكمل ، لأنه سيناجي الواحد الاحد ، ويدعو الكريم العظيم الطيب الجميل .

٢ - أن يقبل بقلبه وفكره ووجدانه ومشاعره إقبالاً كلياً على الله جل وعلا .

٣ - اختيار المكان المناسب والأحوال اللائقة ، فإن بعض الامكنة وبعض أحوال الإنسان لا يليق فيها الدعاء ، ولا يحسن فيها الذكر .

٤ - أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

٥ - أن يغتنم الأحوال الشريعة كوقت نزول الغيث ، وعند إقامة الصلاة ، وعند إفطار الصائم ، وحالة السجود ، وفي حال السفر .

٦ - أن يدعو مستقبل القبلة ، مع خفض الصوت بين المخافتة والجهر ، وأن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع ، والتكلف لا يُناسبه .

٧ - الإخلاص في الدعاء والتضرع والخشوع والرغبة والرهبة ، وأن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه .

٨ - أن يلح في الدعاء ويكون ثلاثاً كما ينبغي له أن لا يستبطيء الإجابة .

٩ - أن يفتتح الدعاء ويختتمه بذكر الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ ، ثم يبدأ بالسؤال .

١٠ - التوبة ورد المظالم والإقبال على الله - عز وجل - وتحري أكل الحلال .

حاجة الأمة إلى الدعاء :

إن أمة الإسلام اليوم في كرب شديد ، وضائقة عظيمة ، وشدة كبيرة ، تمر بأصعب مراحلها وأشق أيامها وأقسى أزمانها وأعتى ظروفها ، تكالبت عليها الأمم ، وتداعت عليها الدول ، وتآمر بها الأعداء ، وتآزر ضدها الألداء تحاك لها المؤامرات ، وتحبك ضدها التصرفات ، تزرع لأبنائها الشهوات ، وتصدر لهم الشبهات ، وتقدم لهم المغريات ، أجمعوا كيدهم وامرهم عليها ، وأخذوا على عواتقهم إضلال بنيها وإفساد شبابها وتشويه تراثها وتحطيم حصون عزتها وقلاع كرامتها ، وإن الكرب في ازدياد ، والخطر في اشتعال ، والمكر في اجتهاد ، وليس لها من دون **الله** كاشفة ، وإن من أمضى الأسلحة وأقوى أسباب الدفاع وأحدّ سيوف الفتك هو الدعاء . اللجوء إلى **الله** تعالى في إيمان صادق ويقين واثق ، فليس لنا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه فيجب علينا كثرة الدعاء واللجوء إلى **الله** تعالى ، مع البعد عن موانع الإجابة ، ولنعلم أن **الله** مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وإذاكان **الله** معنا فلو اجتمعت أمم الأرض بأمضى أسلحتها وأحدث آلاتها فإن النصر حليفنا ، والتوفيق نصيبنا : **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** ، **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** .

إن الأسباب الأرضية مهما كانت ، والقوى المادية مهما بلغت فليس لها قيمة ، وليس لها اعتبار إذا خلت من الإيمان بالواحد القهار . إن القوة الأساسية هي قوة الروح وسلاح الإيمان ورماح التوكل وحصون التقوى .

إن أمة الإسلام اليوم في حالة الاضطرار ولا يجيب المضطر إلا **الله** جل وعلا ، ويا عجباً لهذه الأمة التي لم يأن لها أن تخشع ، وتدع التنكر لأسباب نصرها وأسرار عزها ودروب مجدها ، لقد جرّبت النصرة من عند غير **الله** ، واللجوء إلى سوى **الله** ، فلم تزدد إلا ذلاً ، ولم تقطف إلا نكداً ، ولم تشرب إلا علقماً ، فهل آن لها أن تلجأ إلى حصن حصين ، وركن شديد ، فتجتني ثمار العزة ، وتتذوق حلاوة النصر ، وتتربع على عرش الدنيا فلن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . لقد خرج هؤلاء القلة من المؤمنين فماذا أحدثوا في الأرض ، وماذا فعلوا على الرغم من قلة عددهم وعتادهم ؟ سرعان ما تغيرت الأحوال ، وتبدلت الأمور ، وحدث العجب العجاب الذي غيّر وجه التاريخ ، وقلب موازين البشرية .

يقول أحد المؤرخين الأجانب : (بقوة واحدة ونجاح واحد زحف العرب على خلفاء الروم وفارس ، وأصبحت الدولتان المتنافستان العظيمتان في ساعة واحدة فريسة لعدوٍ لم يزل موضع الإزدراء والاحتقار منها - في عشر سنوات من أيام حكم عمر - أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع ، وخربوا أربعة آلاف كنسية ومعبد للكفار ، وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد ، وعلى رأس قرن من هجرة محمد من مكة امتد سلطان خلفائه من الهند إلى المحيط الأطلانطيكي ، ورفرف علم الإسلام على أقطار مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وأفريقيا وإسبانيا) .

ويقول مؤرخ عصري من غير المسلمين : (بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة ، إنهم فتحوا سورية ومصر ودخلوا فارس وملكوا تركستان الغربية وجزءاً من بنجاب ، إنهم انتزعوا إفريقية من البيزنطينيين والبربر ، وأسبانيا من القوط ، وهددوا فرنسا في

الغرب ، والقسطنطينية في الشرق ، مخرت أساطيلهم البحر المتوسط ، واكتسحت الجزر اليونانية ، وتحدت القوة البحرية للإمبراطورية البيزنطية ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء ، ووجدت الدول النصرانية نفسها من أقصى أوروبا إلى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي) .

إن هؤلاء الأبطال فتحوا هذه الدول لينشروا فيها دين **الله** ويسعدوها بشريعة **الله** ، ويستنقذوها من براثن الكفر والظلم والاستعباد والقهر ، لقد لجأوا إلى **الله** واعتمدوا عليه ، وانطرحوا بين يديه ، وامتثلوا نهج محمد ﷺ الذي وقف في معركة بدر يدعو ربه ويناشده ويسأله أن يحقق له ما وعده من النصر ، وبقي يدعو حتى سقط رداءه من على منكبيه ، وأشفق عليه أبو بكر من كثرة دعائه وانطراحه ، وأخذ يطمئنه ويبشره بأن **الله** سينجز له ما وعده به ، فمضى هؤلاء الأبطال بسلاح الدعاء والإيمان قبل غيرهما من الأسلحة الأرضية ، فهم كانوا على ثقة بنصر **الله** لهم مهما كانت قوة العدو وعتاده ، فإيمانهم أقوى ، ورسالتهم أعظم .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ .

الأمراء في اليرموك كتبوا إلى عمر يعلمونه بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلونه من خطر داهم وعدد لا قبل لهم به ، فكتب إليهم : (أن أجمعوا أمركم فكونوا صفاً واحداً والقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار **الله** و**الله** ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن

من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها) .

بهذه الثقة الأكيدة بلغوا ما بلغوا ، وكانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ، ثقة بنصر **الله** واعتماداً على موعوده ، حتى إنهم خاضوا بخيولهم في دجلة ، ومشوا على الماء ، وكانوا يتحدثون مطمئنين كأنهم سائرون على البر ، وكان منظراً غريباً ، وجعل الفرس يقولون عنهم الجن والعفاريت ، وكان الذي يساير سعد بي أبي وقاص في عبوره على الماء سلمان الفارسي – رضي **الله** عنهما – ، فجعل سعد يقول : (حسبنا **الله** ونعم الوكيل ، و**الله** لينصرن **الله** وليه ، وليظهرن **الله** دينه ، وليهزمن عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات ، فخرجوا من النهر لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئاً) . إنها الثقة **بالله** والاتكال عليه ، وكثرة دعائه واللجوء إليه ، والالتزام بأوامره .

يقول هرقل لجنوده لما هزموا : (ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم ، قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر في كل موطن ، قال : فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونأمر بالسخط ، ونفسد في الأرض ، قال : أنت صدقتني) .

وسأل هرقل أسيراً أسره المسلمون عنهم فقال : هم فرسان بالنهار ، رهبان في الليل .

وقفة تأمل :

ادعوك لتأمل هاتين الآيتين من آيات الدعاء لترى فيهما معاني بديعة ، وإشارات لطيفة ، وتنبيهات هامة .

١ – قال تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ كم في هذه الآية من دروس ، وكم حوت من عبر؟ يأمر الله تعالى عباده أن يدعوه وأن يكون دعاء صادقاً خاشعاً متضرعاً بعيداً عن الضجيج والصياح ، ثم بين أنه لا يحب المعتدين ، فهو لا يحب المعتدين في الدعاء بالتكلف والضجيج والتمطيط ، وإن السلامة من الاعتداء في الدعاء هي بالالتزام بالأدعية القرآنية وبما ورد عن النبي ﷺ وهو لا يحب الاعتداء أياً كان ، فمن اعتدى عليكم فادعوا الله عليه ، والجأوا إليه فهو نصير المظلومين ، وقاهر المعتدين ، وإن اعتديتم على أحد بدون وجه حق فقد فاتتكم محبة الله ، ثم ينبه هؤلاء الداعين المتضرعين أن دعاءهم لن يغني عنهم شيئاً إذا أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، والإفساد فيها يكون بتغييب شريعة الله عن الناس ، وبنشر أسباب الفساد ، والتمكين لأنصار الباطل ، ثم يكرر الأمر بالدعاء ، وأن يكون جامعاً لأمرين الخوف من الله تعالى ، والطمع في كرمه ، ثم يؤكد أن إجابة الدعاء ونيل رحمة الله لا يناله من الناس إلا المحسنون . المحسنون مع ربهم ، والمحسنون مع أنفسهم ، والمحسنون مع بني جنسهم بل مع كل ذي روح .

٢ – قال تعالى : ﴿أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء

الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ .

الاضطرار إذا وقع ، مَنْ الذي يجيب أهله؟ والسوء إذا خيّم ، مَنْ الذي يكشفه؟ والتمكين في الأرض والخلافة فيها من الذي يعطيها؟ إنه **الله** جل وعلا ، وليس ذلك إلا له فهو الواحد الأحد الفرد الصمد القادر على كل شيء ، إذا أراد أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون ، فالجؤوا إليه أيها المضطرون ، وافزعوا إليه يا من حل بكم السوء وضاقت بكم الأرض وضاعت منكم الخلافة ، لتجدوه ناصراً ومعيناً ، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ .

من جوامع الدعاء :

قال تعالى : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي ﴾ .

ولقد كان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سوى ذلك كما أخبرت عائشة – رضي الله عنها – فعن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : قلت لرسول الله ﷺ : علمني دعاءً أدعو به في صلاتي ، قال: « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » .

وقال ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

ومن جوامع أدعيته ﷺ قوله : « رب اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري كله ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وجهلي وجدي وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير » .

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » .

وكان من دعائه ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وفجاءة نقمتك وجميع سخطك» .

ويقول ابن عمر – رضي الله عنهما – : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يصبح : «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي» .

وسألت عائشة – رضي الله عنها – النبي ﷺ : بماذا أدعو إذا وافقتُ ليلة القدر ، فقال : «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» وهذا من أجمع الأدعية على الإطلاق .

كان ﷺ يقول : «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» .

وجاءه ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال : «قل اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك» .

وكان ﷺ يقول : «اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسيىء الأسقام» .

وكان من أكثر دعائه ﷺ قوله : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» .

أناس مستجابو الدعوة :

لكل مسلم تجارب عديدة مع ربه عز وجل حينما يلجأ إليه بصدق ويدعوه بيقين ، فكم فرّج عنك همّاً ، وكم كشف غمّاً ، وكم أزال خطراً ، وكم أغدق رزقاً ، وكم دفع ضراً ، ولكن الناس درجات ، والعُبّاد متفاوتون ، وهنالك أناس اختصهم **الله** تعالى بمنح عظيمة ، وعطايا كريمة ، من أولئك أناس لو أقسم أحدهم على **الله** لأبرّه . وإذا سأل ربّه أعطاه ، وإذا دعاه أجابه .

أعظم العظماء وأكمل الأولياء محمد ﷺ . دعا لأناس كُثُر فَقَبِل **الله** دعوته، ودعا على أناس فقبل **الله** دعوته .

دعا لدوس وقال : « **اللهم** اهد دوساً وآت بهم » فجاؤا مسلمين عن بكرة أبيهم بعد أن يئس الطفيل من إسلامهم .

ودعا **الله** أن يعز الإسلام بأحد العمرين فأعزه بعمر بن الخطاب .

ودعا لأم أبي هريرة – رضي **الله** عنه – بأن يهديها **الله** للإسلام فقُبلت دعوته في الحال .

ودعا **الله** لأبي هريرة أن يحببه إلى خلقه فقُبلت دعوته .

ودعا لعلي بن أبي طالب – رضي **الله** عنه – بقوله : « **اللهم** اهد قلبه وثبّت لسانه » يقول علي فما شككت بعد في قضاء بين اثنين .

ودعا لابن عباس بقوله : « **اللهم** فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، فكان حبر الأمة وترجمان القرآن .

ودعا لأنس بن مالك بقوله : « **اللهم** أكثر ماله وولده وبارك له فيما

أعطيته » فكثرت أمواله وكثر أولاده وبورك له .

ودعا على أبي جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأُبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، لأنهم آذوه وألقوا سلا الجزور عليه ، ووقفوا سداً منيعاً في وجه الدعوة إلى **الله** فقتلوا جميعاً في معركة بدر . ودعواته المستجابة كثيرة يصعب حصرها ، وليس هذا مجال استقصائها .

وقد أخبر ﷺ أن من عباد **الله** من لو أقسم على **الله** لأبرّه ، وإليك الآن طرفاً من أعاجيب القوم وتجاربهم مع **الله**:

الرُّبيّع بنت النَضر – رضي **الله** عنها – كسرت ثنية جارية ، فعرضوا عليهم الأرش – العوض – فأبوا ، فطلبوا منهم العفو ، فأبوا ، فقضى بينهم رسول **الله** ﷺ بالقصاص ، فقال أنس بن النضر – رضي **الله** عنه – : أتُكْسَر ثنية الرُّبيع؟ والذي بعثك بالحقّ لا تُكسر ثنيّتُها ، فرضي القوم ، وأخذوا الأرش ، فقال رسول **الله** ﷺ : «إن من عباد **الله** من لو أقسم على **الله** لأبره» .

النعمان بن قوقل – رضي **الله** عنه – قال يوم أحد : **اللهم** إني أقسم عليك أن أُقتل ، فادخل الجنة ، فقُتِل ، فقال النبيُّ ﷺ : «إن النعمان أقسم على **الله** فأبره» .

عبد **الله** بن جحش – رضي **الله** عنه – قال يوم أحد : يا رب ، إذا لقيتُ العدوَّ غداً ، فلقِّني رجلاً شديداً بأسُهُ ، شديداً حرَدُهُ أقاتلُه فيك ويُقاتلني ، ثم يأخذني فيجدعُ أنفي وأذني ، فإذا لقيتُك غداً ، قلت : يا

عبد **الله** من جدع انفك وأُذنك؟ فاقول : فيك وفي رسولك ، فتقولُ : صدقت ، ولقد أجاب **الله** دعوته ووجد آخر النهار وأنفه واذنه معلّقتان في خيط .

وكان سعدُ بن أبي وقاص مجاب الدعوة ، فكذب عليه رجلٌ ، فقال : **اللهم** إن كان كاذباً فاعم بصره ، وأطل عمره ، وعرّضه للفتن ، فأصاب الرجل ذلك كلّه ، فكان يتعرّض للجواري في السكك ويقول : شيخ كبير مفتون ، أصابتني دعوةُ سعد .

ودعا على رجلٍ سمعه يشتِمُ علياً ، فما برح من مكانه حتى جاء بعيرٌ نادٌ فخبطه بيديه ورجليه حتى قتله .

ونازعت امرأةٌ سعيد بن زيد في أرض له ، فادّعت انه أخذ منها أرضها فقال : **اللهم** إن كانت كاذبةً فاعم بصرها ، واقتلها في أرضها ، فعميت ، وبينا هي ذات ليلة تمشي في أرضها إذ وقعت في بئر فيها فماتت .

وكان أويس القرني مستجاب الدعوة لانه كان باراً بامه ، وكان عمر بن الخطاب يطلب منه أن يدعو **الله** له .

وكان العلاءُ بن الحضرمي في سريّة ، فعطشوا فصلى فقال : **اللهم** يا عليم يا حليم يا عليُّ يا عظيم ، إنا عبيدُك وفي سبيلك نقاتل عدوك ، فاسقنا غيثاً نشربُ منه ونتوضأ ، ولا تجعل لاحد فيه نصيباً غيرنا ، فساروا قليلاً فوجدوا نهراً من ماء السماء يتدفق فشربوا وملؤوا أوعيتهم ، ثم ساروا فرجع بعض أصحابه إلى موضع النهر فلم ير شيئاً ، وكانه لم يكن في موضعه ماء قط .

وشُكي إلى أنس بن مالك عطشُ أرضٍ له بالبصرة ، فتوضأ وخرج إلى

البرية وصلى ركعتين ، ودعا فجاء المطرُ فسقى أرضه ، ولم يُجاوز المطر أرضه إلا يسيراً .

وكان أبو مسلم الخولاني مشهوراً بإجابة الدعوة ، فكان يمرُّ به الظبي فيقول له الصبيان : ادعُ **الله** لنا يحبس علينا هذا الظبي ، فيدعو **الله** فيحبسه حتى يأخذوه بأيديهم .

وكان إذا أجدبت الأرض ، وجفّ الضرع ، ومات الزرع ، خرجوا به يستسقون **الله** عز وجل فيسقيهم .

ودعا على امرأة أفسدت عليه عَشْرة امرأته له ، دعا عليها بذهاب بصرها ، فذهب بصرها في الحال ، فجاءته فجعلت تُناشدُه **الله** وتطلبُ إليه فرحمها ودعا **الله** فردّ عليها بصرها .

وكذب رجلٌ على مطرّف بن عبد **الله** الشخّير ، فقال له مطرف : إن كنت كاذباً فعجّل **الله** حتفك ، فمات الرجل مكانه .

وكان رجل من الخوارج يغشى مجلس الحسن البصري فيُؤذيهم ، فلما زاد أذاه قال الحسن : **اللهم** قد علمت أذاه لنا فاكفناه بما شئت ، فخرّ الرجل من قامته ، فما حُملَ إلى أهله إلا ميتاً على سريره .

وكان صلةُ بن أشيم مستجاب الدعوة ، وقد كان في يوم من الأيام في سرية فذهبت بغلتُه بثقلها وارتحل الناس ، فقام يُصلي ، وقال : **اللهم** إني أقسم عليك أن تردّ عليّ بغلتي وثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه .

وكان مرّةً في برية قفرٍ فجاع ، فاستطعم **الله** ، فسمع وجبةً خلفه ، فإذا هو بثوب أو منديل فيه دوخلة رطب طريٌ ، فأكل منه وبقي الثوب عند

امرأته معاذة العدوية ، وكانت من الصالحات .

وكان محمدُ بن المنكدر في غزاة ، فقال له رجل من رُفقائه : أشتهي جُبْناً رطباً ، فقال ابن المنكدر : استطعموا الله يُطعمكم فإنه القادر ، فدعا القوم ، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى رأوا مكتلاً مخيطاً ، فإذا هو جبنٌ رطْبٌ ، فقال بعض القوم : لو كان عسلاً فقال ابن المنكدر : إن الذي أطعمكم جبناً ها هنا قادرٌ على أن يُطعمكم عسلاً فاستطعموه ، فدعوا ، فساروا قليلاً فوجدوا ظرف عسلٍ على الطريق ، فنزلوا فأكلوا .

وكان حبيبٌ العجميُّ أبو محمد معروفاً بإجابة الدعوة ؛ دعا لغلام أقرع الرأس وجعل يبكي ويمسح بدموعه رأس الغلام ، فما قام حتى اسودَّ شعر رأسه ، وعاد كأحسن الناس شعراً .

وأُتي برجلٍ زَمِنٍ مقعدٍ في مَحْملٍ فدعا له ، فقام الرجلُ على رجليه ، فحمل محمله على عنقه ورجع إلى عياله .

واشترى في مجاعة طعاماً كثيراً – اشتراه بالدين حيث لم يكن معه قيمته – فتصدَّق به على المساكين ، ثمَّ خاط أكْيسةً فوضعها تحت فراشه ، ثم دعا الله ، فجاءه أصحاب الطعام يطلبون ثمنه ، فأخرج تلك الأكيسة فإذا هي مملوءة دراهم ، فوزنها فإذا هي قدر حقوقهم فدفعها إليهم .

وخرج أبو قلابة صائماً حاجاً فتقدم أصحابه في يوم صائف فأصابه عطشٌ شديدٌ ، فقال : اللهم إنك قادر على أن تُذهب عطشي من غير فطر فأظلته سحابة فأمطرت عليه حتى بلت ثوبه وذهب العطشُ عنه ، فنزل فحوَّض حياضاً فملأها ، فانتهى إليه أصحابُه فشربوا ، وما أصاب أصحابه من ذلك المطر شيء .

* أين الله *

الإنسان بفطرته وبما أودعه الله جل وعلا في نفسه يعرف أن الله في العلو ، ولذلك تجد المكروب أو المضطر أو الراغب أو الراهب إذا أراد أن يدعو ربه جل وعلا فإن قلبه وفؤاده ومشاعره وأحاسيسه تتجه جميعاً إلى السماء ، ويرفع كفيه بالدعاء . وهذه الفطرة السليمة والنظرة القويمة أيدها الكتاب الكريم والسنة المطهرة وسلف الأمة الصالح ، إلا أن بعض الأفكار الضالة والآراء المنحرفة تظن جهلاً منها أنها تنزه الله تعالى وتعلي من شأنه إذا نفت عنه ما أثبته لنفسه كالعلو والاستواء وغير ذلك من صفات المولى جل وعلا .

والإيمان بأن الله جل وعلا في السماء مستوٍ على عرشه بائن من خلقه هو عقيدة أهل السنة والجماعة التي يجب الإيمان بها واعتقادها . بل إن بعض العلماء يرى أن الذي لا يؤمن بعلو الله تعالى وأنه في السماء لا تجوز الصلاة خلفه لأنه لا يدري أين ربه .

* الله في السماء *

إن الله جل جلاله أخبرنا أنه في السماء مستوٍ على عرشه ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ .

ويقول ﷺ : « لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه » .

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ربه أنه في السماء ، ففي الصحيحين عن

أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباح مساء» .

وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله في السماء ، ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود أن معاوية بن الحكم السلمي ضرب جارية له لتقصيرها في الحفاظ على أغنامه ، ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه في إعتاقها ، فطلبها الرسول ﷺ وسألها : «أين الله؟» قالت : في السماء ، قال : «من أنا؟» ، قالت : أنت رسول الله ، قال : «أعتقها فإنها مؤمنة» .

يقول الإمام الذهبي – رحمه الله – بعد هذا الحديث : (هذا حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وغير واحد من الأئمة في تصانيفهم ، يمرونه كما جاء ولا يتعرضون له بتأويل ولا تحريف .

وهكذا رأينا كل من يسأل : أين الله؟ يبادر بفطرته ويقول : في السماء ، ففي الخبر مسألتان :

إحداهما : شرعية : قول المسلم : أين الله؟ .

وثانيهما : قول المسؤول : في السماء . فمن أنكر هاتين المسألتين فإنما ينكر على المصطفى ﷺ) .

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – : «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .

أدلة العلو

والأدلة من الكتاب والسنة على أنه تعالى في السماء فوق عباده ظاهر عليهم كثيرة جداً ، منها ما سبق ذكره ، ومنها ما يلي :

١ – النصوص الدالة على أن بعض مخلوقاته عنده : ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ .

وقوله ﷺ : « لما قضى **الله** الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي » .

٢ – النصوص المخبرة برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه كالآيات المصرحة برفع عيسى بن مريم : ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ ، وبمعراج الرسول ﷺ والمخبرة بصعود الأعمال إليه : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ ، والنصوص المخبرة بصعود أرواح المؤمنين : ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ ، فهذا دليل على أن أبواب السماء تفتح للمؤمنين .

ومن ذلك عروج الملائكة إليه : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ .

٣ – ومنها إخباره بإنزال الملائكة : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره** ﴾ ، وإنزال الكتب : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾ .

٤ – ومنها إخباره جل وعلا بنزوله إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل – وذلك في كل ليلة – .

٥ – ومنها رفع الأيدي والأبصار إليه ، وقد وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها رفع الرسول ﷺ يديه في الدعاء ، وكل من حزبه أمرٌ فإنه يرفع يديه

إلى العلو يدعو **الله** ، وكذلك رفع البصر فإنه ثبت في الدعاء بعد الوضوء .

وفي الحديث : « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء » .

وكان داود – عليه السلام – يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول : « إليك رفعت رأسي يا عامر السماء ، نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء » .

٦ – ومن ذلك إشارته ﷺ بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع عندما قالوا : نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : « **اللهم** اشهد **اللهم** اشهد » .

فهو سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه عال على جميع خلقه ، وهو قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه . ويعلم سره ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته . ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، فإذا الذي عند عنق راحلته أو عند حبل وريده لا يعلم ما خفي عليه من كلامه ، و**الله** عز وجل على عرشه ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته لا تخفى عليه منهم خافية ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر فهو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط ، فهو سبحانه القريب في علوه العلي في دنوه ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

* قصيدة في تأييد مذهب السلف *

هذه القصيدة للشيخ العلاّمة سليمان بن سحمان النجدي – رحمه الله – في الرد على أحد المخالفين لمذهب السلف ، وقد طبعت في حياته في عام ١٣٢٣ هـ ، في رسالة بعنوان : « تأييد مذهب السلف » ومن أبياتها :

الحمد لله حمداً دائماً وكفا
حمداً كثيراً فكم أعطى وكم لطفا
ثم الصلاة على المعصوم سيدنا
أوفى البرية بل أزكاهمُ شرفا
وبعد فاعلم بأن القول أحسنه
ما وافق الحق حتماً واقتضى النصفا

إلى أن قال في وصف كتب السلف :

بل كان فيهن إثبات العلو له
سبحانه وتعالى مثل ما وصفا
على السموات فوق العرش مرتفعاً
مبايناً لجميع الخلق متصفا
بكل أوصافه العليا التي كملت
وليس هذا بحمد الله فيه خفا
ولم نجسم كما قالوا بزعمهمُ
بل نثبت الفوق والأوصاف والشرفا
إن المجسمة الضُّلال ليس لهم
في غيهم من دليل يوجب النصفا

والله ما قال منا واحدٌ أبداً
بأنه كان جسماً إنّ ذا الجفا
بل نثبت الذات والأوصاف كاملة
كما به الله والمعصوم قد وصفا
ولم نشبه كأهل الزيغ حين بغوا
واستبدلوا بضياء الحق ما انخسفا
ونحن لم نَعْدُ آياتٍ مبينةً
ونصٍ ما قاله المعصوم حيث شفى
أن الإله له الأوصاف كاملة
حقيقة بمعانيها كما وصفا
فإن يكن وصفنا لله خالقنا
بكلِ أوصافه لم نبتدع جنفا
كفراً وجهلاً وتجسيماً ومنقصة
فليشهدوا أننا قلناه غير خفا
وأن ذلك دين الله قال به
من كان بالعلم والإنصاف متصفا
وكل أهل الحديث العاملين به
العالمين بما قد قاله الحنفا
وكل حبر فقيه عالم ثقة
يدري الحقائق لا يبغي لها جنفا
على الصراط السوي المستقيم مضوا
ما خالفوا من لهم في الدين قد سلفا

والحمد لله حمداً دائماً أبداً
مباركاً فيه كم أعطى وكم لطفا
ثم الصلاة على المعصوم سيدنا
والآل والصحب من قد أكملوا الشرفا
ما انهل وَدْقٌ وماضَ البرق في سحب
أو ناح طير على الأغصان أو هتفا

* الرحمن على العرش استوى *

العرش أعظم المخلوقات كلها ، وقد نص الله في سبعة مواضع في كتابه على استوائه على العرش ، ومن ذلك قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

والدليل على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله قوله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ أي في يوم القيامة ، وقوله : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ، فقد أخبر أن للعرش حملة وأنهم يستغفرون للمؤمنين . وهذا ينفي قول من يقول إن العرش هو الملك .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري : « إذا سألتم الله عز وجل فاسألوه الفردوس ، فإنه في وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفجر أنهار الجنة » .

وفي صحيح البخاري : « أن الناس يصعقون يوم القيامة فيكون الرسول ﷺ أول من يفيق فيجد موسى آخذاً بقائمة من قوائم العرش » .

وقد وصف الله العرش بأنه عظيم ﴿رب العرش العظيم﴾ ، وقد بين الرسول ﷺ عظمة العرش بوجهين من البيان ، الأول : بإخباره عن عظم الملائكة الذين يحملون العرش ، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح يقول الرسول ﷺ : «أذن لي أن أحدّث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام تخفق الطير» ، أي يحتاج الطائر المسرع إلى سبعمائة عام كي يقطع هذه المسافة ، والوجه الثاني : بين الرسول عظمته بأن صوّر عِظَم العرش بالنسبة للسموات والأرض وصغرهما بالنسبة إليه ، قال ﷺ : «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض وفضلُ العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» .

وقد امتدح الربُّ نفسه بأنه مستو على عرشه ، كقوله : ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى﴾ .

وقال تعالى : ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ .

وقال تعالى : ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ .

يقول ﷺ : «لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه» .

وصفة الاستواء صفة كمال وجلال ، تمدّح بها رب السماوات والأرض والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أنّ الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها ، وسنضرب مثلاً لذلك بذكر بعض الآيات .

أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف ، قال تعالى : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ .

الموضع الثاني في سورة يونس ، قال تعالى : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يُفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ .

* الأئمة يتحدثون عن الاستواء *

شيخ الإسلام ابن تيمية :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به في كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليّ على خلقه ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله تعالى : ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى

على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ ، وليس معنى قوله : ﴿ وهو معكم ﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، والله سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكر الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله ﴿ في السماء ﴾ أن السماء تقله أو تظله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله تعالى قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » آهـ .

الإمام الشافعي :

وقال قبل ذلك الإمام الشافعي : (القول في السنة التي أنا عليها ، ورأيت عليها الذين رأيتهم ، مثل سفيان ومالك وغيرهما ، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء) آهـ .

الإمام أحمد بن حنبل :

أما الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – فهو إمام السنة وحامل لوائها سئل عن رجل قال : الله معنا ، وتلا ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾

فقال : قد تجهَّم هذا ، يأخذون بآخر الآية ، ويدعون أولها ، قرأت عليه : ﴿ ألم ترى أن الله يعلم ﴾؟ فعلمه معهم ، وقال في سورة « ق » : ﴿ ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ فعلمه معهم . آهـ .

وقيل له – رحمه الله – : ما معنى : ﴿ وهو معكم ﴾؟ قال : [علمه] ، علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة . آهـ .

الإمام أبو حنيفة :

وقد سئل الإمام ابو حنيفة – رحمه الله – عمن يقول : لا اعرف ربي في السماء أو في الأرض . فقال : قد كفر ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سماواته . فقلت : إنه يقول : أقول على العرش استوى ، ولكن قال لا يدري العرش في السماء أو في الأرض . قال : إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر . آهـ .

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر رأي الإمام أبي حنيفة قال : (ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته ، وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم ، وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة ، رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره) آهـ .

فقيه العراق ابن سريج :

وأما فقيه العراق الإمام ابن سريج المتوفى عام ٣٠٦هـ – رحمه الله – من أئمة الشافعية – فيقول : (حرام على العقول أن تمثل الله ، وعلى

الأوهام أن تحده ، وعلى الألباب أن تصف إلا ما وصف به نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ، وقد صح عن جميع أهل الديانة والسنة إلى زماننا أن جميع الآي والأخبار الصادقة عن رسول الله ﷺ يجب على المسلمين الإيمان بكل واحد منه كما ورد ، وأن السؤال عن معانيها بدعة ، والجواب كفر وزندقة ، مثل قوله : ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام**﴾ وقوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ ، وقوله : ﴿**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**﴾ ، ونظائرها ما نطق به القرآن كالفوقية ، والنفس ، واليدين ، والسمع والبصر ، وصعود الكلم الطيب إليه ، والضحك ، والتعجب ، والنزول ، إلى أن قال :

اعتقادنا فيه وفي الآي المتشابهة أن نقبلها ولا نردها ، ولا نتأولها بتأويل المخالفين ، ولا نحملها على تشبيه المشبهين ، ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية ، ونسلم الخبر الظاهر والآية لظاهر تنزيلها) اهـ .

الإمام الطحاوي الحنفي :

وأما الإمام الطحاوي الحنفي المتوفى عام ٣٢١هـ - رحمه الله - فيقول: (ذكر بيان السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وأبي يوسف وأبي محمد - رضي الله عنهم - :

نقول في توحيد الله ، معتقدين أن الله واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، وأن القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على نبيه وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله بالحقيقة ، ليس بمخلوق ، فمن سمعه وزعم أنه كلام

البشر فقد كفر ، والرؤية لأهل الجنة حق بغير إحاطة ولا كيفية ، وكل ما في ذلك من الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا نثبت قدم الإعلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام ما حُظِرَ عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصحيح الإيمان ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) إلى أن قال : (والعرش والكرسي حق كما بين في كتابه ، وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه) آهـ .

الإمام أبو الحسن الأشعري :

ويقول الإمام أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - : (فإن قال قائل : ما تقولون في الاستواء؟ قيل له : نقول إن الله مستوٍ على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وقال : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ، وقال: ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ ، وقال حكاية عن فرعون : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ فكذب موسى في قوله : إن الله فوق السموات ، وقال عز وجل : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء ، وليس إذا قال : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يعني جميع السموات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات ، ألا ترى أنه ذكر السموات فقال : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ ، ولم يرد أنه يملؤهن جميعاً ، وأنه فيهن جميعاً ، قال : ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم - إذا دعوا - نحو السماء لأن الله مستوٍ

على العرش الذي هو فوق السموات ، فلولا أن **الله** على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش) آهـ .

ويقول - رحمه **الله** - : (قولنا الذي به نقول ، وديانتنا التي بها ندين، التمسك بكتاب **الله** وسنة نبيه ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضّر **الله** وجهه قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان **الله** به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به المبتدعين ، فرحمه **الله** من إمام مقدم ، وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين .

وجملة قولنا : أن نقر **بالله** وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند **الله** ، ورواه الثقات عن رسول **الله** ﷺ ، لا نرد من ذلك شيئاً ، وأن **الله** إله واحد فرد صمد لا إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن **الله** يبعث من في القبور ، وأن **الله** تعالى مستوٍ على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وأن له وجهاً كما قال : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، وأن له يدين كما قال : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ ، وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ ، وأن من زعم أن اسم **الله** غيره كان ضالاً ، وندين أن **الله** يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون - إلى أن قال :

وندين بأنه يقلب القلوب ، وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه ، وأنه

يضع السموات والأرض على أصبع ، كما جاء في الحدث ، - إلى أن قال :

وأنه يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ، وكما قال : ﴿ثم دنا فتدلى * فكان قوب قوسين أو أدنى﴾ ، ونرى مفارقة كل داعية إلي بدعة ، ومجانبة أهل الأهواء ، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقي منه باباً باباً ، وشيئاً شيئاً) . آهـ .

الإمام الذهبي :

ويقول الإمام الذهبي - رحمه الله - في كلام بديع : (اعلم أن الله عز وجل قد أخبرنا وهو أصدق القائلين بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : ﴿ولها عرش عظيم﴾ ثم ختم الآية بقوله : ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ فكان عرشها عظيماً بالنسبة إليها وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ، ولا بماهيته . وقد أتى به بعض رعية سليمان - عليه السلام - إلى بين يديه قبل ارتداد طرفه ، فسبحان الله العظيم ، فما ينكر كرامات الأولياء إلا جاهل ، فهل فوق هذه كرامة؟ فيقال : إنه دعا باسم الله الأعظم ، فحضر في لمح البصر من اليمن إلى الشام ، فما ثم إلا محض الإيمان والتصديق ، ولا مجال للعقل في ذلك ، بل آمنا وصدقنا ، فهذا في شيء صغير صنعه الآدميون ، وجلبه في هذه المسافة البعيدة بشر بإذن الله تعالى فما الظن بما أعد الله تعالى من السرر والقصور في الجنة لعباده؟ الذي كل سرير منها طوله وعرضه مسيرة شهر أو أكثر ، وهو من درة بيضاء أو من ياقوتة حمراء ، الذي كل باع منها خير من ملك الدنيا ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ، آمنا بالغيب والله ، وجزمنا بخبر الصادق ، ففي الجنة قطعاً ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فما

الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته ، وقوائمه وماهيته وحملته ، والكروبيين الحافين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته؟ لا إله إلا هو الحليم الكريم ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، الحمد لله رب العالمين ، سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه ، ورضى نفسه ومداد كلماته ، ضاعت الأفكار وطاشت العقول ، وكلت الألسنة عن العبارة عن بعض المخلوقات ، فالله أعلا وأعظم ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ تباً لذوي العقول الخائضة ، والقلوب المعطلة ، والنفوس الجاحدة، فما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . اللهم بحقك علينا ، وباسمك الأعظم وكلماتك التامة ، ثبّت الإيمان في قلوبنا ، واجعلنا هداة مهتدين ، نعم ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة ، وما الكرسي في العرش العظيم إلا كحلقة في فلاة ، اسمع وتعقل ما يقال لك وتدبر ما يلقى إليك ، والجأ إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة .

قال الله تعالى : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾ ، وقال تعالى : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾ ، وقال تعالى : ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ ، وقال تعالى : ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ .

والقرآن مشحون بذكر العرش – وكذلك الآثار – بما يمتنع أن يكون من ذلك أن المراد بذلك الملك ، فدع المكابرة والمراء ،فإن المراء في القرآن كفر ، ما أنا قلته بل المصطفى ﷺ قاله) آهـ .

الإمام الجويني إمام الحرمين :

ويقول الإمام الجويني إمام الحرمين ، المتوفى عام ٤٧٨هـ – رحمه الله – (اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب عز وجل ، والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقيدة ، اتباع سلف الأمة والدليل القاطع السمعي في ذلك ، وأن إجماع الأمة حجة متبعة ، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً ، لاوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك هو الوجه المتبع ، فلتجر آية الاستواء وآية المجيء ، وقوله : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ على ذلك) آهـ .

الشيخ حافظ الحكمي :

ويقول الشيخ حافظ الحكمي – رحمه الله – : « ونحن نشهد الله تعالى وحملة عرشه وجميع ملائكته وأنبياءه ورسله وجميع خلقه أنا نثبت لربنا عز وجل ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته رسوله ﷺ وأجمع عليه أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من أن ربنا وإلهنا فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وهو يعلم ما هم عليه لا يخفى عليه منهم خافية ، واستواؤه على عرشه كما أخبر وعلى الوجه الذي عناه وأراده كما يليق بجلال ربنا وعظمته ، لا نتكلف لذلك تأويلاً ولا تكييفاً ، بل نقول آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ ، ولا نطلب إماماً غير الكتاب

والسنة ، ولا نتخطاهما إلى غيرهما ولا نتجاوز ما جاء فيهما ، فننطق بما نطقا به ونسكت عما سكتا عنه ونسير سيرهما حيث سارا ونقف معهما حيث وقفا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، آهـ .

ويقول : (ومع هذا الاتصاف بالعلو والاستواء على العرش والمباينة منه لخلقه تبارك وتعالى فهو مطلع عليهم ومحيط لجميع المعلومات لا تخفى عليه منهم خافية ، كما جمع تبارك وتعالى بين ذلك في قوله عز وجل : **﴿ الرحمن على العرش استوى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾** ، فجمع تعالى بين استوائه على عرشه وبين علمه السر وأخفى ، وكذلك جمع عز وجل بينهما في قوله تعالى : **﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾** ، وهو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء ، هكذا فسره رسول **الله** ﷺ في حديث أبي هريرة عند مسلم ، وكذلك جمع تعالى بينهما في الآية التي تليها فقال عز وجل : **﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾**) آهـ .

فالشاهد أن هذه الصفات التي يظن الجاهلون أنها صفة نقص ويتهجمون على رب السماوات والأرض بأنه وصف نفسه بصفة نقص ، ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها ، مع أن **الله** - جل وعلا - تمدّح بها وجعلها من صفات الجلال والكمال مقرونة بما يبهر من صفات الجلال والكمال . هذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات **الله** - جل وعلا - بالتأويل .

مناظرة الذهبي :

واستمع إلى هذه المناظرة للإمام الذهبي – رحمه الله – في هذا الباب يقول : (من بحوث المتأخرين لا يجوز صفة الله تعالى بأنه فوق العرش ، قالوا : وذا يلزم قطعاً أحد ثلاثة أمور : إما أن يكون أصغر من العرش ، أو أكبر منه ، أو مساوياً له ، والأقسام الثلاثة لا تجوز على الله إلى آخر أقوالهم.

قال : والجواب أن ذلك إنما يلزم في حق الأجسام ، وأما الباري جل جلاله فليس بجسم .

الثاني : لا نسلم كونه أكبر أنه يرد عليه شيء ولكن لا نطلق ذلك إلا بنص.

الثالث : أن بحثهم بعينه نردهم بنظيره فنقول : الله عز وجل موجود بيقين وجميع ما خلق الله من الكائنات موجود ، فنسألهم عن واجب الوجود ، إذا ذكرناه مع جميع ما أبدع من الوجود الممكن ، أهو تعالى أكبر من مجموع الكل ، أو أصغر ، أو مساو؟ فما يرد علينا يرد عليهم لا محيد لهم عنه .

ثم أنتم تقولون : لا هو داخل العالم ولا خارج العالم ، ولا فوق العرش ولا تحت العرش ، ولا في السماء ولا ليس في السماء ، فإن كان هذا يعقل لكم فو الله نحن ما نعقله ، لكن لو نطق بهذه السلوب نصٌ لَدِنّا به ولاتبعناه ، بل لما وردت النصوص بإثبات أنه على العرش ، وبأنه في السماء ونحو ذلك ، قلنا به وآمنا واتبعنا مطلق السمع .

ثم لو كانت مقالاتكم في ذلك متفقاً عليها بين أهل العقول، لقلنا أيضاً بها ، بل للمتكلمين من الطوائف في ذلك اختلاف واضطراب فهلمّوا

بنا إلى الاتفاق على التنزيه العام ، والتوحيد التام ، والإيمان بما جاء عن الله ورسوله على ما أراد ، والكف عن الكلام والخصام ، لندخل الجنة بسلام ، ثبتنا الله وإياكم على الإسلام ، والحمد لله رب العالمين) آهـ .

* أرحم الراحمين *

قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾ ، كتاب كتبه الله على نفسه وأمر نبيه أن يبلِّغه للناس ، فسبحانه ما أرحمه وأعظمه وسع كل شيء رحمة ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ .

الرحمة هي سمة الربوبية ، وعنوان الألوهية ، ولذلك وصف نفسه جل وعلا بأنه الرحمن الرحيم ، ونحن نبتدىء أمورنا في الدنيا والدين بهاتين الصفتين العظيمتين الحبيبتين إلى النفس ، بسم الله الرحمن الرحيم .

أُمرنا في كل ركعة نركعها لله جل وعلا ، وفي كل صلاة نتقرب بها إليه أُمرنا أن نترنم بهذه الصفة ، فنستفتح صلاتنا بالبسملة ، ثم نقرأ في كل ركعة : ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم .. ﴾ ، ولم يقل مثلاً : العلي العظيم ، أو المنتقم الجبار ، أو الواحد القهار .. رغم أن المقام مقام خشوع وخضوع واستكانة بين يدي الجبار ، ولكن ليزرع في نفسك ويغرس في وجدانك أن هذا الرب الذي تعبده ، وتقف أمامه ، وتمرغ جبهتك لأجله هو رحمن رحيم ، فينشرح صدرك ، وتسلو نفسك ، ويطمئن فؤادك .

والرحمن خاص بالله تعالى لا يُسَمى به غيره ولا يوصف ، والرحيم يوصف به غير الله تعالى ، وقال تعالى عنه نفسه : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ .

وكان عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – يقول : « اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك ، فإن رحمتك أهلٌ أن تبلغني ، ورحمتك وسعت كل شيء ، وأنا شيء فتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين» .

ولما خلق الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي» ، وفي رواية : « سبقت رحمتي غضبي » [متفق عليه] ولك أن تتصور كيف يكون الحال لو أن غضبه سبق رحمته، وعقابه سبق عفوه .

ويقول ﷺ : « جعل الله الرحمة مائة جزء أنزل منها في الدنيا جزءاً واحداً به يتراحم الخلائق فيما بينهم حتى إن الدابة ترفع حافرها خشية أن تطأ وليدها ، وادخر عنده تسعة وتسعين جزءاً يرحم بها الناس يوم القيامة » .

وجاءت امرأة في معركة من المعارك تبحث عن طفل لها بين أطفال السبي حتى وجدته وكادت تطير به فرحاً ، فضمنه إلى صدرها وقبلته في غاية من الحب والحنان والرحمة ، والصحابة ينظرون إليها ويتعجبون من شدة رحمتها بولدها – وكان ﷺ يرصد هذا الموقف الإنساني المؤثر عن قرب فاستغله ليقدم من خلاله معنى هائلاً خلاباً ، ودرساً رائعاً جذابا تعجز العبارات والحروف العادية عن بيانه وإظهاره فجاءت هذه الحادثة ليُقدم هذا المعنى من خلالها فينغرس في القلوب ، وينزرع في الأفئدة ، ويرتسم في الأذهان بروعته وجلاله وجماله – فيقول ﷺ : « اتعجبون من رحمة هذه بولدها» ، قالوا : نعم ، قال : « أترون أنها تلقيه في النار» ، قالوا : لا يا رسول الله – وهي تستطيع ذلك – فيقول ﷺ : « لله أشدُ رحمة بعباده من هذه بولدها» !! .

يقول ابن القيم - رحمه الله - : الرحمة سببٌ واصل بين الله عز وجل وبين عباده ، بها أرسل إليهم رسُلَه ، وأنزل عليهم كُتُبه ، وبها هداهم وبها يسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهُم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة .

وليس معنى الرحمة الإهمال أو الضعف ، بل هو الحزم والجد ، « فالرحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد ، حتى وإن كرهتها نفسه وضاقت عليه ، فأرحم الناس من شق عليك في إيصال مصالحك ، وحفظ مستقبلك ، ودفع المضار عنك » .

« ومن رحمته تعالى بعباده : أنه ابتلاهم بالأوامر والنواهي رحمة لهم ، ونغّص عليهم الدنيا وكدّرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنوا بها ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره . ومن رحمته بهم أنه حذّرهم من نفسه لئلا يغترّوا به فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به ، ومن رحمته أن أنزل لهم كتباً وأرسل لهم الرسل ... » .

فالله جل وعلا أرحم الراحمين ، عرض رحمته على عباده وحذرهم ونهاهم عن القنوط منها فقال : **﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾** والكتاب الذي أنزله رحمة **﴿ ولقد جئنا بكتاب فصلناه على علمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾** ، **﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيءٍ وهدىً ورحمةً وبشرى للمؤمنين ﴾** .

والنبي الذي أرسله رحمة ، **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾** ، وهو النبي الوحيد الذي جاء وصفه بأنه رحيم ، **﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾** ، وقال تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ فقد كان ﷺ رحيماً بأمته مشفقاً عليهم ، حتى أثر ذلك على حياته ، وكادت نفسه تذهب حسرات على الذين لم يؤمنوا رحمةً بهم وخوفاً عليهم ، فقال تعالى له : **﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾** ، وقال تعالى: **﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾** .

يقول ﷺ : « أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

وكان يبين أن المؤمنين متراحمون فيما بينهم متعاطفون « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويقول ﷺ : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

ويقول ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه **الله** عز وجل » .

لقد كانت رحمته ﷺ بالصديق والعدو ، والقريب والبعيد ، والرجال والنساء ، بل والحيوانات والطيور ، وغير ذلك من المخلوقات .

وقد زرع ﷺ خلق الرحمة في قلوب أصحابه فكانوا أرحم الناس وأرفقهم وأرفقهم ، فالحمد **لله** الذي منّ علينا بدين الهدى والرحمة .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه **الله** - : « إن الشريعة كلها مبنيةٌ على الرحمة في أصولها وفروعها ، وفي الأمر بأداء الحقوق سواءٌ كانت **لله** أو للخلق ، فإن **الله** لم يكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا تدبرت ما شرعه **الله** وجدت ذلك كله مبنياً على الرحمة » آهـ .

يُروى أن أحد العباد العارفين حدث منه بعض الذنوب وبدر منه شيء مما لا يرضاه مولاه فخرج هائماً على وجهه مهموماً حزيناً فرأى في أحد الطرق باباً قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي . وامه خلفه تطرده ، حتى خرج . فاغلقت الباب في وجهه ودخلت . فذهب الصبي غير بعيد ، ثم وقف مفكراً . فلم يجد له ماوى غير البيت الذي أُخرج منه ، ولا من يؤويه غير والدته . فرجع مكسور القلب حزيناً ، فوجد الباب مُرتجاً ، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام ، فخرجت أمه . فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه ، والتزمته تقبله وتبكي ، وتقول : يا ولدي ، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك : لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك ، والشفقة عليك ، وإرادتي الخير لك ؟ ثم أخذته ودخلت .

فتامل قول الأم : « لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة » .

وتأمل قوله ﷺ : « للّه ارحم بعباده من الوالدة بولدها » ، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء .

ومـا هو الظن بمن هو أرحم بعبـده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فرّ عبد إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريحاً ببابه . يُمرّغ خدّه في ثرى أعتابه باكياً بين يديه ، يقول : يا رب يا رب ارحم من لا راحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤملك ومرجيك . لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك . أنت معاذه وبك ملاذه .

يا من ألوذ به فيما أؤمله
ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره
ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وكتب الحسنات والسيئات ، يقول ﷺ : «إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها ، كتبها الله تعالى عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله تعالى سيئة واحدة ، ولا يهلك على الله إلا هالك» .

* كتب على نفسه الرحمة *

يقول صاحب البيان الساحر ، والظلال العاطر - رحمه الله رحمة واسعة - : (إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل . تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده ، تفضله - سبحانه - بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة ، مكتوبة عليه ، كتبها هو على نفسه ؛ وجعلها عهداً منه لعباده ، بمحض إرادته ومطلق مشيئته ، وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها ؛ حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في

إخباره لعباده بما كتبه - سبحانه - على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة **الله** في الملأ الأعلى؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم رسوله؟ من هم؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفائض من خلق **الله** الكريم؟! .

إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش كما يدعه في أنس وفي رَوْح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه! .

ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ؛ ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليبلغ شيئاً في تصويره ؛ وإن كان القلب البشري مهيأ لتذوقه لا لتعريفه! .

ورحمة **الله** تفيض على عباده جميعاً ، وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات .

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار - فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن **الله** لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون **بالله** ويرفضون رحمته ويبعدون عنها! .

وهذه الطمأنينة إلى رحمة **الله** تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء

والأمل ، وبالهدوء والراحة ، فهو في كنف ودود ، يستروح ظلاله ، ما دام لا يُبعد عنه في الشرود! .

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرّىء على المعصية – كما يتوهم البعض – إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقة! .

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن ، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله – سبحانه – وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه ، فيعلمه ذلك كله كيف يرحم ، وكيف يعفو ، وكيف يغفر ، كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه ؛ مستمداً تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة) آهـ [الظلال] .

بم تنال رحمة الله ؟

وإذا علمنا أن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء ، وأنه تعالى أرحم الراحمين فإن ذلك لا يدفع إلى التهاون والتكاسل ، بل يجب البذل والعمل ، والإتيان بالأسباب التي تنال بها رحمة الله تعالى ومنها :

١ – تُنال بالإحسان ، والإحسان هو : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ويشمل كذلك الإحسان إلى الآخرين .

قال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين .. ﴾ .

٢ – تُنال بالتقوى ، وأداء الزكاة ، والإيمان بالله .

قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾.

٣ – تُنال رحمة الله بالرحمة بالآخرين .

« الراحم يرحمه الله » ، « من لا يرحم لا يُرحم » .

ولا تنتزع الرحمة إلا من شقي .

٤ – غفر الله لامرأة زانية من بني إسرائيل ، لأنها رحمت كلباً كاد يموت من العطش فسقته ، وفي المقابل أدخل امرأةً النار في هرّة حبستها حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

٥ – دعا ﷺ لأناس كثير بالرحمة فمنهم :

« رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » .

ومنهم : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلّت فإن أبت نضح في وجهها الماء . ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » .

ومنهم : « رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعا » .

اللهم اغفر لنا وارحمنا وعافنا واعف عنا إنك عفو كريم .

* ما يفتح الله للناس من رحمة *

قال تعالى : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ .

الرحمة خزائنها بيده ، والفضل مفاتحه لديه ، والخير منه وإليه ، لو كانت الرحمة بيد الناس لمنعوها عن عباده ، وقطعوها عن خلقه ، أو اختصوا بها فئاماً معينة ، ونفوساً محددة ، وأمسكو خشية الإنفاق ، يمسكون بث عبق الرحمة كما يمسكون الأموال ضناً بها وبخلاً وخوفاً على نفاذها ، أما الواحد الأحد فقد بث رحمته للناس عموماً ، بل للمخلوقات جميعاً ، ولو تأملت هذا الكون بما فيه لرأيته يفيض بالرحمة ، وينبع باللطف ، إلا أن هناك رحمة خاصة لاناس مخصوصين يجدون روحها ، ويستنشقون عبيرها ويرشفون مذابها ويتذوقون رضابها ، وتلك هي الرحمة التي يظفر بها المؤمنون ، وينالها المحسنون ، فتكون لهم في الدنيا والآخرة .

والمؤمن يجد رحمة الله تحف به وتمشي في ركابه في حال يسره وعسره ، ومنشطه ومكرهه ، ومرضه وصحته ، وغناه وفقره ، وقد يفقد كل شيء يرى الناس أن فقده حرمان ، وغيابه خسران ، ولكنه سعيد برحمة ربه فهي أنيس وحدته ، ورفيق غربته ، وقد ترى من يملك كل شيء مما يراه الناس غبطةً وسروراً ، ونعمةً وسعادةً ، ولكن لم تمسه رحمة الله فهو لا يعرف لما لديه طعماً ، ولا يجد لما بين يديه ذوقاً .

إن النقمة إذا حفتها رحمة الله انقلبت نعمة ، وقد ينام الإنسان على الشوك ، ويربط الحجارة على بطنه من الجوع ، وقد يكون في جحيم من

العذاب ، أو غياهب السجون ، فإذا بكل ذلك مع رحمة **الله** هناءٌ وسرور وسعادة وحبور : « إن لم يكن بك عضب عليّ فلا أبالي » ، « ما يفعل بي أعدائي ، أنا جنتي في صدري حيثما كنت فهي معي . إن قتلي شهادة ، وطردي سياحة ، وسجني خلوه » ، ويوسف – عليه السلام – حينما خاف أن يكون خروجه من السجن سبباً لذهاب الرحمة وحلول غضب الحبيب بالوقوع فيما لا يرضيه ؛ نادى أرحم الراحمين : ﴿ربِّ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ ، فالسجن همٌّ وغم ، وسهرٌ وأرق ، ولكن إذا حفت به رحمة **الله** وكان سبباً لنيلها فهو المتعة ذاتها والنعيم بعينة .

والنعمةُ إذا أُمسكت عنها رحمة **الله** انقلبت نقمة ، واصبحت وبالاً ، وأورثت نكداً ، وجرّت كمداً . إذا تجلّت الرحمة في سماء المؤمن وظللته بغمامها ، واغاثته بنميرها فهي السعادة جميعها ، وهي السرور كله .

إذا فُتح باب الرحمة على العبد فلا خوف ولو أُغلقت أبواب الدنيا جميعا ، وإذا أُغلق باب الرحمة في وجه العبد فلا أنس ولا أمان ولو فتحت له أبواب الدنيا جميعاً .

السكن رحمة ، والزوجة رحمة ، والابناء رحمة ، والمال رحمة والوظيفة رحمة إذا مسّها رحمة **الله** . وقد تكون هذه الامور مصادر قلق وعوامل شقاء وأسباب عناء إذا فارقتها رحمة **الله** ، وذلك كله بتقدير العزيز العليم ، فإذا فتح الرحمة على العبد فلن يقف أحد في طريقها مهما أوتي من قوة ، وإذا أمسك الرحمة عن أحد فلن ينالها ولن يجد بردها ولو رقى أسباب السماء بسلم أو شقّ نفقاً في الارض أو اتخذ طريقاً في البحر ، فلا مرسل لها من بعده جل وعلا .

* قل هو الله أحد *

﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾

كعادة العرب في الجاهلية من التفاخر بالأنساب والأحساب والتفاضل على أساسها جاؤوا إلى النبي ﷺ قائلين له : انسب لنا ربك، ونسوا أو تناسوا أنه هو الذي خلقهم من ماءٍ مهين ، فجاء الجواب من الواحد الأحد على هذا السؤال فعرّف نفسه جل وعلى بقوله : **﴿قل هو الله أحد﴾** .

هذه السورة الموجزة المعجزة اشتملت على معان بديعة ، وإشارات لطيفة ، ومسائل خالدة ، ولذلك لا عجب أن تعدل ثلث القرآن كما أخبر ﷺ ، وتسمى هذه السورة سورة الإخلاص ؛ لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة **لله** تعالى وسلامة الاعتقاد من الإشراك به جل وعلا ، وتسمى سورة التوحيد ، وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على التوحيد وهو أساس الإسلام ، وقد أحصى بعض العلماء لهذه السورة ما يربو على عشرين اسماً وتعدد الأسماء يدل على شرف المسمى ، ومما ذكر من أسمائها :

النجاة : لأنها تنجي من الكفر في الدنيا ومن النار في الآخرة .

الولاية : لان من عرف **الله** بوحدانيته فهو من أوليائه المؤمنين الذين لا يتولون غير **الله** .

النسبة : لما روي أنها نزلت لما قال المشركون : انسُب لنا ربك .

المعرفة : لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة **الله** إلا بمعرفتها.

الجمال : لانها جمعت أصول صفات **الله** وهي أجمل الصفات

وأكملها ، ولما روي أن النبي ﷺ قال : « إن الله جميل يحب الجمال » فسألوه عن ذلك فقال : « أحد صمد لم يلد ولم يولد » .

المقَشْقِشَة : يقال : قشقش الدواءُ الجرب إذا أبرأه لأنها تقشقش من الشرك .

المعوِّذة : لقول النبي ﷺ لعثمان بن مظعون وهو مريض فعوّذه بها وبالسورتين اللتين بعدها وقال له : « تعوّذ بها » .

الصمد : لأن هذا اللفظ خص بها .

الأساس : لأنها أساس العقيدة الإسلامية .

المانعة : لما روي أنها تمنع عذاب القبر ولفحات النار .

المحْضَرْ : لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرأت .

المنفِّرة : لأن الشيطان ينفر عند قراءتها .

والبرّاءة : لأنها تبرِّىءُ من الشرك .

المُذكِّرة : لأنها تذكر خالص التوحيد الذي هو مودع في الفطرة .

النور : لما روي : أن نور القرآن قل هو الله أحد .

الأمان : لأن من اعتقد ما فيها أمن من العذاب .

قالت اليهود : نحن نعبد عزير بن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح بن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان . فأنزل الله تعالى على نبيه : ﴿قل هو الله أحد﴾ .

يعني : الواحد الأحد ، الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه

ولا عديل ، وأحد أبلغ من واحد وأشمل وهو دال على أنه تعالى واحد من جميع الوجود ، فلفظ أحد أدق من لفظ واحد لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء .

إذا استقر هذا التفسير ووضع هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ومن كل تعلق بغير هذا الواحد الأحد ، وبذلك يصفو القلب وتزكو النفس ويطمئن الخاطر حينما يعرف المرء المتّجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ويتقي عنده ما يرهب ، ويلجأ إليه في السراء والضراء وفي النعماء والباساء ، فأحدية **الله** تعالى أحدية واجبة كاملة من جميع الوجوه .

﴿الله الصمد﴾ : والصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم وسائلهم ، وقال ابن عباس : الصمد هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو **الله** سبحانه وتعالى ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان **الله** الواحد القهار .

فالصمد تعني السيد المتصرف الذي لا يقضي أمر إلا بإذنه ، و**الله** سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد ، وهو المقصود بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات ، المفرّج للهموم المنفس للكربات ، وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه ، وهو الذي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

حقيقة **الله** جل وعلا ثابتة أزلية لا تعتورها حال بعد حال ، صفتها صفة الكمال المطلق في جميع الأحوال ، والولادة انبثاق وامتداد ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على **الله** محال . ثم هي - أي الولادة - تقتضي زوجية تقوم على التماثل ، وهذه كذلك محال ، **فالله** تعالى ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة .

وقد رد **الله** سبحانه وتعالى هذه الفرية العظيمة ونفاها عن نفسه جل وعلا في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، وقال تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء** ﴾ ، أي : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه .

وقال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون** ﴾ .

وفي صحيح البخاري : « **لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم** » .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله – عز وجل – : كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يُعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ **الله** ولداً . وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ : أي لم يوجد له مماثل أو مكافيء لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من صفاته الذاتية : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

* فاذكروني أذكركم *

الذكر قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقوة الأبدان ، وحبيب الرحمن إنه درع المؤمن ، وسلاح المسلم ، وقوّة الموحد ، ورفعة العابد ، وطيب النفوس ، وجلاء الهموم ، وذهاب الغموم .

إذا مرضنا تداوينا بذكركمُ
فنترك الذكر أحياناً فننتكس

به تكشف الكربات ، وتعظم القربات ، وتعلو الدرجات ، وتدفع الآفات ، وتجلب البركات ، وتجلى الظلمات ، ملجؤٌ في النوازل ، ومفزع في المخاطر ، وملاذٌ في الشدائد ، إنه عبودية للقلب واللسان ، لا حدّ لها ولا وقت ، ولا عذر لمن تركها ، فهو سمة المؤمن في كل أحواله قائماً وقاعداً ،

مفيقاً وراقداً . **﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾** .

قلوب المحبين لا تطمئنُّ إلا بذكره ، وأرواح المشتاقين لا تسكُنُ إلا برؤيته ، قال ذو النون : ما طابت الدُّنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرةُ إلا بعفوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

أبداً نفوس الطالبـ ـن إلى طلولكم تَحِنُّ
وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئنُّ
جُنَّتْ بحُبِّكُمُ ومن يهوى الحبيبَ ولا يُجَنُّ؟
بحنانكم يا سادتي جُودُوا بوصلكم ومُنُّوا

قال ابن عمر : أخبرني أهل الكتاب أن هذه الأمة تُحبُّ الذكر كما تُحبُّ الحمامةُ وكرها ، ولهم أسرع إلى ذكر الله من الإبل إلى وِردها يوم ظمئها .

الذكر .. دليل على الولاية ، وبرهان على الحب ، وغراس للجنة ، وضمان للمغفرة ، يجلو صدأ القلوب ، ويزيح غشاوة الأبصار ، ويفتح آفاق الأذهان ، ويزيل وقر الأسماع ، وبكم الألسن . يزين **الله** به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين ، فاللسان الغافل كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واليد الشلاء . إن الدين كله لإقامة ذكر **الله** ، فالقرآن ذكر : **﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ﴾** ، والصلاة ذكر : **﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾** ، والحج شرع للذكر : **﴿ ليذكروا اسم الله في أيام معدودات ﴾** .

قال عيسى – عليه السلام – : يا معشر الحواريين كلّموا الله كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً ، قالوا : كيف نكلم الله كثيرا؟ قال : اختلوا بمناجاته ، اخلوا بدُعائه .

قيل لمحمد بن النضر : أما تستوحش وحدك؟ قال : كيف أستوحشُ وهو يقول : أنا جليسُ من ذكرني؟

كتمتُ اسم الحبيب من العباد
وردَّدت الصبابة في فؤادي
فواشوقاً إلى بلد خليٍّ
لعلّي باسم من أهوى أُنادي

إن الذكر لا يقوم مقامه شيء ، ولا يعدله شيء ، ولا يوازيه شيء ، أقبل رجل إلى النبي ﷺ قائلاً له : إن شرائع الإسلام كثرت عليّ ، فباب واحد أتشبث به – أي دلني على باب واحد من العبادة ، وسبب واحد من أسباب المغفرة أتشبث به وأعض عليه بالنواجذ – فقال له ﷺ : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» .

وآخر شيء أنت في كل هَجعة
وأول شيء أنت وقت هُبوبي

إذا قوي حالُ المحبّ ومعرفته لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل ، فهو بين الخلق بجسمه وقلبه معلق بالمحلّ الأعلى ، كما قال علي – رضي الله عنه – في وصفهم : صحبوا الدُّنيا بأجسادٍ أرواحُها معلقة بالمحلّ الأعلى ، وفي هذا المعنى قيل :

جسمي معي غير أن الروح عندكم
فالجسمُ في غُربةٍ والرُّوحُ في وطن

وقال غيره :

ولقد جعلتك في الفؤاد مُحدثي
وأبحتُ جسمي من أراد جُلوسي
فالجسمُ منّي للجليس مُؤانسٌ
وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

ولقد كان ﷺ يذكر **الله** في جميع أحواله ، ولقد زخرت كتب السنة بمئات الأحاديث الماتعة ، والأذكار الرائعة ، وأضحى أريجها يفوح عطراً ، وينفث شذى ، تعمر به النفوس ، وتزكو به القلوب ، وتعطر به المجالس ، ولقد زرع ﷺ في نفوس أصحابه أهمية الذكر وعلو درجته وبديع منزلته ، وأكد لهم ذلك بقوله وفعله ، فكان أعظم الناس ذكراً ، وأشدهم دعاءً ، وأكثرهم ثناءً ، فسار الصالحون على نهجه ، واقتفى العُبّاد أثره ، فأثمر الذكر في حياتهم ، وارتفعت به درجاتهم ، وعظمت مكانتهم ، وممن رأيته بنفسي ممن امتثلوا هذا الأمر ، ولزموا بديع الذكر ، فزاد من مهابتهم ، وقوّى من محبتهم : سماحة شيخنا الأجل العلامة عبد العزيز بن عبد **الله** بن باز - رحمه **الله** - فلم أر في حياتي ذاكراً **لله** مثله ، لا يكاد يفتر لحظة واحدة عن الترنم بالذكر ، والتفنن في الثناء ، عمر قلبه بذكر المولى ، وشغل لسانه بالترنم بالحبيب ، فأعلى **الله** ذكره ، ورفع درجته ، وأنزل في القلوب محبته، ولقد كان إيمان المرء يقوى بمجرد الجلوس إليه والنظر إلى وجهه والسماع لحديثه رحمه **الله** رحمة واسعة .

لقد كان كثير من العباد بمجرد أن يسمع أحدهم ذكر خالقه يرتجف خوفاً ويطرب شوقاً لسماع الحبيب :

وداعٍ دعا إذ نحنُ بالخيف من منى
فهيّج أشجان الفُؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أطار بليلى طائراً كان في صدري

درجات الذكر :

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن الذكر : (وهو على ثلاثة درجات:

الدرجة الأولى : الذكر الظاهر ثناءً أو دعاءً أو رعاية .

فأما ذكر الثناء فنحو : « سبحان **الله** والحمد لله ، ولا إله إلا **الله** **والله** أكبر» .

وأما ذكر الدعاء فنحو ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

وأما ذكر الرعاية فمثل قول الذاكر : « **الله** معي ، **الله** ناظرٌ إليّ ، **الله** شاهدي» .

الدرجة الثانية : الذكر الخفي وهو الخلاص من القيود ، والبقاء مع الشهود ، ولزوم المسامرة .

الدرجة الثالثة : الذكر الحقيقي ، وهو شهود ذكر الحق إياك ، والتخلص من شهود ذكرك.

وقد سُمي هذا الذكر حقيقياً ؛ لأنه منسوب إلى الرب تعالى ، فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقي ، وهو شهود ذكر الحق عبده .. إلخ) آهـ .

المراد بالذكر :

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - : (والمراد بالذكر : الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها ، والإكثار منها ، مثل الباقيات الصالحات ، وهي : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار ونحو ذلك . والدعاء بخيري الدنيا والآخرة ، ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن ، وقراءة الحديث ، ومدارسة العلم ، والتنفل بالصلاة ، ثم الذكر يقع تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق ، ولا يشترط استحضاره لمعناه ولكن يشترط ألا يقصد به غير معناه ،وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل ، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً فإن وقع ذلك في عمل صالح مما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاً ، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال) آهـ .

وقال الفخر الرازي : (المراد بذكر اللسان الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد . والذكر بالقلب : التفكر في أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكليف من الأمر والنهي حتى يطلع على أحكامها ، وفي أسرار مخلوقات الله . والذكر بالجوارح ، هو أن تصير مستغرقة في الطاعات ومن ثم سمى الله الصلاة ذكراً فقال : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾) آهـ .

ونقل عن بعضهم ، قال : (الذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين بالبكاء ، وذكر الأذنين بالإصغاء ، وذكر اللسان بالثناء ، وذكر اليدين بالعطاء ، وذكر البدن بالوفاء ، وذكر القلب بالخوف والرجاء ، وذكر الروح بالتسليم والرضاء) آهـ .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : (وذكر الله يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح . وذلك لا يتم إلا بتوحيده . فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه) .

ويقول الشيخ حسنين محمد مخلوف - رحمه الله - : (وذكر العبد ربه عز وجل يكون باللسان وبالجنان وبالجوارح ، ويحصل الأول بالمنطق بما يدل على تنزيهه تعالى وتمجيده ، وتعظيمه وتحميده .

والثاني بالتفكر في دلائل وحدانيته تعالى في ذاته العلية وصفاته السنية وأفعاله الحكيمة ، وفي دلائل التكاليف الإلهية بالأوامر والنواهي ، وفي الوعد والوعيد ، والمثوبة والعقوبة ، حتى يكون العبد على يقين في دينه اعتقاداً وأعمالاً ، فيقبل على الطاعات ويحجم عن المحظورات ببصيرة نافذة وإخلاص تام وقلب سليم وعلم ويقين ، وبالتفكر في أسرار المخلوقات وما فيها من دلائل وحكم حتى يعلم قدرة صانعها وحكمته ، ويشرق في قلبه نور العلم والمعرفة ، والحكمة والهداية .

والثالث بالاستغراق في فعل الطاعات مع اجتناب المنكرات ، فلا يشغل جوارحه بغير ما فيه رضا مولاه .

وأما الذكر من الله تعالى لعباده الذاكرين فبمنحهم الخيرات والكرامات ، والإحسان إليهم بالمثوبات ، وبإجابة الدعاء ، واللطف في القضاء ، وبالهداية والكفاية ، وبالرحمة والرضوان ، والعفو والغفران ، جزاء ذكرهم له وطاعتهم إياه وإنابتهم إليه وصدقهم في العبودية له ، ذلك قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ .

وقد قيل في تفسيره :

١ – فاذكروني بالدعاء أذكركم بإعطاء الآلاء والنعماء ، لقوله تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ .

٢ – فاذكروني بالإحسان أذكركم بالرحمة ، لقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

٣ – فاذكروني بالاستغفار أذكركم بالغفران ، لقوله تعالى : ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ .

٤ – فاذكروني بالصبر أذكركم بأوفى الأجر ، لقوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

٥ – فاذكروني بالتوكل أذكركم بالكفاية ، لقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

٦ – فاذكروني بالمجاهدة أذكركم بالهداية ، لقوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا ﴾ .

٧ – فاذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي ، لقوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾) .

من آيات الذكر :

ورد الحث على الذكر في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ومن ذلك:

قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين * إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ .

من أحاديث الذكر :

قال ﷺ : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

وقال ﷺ : « إن لله عز وجل ملائكة فضلاً عن كُتّاب الناس يطوفون في الطرق يتتبعون الذكر ، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى

حاجاتكم» ، قال : «فتحفهم بأجنحتهم إلى عنان السماء»، قال : «فيقول الله عز وجل - وهو أعلم - ما يقول عبادي ؟ قالوا : يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك ، فيقول : هل رأوني؟ فيقولون : لا، فيقول : كيف لو رأوني ؟ قالوا : لو رأوك كانوا لك أشد تسبيحاً وتمجيداً وتحميداً ، فيقول ما يسألوني؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول: هل رأوها؟ ، فيقولون : لا ، فيقول : كيف لو رأوها؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد طلباً وعليها أشد حرصاً قالوا : ويتعوذون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، قال : فيقول : كيف لو رأوها؟ قالوا : لو رأوها كانوا منها أشد تعوذاً وأشد فراراً ، فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول الملك : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى : هم الجلساء ، لا يشقى جليسهم» .

ويقول ﷺ : «يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم» .

ويبين ﷺ منزلة ذكر الله تعالى وعظمة الأجر في حديث ممتع ، وأسلوب مبهج ، قدّم ذلك المعنى الأجلّ ، والخبر الأمثل في ثوب من الاستفهام ، وفي أسلوب من المسائلة ، ليشد الأذهان ، ويحرك القلوب ويشوق النفوس ، ثم يأتي بعد ذلك بالجواب ، فيكون أوقع في النفوس وأثبت في القلوب ، وأرسخ في الأذهان ، فاستمع إلى المعلم الأعظم ، ومن أوتي جوامع الكلم ، قال ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم؟» ، قالوا : بلى قال : «ذكر الله تعالى» .

وقال ﷺ : « يا أبا موسى ألا أدلك على عمل من كنز الجنة » قال بلى يا رسول الله ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

من أقوال السلف :

يقول أبو الدرداء – رضي الله عنه – : « لكل شيء جلاء ، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل » .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله تعالى خنس » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : « الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء » .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : « الذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم » .

وقال – رحمه الله – : « محبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإراداته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم ،وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين » .

وقال – رحمه الله – : « ثبت أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر وأن يُشكر . يُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وهو سبحانه ذاكرٌ لمن ذكره ، شاكرٌ لمن شكره » .

وقال – رحمه الله – : «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده» .

يروى أن موسى – عليه السلام – قال : «ربُ أيُّ الأعمال أحبُّ إليك أن أعمل به؟ قال : تذكرني فلا تنساني .

وقال كعب : من أكثر ذكر الله برىء من النفاق .

وقال الربيع بن أنس عن بعض أصحابه : علامةُ حبّ الله كثرةُ ذكره ، فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره .

وقال فتح الموصلي : المحبُ لله لا يغفُلُ عن ذكر الله طرفة عين .

وقال ذو النون : من اشتغل قلبُه ولسانُه بالذكر ، قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه.

وقال إبراهيم بن الجنيد : كان يُقال : من علامة المحب لله دوامُ الذكر بالقلب واللسان ، وقلما وَلِعَ المرءُ بذكر الله عز وجل إلا أفاد منه حب الله ، وكان بعضُ السلف يقول في مناجاته : إذا سئم البطالون من بطالتهم ، فلن يسأم محبوك من مناجاتك وذكرك .

فلسفة الذكر :

ليس الذاكر من قال سبحان الله والحمد لله وقلبه مصر على الذنوب ، وإنما الذاكر من إذا هم بمعصية ذكر مقامه بين يدي علام الغيوب . وقال بعض السلف : ليس الذاكر من هَمْهَمَ بلسانه ، وإنما الذاكر من إذا جلس في سوقه، وأخذ يزن بميزانه ، علم أن الله مطلع عليه ، فلم يأخذ إلا حقاً ولم

يعط إلا حقاً .

يا طول حزن الغافلينا   عن ذكر رب العالمينا
يا هضمهم يوماً يرون   ثواب ذكر الذاكرينا
ستطول حسرتهم لما   كانوا به متشاغلينا
يتحسرون على فوا   ت من فعال الطائعينا
يا حسرة يصلون جمـ   ـرتها خزايا نادمينا

من عجائب الذاكرين :

قال بعض السلف : كانت دواب البحر في البحر تسكُن ، ويوسفُ – عليه السلام – في السجن لا يسكن عن ذكر الله عز وجل .

وكان لأبي هريرة خيطٌ فيه ألفا عقدة ، فلا ينام حتى يُسبّح به .

وكان خالد بنُ معدان يُسبّح كل يوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن ، فلما مات وضع على سريره ليغسل ، فجعل يُشير بإصبعه يُحركها بالتسبيح .

وقيل لعمير بن هانيء : ما نرى لسانك يَفتُرُ ، فكم تُسبّحُ كل يوم؟ قال : مائة ألف تسبيحة إلا أن تُخطيء الأصابع ، يعني أنه يَعُدُّ ذلك بأصابعه .

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد : كانت عندنا امرأةٌ بمكة تُسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ، فماتت ، فلما بلغت القبر اختُلست من بين أيدي الرجال .

وكان عامةُ كلام ابن سيرين : سبحان **الله** العظيم ، سبحان **الله** وبحمده .

كان أبو مسلم الخولاني كثير الذكر ، فرآه بعضُ الناس ، فانكر حاله ، فقال لأصحابه : أمجنون صاحبكم؟ فسمعه أبو مسلم ، فقال : لا يا أخي ولكن هذا دواءُ الجنون :

وقد شرطتُ على قوم صحبتُهم
بأن قلبي لكم من دونهم فرضوا
ومن حديثي بكم قالوا : به مرضٌ
فقلتُ : لا زال عني ذلك المرض

كان المغيرة بن حكيم الصنعاني إذا هدأت العيون ونامت الجفون نزل إلى البحر وقام في الماء يذكر **الله** مع دوابّ البحر !!

نام بعضهم عند إبراهيم بن أدهم قال : فكنتُ كلما استيقظتُ من الليل وجدته يذكر **الله** فاغتمُّ ، ثم أُعزّي نفسي بهذه الآية : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ .

كان بلالٌ كلما عذّبه المشركون في الرمضاء على التوحيد يقول : أحدٌ أحدٌ ، فإذا قالوا له : قُل : اللات والعُزّى ، قال : لا أحسنه :

يُراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل
وإن المحبّ لديّانه
يظل على العهد مهما ابتُلي

قال زهير البابي : إن لله عباداً ذكروه ، فخرجت نفوسهم إعظاماً واشتياقاً ، وقوم ذكروه ، فوجلت قلوبهم فرقاً وهيبة ، فلو حُرِّقوا بالنار لم يجدوا مسّ النار ، وآخرون ذكروه في الشتاء وبرده ، فارفضّوا عرقاً من خوفه وقومٌ ذكروه فتحولَت ألوانهم غبراً ، وقوم ذكروه فجفّت أعينهم سهرا .

هذه بعض روائع المحبين فما أعظمه من حب ، وما أجلّه من حبيب ، حبيب كلما قويت المعرفة به صار الذكر يجري على لسان الذاكر من غير كُلفة ، حتى كان بعضهم يجري على لسانه في منامه : **الله الله** ، ولهذا يُلهم أهلُ الجنة التسبيح كما يلهمون النفس ، وتصير «**لا إله إلا الله**» لهم كالماء البارد لأهل الدنيا ، كان الثوري ينشد :

لا لأني أنساك أُكثِرُ ذكرا
ك ولكن بذاك يجري لساني

إذا سمع المحبُّ ذكر اسم حبيبه من غيره زاد طربه ، وتضاعف قلقُه ، قال النبي ﷺ لابن مسعود : «اقرأ عليَّ القرآن» ، قال : أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال : «إني أُحب أن أسمعه من غيري» ، فقرأ عليه ، ففاضت عيناه .

إذا ذُكر المحبوب عند حبيبه
ترنّح نشوانٌ وحنّ طروبُ

من فوائد الذكر :

قال ابن القيم – رحمه الله – : (في الذكر أكثر من مائة فائدة منها :

١ – أنه يطرد الشيطان ويقمعه .

٢ – أنه يرضي الرحمن عز وجل .

٣ – أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

٤ – أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

٥ – أنه يقوي القلب والبدن .

٦ – أنه ينور الوجه والقلب .

٧ – أنه يجلب الرزق .

٨ – أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

٩ – أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة .

١٠ – أنه يورثه المراقبة حتى يُدخله في باب الإحسان ، فيعبد **الله** كأنه يراه ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

١١ – أنه يورثه الإنابة ، وهو الرجوع إلى **الله** عز وجل .

١٢ – أنه يورثه القرب منه ، فعلى قدر ذكره **لله** عز وجل يكون قربه منه .

١٣ – أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة .

١٤ – أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع **الله** تعالى ، بخلاف الغافل ؛ فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه .

١٥ – أنه يورثه ذكر **الله** تعالى له كما قال تعالى : ﴿فاذكروني أذكركم﴾ . ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً .

١٦ – أنه يورثه حياة القلب .

١٧ – أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

١٨ – أنه يورث جلاء القلب من صدئه .

١٩ – أنه يحط الخطايا ويذهبها .

٢٠ – أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى .

٢١ – من ذكر الله تعالى عز وجل ذكره ربه ، ولذكر الله أكبر . قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ .

٢٢ – أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة .

٢٣ – أنه ينجي من عذاب الله تعالى .

٢٤ – أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة بحلقات الذكر .

٢٥ – أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل .

٢٦ – أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به ، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة .

٢٧ – أنه يسعد الذاكر بذكره ويُسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أينما كان .

٢٨ – أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة .

٢٩ – أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر

في ظل عرشه ، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

٣٠ – أن الاشتغال به سبب لعطاء **الله** للذاكر أفضل ما يعطي السائلين .

٣١ – أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها .

٣٢ – أنه غراس الجنة .

٣٣ – أن العطاء والفضل الذي رُتّب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .

٣٤ – أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده .

٣٥ – أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ، ونورٌ له في قبره ، ونور له في معاده ، يسعى بين يديه على الصراط .

٣٦ – لما كان الذكر متيسراً للعبد في جميع الأوقات والأحوال فإن الذاكر وهو مستلق على فراشه يسبق – في الفضل والخير – القائم الغافل .

٣٧ – الذكر يفتح باب الدخول إلى **الله** عز وجل ، فإذا فُتح الباب ووجد الذاكر ربه فقد وجد كل شيء .

٣٨ – في القلب خلَّةٌ وفاقة لا يسدها شيء البتة إلا ذكر **الله** عز وجل ، فإذا صار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبعٌ له فهذا هو الذكر الذي يسدُّ الخلة ويفني الفاقة .

٣٩ – أن الذكر يجمع المتفرّق ويفرّق المجتمع ، ويقرّب البعيد ويبعد القريب فيجمع ما تفرّق على العبد من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عا . وانفراطها له ، والحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه وعزمه وإرادته يُفرّق ما اجتمع عليه

من الهموم والغموم والأحزان والحسرات علي فوت حظوظه ومطالبه . ويُفرّق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل . ويُرّق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان .

٤٠ – أن الذكر يُنبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته .

٤١ – أن الذكر شجرة تُثمر المعارف والأحوال التي شمّر إليها السالكون .

٤٢ – أن الذاكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معه . وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق .

٤٣ – أن الذكر يعدل حتى عتق الرقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل والضرب بالسيف في سبيل **الله** عز وجل .

٤٤ – أن الذكر رأس الشكر ، فما شكر **الله** تعالى من لم يذكره .

٤٥ – أن أكرم الخلق على **الله** تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكر **الله** .

٤٦ – أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر **الله** تعالى .

٤٧ – أن الذكر شفاء القلب ودواؤه ، والغفلة مرضه ، فالقلوب مريضة وشفاؤها ودواؤها في ذكر **الله** تعالى .

٤٨ – الذكر أصل موالاة **الله** عز وجل ورأسها ، والغفلة أصل معاداته ورأسها ، لأن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يُحبه فيواليه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

٤٩ – أنه ما استجلبت نعم **الله** عز وجل واستدفعت نقمُهُ بمثل ذكر **الله** تعالى .

٥٠ – أن الذكر يوجب صلاة **الله** عز وجل وملائكته على الذاكر ، ومن صلى **الله** تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز .

٥١ – أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليجلس في مجالس الذكر .

٥٢ – أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يُذكر **الله** تعالى فيه .

٥٣ – أن **الله** عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته .

٥٤ – من داوم على الذكر دخل الجنة مستبشراً فرحاً بما أنعم **الله** عليه .

٥٥ – الذاكر يحقق الغاية التي من أجلها شرعت الأعمال كالصلاة ونحوها قال تعالى : ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ .

٥٦ – إكثار الذكر في الأعمال يجعل الذاكر أفضل أهل ذلك العمل ، فأفضل الصوام أكثرهم ذكراً **لله** عز وجل في صومهم ، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً **لله** تعالى .. وهكذا .

٥٧ – إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها – ممن لا يقدر عليها – سواء كانت هذه التطوعات بدنية – كالجهاد – أو مالية – كالصدقة – أو بدنية مالية – كحج التطوع – .

٥٨ – ذكر **الله** عز وجل من أكبر العون على طاعته عز وجل ، فإنه يحببها للعبد ويسهلها عليه ، ويجعل قرة عينه فيها .

٥٩ – أن ذكر **الله** عز وجل يُسهل الصعب ، وييسر العسير ، ويخفف المشاق . فما ذُكر **الله** عز وجل على صعب إلا هان ، ولا على عسير إلا تيسر ،ولا مشقة إلا خفّت ، ولا شدة إلا زالت ، ولا كربة إلا انفرجت .

٦٠ – أن ذكر **الله** عز وجل يُذهب عن القلب مخاوفه كلها . فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر **الله** عز وجل .

٦١ – الذكر يعطي الذاكر قوة عظيمة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه .

٦٢ – الذاكرون هم السابقون يوم القيامة .

٦٣ – الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده ، لأنه يخبر عن **الله** باوصاف كماله ، ونعوت جلاله ، فإذا أخبر بها العبد ، صدّقه ربه ، ومن صدّقه **الله** تعالى لم يحشر مع الكاذبين ، ورُجي له أن يُحشر مع الصادقين .

٦٤ – الملائكة تبني للذاكر دوراً في الجنة ما دام يذكر ، فإذا أمسك عن الذكر ، أمسكت الملائكة عن البناء .

٦٥ – الذكر سدٌ بين العبد وبين جهنم – والعياذ **بالله** تعالى – فإن كان ذكراً دائماً محكماً ، كان سداً محكماً لا منفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

٦٦ – الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب .

٦٧ – بالذاكرين تتباهى الجبال والقفار وتستبشر بمن عليها من الذاكرين .

٦٨ – كثرة الذكر أمان من النفاق ، فإن المنافقين قليلو الذكر **لله** تعالى ،

كما أخبر عنهم سبحانه بقوله : ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ .

٦٩ – يُحصِّل الذاكر من اللذة ما لا يحصل لغيره ، ولذا سُميت مجالس الذكر رياض الجنة .

٧٠ – يكسو الذكر صاحبه نضرة في الدنيا ونوراً في الآخرة .

٧١ – في تكثير الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة .

٧٢ – في الذكر اشتغال عن الكلام الباطل من الغيبة والنميمة واللغو ونحو ذلك من حيث إن اللسان لا يسكت البتة ، وهو إما لسان ذاكر ، وإما لسان لاغٍ ، ولا بد من أحدهما ، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

٧٣ – لا سبيل إلى تفريق جمع الشياطين التي تحوط بالإنسان إلا بذكر **الله** عز وجل .

٧٤ – الذكر يجعل الدعاء مُستجاباً .

* وعنده مفاتح الغيب *

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ .

ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن .

ننظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر فليس عليه طابع البشر .. إن الفكر البشري – حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع – موضوع شمول العلم وإحاطته لا يرتاد هذه الآفاق .. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، في كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض .

ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق ! .

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع .. مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً ، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعاً والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً .. إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري ؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية ؛ ولا تلم به النظرة البشرية .. إن هذا المشهد إنما يتكشف هكذا بجملته لعلم **الله** وحده ، المشرف على كل شيء ، المحيط بكل شيء ، الحافظ لكل شيء الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء .. الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب ..

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم ..

كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته ، فنرى آفاقاً

من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق . في الزمان والمكان ، وفي الماضي والحاضر والمستقبل وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ .. آماد وآفاق وأغوار في « المنظور » على استواء وسعة وشمول .. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ .. حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار .

﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ .. حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح ، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ . التعميم الشامل ، الذي يشمل الحياة والموت . والازدهار والذبول ، في كل حي على الإطلاق ..

فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ من ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟ .. من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله ، في مثل هذا النص القصير .. من ؟ إلا **الله** ؟! » [ظلال القرآن] .

* محبة الله *

المحبة روح الحياة ، وطعم الوجود ، ولذة الدنيا ، وغذاء الروح ، وبهجة القلب ، وضياء العين ، ونور الفؤاد ، حياة بلا حب حياة باهتة ، وقلب لا

حب فيه قلب جامد ، الحياة جسد والحب روح ، فإذا غابت الروح فلا قيمة للجسد ، بالمحبة أقبلت قوافل المحبين ، وتسابقت أقدام العاشقين ، وتنافست فلول الهائمين ، المحبة حياة من فقدها فهو ميت ، ونورٌ من فقده فهو في ظلام دامس ، وليل حالك . المحبة إيثار المحبوب على كل مصحوب ، وتقديمه في أي مرغوب ، وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب ، إنها امتلاء القلب بأوصاف المحبوب ، وامتلاء الفؤاد بذكره ، وأن يُمحى من الفؤاد ما سواه ، ويطرد من القلب ما عداه ، فلا سرور إلا به ، ولا سلوان إلا معه ، ولا سعادة إلا بقربه ، ولا فرح إلا برضاه .

إن المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب ، فلا يبقى إلا مراده ، ولا يقوم إلا مطلوبه ، ولا يُمْتَثل إلا أمره ، إنه الشوق الدائم إلى لقاء المحبوب والحياة على أمل الفوز به ، والظفر برؤية وجهه الكريم ، ولذلك صدق المحب في حبه ، وأخلص في إرادته ، ووحّد المحبوب في وجهته ليظفر منه بمحبته ، والفوز بجيرته .

يسمع المحبون منادي الحبيب (حي على الفلاح) فيهجرون الفرش ، ويطردون الكرى ، ويمتطون الأقدام في وهج الشمس أو لوعة البرد ، وكأنما يمشون على الحرير . ويطرق أسماعهم (حي على الكفاح) فيبذلون المهج ، ويقدمون الأرواح ، ويزهقون الأنفس ، ويهريقون الدماء . ويتلى عليهم : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ فيتسابقون بالغالي والنفيس ، ويبذلون من أعز ما يملكون ، وأفضل ما يحبون ، ويعطون عطاء من لا يخشى الفقر . ويُرتَّل عليهم ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ فيقبلون من كل فج عميق ، وواد سحيق ، شعثاً غبراً خماص البطون ، ظمأى الأفئدة ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وما تطابقت الأجفان عن سنة
إلا وجدتك بين الجفن والحدق
وهل ينام حزين موجع قلق
أجفانه وكلت بالسهد والأرق
شغلتَ نفسي عن الدنيا ولذتها
فأنت والروح شيء غير مفترق

المحبة روح الإيمان ، وعنوان الإسلام ، وسرُّ التوحيد ، والخلق والأمر والثواب والعقاب إنما تنشا عن المحبة ولأجلها ، وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي .

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن المحبة : (وهي سر التاليه . وتوحيدها : هو شهادة ان لا إله إلا الله .

وليس كما زعم المنكرون : أن « الإله » هو الرب الخالق . فإن المشركين كانوا مقرين بانه لا رب إلا الله ، ولا خالق سواه ، وبانه وحده المنفرد بالخلق والربوبية . ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية . وهو المحبة والتعظيم ، بل كانوا يؤلهون مع الله غيره . وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، وصاحبه ممن اتخذمن دون الله أنداداً .

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ فاخبر ان من أحب من دون الله شيئاً ، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في المحبة ، لا في الخلق والربوبية . فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية ، بخلاف

ند المحبة . فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم . ثم قال : ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما : ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله .

والثاني : ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله . فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة : أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿يحبونهم كحب الله﴾ فإن فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً .

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله . ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة . ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له .

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم . وهم في النار

يقولون لآلهتم وأندادهم ، وهي مُحضرة معهم في العذاب : **﴿ تالله إن كنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم برب العالمين ﴾** ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم . وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى : **﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾** أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم . وهذا أصح القولين .

وقال تعالى : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** وهي تسمى آية المحبة . قال أبو سليمان الداراني : لما ادّعت القلوب محبة الله : أنزل الله لها محنة : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** .

قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله ، فأنزل الله آية المحنة : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** .

وقال : **﴿ يحببكم الله ﴾** إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول . وفائدتها وثمرتها : محبة المرسل لكم . فما لم تحصل المتابعة ، فليست محبتكم له حاصلة ، ومحبته لكم منتفية .

وقال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾** فقد ذكر لهم أربع علامات :

العلامة الأولى : أنهم **﴿ أذلة على المؤمنين ﴾** قيل : معناه أرقاء ، رحماء مشفقين عليهم . عاطفين عليهم .

العلامة الثانية : أنهم ﴿أعزة على الكافرين﴾ فهم على الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ .

العلامة الثالثة : الجهاد في سبيل **الله** بالنفس واليد ، واللسان والمال ، وذلك تحقيق دعوى المحبة .

العلامة الرابعة : أنهم لا تأخذهم في **الله** لومة لائم . وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة . كما قيل :

لا كان من لسواك فيه بقية
يجد السبيل بها إليه اللُّوم

* يحبهم ويحبونه *

يا سروري ومنيتي وعمادي
وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي
أنت لي مؤنس وشوقك زادي
كم بدت منّة وكم لك عندي
من عطاء ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي
وجلاء لعين قلبي الصادي

الله .. يأنس به المؤمن ، ويسلو به العابد ، ويسعد به المحب . إذا

نامت العيون ، وهدأت الجفون ، وسكن الليل ، وخشعت الاصوات، نادى المحبون في الظلمات : يا الله ، يا الله ، ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ .

وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدِّث عنك النفس بالسر خاليا
وإني لاستغشي وما بين غشاية
لعل ضياءً منك يلقى خياليا
إذا نحن أدلجنا وأنت مرادنا
كفى للمطايا طِيْبُ ذكراك حاديا

إذا غُرست شجرة المحبة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار . وآتت أُكُلها كل حين بإذن ربها . أصلها ثابت في قرار القلب . وفرعها متصل بسدرة المنتهى .

فالله أتم علينا نعمته ، وأكمل لنا دينه ، وحفظ لنا كتابه ، فأعظم الحب ، وأصدق الحب ، وأنفع الحب وأكمل الحب : ما كان لله – جل وعلا – .

قال ابن القيم – رحمه الله – : (وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل . والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا

يغفره الله ، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته .

وكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه ولغرضه منك ، والله تعالى يريدك لك ، فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة ، وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ؟

وكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، والدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً .

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته ؟ .

يؤانسني ذكرُ الحبيب بخلوتي
وبطرُد عني في التباعد وحشتي
ومالي لغير الدمع عين وإنما
إذا فاض من عيني بخفف زفرتي
وقد رق جسمي من أليم بعادهم
وغيرت الأشواق وصفي وصورتي
فيا هل ترى بعد التقاطع والنوى
يمتعني دهري بوصل أحبتي

العقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال

والولد ، وكل ما سواه . وكل من لم يحكم عقله بهذا : فلا تعبأ بعقله . فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر . تدعو كلها إلى محبته سبحانه بل إلى توحيده في المحبة . وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول . كما قيل :

هب الرسل لم تات من عنده   ولا أخبرت عن جمال الحبيب
أليس من الواجب المستحق محبته في اللقا والمغيب؟
فمن لم يكن عقله آمراً   بذا . ما له في الحجى من نصيب
وإن العقول لتدعو إلى   محبة فاطرها من قريب
أليست على ذاك مجبولة   ومفطورة لا بكسب غريب
أليس الجمال حبيب القلوب   لذات الجمال ، وذات القلوب؟
أليس جميلاً يحب الجمال؟   تعالى إله الورى عن نسيب
أما بعد ذلك إحسانه   بداع إليه الفؤاد المنيب؟
فمن ذا يشابه أوصافه؟   تعالى إله الورى عن ضريب
ومن ذا يكافيء إحسانه؟   فيألهه قلب عبد منيب؟
وهذا دليل على أنه   إلى كل ذي الخلق أولى حبيب
فيا منكراً ذاك والله أنت عين الخصيم وعين الحريب
ويا من يحب سواه كمثل محبته أنت عبد الصليب
ويا من يوحد محبوبه   ويرضيه في مشهد ، أو مغيب
حظيت وخابوا فلا تبتئس   بكيد العدو وهجر القريب)

وكيف لا نحب من وهب لنا ملذوذاتنا الحسية والمعنوية ، وآتانا من كل ما سألناه فكل محبوباتنا منه ، وعنه ، وبه ، الحسية والمعنوية ، وتسهيل سبل الإدراك به ، والمدركات منه ، وألذُّ من كل لذة عرفاننا له، فلولا تعليمه ما عرفناه .

أنت عين العين إن نظرت
ولسان الذكر إن ذكرا
أنت سمعي إن سمعت به
أنت سر السر إن خطرا

وكيف لا تحب النفوس من هي به وبقاؤها منه ، وتدبيرها بيده ، ورجوعها إليه ، وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه .

المحبون لله قوم شغلهم حبه عن حب من سواه ، فهم في قبضة محبته أسراء ، وعلى كل من دونه أُمراء .

ولولا حرارة قلبي من تذكركم
ما سال دمعي على خدي ولا اندلقا
أصبَّر القلب في يومي وليلته
وصار جسمي بنار الحب محترقا

فالحب هو روح الوجود ، وإكسير القلوب ، وصمام الامام لبني الإنسان.

يقول جلال الدين الرومي : «إن الحب يجعل المرّ حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاءً ، والالم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت ،

وينفخ فيه الحياة ..» .

«إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء ، ويصل من السُمْك إلى السِّمَاك ، ومن الثرى إلى الثريا .. » .

«بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم !! لا ننازعهم في شيء . أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول!» .

«حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي!!» .

من لم يبتْ والحب حشو فؤاده
لم يدر كيف تفتُّت الأكباد

قال فرقد السَّبخي : (قرأتُ في بعض الكتب : من أحبَّ الله لم يكن عنده شيءٌ آثر من هواه ، ومن أحب الدنيا لم يكن عنده شيءٌ آثر من هوى نفسه ، والمحب لله تعالى أميرٌ مؤمّر على الأمراء زمرته أول الزمر يوم القيامة ، ومجلسه أقربُ المجالس فيما هنالك ، والمحبة منتهى القربة والاجتهاد ولن يسأم المحبُّون من طول اجتهادهم لله عز وجل ، يُحبّونه ويحبون ذكره ويحببونه إلى خلقه ، يمشون بين عباده بالنصائح ، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك أولياءُ الله وأحباؤه ، وأهلُ صفوته ، أولئك الذين لا راحة لهم دُون لقائه) .

يقول الشيخ القرضاوي : «إن المؤمن بعقيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله واهب الحياة، ومصدر الخلق والأمن ، والإيجاد والإمداد.

أحبه حب الإنسان للجمال ، فقد رأى في كونه أثر الإبداع والإحكام:

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ ، ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ ، ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ .

وأحبَّه حب الإنسان للكمال ، وهل هناك – في الحقيقة – إلا كماله سبحانه؟ وكل ما نرى من مظاهر الكمال النسبي إن هي إلا ذرات مستمدة منه ، ومفتقرة إليه .

وأحبَّه حب الإنسان للإحسان ، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها . وأي إحسان كإحسان من خلقه من عدم ، وجعله بشراً سوياً ، واستخلفه في الأرض ، وسخر له الكون جميعاً منه ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ ، ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ .

أحبه لهذا كله ولأكثر منه ، حباً يفوق حب الإنسان لأبويه ، بل لولده بل لنفسه ، وأحب كل ما يجيء من قبله وكل ما يحبه سبحانه ، أحب الكتاب الذي أنزله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأحب النبي الذي أرسله رحمة للعالمين ، وأحب كل إنسان من أهل الخير والصلاح الذين يحبهم ويحبونه ، وجعل دعاءه ما كان يدعو به محمد رسول الله ﷺ : « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » آهـ .

فلو أني استطعت غضضت طرفي
فلم أبصر به حتى أراكا
ويقبح من سواك الفعل عندي
فتفعله فيحسن منك ذاكا

إذا اشتبكت دموع في خدود
تبين من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب شوقاً
وينطق بالهوى من قد تباكى

* مراتب المحبة *

المحبة مراتب ، والمودة درجات ، وهذا هو الإمام الرباني والعالم الروحاني ابن القيم – رحمه الله – يذكر مراتب المحبة فيقول :

(**أولها** : « العلاقة » وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب .

الثانية : « الإرادة » وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له .

الثالثة : « الصبابة » وهي انصباب القلب إليه . بحيث لا يملكه صاحبه . كانصباب الماء في الحدور ، والصبابة : الميل اللازم ، وانصباب القلب بكليته .

الرابعة : « الغرام » وهو الحب الملازم للقلب ، الذي لا يفارقه . بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه . ومنه سمي عذاب النار غراماً للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم . قال تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ .

الخامسة : « الوداد » وهو صفو المحبة ، وخالصها ولُبُّها ، و « الودود » من أسماء الرب تعالى . وفيه قولان :

أحدهما : أنه الموجود . قال البخاري – رحمه الله – في

صحيحه « الودود : الحبيب » .

والثاني : أنه الوادُّ لعباده ، أي المحب لهم . وقرنه باسمه « الغفور » إعلاماً بأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه ، ويودُّه . فحظ التائب : نيل المغفرة منه .

السادسة : « الشغف » يقال : شُغف بكذا ، فهو مشغوف به ، وقد شغفه المحبوب . أي وصل حبه إلى شغاف قلبه . كما قال النسوة عن امرأة العزيز ﴿ قد شغفها حُبّاً ﴾ .

السابعة : « العشق » وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه .

رفع إلى ابن عباس – رضي الله عنهما – شاب وهو يعرفه قد صار كالخلال . فقال : ما به؟ قالوا : العشق . فجعل ابن عباس – رضي الله عنهما – عامة دعائه بعرفة : الاستعاذة من العشق .

الثامنة : « التتيُّم » وهو التعبد ، والتذلل . يقال : تيَّمه الحبُّ أي ذلله وعبده .

التاسعة : « التعبد » وهو فوق التتيم . فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شيء من نفسه البتة ، بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً . وهذا هو حقيقة العبودية . من كمل ذلك فقد كمل مرتبتها .

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة : وصفه الله بها في أشرف مقاماته مقام الإسراء ، كقوله : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ ومقام الدعوة ، كقوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ ، ومقام التحدي كقوله : ﴿ وإن كنتم في ريب

مما نزلنا على عبدنا ﴾ وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة .

وكذلك يقول المسيح – عليه الصلاة والسلام – لهم إذا طلبوا منه الشفاعة – بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – : « اذهبوا إلى محمد ، عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول : فحصلت له تلك المرتبة . بتكميل عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية :الحب التام ، مع الذل التام والخضوع للمحبوب . تقول العرب « طريق معبد » أي قد ذللته الأقدام وسهلته .

العاشرة : « مرتبة الخلّة » التي انفرد بها الخليلان – إبراهيم ومحمد ﷺ – كما صح عنه أنه قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا » ، وقال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صاحبكم خليل الرحمن » ، والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال : الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد ، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه ، بل هما خليلان للرحمن .

و« الخَلَّة » هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قد تخلَّلتَ مسلك الروح مني
ولذا سُمِّيَ الخليل خليلا

* * *

فما كل عين بالحبيب قريرة
ولا كل من نودي يجيب المناديا
ومن لا يجب داعي هُداك . فخلِّه
يُجِبْ كل من أضحى إلى الغي داعيا
وقل للعيون الرمد : إياك ان تَرَيْ
سنا الشمس فاستغشي ظلام اللياليا
وقل للذي قد غاب : يكفي عقوبة
مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
وادلج ولا تخش الظلام فإنه
سيكفيك وجه الحبِّ في الليل هاديا
وسُقها بذكراه مطاياك إنه
سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا
وعِدْها بروح الوصل تعطيك سيرها
فما شئت واستبق العظام البواليا
أما يستحي من يدّعي الحب باخلا
بما لحبيب عنه يدعوه : ذا ليا
أما تلك دعوى كاذب ليس حظه
من الحب إلا قوله والأمانيا؟
أما أنفس العشاق ملك لغيرهم
بإجماع أهل الحب؟ ما زال فاشيا
أما سمع العشاق قول حبيبة
لِصبٍّ بها وافَى من الحب شاكيا

ولما شكوتُ الحب قالت : كذبتني
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا؟
فلا حب حتى يلصق القلب بالحشا
وتخرس ، حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يُبَقِّيْ لك الهوى
سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

* صفات يحبها الله *

أحبك حبين حب الرضى
وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الرضى
فَشُغْلِي بحبك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له
فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ، ولا ذاك ليْ
ولكنْ لك الحمد في ذا وذاكا

المحب يسعى لرضى محبوبه ، ويبذل ما في وسعه ليفوز برضاه ، ويحقق مناه ، فالمحبة هي إيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وهي موافقة الحبيب في المشهد والمغيب ، وحقيقة الحب أن تكون بقلبك ، ولبِّك ، ومشاعرك ، وأحاسيسك ، وخلجات نفسك ملكاً لمن تحب ، وإذا غُرست شجرة المحبة في القلب وسُقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع

الثمار ، وآتت أكلها بإذن ربها .

وكمال المحبة هو العبودية والذل والخضوع والطاعة للمحبوب ، وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جُبلت القلوب على محبته ، وفُطرت الخليقة على تأليهه ، فإن الإله هو الذي تألهُهُ القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد . والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والله تعالى يُحَب لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته ، وكل من تحبه من الخلق ويحبك فهو إنما يريدك لنفسه ، ولتحقيق غرضه منك ، والله تعالى يريدك لك ، وكلُّ من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، والله تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، والدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة ، وهي أسرع شيءٍ محواً .

سوف نتحدث هنا عن بعض الأمور والأحوال والأفعال والأقوال التي يحبها الكبير المتعال ، لتكون عوناً للمحبين على الوصول إلى محبوبهم ، وتذكيراً للمؤمنين بما يحبه مليكهم ، وكل الأوامر التي أمر الله تعالى بها ، وجميع ما حث عليه الشرع من أبواب الطاعة ، وميادين البر ، وأفانين القرب هي محبوبة عند الله ، وطريق لنيل رضاه ، ولكن حديثنا هنا عن بعض ما صُرِّح فيه بلفظ الحب ، وبعض ما ذكر من الدواعي والأسباب التي يحبها العزيز الوهاب ، مما نطقت به السنة ، وصدح به الكتاب ، نذكر طرفاً منها تذكيراً لأولي الألباب من الأحباب .

فهو تعالى محسن يحب المحسنين ، وقد كتب الإحسان على كل شيء ويحب المتقين ، ويحب الصابرين ، ويوفيهم أجرهم يوم القيامة بغير حساب

ويحب المتوكلين ، ويحب المقسطين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، ويحب المتبعين لرسوله ، وبين أن نيل محبته لهم هو باتباعهم لنبيه : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** .

والله سبحانه وتعالى كامل في أسمائه وصفاته ، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وهو يحب أسماءه وصفاته ، ويحب ظهور آثارها في خلقه ، فهو سبحانه وترٌ يحب الوتر ، ولذلك كان أحبُ الخلق إلى **الله** محمد ﷺ يحب الوتر في كل شيء حباً لما يحبه **الله** ، وطلباً لنيل رضاه ، وما من صفة أحبها **الله** إلا وأصدق الناس تمثلا لها هو رسول **الله** ﷺ .

والله تعالى منعم متفضل يحب أن يرى أثر النعمة على العبد ، ولذلك تعجب من أناسٍ منَّ **الله** عليهم ، وفتح بركات الرزق لهم ، وآتاهم من كل ما سألوه ، ومع ذلك لا تظهر عليهم نِعَمَه ، ولا تتجلى فيهم منّه ، ولا يتبين فيهم أثر ، وكأنما يشتكون فقراً ، أو يَعانون قفرا ، أو يبيتون جوعاً أو مصابين مرضى .

والله تعالى حيي ستير يحب الحياء والستر ، يستحي تعالى أن يعذب ذا شيبة شاب في الإسلام ، ويستحي من عبده يرفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين ، ومن ستر مسلماً ستره **الله** يوم القيامة .

ويحب الحيي العفيف المتعفف ، فالحياء صفة من صفاته ، ومحبوب من محبوباته ، والحياء لا يأتي إلا بخير ، ولكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء ، والنبي ﷺ كان أشد حياءً من العذراء في خدرها.

والله تعالى يحب العبد التقي الغني الخفي ، التقي المراقب لربه الممتثل لأوامره ، الغني عما في أيدي الناس ، الغني عن كل من سوى الله تعالى ، الخفي بعبادته وطاعته عن مظاهر الرياء ، ودواعي الكبرياء .

وهو تعالى جميل يحب الجمال ، نظيف يحب التنظف ، وانظر إلى جمال مخلوقاته ، وروعة آياته فهي تنبيء عن أقصى الكمال ، ومنتهى الجمال .

ولقد كان ﷺ أحسن الناس قلباً وقالباً ، وباطناً وظاهراً ، يرتدي أحسن الثياب ، وتشم منه أفضل الأطياب ، ويرجل شعره ، ويدهن لحيته ، ولا يدع السواك ، ويبالغ في المضمضة والاستنشاق ، ويأكل أطيب الطعام ، ويشرب أنقى الشراب .

والله تعالى يحب معالي الأخلاق ، فكتابه خُلُق ، ودينه خُلُق ، ونبيه على خُلُق عظيم ، ويحب سمح البيع ، سمح الشراء ، سمح القضاء : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » أي طلب قضاء حقه بسهولة .

ويحب من العامل إذا عمل أن يحسن ، ويحب إذا عمل أحد عملاً أن يتقنه ، فأين أصحاب الوظائف ، وأين أرباب المهن ، وذوي الحرف من هذه الصفة ، من أحسن وأتقن في عمله فهو محبوب من الله تعالى ، ومفهوم المخالفة أن عدم الإحسان ، وفقدان الإتقان ، لا يحبه الديان .

وهو تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، وذلك من كمال فضله ، وتمام كرمه ، فأيما أمر لله فيه رخصة ، ومن الدين فيه فسحة فالأولى بالمؤمن أن

يأخذ برخصة الله له ، ويرضى بتخفيف المولى عنه ، ويحب لنفسه ما أحبه خالقه له .

وهو تعالى رفيق يحب الرفق ويرضاه ، ويعين عليه ما لا يعين على العنف ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، فأين المتشددون من هذه الصفة ، وأين المتنطعون المتزمتون الإرهابيون من هذه المنزلة ، إن بعض الناس يريد أن يكون متديناً أكثر من الدين ، وغيوراً أكبر من غيرة **الله** ، ويظن أن العنف والتعنيف ، والشدة والتشديد ، والرعب والترهيب من لوازم الدين ، ومطالب الإسلام ، وذلك فهم خاطىء ، وتصور مقلوب ، وفكر مغلوط ، فالمؤمن هين لين سهل قريب ، رفيق مترفق ، وليس معنى ذلك الخور والضعف والتقاعس وبرود الهمة وموت الغيرة ، وإنما هو الأسلوب الأمثل ، والطريق الأفضل لدعوة الناس وكسب القلوب ، والفوز بالمطلوب .

هينون لينون أيسار بنو يسر
صيد بهاليل حفاظون للجار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا
ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسرى بها الساري

و**الله** تعالى يحب من عبده أن يتقرب إليه بما افترض عليه ، وما يزال العبد يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ، فإذا أحب أحداً كان تعالى سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سأله أعطاه ، وإن استعاذه أعاذه .

وليس معنى ذلك أن يكون جوارح للعبد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما المراد أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عز وجل بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلىء قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة ، فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ، ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه . فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سمع سمع به ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به ، فهذا هو المراد بقوله عز وجل : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » . ومن أشار إلى غير ذلك فإنما يشير إلى الإلحاد من الحلول والاتحاد ، والله ورسوله بريئان منه .

فهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه عال على جميع خلقه ، وهو قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه . ويعلم سره ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته . ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والله عز وجل على عرشه ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته لا تخفى عليه منهم خافية وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط ، فهو سبحانه القريب في علوه ، العلي في دنوه

وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

ولا أحد أحب إليه المدح من **الله** ، من أجل ذلك أثنى على نفسه ولا أحد أحب إليه العذر من **الله** ، من أجل ذلك أرسل الرسل .

و**الله** تعالى يحب الحلم والأناة ، و**الله** تعالى يحب من أحب لقاءه ، و**الله** تعالى يحب من يحب سورة الإخلاص ويرددها لأنها صفة الرحمن .

وقد وجبت محبته تعالى للمتحابين فيه ، والمتجالسين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه . والمتحابون في **الله** جل وعلا يناديهم يوم القيامة : « أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يحبهم **الله** تعالى ويجعل لهم وُدًّا : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا ﴾ قيل في تفسيرها : يحبهم ويحببهم إلى عباده .

ولا يزال العبد يمضي على ما يحبه **الله** ، ويسارع فيما يريده مولاه حتى يفوز بالحب ، ويظفر بالقرب ، و**الله** تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل إن **الله** يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض .

أروح وقد ختمت على فؤادي
بحبك أن يحل به سواكا
فلو أنني استطعت غضضت طرفي
فلم أبصر به حتى أراكا
إذا اشتبكت دموع في خدودٍ
تبين من بكى ممن تباكى

وأحب الأسماء إلى **الله** : عبد **الله** ، وعبد الرحمن ، وأحب الأعمال إلى **الله** : أدومها وإن قل ، وأحب الأعمال إلى **الله** : الصلاة لوقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل **الله** ، وأحب الأعمال إلى **الله** : أن تموت ولسانك رطب من ذكر **الله** ، وأحب الأعمال إلى **الله** : إيمان **بالله** ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأحب البلاد إلى **الله** : مساجدها ، وأحب الجهاد إلى **الله** : كلمة حق تقال لإمام جائر ، وأحب الصيام إلى **الله** : صيام داود ، وكان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، وأحب الصلاة إلى **الله** : صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الطعام إلى **الله** : ما كثرت عليه الأيدي ، وأحب العباد إلى **الله** تعالى : أنفعهم لعياله ، وأحب الكلام إلى **الله** تعالى أربع : سبحان **الله** ، والحمد لله ، ولا إله إلا **الله** ، **والله** أكبر ، وأحب الكلام إلى **الله** تعالى ما اصطفاه **الله** لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده ، وأحب عباد **الله** إلى **الله** : أحسنهم خلقاً ، وأحب الناس إلى **الله** : أنفعهم ، وأحب الأعمال إلى **الله** عز وجل: سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً ، ومن كف غضبه ستر **الله** عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ **الله** قلبه رضى يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت **الله** تعالى قدمه يوم تزلُّ الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل .

اللهم إنا نسالك حبك ، وحب من يحبُّك ، وحبَّ عمل يقربنا إلى حبك ، **اللهم** ما رزقتنا مما نحب فاجعله قوةً لنا فيما تحب ، وما زويت عنا مما نحب فاجعل لنا عوضاً عنه فيما تحب ، **اللهم** اجعل حبك أحب إلينا من أهلينا وأموالنا ، ومن الماء البارد على الظمأ ، **اللهم** حببنا إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، **اللهم** أحيي قلوبنا بحبك ، واجعلنا لك كما تحب ، **اللهم** اجعلنا نحبُّك بكل قلوبنا ، ونرضيك بجهدنا كله ، **اللهم** اجعل حبنا كله لك ، وسعينا كله في مرضاتك .

* صفات لا يحبها الله *

الله .. لا يحب المعتدين ، ولا يحب الفساد ، ولا يحب كل كفار أثيم ، ولا يحب الظالمين ، ولا يحب من كان مختالاً فخوراً ، ولا يحب من كان خواناً أثيما ، ولا يحب **الله** الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِم ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المسرفين ، ولا يحب الخائنين ، ولا يحب المستكبرين ، ولا يحب الفرحين ، ولا يحب الكافرين .

و**الله** يكره الكفر والفسوق والعصيان ، وقد نهى **الله** تعالى عن صفات كثيرة ، وبين في ختام الحديث عنها أن : **﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾** ، وهي من أجمع الآيات في التحذير من المكروهات .

قال تعالى : **﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم**

كان خطأً كبيرا * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا * ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ .

ومن أكبر الممقوتين عند الله تعالى الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، ومن أكبر الممقوتين الذي يقولون ما لا يفعلون .

والله تعالى لا يحب العقوق ، ولا يحب كل فاحش متفحش ، ويكره القيل والقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وأبغض الأعمال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم ، وأبغض البلاد إلى الله : أسواقها ، والله تعالى يكره من كره لقائه .

والله تعالى يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها ، ويبغض السائل الملحف ، ويبغض كل جعظري جواظ ـ الغليظ المتكبر ، الجموع المنوع ـ سخاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بالدنيا ، جاهل بالآخرة .

وإذا أردت أن تعرف مزيداً عما يحب الله وعما يكره فإليك هذا الحديث : يقول مطرف بن عبد الله ـ رحمه الله ـ قال : كان يبلغني عن أبي ذر حديث وكنت أشتهي لقاءه ، فلقيته ، فقلت : يا أبا ذر ! كان

يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : **لله** أبوك قد لقيتني فهات ، قال : قلت : بلغني أنك تحدث عن رسول **الله** ﷺ أنه قال : «إن **الله** عز وجل يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة» ، قال : فلا أخالني أكذب على رسول **الله** ﷺ ، قال : فقلت : من هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم **الله** عز وجل؟ قال : «رجل غزا في سبيل **الله** صابراً محتسباً فقاتل حتى قُتل ، وأنتم تجدونه عندكم في كتاب **الله** عز وجل ، ثم تلا هذه الآية : **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾** » ، قلت : ومن؟ ، قال : «رجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يكفيه **الله** إياه بحياة أو موت» ، قلت : ومن؟ قال : «رجل سافر مع قوم فارتحلوا حتى إذا كان من آخر الليل وقع عليهم الكرى أو النُعاس فنزلوا فضربوا برؤوسهم ثم قام فتطهر وصلى رغبة **لله** عز وجل ورغبة فيما عنده» ، قلت : وما الثلاثة الذين يبغضهم **الله**؟ قال : «البخيل المنان ، والمختال الفخور ، وإنكم لتجدون ذلك في كتاب **الله** عندكم : **﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾** قال : فمن الثالث؟ قال : التاجر الحلاف ، أو البائع الحلاف» .

* من أسباب جلب المحبة *

بينا عدداً من الصفات التي يحبها **الله** ، فمن أتى بها إخلاصاً **لله** وقصداً لرضاه وطلباً لمغفرته فإنها مما ينال به محبة الباري ورضوان المتعال ، ولكن هنالك أسباباً هامّة وصفات عديدة ذكرها أهل العلم من واظب عليها والتزم بها ومضى في ركابها فهو جدير بنيل محبة **الله** والقرب من رضاه ،

ومن تلك الأسباب ما يلي :

(**أولها** : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به ، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ، ليتفهم مراد صاحبه منه .

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض . فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة .

الثالث : دوام ذكره على كل حال : باللسان والقلب ، والعمل والحال . فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى ، والتنسم إلى محابه إن صعب المرتقى .

الخامس : مطالعة القلب لاسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها . فمن عرف الله باسمائه وصفاته وأفعاله : احبه لا محالة .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فإنها داعية إلى محبته.

السابع : انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه ، والوقوف بالقلب والتادب بادب العبودية بين يديه . ثم ختْم ذلك بالاستغفار والتوبة ، يقول الفضيل بن عياض : (إن الله يقول : « كذب من ادّعى محبتي ونام عني ، اليس كل محبٍّ يُحبّ

خلوة حبيبه؟ ها أنا مطّلعٌ على أحبابي وقد مثّلوني بين أعينهم ، وخاطبوني على المشاهدة ، وكلّموني بحضور، غداً أُقِرُّ أعينهم في جناني») .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، وانتقاء أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين **الله** عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة : وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ودخلوا على الحبيب . وملاك ذلك كله أمران : استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة) .

* تجليات في المحبة *

«الحب غدير في صحراء ليست عليه جادة ، فلهذا قل وارده .

كان من دعائه ﷺ : «**اللهم** ارزقني حبّك وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك ، **اللهم** ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوّة لي فيما تُحبُّ ، **اللهم** ما زويت عني مما أحبُّ فاجعله فراغاً لي فيما تُحبُّ» .

يُروى أن داود – عليه السلام – كان يقول : «**اللهم** اجعلني من أحبابك فإنك إذا أحببت عبداً غفرت ذنبه وإن كان عظيماً ، وقبلت عمله وإن كان يسيراً» ، وكان – عليه السلام – يقول في دعائه : «**اللهم** إني أسألك حبك وحب من يُحبّك وحُب العمل الذي يُبلغني حُبّك ، اللهم اجعل حُبَّك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد» .

المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه .

وأخرج من بين البيوت لعلني
أحدث عنك القلب بالسر خاليا

كل من ادعى محبة الله عز وجل ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة وكلُّ محبٌ ليس يخاف الله فهو مغرور .

ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد . اشْتَغِلْ به في الحياة يكفك ما بعد الموت .

ليس بصادق من ادّعى محبّة الله عز وجل ولم يحفظ حدوده .

يا منفقاً بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ، ليس في أعدائك أضر عليك منك .

ما تبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ
ما يبلغُ الجاهلُ من نفسه

قالت امرأة لأبنائها :تعوّدُوا حبَّ الله وطاعته ، فإن المتقين ألفُوا الطاعة فاستوحشت جوارحُهُم من غيرها ، فإن عرض لهمُ الملعونُ بمعصيةٍ مرّت المعصيةُ بهم محتشمةً فهم لها منكرون .

لا همّ للمحب غير ما يرضي حبيبه ، رضي من رضي ، وسَخطَ من سخط ، من خاف الملامة في هوى من يُحبُه فليس بصادقٍ في المحبة :

وقف الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي
مُتأخَّرٌ عنه ولا مُتقدَّم

أجدُ الملامة في هواك لذيذةً
حبًا لذكرك فليلمني اللوّمُ

الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب ، وقدم التقادم بين يدي الملتقى ، فاستبشر عند القدوم ﴿ وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾ .

سئل ﷺ عن المرء يحب القوم ولم يلحق بهم ، فقال : « المرء مع من أحب » .

لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات .

ولو كنت عذريُّ الصبابة لم تكن
بطيناً وانساك الهوى كثرة الأكل

لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لا يذكرك بالحبيب . واعجباً لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه ، فلا يذكره إلا بمذكر . أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب .

ذكرتك لا أني نسيتك ساعة
وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

من تحقق التوحيد في قلبه ، وأثمرت لا إله إلا الله في نفسه فلا يبقى له همٌّ إلا في الله وفيما يرضيه ، فإن معنى لا إله إلا الله : أنه لا يؤلّه غيره حبّاً ، ورجاءً ، وخوفاً ، وطاعةً ، فإذا تحقق القلبُ بالتوحيد التام لم يبق فيه محبةٌ لغير ما يُحبُّه الله ، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله .

إذا سافر المحبوب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه ، فكان الحب في مقدمة العسكر ، والرجاء يحدو بالمطي والشوق يسوقها والخوف يجمعها على الطريق ، فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء ، فإذا دخل على الحبيب أُفيضت عليه الخُلَعُ من كل ناحية لِيُمْتَحن أيسكن إليها فتكون حظَّه ، أم يكون التفاتُه إلى من ألبسه إياها .

فداو سُقْماً بجسم أنت متلفُهُ
وابرد غراماً بقلب أنت مضرمُهُ
ولا تكلني على بعد الديار إلى
صبري الضعيف فصبري أنت تعلمهُ
إن تلق قلبي فقد أرسلته عجلاً
إلى لقائك والأشواق تقدمُهُ

من فاته الله ، فلو حصلت له الدنيا بحذافيرها ، لكان مغبوناً ، فكيف إذا لم يحصل له إلا نزرٌ يسير حقير من دارٍ كلها لا تعدلُ جناح بعوضه :

من فاته أن يراك يوماً   فكل أوقاته فوات
وحيثُما كنتُ من بلادٍ   فلي إلى وجهك التفاتُ

كان داود الطائي ينادي بالليل : همُّك عطَّل عليَّ الهموم ، وخالف بيني وبين السُّهاد ، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات ، وحال بيني وبين الشهوات ، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب .

المحبة هي موافقة المحبوب على جميع الأحوال :

إن هواك الذي بقلبي
صيّرني سامعاً مُطيعا

أخذت قلبي وغمض عيني
سلبتني النوم والهُجوعا
فذر فؤادي وخُذ رُقادي
فقال : لا بل هُما جميعا

إذا علقتْ نارُ المحبة بالقلب أحرقت منه كُلّ ما سوى الرب عز وجل ، فطهُر القلبَ حينئذ من الأغيار ، وصلح عرشاً للتوحيد :

غصّني الشوقُ إليهم بريقي
واَ حريقي في الهوى وا حريقي
قد رماني الحُبُّ في لُجِّ بحرٍ
فخُذوا بالله كَفَّ الغريق
حل عندي حُبكم في شغافي
حلّ مني كُلَّ عَقدٍ وثيق

قال ﷺ : «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شُهداء ، يغبطُهم الأنبياء والشُّهداء بمكانهم من الله عز وجل» ، قالوا : يا رسول الله : من هم؟ قال : «هم قومٌ تحابوا بروح الله على غير أرحامٍ بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ، ثم تلى قوله تعالى : **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** .

يروى عن موسى – عليه السلام – أنه قال : «يا رب ، من هم أهلك الذين تُظلُّهم في ظل عرشك؟ قال : يا موسى هم البريئة أيديهم ، الطاهرة

قلوبهم ، الذين يتحابون بجلالي ، الذين إذا ذكرتُ ذكروا بي ، وإذا ذكروا ذكرتُ بذكرهم ، الذين يُسبغون الوضوء في المكاره ، وينيبون إلى ذكري كما تُنيب النسور إلى وكورها ، ويَكْلَفُون بحبّي كما يكلفُ الصَّبيُّ بالناس ويغضبون لمحارمي إذا استُحلّت كما يغضبُ النمرُ إذا حَرِب» .

* ستّير يحب الستر *

من صفاته جل وعلا أنه ستّير يحب الستر وهذا من كمال فضله وتمام عفوه وعظيم جوده جل وعلا . إن المرء مهما كانت أخلاقه ومهما أوتي من صبر وحلم وعفو فإنه لن يتحمل من أحد تكرر الإساءة ومعاودة الأذى وتتابع الخطأ ، قد يصفح مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، وقد يعفو كذلك ، وقد يستر كذلك ، أما إذا تجاوز الأمر هذا الحد فإنه سيضج بصاحب الخطأ ويتنكر له ويتبرأ منه ويشهر به في الناس ، ولكن انظر إلى جود المولى جل وعلا – وله المثل الأعلى – تنتهك حرماته ، وتخالف أوامره ، ويكثر الخطأ ، وتتعاظم الذنوب ، ومع ذلك يتوب ويغفر ، ويعفو ويصفح ، ويستر ويمحو وينادي أرباب الذنوب وذوي الإسراف قائلاً لهم : **﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** .

وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن هذه الصفة العظيمة والسمة البديعة من صفات المولى جل وعلا فارغ سمعك ، وافتح منافذ قلبك إلى هذا البيان الساحر ، والحديث الماتع ، يقول ﷺ : «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ، فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها

عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ » .

إن الله جل وعلا لحُبه للستر أحبه لعباده ، ولاتصافه به أحب لهم أن يتصفوا به ، فهو يحب من المسلم أن يستر أخاه المسلم ، وهو يجازي من يستر على المسلمين بأفضل الجزاء .

يقول ﷺ : « لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » .

ويقول ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » .

فإذا كان المولى جل وعلا يستر ذنوباً عظيمة ومعاصيَ كبيرةً فالأولى بالمسلم أن يتخلق بهذه الصفة فيستر على المسلمين ، ويداري على المؤمنين ويقيل عثرات العاثرين ، ليس من سمات المسلم أن يشهر بإخوانه ، ويتتبع عثراتهم ، ويتصيد أخطاءهم ، ويفضح مستورهم ، ويكشف مكنونهم ، ولقد كان ﷺ أعظم المتخلقين بهذا الخلق ، والملتزمين بهذا الأدب ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، والقصص عجيبة ، ومن ذلك قصته مع المرأة التي زنت ومماطلته لها في طلبها إقامة الحد عليها لكي تستتر بستر الله وتتوب إلى الله عز وجل ، وكذلك قصته مع الرجل الذي زنى وهي قصص معروفة مشهورة .

ومن أمتع ذلك أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ ، فسكت عنه رسول الله ﷺ . ثم أعاد فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً ، فأقمه عليّ . فسكت عنه . وأقيمت الصلاة . فلما

انصرف نبي الله ﷺ قال ابو امامة : فاتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف . واتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرد على الرجل . فلحق الرجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني أصبت حداً فاقمه عليّ قال أبو أُمامة : فقال له رسول الله ﷺ : « أرأيت حين خرجت من بيتك ، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟» قال : بلى يا رسول الله قال : « ثم شهدت الصلاة معنا؟» فقال : نعم يا رسول الله . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « فإن الله قد غفر لك حدك ، أو قال ذنبك » .

ولقد حذّر ﷺ من أن يكشف المسلم ستر الله عليه فإذا ضعفت نفسه وزلّت قدمه وستره الله فلا يجدر به أن يكشف الستر المرخى عليه ، يقول ﷺ : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين . وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ، ثم يصبح قد ستره ربه ، فيقول : يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه . فيبيت يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ولقد نهج الصحابة – رضي الله عنهم – وسلف الأمة العظماء هذا النهج الأكمل والخلق الأجمل ، فهذا أبو بكر – رضي الله عنه وأرضاه – يقول : «لو أخذت سارقاً لأحببت أن يستره الله ، ولو أخذت شارباً لأحببت أن يستره الله عز وجل» .

أما عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقد بلغه أن أحد قوّاده على جيش من الجيوش قال لمن معه : إنكم نزلتم أرضاً فيها نساء وشراب ، فمن أصاب منكم حداً ليأتنا حتى نُطهّره ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فكتب

إليه : « لا أمّ لك تأمر قوماً ستر الله عليهم أن يهتكوا ستر الله عليهم » .

واستمع إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها – تعبر عن معنى الستر تعبيراً موجزاً رائعاً بديعاً يأخذ بالألباب ، تقول : « يا نساء المؤمنين إذا أذنبت إحداكن ذنباً فلا تخبرن به الناس ، ولتستغفرن الله ولتتب إليه فإن العباد يعيّرون ولا يُغيّرون ، وإن الله تعالى يُغيّر ولا يعيّر » .

وسئل الحسن البصري – رحمه الله – : يا أبا سعيد رجل علم من رجل شيئاً أيفشي عليه؟ قال : يا سبحان الله لا . وكان يقول : من كان بينه وبين أخيه ستر فلا يكشفه .

فيا عجباً لأناس يفرحون بزلة المؤمن ، ويستبشرون بهفوة المسلم ، إذا سمعوا عن مسلم شيئاً أو رأوا زلة أو كشفوا خلة فكأنما عثروا على كنز عظيم ، يسارعون بنشر الخبر ، ويتفكهون برواية الحدث ، وهؤلاء يخشى عليهم أن ينطبق عليهم قول المولى عز وجل : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

فمن استتر بستر الله عليه فلا يجوز فضحه وكشف ستر الله عليه أما الذي يجاهر بالمعصية ويتباهى بالقبائح أو يمارس من الذنوب والمعاصي ما يتعدى ضرره إلى المسلمين ، ويخل بالمجتمع ، كترويج المخدرات ، أو شبكات الدعارة .. وغيرها فلا يجوز الستر على هؤلاء ومن كنا مأمورين بالستر عليه فإن ذلك لا يعني عدم الإنكار عليه ومناصحته بالتي هي أحسن .

يقول الإمام النووي – رحمه **الله** – : المراد بالستر : السَّتْرُ على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد ، فأما المعروف بذلك فيستحب ألا يستر عليه وليّ الأمر إن لم يُخف من ذلك مفسدةٌ ؛ لأن الستر على هذا يُطمعه في الإيذاء والفساد . . وأما جرح الرواة والشهود والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم فلا يحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليته ، وليس هذا من الغيبة المحرّمة بل من النصيحة الواجبة .

يقول ﷺ : «إن **الله** حليم حيي ستير يحب الحياء والستر» .

إن على المؤمن أن يقف مع هذه الصفة العظيمة وقفة تأمل وتدبر فيعلم أن **الله** يحب الستر فيستر بستر **الله** عليه ، وأهم من ذلك أن يتخلق بهذه الصفة مع **الله** جل وعلا أولاً وآخراً ، وأن لا يرى ربه منه إلا خيراً ، فيرتدي رداء الحياء ، ويكتسي بحلة الستر فلا يقع فيما يسخط الحيي الستير ، فإنه توعد المجاهرين بقوله : ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن **الله** لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ .

* الباب الذي لا يغلق في وجه سائل *

يقول الشيخ علي الطنطاوي : (أسرد عليكم قصة أسرة أمريكية فيها ستة أولاد ، أبوهم فلاح متين البناء قويّ الجسد ماضي العزم ، وأمهم امرأة عاقلة مدبّرة حازمة ، فتربى الأولاد على الصبر والاحتمال حتى صاروا رجالاً

قبل أوان الرجولة .

وخرج الصغير يوماً يلعب ، وكان في الثالثة عشرة ، فقفز من فوق صخرة عالية قفزة وقع منها على ركبته ، وأحس بالم فيها ، الم شديد لا يصبر عليه ولد مثله ، ولكنه احتمله وصبر عليه ، ولم يخبر به أحداً وأصبح فغدا على مدرسته يمشي على رجله ، والالم يزداد وهو يزداد صبراً عليه ، حتى مضى يومان فظهر الورم في رجله وازْرقّ ، وعجز عن أن يخطو عليها خطوة واحدة ، فاضطربت أمه وجزع أبوه وسالاه عن خبرها؟ فاخبرهما الخبر فاضجعوه في فراشه وجاؤوا بالطبيب فلما رآها علم أنه قد فات أوان العلاج وأنها إن لم تُقطع فوراً مات الولد من تسمم الدم ، فانتحى بأبيه ناحية وخبّره بذلك همساً ، يحاذر أن يسمع الولد قوله ، ولكنّ الولد سمع ، وعرف أنها ستقطع رجله ، فصرخ : لا لا تقطعوا رجلي ، لا تقطعوا رجلي ، أبي ، أنقذني ، حاول أن يقفز على رجل واحدة ويهرب منهم فامسك به أبوه وردّه إلى فراشه ، فنادى أمه نداء يقطع القلوب : أمي ، أمي ، أنقذيني ، أمي ساعديني ، لا يقطعوا رجلي ، ووقفت الأم المسكينة حائرة تحس كأن كبدها تتمزق ؛ قلبها يدعوها إلى نجدة ابنها ويفيض حناناً عليه وحباً له ، وعقلها يمنعها ويناديها أن تفتدي حياته برجله .

ولم تدر ماذا تصنع؟ فوقفت وقلبها يتفطّر ودمعها يتقاطر ، وهو ينظر إليها نظر الغريق إلى من ظن أنه سينقذه ، فلما رآها لا تتحرك ، يئس منها ، كما يئس من أبيه من قبل ، وجعل ينادي أخاه (إدغار) بصوت يختلط فيه النداء بالبكاء والعويل : إدغار ، إدغار ، أين أنت يا إدغار ، أسرع فساعدني إنهم يريدون أن يقطعوا رجلي ، إدغار ، إدغار وسمع أخوه إدغار – وهو أكبر منه بقليل – صراخه ، فاقبل مسرعاً فشد قامته ونفخ صدره ، ووقف

دون أخيه متنمّراً مستأسداً ، وفي عينيه بريق عزيمة لا تُقهر ، وأعلن أنه لن يدع أحداً يقترب منه ، وكلمه أبوه ، ونصحته أمه ، وهو يزداد حماسة ، وأخوه يختبيء وراءه ويتمسك به ، فيشدّ ذلك من عزمه ، وحاول أبوه أن يزيحه بالقوّة ، فهجم على أبيه وعلى الطبيب الذي جاء يساعده ، واستأسد واستيأس والإنسان إذا استيأس صنع الأعاجيب .

ألا ترون الدجاجة إذا هجم أحد على فراخها كيف تنفش ريشها وتقوم دون فراخها؟ والقطة إذا ضويقت كيف تكشّر عن أنيابها وتبدي مخالبها؟ إن الدجاجة تتحول صقراً جارحاً ، والقطة تغدو ذئباً كاسراً ، و (إدغار) صار رجلاً قوياً ، وحراساً ثابتاً ، يتزحزح الجدار ولا يتزحزح عن مكانه . وتركوه آملين ان يملّ أو يكلّ ، فيبعد عن أخيه ولكنه لم يتزحزح ، وبقي يومين كاملين واقفاً على باب غرفة أخيه يحرسه ، لم يأكل في اليومين إلا لقيمات ، قربوها إليه ، ولم ينم إلا لحظات ، والطبيب يجيء ويروح ، ورجل الولد تزداد زرقة وورماً ، فلما رأى الطبيب ذلك نفض يده وأعلن أنها لم تبق فائدة من العملية الجراحية وأن الولد سيموت وانصرف ، ووقفوا جميعاً أمام الخطر المحدق .

ماذا يصنع الناس في ساعة الخطر؟! إن كل إنسان مؤمناً كان أو كافراً يعود في ساعة الخطر إلى الله ، لأن الإيمان مستقر في كل نفس حتى في نفوس الكفار ، ولذلك قيل له (كافر) والكافر في لغة العرب (الساتر) ذلك أن يستر إيمانه ويغطيه ، بل يظن هو نفسه أن الإيمان قد فقد من نفسه ، فإذا هزّته الأحداث ألقت عنه غطاءه فظهر .

قريش التي كانت تعبد هُبل واللات والعزى ، إنما كانت تعبدها ساعة

الأمن ، تعبدها هزلاً منها ، فإذا جدَّ الجدُّ ، وركب القرشيون السفينة ، وهاج البحر من حولها بموج كالجبال ، وصارت سفينتهم بيد الموج كريشة في كفّ الرياح ، وظهر الخطر ، وعمّ الخوف ، بدأ الإيمان الكامن في أعماق النفس ، فلم تَدْعُ اللات ولا العزى ولا هاتيك (المسْخرات) ، ولكن دعت **الله** رب الأرض والسماوات ، وعندما تغرق السفينة وتبقى أنت على لوح من الخشب بين الماء والسماء ، لا تجد ما تصنع إلا أن تنادي : **يا الله** . هذا فرعون الذي طغى وبغى ، وتكبّر وتجبر ، حتى قال أحمق مقالة قالها إنسان قال : ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ لما أدرك الغرقُ فرعون قال : ﴿**آمنت أنه لا إله إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾ .

وعندما تضل في الصحراء ، ويحرق العطش جوفك ، وترى الموت يأتيك من كل مكان ، لا تجد ما تصنع إلا أن تنادي : **يا الله!** ، وعندما تتعاقب سنوات القحط ، ويمتد انقطاع المطر . وفي غمرة المعركة العابسة التي يرقص فيها الموت ، وعندما يشرف المريض ويعجز الأطباء يكون الرجوع إلى **الله** . هنالك ينسى الملحد إلحاده ، والماديُّ ماديته ، والشيوعيّ شيوعيّته ويقول الجميع : **يا الله** ! .

لما ذهب الطبيب واستحكم اليأس وملأ قلوب الجميع : قلب الولد الخائف ، وأخيه المستأسد المتنمّر ، وأبيه وأمه ، واستشعروا العجز ، ولم تبق في أيديهم حيلة ، وبلغوا مرتبة (المضطر) ، مدّوا أيدهم إلى **الله** يطلبون منه الشفاء وحده ، يطلبونه بلا سبب يعرفونه . لأنها قد تقطعت بهم الأسباب ، و**الله** الذي يشفي بسبب الدواء والطبّ ، قادر على أن يشفي بلا طب ولا دواء . مدّوا أيديهم وجعلوا يقولون : **يا الله!!** يدعون دعاء

المضطر ، والله يجيب دعوة المضطر ولو كان فاسقاً ، ولو كان كافراً ، ما دام قد التجأ إليه ، واعتمد عليه ، ووقف ببابه ، وعلق أمله به وحده ، يُجيب دعوته إن طلب الدنيا ، أما الآخرة فلا تُجاب فيها دعوته لأنه كافر لا يؤمن بالآخرة .

هؤلاء كفار قريش لما دعوا الله مخلصين له الدين استجاب دعاءهم ونجّاهم إلى البر ، بل هذا شرّ الخلق إبليس لما دعا دعاء المضطر ، قال : ﴿ .. رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ ، قال له : ﴿ فإنك من المنظرين ﴾ .

ولو أمعنتم النظر في أسلوب القرآن لوجدتم أن الله لم يخبر في القرآن إخباراً أنه يجيب دعوة المضطر ، لأن ذلك مشاهد معلوم ، ولكن ذكره حجّة على المشركين فقال : ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ .

يا أيها القراء إنهم لما دعوا نظروا فإذا الورم بدأ يخف والزُّرقة تمحى والألم يتناقص ، ثم لم يمض يومان حتى شفيت الرِّجل تماماً ، وجاء الطبيب فلم يكد يصدق ما يراه!! .

ستقولون هذه قصة خيالية أنت اخترعتها وتخيّلتها ، فما قولكم إن دللتكم على صاحبها ، إن هذا الولد صار مشهوراً ومعروفاً في الدنيا كلها ، وهو الذي روى القصة بلسانه ، هذا الولد هو : أيزنهاورْ القائد العام لجيوش

الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ورئيس أمريكا بعد ذلك!! .

وقد وقعت لي أنا حوادث رأيتُها وعشتُها ، أو وقعت لمن كان حولي سمعتُها وتحققت منها . سنة ١٩٥٧ ، مرضت مرضة طويلة لخيانة من طبيب شاب شيوعي ، وضع لي جرثومة يسمونها العصيّات الزرقاء ، قليلة نادرة في بلادنا ، وكانت شكواي من حصاة في الكلية أقاسي من نوباتها آلاماً لا يعرف مداها إلا من قاساها ، فانضمت إليها أمراض أخرى لم يكن لي عهد بها ، وقضيت في المستشفى ، مستشفى الصحة المركزي الكبير في دمشق ، ثم في مستشفى كلية الطب بضعة عشر شهراً أقيم فيه ، ثم أخرج منه ثم أعود إليه ، وكانوا كل يوم يفحصون البول مرتين ، وينظرون ما فيه ، فلما طال بي الأمر ، وضاق مني الصدر ، توجهت إلى الله فسألته إحدى الراحتين ، الشفاء إن كان الشفاء خيراً لي ، أو الموت إن كان في الموت خيرٌ لي – وكان يدعو لي كثير ممن يحبني وإن كنت لا أستحق هذا الحب من الأقرباء ومن الأصدقاء – فلما توجهت ذلك اليوم إلى الله مخلصاً له نيتي ، واثقاً بقدرته على شفائي ، سكن الألم ، وتباعدت النوبات ، وفحصوا البول كما كانوا يفحصونه كل يوم ، فإذا به قد صفا ، وزال أكثر ما كان فيه وعجب الأطباء واندهشوا ، واجتمعوا يبحثون . فقلت لهم : لا تتعبوا أنفسكم فهذا شيء جاء من وراء طِبّكم ، إن الله الذي أمرنا أن نطلب الشفاء من الطب ومن الدواء ، قادر على أن يشفي بلا طب ولا دواء .

ولما قدمت المملكة سنة ١٣٨٢ هـ أقمت سنة في الرياض ، ثم جئت مكة فلبثت فيها إلى الآن ، كان معنا فيها رجل من الشام لا أسميه ، كان مقيماً في الرياض هو وأمه ، فعرض له عمل اقتضى سفره إلى لبنان ، كرهت

أمه هذا السفر لئلا تبقى وحدها ، فلما حلّ موعده حمل ثقله (أي حقائبه وأشياءه) إلى المطار فسلمه إلى الشركة وذهب إلى بيته على أن يأتي الفجر ليسافر .

ورجا أمه أن توقظه قبيل الفجر ، فلم توقظه حتى بقي لموعد قيام الطيارة ثلاثة أرباع الساعة ، فقام مسرعاً وأخذ سيارة وحثّ السائق على أن يبلغ به المطار ويضاعف له الأجر ، وجعل يدعو الله أن يحلق بالطيارة قبل أن تطير ، ولما وصل وجد أنه لا يزال بينه وبين الموعد ربع ساعة ، فدخل المقصف وقعد على الكرسي فنام ، ونودي من المكبر على ركاب الطائرة أن يذهبوا إليها ، فلم يسمع هذا النداء وما صحا حتى كانت الطيارة قد علت في الجو ، وكنت معه ، فجعل يعجب كيف دعا الله بهذا الإخلاص دعاء المضطر ولم يستجب له؟ .

وجعلت أهوّن الأمر عليه ، وأقول له : إن الله لا يردّ دعوة داعٍ مخلص مضطر أبداً ، ولكن الإنسان يدعو بالشرّ دعاءه بالخير ، والله أعلم بمصلحته منه ، وأهمّ الغضب والحزن عن إدراك ما أقول . افتدرون ماذا كانت خاتمة هذه القصة؟ لعل منكم من يذكر طيارة شركة الشرق الأوسط التي سقطت تلك السنة ، وهلك من كان فيها؟ هذه هي الطيارة التي حزن على أنها فاتته إن الإنسان قد يطلب من الله ما يضره ولكن الله أرحم به من نفسه ، وإذا كان الأب يأخذ ولده الصغير إلى السوق فيرى اللعبة فيقول : أريدها ، فيشتريها له ، ويبصر الفاكهة الجميلة ، فيوصله إليها ، ويطلب الشُكلاطه فيشتري له ما يطلبه فإذا مرّ على الصيدلية ورأى الدواء الملفوف بالورقة الحمراء ، فاعجبه لونه ، فطلبه ، هل يشتريه له وهو يعلم أنه يضره؟ إذا كان

الأب وهو أعرف بمصلحة ولده لا يعطيه كل ما يطلب لأنه قد يطلب ما لا يفيده ، **فالله** أرحم بالعباد من آبائهم ومن أمهاتهم ومن ذويهم) [كتاب الباب الذي لا يغلق في وجه سائل ص ١ - ٢٠ : الشيخ علي الطنطاوي] .

* إن الله معنا *

الله جل وعلا مع أوليائه ، وحافظ عباده ، يكلؤهم برعايته ، ويحوطهم بعنايته ، ينزل عليهم غيث الرحمة ، ويهمي عليهم ديمة الطمأنينة ، لا يدعهم طرفة عين ، ولا يكلهم إلى أنفسهم ، ولا يسلط عليهم أعداءهم ، ولا يجعل للشيطان عليهم سبيلاً ، لأنهم عباده المخلصون وجنده الصادقون ، وأولياؤه المتقون ، قاموا بما افترضه عليهم ، وما زالوا يترقون في مدارج الكمال ، ويصعدون في سلم التقوى ، ويتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم ، فلما أحبهم كانت معيته تدير أيديهم التي يبطشون بها ، وتُسَيِّر أرجلهم التي يمشون بها ، وكان تعالى سمعهم الذي يسمعون به ، وبصرهم الذي يبصرون به ، إذا دعوه أجابهم ، وإذا استنصروه نصرهم ، وإذا استغاثوه أغاثهم ، راقبوه أحسن المراقبة ، وأحسنوا معه كما أحسن إليهم ، و﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ ، فاعلن - جل وعلا - بشارته لأوليائه بقوله : ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ .

إن استشعار المؤمن لمعية **الله** له يثمر أموراً حميدة ، وفوائد عديدة وحياةً سديدة ، فالمؤمن إذا علم أن **الله** معه وأنه يراه في كل أحواله ، ومطلع على أقواله وأفعاله ، فإن نداء الحياء وهتاف الجلال يناديه في كل لحظة :

ستحيي من نظر الإله إليك ، اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وإن المؤمن إذا علم معية الله له فإن ذلك يجعله يمضي في حياته سالي الخاطر ، مطمئن القلب لا يخشى إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ؛ لأنه يعلم أن الله معه : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ .

خرج ﷺ مهاجراً من مكة خفية في ظلمة الليل الدامس واتجه إلى غار ثور ، وخرج المشركون في أثره بعددهم وعتادهم وشجعانهم وفرسانهم ، القلوب متوقدة ، والأنفس لاهثة ، والأفئدة غاضبة ، والسيوف مصلتة ، فوقفوا أمام سدّة الغار ، فقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : يا رسول الله ، والله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا ، فقال له المصطفى ﷺ في يقين راسخ ، وإيمان جازم : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » فنزل الوحي الرباني مشيداً بهذه الثقة المؤمنة ، والعقيدة الراسخة : ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ .

هكذا ديدن المؤمنين ، وعقيدة المتقين ، وهكذا معية رب العالمين لجنوده الصادقين .

موسى - عليه السلام - وأخوه يخافان من بطش فرعون وغضبه ، فهو المتكبر المتغطرس المتعالي على الله ، الذي كانت الأرض في قبضته ، والدولة تحت سيطرته ، بث الرعب في القلوب ، وزرع الهلع في الأنفس ببطشه

شديد ، وأخذه أكيد ، وعذابه مفزع ، وغضبه كارثة ، فاتجه موسى وهارون إلى ربهما قائلين : ﴿ ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ ، فانغرست هذه العقيدة في نفس موسى ، واستشعر معية الله تعالى له ، وجعل هذه الحقيقة ماثلة أمام عينيه في لقاءه مع أعداء الله : ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ، فمن كان الله معه فالنصر حليفه ، والتوفيق ربيبه ، والفلاح نصيبه .

وإن معية الله جل وعلا الخاصة تكتسب بعدة صفات بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ومن تلك الصفات التي توجب المعية ما يلي :

١ - الصبر : قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ .

٢ - التقوى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

٣ - التقوى والإحسان : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

أما معية الله جل وعلا لعموم الناس وهي المعية العامة فهي ثابتة بآيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

يقول ابن القيم – رحمه الله – عن معية الله لعباده : (والمعية مع الله نوعان :

عامة : وهي معية العلم والإحاطة المستفادة من قوله عز وجل : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

خاصة : وهي التي أشار إليها سبحانه في قوله : ﴿ إن الله مع الذي اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، وقوله – عز من قائل – : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ، وقوله – سبحانه – : ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

وهذه المعية معية قرب تتضمن الموالاة والنصر والحفظ وكلا المعيتين مصاحبة منه للعبد ، لكن الأولى مصاحبة اطلاع وإحاطة ، والثانية مصاحبة موالاة ونصر وإعانة .

* السير إلى الله *

كم من رقاب تطايرت لتفوز برضوان **الله** ، وكم من أجساد مزقت في ذات **الله**؟ وكم من أناس نشروا بالمناشير ، وقرضوا بالمقاريض ، فصبروا في ذات **الله**؟ كم من عين سهرت ودمعة ذرفت ، وأكباد احترقت ، وأقدام تفطرت ، وأقلام كتبت ، ومهج بذلت **لله** وفي **الله** و**بالله**؟.

كم قطع أناس الفيافي وهم يسيرون إلى **الله** ؟ وكم خاض فئام بحوراً وأنهارا ، وصارعوا أمواجاً ، وركبوا أهوالاً ، وهم مقبلون على **الله**؟ ، وكم مشت الأقدام ، وتعبت الأجسام ، وجاعت البطون ، وظمئت النفوس ، وهي تسعى إلى **الله** ؟ إلى جوده ، إلى كرمه ، إلى مرضاته .

كم بذل أناس مهجهم وهم يسيرون إلى **الله**؟ وكم قدم أقوام رقابهم شوقاً إلى لقاء **الله**؟ جاء رجل إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه ، ثم قال : أهاجر معك ، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم النبي ﷺ فيها شيئاً ، فقسم وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاءهم دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا : قسم لك النبي ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا؟ قال : «قسمته لك» ، قال : ما على هذا تبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : «إن تصدُق **الله** يصدقك» ، فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدو ، فأتي به النبي ﷺ يُحمل ، قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ : «أهو هو؟» ، قالوا : نعم ، قال : «صدق **الله** فصدقه» ، ثم كفنه النبي ﷺ في جُبَّة ثم قدمه

فصلى عليه فكان مما ظهر من صلاته : «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، فقتل شهيداً ، أنا شهيد على ذلك» .

أما الصحابي الجليل خثيمة – رضي الله عنه وأرضاه – فقد قُتل ابنه في معركة بدر ، فجاء إلى النبي ﷺ في معركة أحد يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت – والله – عليها حريصاً حتى ساهمت ابني في الخروج فخرج – في الرقعة – سهمه ، فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ، يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً !! .

ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته ، وقد كبرت سني ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني خيثمة في الجنة ، فدعا رسول الله عليه الصلاة والسلام له ، فقتل بأحد .

وهذا عمرو بن الجموح – رضي الله عنه – كان أعرج شديد العرج وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال : إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة! فقال له رسول الله ﷺ : «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة؟ فخرج مع رسول الله

ﷺ ، فقتل يوم أحد شهيداً .

أما نعيم بن مالك - رضي الله عنه - فقد كان يسير إلى الله في يقين جازم وعزم صادق ، فقد أقبل على النبي ﷺ - وذلك قبل نشوب القتال - في معركة أحد فقال : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة فوالذي نفسي بيده لأدخلنها!! فقال له رسول الله ﷺ : «بم؟» قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف ، فقال له رسول الله ﷺ : «صدقت» . واستشهد يومئذ .

وإذا أردت مزيداً من عجائب العظماء فانظر إلى عبد الله بن جحش - رضي الله عنه - الذي أقبل في يوم أحد وكله شوق إلى لقاء الواحد الأحد ، بل لقد بلغ به الشوق والحب إلى أن دعا ربه بأن يُمزق جسده ، وتُقطّع أوصاله طالما كان ذلك في السير إلى المحبوب ، لقد نظر إلى السماء ورفع كفيه قائلاً : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني . ثم تسألني : فيم ذلك؟ فأقول : فيك؟ .

أما جابر بن عبد الله - رضي الله عنه وأرضاه - فيقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ، ونحن ستة نفر ، بيننا بعير نتعقبه ، قال : فنقبت أقدامنا ، فنقبت قدماي وسقطت أظفاري ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق .

وفي معركة بدر نادى ﷺ أصحابه قائلاً : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فقام عمير بن الحمام الأنصاري وقال : يا رسول الله

جنةٌ عرضها السموات والأرض؟ قال : نعم ، قال : بخٍ بخٍ يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها قال: فاخترج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل .

* الانشغال بالله *

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به
ومن حديثك في أعقابها حادِ
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها
رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعادِ

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها ، وحمل عنه كل ما أهمه ، وفرغ قلبه لمحبته ، ولسانه لذكره ، وجوارحه لطاعته . وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها ، ووكله إلى نفسه ، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ، ولسانه عن ذكره بذكرهم ، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم ، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره ، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته . قال تعالى : ﴿ومن

يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ .

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت **بالله** ، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت **بالله** ، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك **بالله** ، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى **الله** ، وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة .

قال أحد العارفين **بالله** :

« قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم : لا تبد فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك في عبوديتك . ابتليتك بالفقر لتصير ذهباً خالصاً فلا تزيفن بعد السبك . حكمت لك بالفقر ولنفسي بالغنى ، فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيري حسمت عنك مواد معونتي طرداً لك عن بابي . لا تركن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك . إن ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه ، وإن ركنت إلى العلم أوقفناك معه ، وإن ركنت إلى المخلوقين وكلناك إليهم ، ارضنا لك رباً نرضك لنا عبداً » .

* نور على نور *

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

هذا النص البياني الساحر ، والتعبير القرآني الآسر يوقظ المشاعر ، ويحرك لواعج القلب ، ويضيء جنبات الفؤاد ، وينير أعماق النفس ، تقرأ آية النور فتجد أنك تُغمر في النور من رأسك إلى أخمص قدميك ، تقرأها فترتسم أمام ناظرك لوحةٌ هائمة عَرضُها السموات والأرض ، تفيض نوراً وتنتشر ضياءً وتنثر سناءً ، وينكشف للقلب المؤمن من الضياء والنور ما لا يُدرَك مداه . يفيض هذا النور الهادي على النفوس فتشرق ، وعلى العقل فيتوهج ، وعلى الكون فيقمر ، وكأنما الكون كله يسبح في فيض من النور .

ما أعظم هذا النور وما أسعد ضياءه وأوسع دائرته وأشد توهّجه .

يا الله ما أعجب قلب الإنسان ، أيرضى لنفسه الظلمة فيعيش في حُلكتها ويتخبط في ظلامها وكل شيءٍ في الكون منير!! .

الله نور ، والقرآن نور ، والنبي نور ، والمؤمن نور ، والملائكة نور ، والسماء نور ، والشمس نور ، والقمر نور ، والفجر نور ، والنجوم نور ، والنهار نور ، والجمال نور ، والعدل نور ، والحق نور . كل الكون نور على نور ، وكل نور تراه الأعين وببصره القلب ما هو إلا من نور وجهه الذي أشرقت له الظلمات ، فهو النور الذي لو كُشِف لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلْقه .

إن قلب الإنسان إذا فَتَحَ منافذه لتَلَقّي النور الإلهي كان في إشراقه أشد سناءً من الشمس ، وأحسن بهاءً من البدر ، وأصدق ضياءً من الفجر ، واستطاع وهو الجرم الصغير أن يعيش هذا النور الذي يعمر جنبات الكون كله ويحرق بضيائه الرباني ونوره الإيماني كل ظلمة تعترض طريقه من الظلمات الحسية والمعنوية ، فإنه يستمد نوره من الله مباشرة ، فيرى بنوره ،

ويمضي على نوره ، ويعمر الكون بنوره ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيرا ﴾ .

إذا أعتمتْ الطرق بالسالكين نَفَذَتْ بصيرة المستنير بنور **الله** فيمضي على نور من ربه وبصيرة من خالقه وضياء من وحيه ، ثم يسعى بهذا النور بين الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وينادي فيهم : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾ .

إذا حلّت المعضلة بالعالمْ وأشكلت القضية على الفقيه ، نظر بنور **الله** فكُشفتْ الحجب ، واستبانت المسائل ، وحقّت الحقائق ، فجاء رأيه كفلق الصبح ، وإذا بنور علمه يسعى بين يديه وعن يمينه وشماله .

إذا تفشّت ظلمات الكفر ، وصرفت القلوب عن الحق ، وأراد أعداء النور أن يطفئوا نور **الله** بأفواههم ؛ نظر المؤمن بنور الوحي ، فإذا به يبدد ظلام الباطل ، ويمحو حلكة الكفر ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

إذا أظلمت حياة الأديب ، واسودت نفس الشاعر ، فجاء بيانه تائهاً ، وصدح شعره بائساً ، وأتى مقاله مظلماً ، فإن الأديب المؤمن والشاعر المسلم ينظر للكون بنور **الله** ، ويسبك المعاني على هدى من **الله** ، فإذا بها بدوراً مضيئة ، وشموساً منيرة ، ودرراً متالقة : ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ، وإذا بهذا البيان الصادق ينادي بأهل الضلال والظلام : ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ .

وهكذا القلب المستنير بنور **الله** تشرق كل ذرة من ذرات نفسه ، وتضيء كل جزئية من جزئيات حياته ، فيعيش النور ، ويتنفس النور ،

ويستنشق النور ، ويبصر النور ، ويمضي إلى ربه في نور منادياً : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ فيفيده هذا النور وينفعه ويضيء له في ذلك اليوم ؛ يوم تشرق الأرض بنور ربها ويوضع الكتاب .

إن الفرق يسير بين كلمة النور والنار في الكتابة والاشتقاق ، ولكنه كبير جداً في المعنى والمآل والمساق ، وإن الخطر الأكبر أن كثيراً من الناس يتهافتون على النار ظناً منهم أنها نور وهي نار محرقة في الدنيا والآخرة ، تُوقد نيران المعاصي ويشعل لهيب الشهوات فينخدع بها أُناس ليس لهم بصيرة نافذة ولا نور إلهي فيقعون فيها ، وداعي القرآن ينادي ، وداعي النبي ﷺ ينادي ، وداعي الوعظ والإصلاح ينادي : هلم عن النار ، هلم عن النار ، ولكن دون جدوى إلا من رحم ربك .

يقول ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فجعل الفراش والدواب وهذه الهوام التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن بيده وهن يغلبنه فيقتحمن فيها ، فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحُجَزكم : هلم عن النار ، هلم عن النار ، وأنتم تفلّتون من يَديّ فتقعون فيها» ، فلا نجاة من النار إلا بنور الإيمان وضياء الرحمن .

فهيا بنا الآن لنتأمل آية من آيات النور ، وروعة من روائع الهدى ، ودُرّةً من دُرر الوحي :

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ : النور الذي منه قوامها ونظامها ، نور **الله** الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض ، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه ، فهو النور الحسي والمعنوي ، **فالله** جل وعلا بذاته نور ، وحجابه نور ، وهو حجاب لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه

بصره من خلقه ، وبه استنار العرش والكرسي ، والشمس والقمر ، وبه استنارت الجنة .

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله جل وعلا ، فكتابه نور ، وشرعه نور ، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور ، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات ، وكل محل يفقد نور الله تعالى فهو الظلمة الحالكة ، فكل نور حسي أو معنوي الله خالقه ، والله واهبه ، والله الهادي إليه : **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾** .

كان ﷺ يقول : «اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، ومن فوقي نوراً ، ومن تحتي نورا ، ومن أمامي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، واجعل لي في نفسي نوراً ، وأعظم لي نوراً» .

والحياة الحالكة ، والموت الزؤام لمن لم يجعل الله له نور : **﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾** .

﴿مثل نوره﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كمشكاة ، فمثل نوره الذي يهدي إليه وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين كمثل المشكاة ، والضمير في **﴿نوره﴾** فيه قولان :

الأول : أنه عائد إلى الله عز وجل ، أي مَثَلُ هداه في قلب المؤمن **﴿كمشكاة﴾** .

الثاني : أن الضمير عائد إلى المؤمن ، أي مَثَلُ نور المؤمن الذي في قلبه

﴿كمشكاة﴾ فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه بالمشكاة .

﴿كمشكاة﴾ المشكاة هي : الكوّة الصغيرة في الجدار غير النافذة ، لأنها تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ، يوضع فيها المصباح فتحصر نوره وتجمعه فيبدوا قوياً متألقاً .

﴿فيها مصباح﴾ المصباح هو : السراج الضخم الثاقب .

﴿المصباح في زجاجة﴾ أي هذا المصباح المضيء الوهّاج في زجاجة صافية بحيث تقيه الريح وتصفّي نوره فيتألق ويزداد ، فالمصباح نظير النور والقرآن والإيمان ، والزجاجة نظير قلب المؤمن .

﴿الزجاجة كأنها كوكب دُرّي﴾ أي أنها مضيئة إضائة الدر ، والكوكب الدري هو المضيء المشرق ، كأنه دُرّة بيضاء صافية ، والدراري من الكواكب هي : المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ وسهيل وغيرها .

﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾ يوقد ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرّية من شجرة مباركة زيتونة ، أي يوقد من زيت الزيتون الذي نوره أقوى ما يكون ، فزيت الزيتون أصفى نور يعرفه المخاطبون في ذلك الوقت .

﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع ، كثيرة البركة ، ومن بركات هذه الشجرة أن ثمرتها إدام ودهان ودباغ ووقود وعلاج ، وليس فيها من شيء إلا وفيه منفعة زيتها وخشبها وورقها وثمرها ، وهي مباركة أيضاً لأنها تنبت في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، وهي أرض الشام أرض الأنبياء عليهم السلام .

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي هذه الشجرة في مكان مستوٍ من الأرض فسيح بارز ظاهر متعرض للشمس ، تطلع عليها وقت شروقها ووقت غروبها وتسطع عليها بضيائها من أول النهار إلى آخره ، وذلك أصفى لزيتها والطف وأجود ، فهي ليست من الشجر الذي لا تطلع عليه الشمس إلا في وقت شروقها أو في وقت غروبها فقط ، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً ، فهي شرقية وغربية ، وهكذا زيتون الشام ، وكذلك يكون زيتها لصفائه وتلألؤه يكاد يضيء من غير نار .

﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ فهو من الجودة ، وهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى يكاد يضيء بغير احتراق ، يقول ابن عباس – رضي **الله** عنهما – : (كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فإذا مسته النار ازداد ضوءٍ على ضوئه ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور) .

﴿ نور على نور ﴾ أي هذا النور الذي شبه **الله** به النور الإلهي والحق المبين ، نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ويزيده إشراقاً ويمده بالإضاءة ، وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق محصور كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر ويتسع فيضعف النور .

﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ **فالله** تعالى يهدي لهذا النور الثاقب الوضاء المشرق ؛ يهدي له من يشاء من عباده ممن يعلم زكاءه وطهارته ،

ويرشد لهدايته من يختار ، ومن أصاب من ذلك النور فقد اهتدى ، ومن فاته فقد ضل .

ومن نظر وتدبر بعين العقل والإنصاف ولم يذهب عن الجادة يميناً وشمالاً فإنه يوفق لإصابة الحق . ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس ، فهو نور يهدي به الله من يشاء ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه ، فهو شائع في السماوات والأرض ، فائض فيهما دائم فيهما لا ينقطع ولا يخبو .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ هذا المثل الذي ضربه **الله** لنوره وسيلة لتقريب المدارك ، فهو يقرب غير المحدود في صورة المحدود ، ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس حين يقصر عن تملّي الأصل وتمثله ، فهو مثل يقرّب للعقول البشرية الضعيفة طبيعة النور الذي يعجز البشر عن تتبع مداه وآفاقه المترامية ، فهو تعالى يضرب الأمثال للناس ليعقلوا عنه ويفهموا ، لطفاً منه بهم ، وإحساناً منه إليهم ، ليتضح لهم الحق من الباطل ، لأن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة .

فخلاصة هذه الآية ان **الله** جل وعلا شبه نوره الذي بثه في السماوات والأرض وأودعه في قلب المؤمن ، شبهه بنور مشكاة في مصباح ، والمصباح في زجاجة ، وهذه الزجاجة كانها كوكب دُرّي يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة بارزة للشمس تطلع عليها في كل آن ، مما جعل هذا النور أخّاذاً مشرقاً ، فصلُح أن يكون مثلاً تقريبياً لنور **الله** جل وعلا .

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ فهو العليم الذي أحاط علمه بالكائنات وإن ضربه للأمثال ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وانها مصلحة للعباد

أما العباد فليس لهم من العلم بحقائق الأمور إلا ما علمهم ربهم ، ومهما علموا فما أوتوا من العلم إلا قليلاً .

ولما كان هذا النور العظيم والهدي الكريم أكثر ما يبدو إشراقه وتتسع آفاقه من المساجد جاء بعد ذلك هذه الآية الكريمة ، يقول تعالى : ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يُسَبِّح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .

* الكون كتاب مفتوح *

قال تعالى : ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ .

ولنقف مع هذه الآيات البديعة وقفة تأمُّلٍ وتدبر :

« إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح ، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويشي وراءه عن يد تدبره بحكمة ؛ ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة ، وحساباً وجزاء .. إنما يدرك هذه الدلائل ، ويقرأ هذه الايات ، ويرى هذه الحكمة ، ويسمع هذه الإيحاءات ﴿أولو الألباب﴾ من الناس ، الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح ، وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين! .

وأولو الألباب .. أولو الإدارك الصحيح .. يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ، ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات . ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده ، وعلة نشاته ، وقوام فطرته . بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود .

ومشهد السماوات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار . لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا . لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة . لو استنقذنا حسنا من همود الإلف ، وخمود التكرار .. لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ، ولاحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لا بد من يد تنسق ؛ ووراء ما فيه من نظام لا بد من حكيم يدبر ؛ ووراء ما فيه من إحكام لا بد من ناموس لا يتخلف .. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً ، ولا يمكن أن يكون جزافاً ، ولا يمكن أن يكون باطلاً .

إن عرض هذا المشهد : مشهد التفكر والتدبر في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، يناسبه دعاءٌ خاشعٌ مرتلٌ طويلُ النغم ، عميق النبرات . فيطول بذلك عرض المشهد وإيحاءاته ومؤثراته على الأعصاب والأسماع والخيال ، فيؤثر في الوجدان ، بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجه وارتجاف .. وهنا طال المشهد بعباراته وطال بنغماته مما يؤدي غرضاً أصيلاً من أغراض التعبير القرآني ، ويحقق سمة فنية أصيلة من سماته . ثم طال بالرد عليه والاستجابة له كذلك :

﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى

بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

وهي استجابة مفصلة ، وتعبير مطول ، يتناسق مع السمة الفنية للتعبير القرآني ؛ وفق مقتضى الحال ، ومتطلبات الموقف ، من الجانب النفسي والشعوري .

إن أولي الالباب هؤلاء ، تفكروا في خلق السماوات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار ، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكن فيه ، فاتجهوا إلى ربهم بذلك الدعاء الخاضع الواجف الطويل العميق .. ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم ، على دعائهم المخلص الودود. فماذا كانت الاستجابة ؟ .

لقد كانت قبولاً للدعاء ، وتوجيهاً إلى مقومات هذا المنهج الإلهي وتكاليفه في آن واحد : **﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. ﴾** ؛ [ظلال القرآن] .

* عليه توكلنا *

قال تعالى : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم ءاياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾** .

من أسماء الله تعالى (الوكيل) وهو القيّم الكفيل بأرزاق العباد ،

وهو الموكول إليه الأمور ، والتوكل هو : صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة ، وأن يعرف المؤمن بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه جل وعلا .

التوكل آية المؤمن ، وسمة الموحد ، وعلامة التقوى . التوكل درجة سامية ، ورتبة عالية ، إنه جوهر الدين ، ولباب المنهج ، ورحيق الهدى ، إنه إسلام النفس للخالق ، وانطراح القلب على أعتابه ، واللجوء إلى جنابه ، والارتماء على رحابه ، المتوكل يصبر على البلاء صبراً جميلاً ، ويعلم أنه لا يظلم فتيلا ، وقد رضي بما رضي له ربه وكفى بربه وكيلا ، فعليه يتوكل المؤمنون ، وإليه يلجأ الموحدون ، وبه يأمن الخائفون .

التوكل يجلب الرضى ، ويزرع الطمانينة ، ويكمل الدين ، ويجمل الإيمان ، ويتمم الإسلام . تنال به محبة الخالق ، وترفع به درجة الواثق ، ويحفظ بسببه الصادق .

إنه براءة من الحول والطول والقوة إلا بالواحد الأحد فلا حول إلا به، ولا طول إلا به ، ولا قوة إلا به ، إنه يقين يزرع في القلب ، ومعين يجري رحيقه في النفس ، فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج .

التوكل راحة للبال ، وطمأنينة للخاطر ، وهدوء للأعصاب ، ومجلبة للرزق ، وحفظ من المكائد ،وصيانة من المخاطر ، وراحة من الأوهام ، وخروج من الآلام ، إنه استحضار لعظمة الله ، واستشعار لمعية الله ، وثقة بنصر الله .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : «ومن ترك الاختيار والتدبير في

رجاء زيادة أو خوف نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم ، وعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه ، وأنصح للعبد منه لنفسه ، وأرحم به منه بنفسه ، وأبر به منه بنفسه . فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه ، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر ، له التصرف في عبده بكل ما يشاء ، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه . وإن أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه ، دون حق ربه ، خَلاَّه وما اختاره وولاه ما تولى ، فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال ، فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ، ولا راحة يفوز بها، ولا لذة يتهنى بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرة عينه ، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل ولا يتزود منها لمعاد» .

ولقد ورد الحض على التوكل في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، ومن ذلك :

١ – أن من أراد النصر والفرج من الله فليتوكل عليه : **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** .

٢ – إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل : **﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت﴾** .

٣ – إذا طلبت الصلح والإصلاح بين قوم لا تتوصل إلى ذلك إلا بالتوكل :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ .

٤ – إذا هجمت عليك قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

٥ – إذا نصبت الأعداء حبالات المكر فادخل أنت في أرض التوكل : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت ﴾ .

٦ – إذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة ، فلا يكن اتكالك إلا عليه : ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

٧ – إذا خشيت بأس أعداء الله والشيطان والغدار فلا تلتجيء إلا إلى باب الله : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

٨ – إذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال ، فتمسك بالتوكل في كل حال : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

٩ – إذا أردت أن يكون الله لك ، وتكون لله خالصاً فعليك بالتوكل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ . ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ .

١٠ – إذا أردت كسب الرزق وطرق أبواب التجارة فتوكل على الله : « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً » .

لقد ضاع مفهوم التوكل لدى كثير من الناس ، وتاهت معالمه ،

وفقدت لوازمه ، وطمست آثاره ، فعدمت ثماره ، نسوا الله فنسيهم ، وتركوا التوكل عليه فوكلهم إلى أنفسهم ، يمرض المريض فيكون لجوؤه إلى الطبيب ، ويتعلق أمله بالدواء ، وينسى رب الأرض والسماء ، ومن بيده الشفاء ، والأعجب من ذلك أن بعض المسلمين يجوب البلدان سائلاً عن معالج بالقرآن ، وكأنه ليس من أهله ، وليس من أتباعه ، أو بينه وبينه حجاب ، إن سورة واحدة أو آية واحدة يقرؤها المرء مخلصاً في نيته ، صادقاً في وجهته ، متكلاً على خالقه ، واثقاً في نصرته ، خير له من السؤال عن فلان وفلان ، فليس أحد أعلم بالمرء من نفسه ، ولا أدرى بحاجته من ذاته .

وتنزل بالإنسان المحن ، وتشتد عليه الفتن ، وتضيق به الأمور ، فينطرح على كثير من الأعتاب ، ويلجأ للأحبة والأصحاب ، وتنقطع به الأسباب ، وينسى اللجوء إلى العزيز الوهاب ، ويحدق ببعض الناس الأعداء ، ويمكر به الألداء ، ويحيط به الخصماء ، فيظل في هم شديد ، وكرب أكيد ، ويغفل عن الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ويبقى كثير من الناس خلواً من الكسب ، عاطلاً عن العمل ، متهيباً خوض الغمار ونزول المضمار ، وكان الأولى به أن يُقْدم متوكلاً على الواحد القهار .

إن عقيدة التوكل يجب أن تنغرس في الأذهان ، وتنقدح في الأفئدة ، فيكون المؤمن في كل أموره وجميع أحواله وشتى أفعاله متوكلا على ربه ، معتمداً على خالقه ، مستغنياً بمعبوده ، واثقاً بإلهه، وعلى المرء بذل الأسباب ، والباقي على منشىء السحاب .

لقد حرص النبي ﷺ على زرع حقيقة التوكل في نفوس أصحابه فينشر

عليهم عبيراً من عطر التوكل فيقول : « إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : يُقال حينئذ : هُديت وكُفيت ووقيت فتتنحى له الشياطين ، فيقول له شيطانٌ آخر : كيف لك برجل قد هدي وكُفي ووقي ؟ »

ويقول ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » .

ويقول ﷺ : « يا غلام إني أُعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف » .

وكان من دعائه ﷺ : « اللهم أنت عضدي ونصيري ، بك أحول وبك أجول ، وبك أصول ، وبك أقاتل » .

وقوله ﷺ : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنه – حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم – عليه السلام – حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

يقول ابن القيم : التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني الإنابة ، فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة .

ومما ورد من تعريفات التوكل ، قال بعضهم : هو انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء .

وقال بعضهم : يقول بعض الناس توكلت على **الله** وهو يكذب على **الله** لو توكل على **الله** رضي بما يفعل **الله** .

وقال بعضهم التوكل هو : نفي الشكوك والتفويض إلى مالك الملوك .

وقال بعضهم : التوكل هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمانينة إلى الكفاية ، فإن أعطي شكر ، وإن منع صبر .

وقد أجمع العلماء على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد .. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

* الحياء من الله *

الحياء دليل على المروءة ، وعنوان على الشهامة ، وآية على حسن الخلق ، إنه الانكسار للعظيم ، والخجل من الكريم ، والاحترام للكبير ، إنه العزة في ثوب التذلل ، والشموخ في زي الانكسار ، والهمّة في رداء التواضع ، والقوة في قميص الضعف ، حياء من الحبيب يكسر حدة البصر ، ويكبح جماح النفس ، ويطأطىء عنفوان الرأس ، إنه غضب للعظيم تظهر آثاره على تقاسيم الوجه وحركات الجوارح وانفعالات الوجدان .

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان! فهو يكشف عن قيمة إيمانه

ومقدار أدبه . وهو خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق . وهو غض الطرف حشمة للمستحيا منه ، وهو عادة محمودة مالم تكن عن عيٍ وعجز ، والمرء يستحي من ذي الهيبة أو السلطان أو الملك فكيف بملك الملوك وجبار السماوات والأرض .

إن مما يرفع من قيمة الحياء ويعلي من شانه أنه صفة من صفات المولى جل وعلا ، فمن صفاته (الحيي) . يقول ﷺ : «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه يدعوه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء» . حياؤه سبحانه من عبده هو حياءٌ يليق بجلاله وعظيم سلطانه لا تدركه ولا تكيفه العقول ، وهو حياء كرم وبرٍ وجودٍ وعطاء .

وعندما ترى الرجل يتحرّج من فعل ما لا ينبغي ، أو ترى حُمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حيُ الضمير ، نقيُ المعدن ، زكي العنصر ، وإذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور ، لا يبالي ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا . .

الحياء استشعار لعظمة **الله** ، واستحضار لهيبته ، مراقبة لجلاله ، عجيب أمر بعض الناس الذين يتجرأون على انتهاك الحرمات ، ويهتكون ستر الحياء ، ثم يمضي الواحد منهم دون خجل من ربه أو حياة لقلبه أو وخزٍ لضميره : **﴿ أيحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين ﴾** ، أفلا يعلم أنه هو الذي وهب له الرؤية ، ومنّ عليه بالبصر ، وأعطاه عينين يرى بهما الحياة ويتأمل في صفحات هذا الكون ليرى دلائل القدرة ، وموحيات الإيمان ، وشواهد الوحدانية ، لقد كان الأولى به أن يشكر نعم ربه وأن يستحيي من نظره إليه .

وإذا كان الصحابة - رضوان **الله** عليهم - هم أكثر الناس بعد النبي ﷺ حياءً من **الله** ، وأشدهم خجلاً منه ، وخشية له ، ومراقبة لجلاله ، ومع ذلك يقول لهم ﷺ : « استحيوا من **الله** حق الحياء » قلنا : إنا نستحي من **الله** يا رسول **الله** - والحمد **لله** - قال : « ليس ذلك .. الاستحياء من **الله** حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من **الله** حق الحياء » .

وهذه العظة تحوي كثيراً من آداب الإسلام ومناهج الفضيلة ، فإن على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض في باطل ، وبصره أن يرمُق عورة أو ينظر شهوة ، وأذنه أن تسترق سراً أو تستكشف خبئاً . وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام ، ويقنعه بالطيب الميسور . ثم عليه أن يصرف أوقاته في مرضاة **الله** ، وإيثار ما لديه من ثواب ، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة .

فإن فعل ذلك عن شعور بأن **الله** يراقبه ، ونفور من اقتراف تفريط في جنب **الله** فقد استحيا من **الله** حق الحياء ..

وإن الإنسان في حضرة الرجال الذين يُجلهم ويحرص على استرضائهم يضبط سلوكه ضبطاً محكماً ، فيتكلم بقدر ، ويتصرف بحذر ، والمسلم الذي يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن **الله** ابداً ، لأنه ماثل في حضرته ليلاً ونهاراً ، ينبغي أن يكون تهيبه لجلال **الله** أعظم ، وتادبه بشرائعه أحكم .. وذلك معنى الحديث : « أوصيك أن تستحي من **الله** عز وجل كما تستحي رجلاً من صالحي قومك » .فيا عجباً لأناسٍ يستخفون من الناس ولا يستخفون من **الله** وهو معهم .

وإذا خلوت بريبة في ظلمة
والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني

إن من عقوبات المعاصي ، ومن نتائج الآثام . ذهابُ الحياء وصفاقةُ الوجه والجسارةُ على القبائح ؛ لأن الحياء هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب للخير ومحق للبركة .

يقول ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» .

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي
ولم تستحي فاصنع ما تشاء
يعيش المرء ما استحيا بخير
ويبقى العود ما بقي اللحاء

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن الحياء يمنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيقولون فلان يستحي أن يأمر بهذا المعروف أو ينهى عن ذلك المنكر ، بل من قلة الحياء ، وهو يسمى الحياء مجازاً وإلا فهو عجز وخور ، وضعف وتقصير ، وتهاون وتخاذل .

إن المرء الحيي هو الذي يدفعه حياؤه إلى رفض القبائح وإنكار المعاصي والغضب حين انتهاك الحرمات ، وأن ينكر ذلك بقدر ما أوتي من قوة إما باليد أو باللسان أو بالقلب ، وإذا كان المصطفى أشد حياء من العذراء في خدرها فهو نفسه الذي إذا انتهكت محارم الله احمر وجهه وعلا صوته واشتد غضبه ولم يقف له شيء .

وإن المؤمن إذا علم معية الله تعالى له وانه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم خلجات الأنفس وخواطر الأذهان ، وأنه : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ ، إن المؤمن إذا عرف هذه الحقيقة وانغرست في وجدانه وحفرت في فؤاده فإن ذلك من أعظم البواعث له على أن يذوب خجلاً ويفيض حياءً من اطلاع المولى عليه ومن معيته له : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وهذا هو الإحسان الذي عرفه النبي ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ويقول ﷺ : « إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء » .

ويقول ﷺ : « الحياء والإيمان قرنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

ولقد كان ﷺ حيياً عفيفاً متعففاً ، وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها .

وقد أخبر ﷺ عن موسى – عليه السلام – بقوله : « إن موسى كان حييًّا ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً من الله » .

ولقد كان أبو بكرٍ – رضي الله عنه – ينادي في الناس داعياً لهم إلى الحياء من الله جل وعلا فيقول : « يا معشر المسلمين استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعاً بثوبي استحياءً من ربي عز وجل » .

أما عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقد كان ينادي في الناس قائلاً : « من قلّ حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » .

أما عثمان – رضي **الله** عنه – فقد أخبر ﷺ أن الملائكة تستحيي منه وحياء الملائكة من عثمان لشدة حياءه من ربه ومراقبته لخالقه ، فقد كان لا يجرؤ على الاغتسال قائماً حياءً من **الله** . هذا يستحي من نزع ملابسه في حلال ، بل قد يكون لواجب ، وأناس يخلعون أثوابهم وينزعون ملابسهم على الحرام والخنا والفحش والخور في منتهى الجرأة وقمة الصفاقة ، دون حياءٍ من الرقيب أو خجل من الحسيب .

قيل لعمر بن عبد العزيز – رحمه **الله** – : إن الحياء من الدين ، قال : بل هو الدين كله .

ويروي أحد السلف الصالح قصة طريفة فيقول : « خرجنا في ليلة مخوفة فمررنا بمكان فيه رجل نائم وقَيَّد فرسه فهي تركل عند رأسه فايقظناه فقلنا له : تنام في مثل هذا المكان؟ قال فرفع رأسه فقال : إني أستحي من ذي العرش أن يعلم أني أخاف أحداً دونه ثم وضع رأسه فنام.

الإنسان الذي يستحي من **الله** : مَن إذا خلا بما يُحبُّ من المُحرّم وقدر عليه وذاب عطشاً إليه ؛ نظر إلى نظر الحق إليه ، فاستحى من إجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش ، أما الذي لا يستحي من **الله** ولا يدع إلا مالا يهواه ، فلسان الحال ينادي:

كأنك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهي ، أو بما لا تَصْدُق الشهوةُ فيه ، أو ما لا تقدر عليه ! .

كذا **والله** عادتك ، إذا تصدقت أعطيت كسرة لا تصلح لك ، أو في جماعة يمدحونك .

هيهات ، **والله** لا نلت ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة ،

تبذل أطايبك ، وتترك مشتهياتك ، وتصبر على مكروهاتك ، وتراقبنا في خلواتك ، وتعلم أننا نعلم خفيّاتك .

يذكر ابن القيم - رحمه الله - أن الحياء عشرة أوجه : حياء جناية ، وحياء تقصير ، وحياء إجلال ، وحياء كرم ، وحياء حشمة ، وحياء استحقار النفس (استصغارها) ، وحياء محبة ، وحياء عبودية ، وحياء شرف وعزة ، وحياء المستحيي من نفسه .

١ - فأما حياء الجناية : فمنه حياء آدم - عليه السلام - لما فر هارباً من الجنة قال الله تعالى : « أفراراً مني يا آدم؟ » قال : لا يا رب . بل حياءً منك .

٢ - وحياء التقصير : كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

٣ - وحياء الإجلال : وهو حياء المعرفة ، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه .

٤ - وحياء الكرم : كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ، وطولوا الجلوس عنده ، فقام واستحيا أن يقول لهم : انصرفوا .

٥ - وحياء الحشمة : كحياء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه .

٦ - وحياء الاستحقار ، واستصغار النفس : كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه ، احتقاراً لشأن نفسه ، واستصغاراً لها . وقد يكون لهذا النوع سببان :

أحدهما : استحقار السائل نفسه . واستعظام ذنوبه وخطاياه .

الثاني : استعظام مسئوله (وهو المولى عز وجل) .

٧ – وأما حياء المحبة : فهو حياء المحب من محبوبه ، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه ، وأحس به في وجهه ولا يدري ما سببه .

وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجاته له روعة شديدة ومنه قولهم « جمال رائع » وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس . فإذا فاجأ المحبوب محبوبه ، ورآه بغتةً ، أحس القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف .

٨ – وأما حياء العبودية : فهو حياء ممتزج من محبة وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، وأن قدره أعلى وأجل منها . فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة .

٩ – وأما حياء الشرف والعزة : فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان . فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة .

١٠ – وأما حياء المرء من نفسه : فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص ، وقناعتها بالدون . فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين ، يستحيي بإحداهما من الأخرى ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء . فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر .

* تعظيم حرمات الله *

الله جل جلاله هو العلي العظيم ، فالعظمة صفة من صفاته ، وآية من آياته ، وتعظيمه تعالى بتبجيله وإجلاله ، ونحن ننحني إجلالاً له في كل ركعة نركعها ، وأمرنا بأن نعظمه في هذا الركوع «أما الركوع فعظموا فيه الرب» ، ونردد في إخبات وخشوع ، وتذلل وخضوع : سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي العظيم .

وتعظيم **الله** تعالى يقتضي تعظيم حرماته ، وهي كل ما يجب احترامه وحفظه وصيانته ورعايته ، وتشمل جميع ما أوصى **الله** بتعظيمه وأمر بأدائه ، وتعظيم حرماته هو العلم بوجوبها والإقرار بها والقيام بحقوقها .

وإن رضى الإنسان عن ربه ورضاه بما اختاره له هو من تعظيم **الله** وتعظيم حرمات **الله** ، قال تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول **الله** أرأيت إذا صليت المكتوبة . وحرمت الحرام . وأحللت الحلال أأدخل الجنة؟ فقال النبي ﷺ : «نعم» .

ويقول ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن

كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى **الله** في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

إن المؤمن الحق هو الذي يعظم حرمات **الله** ويستشعر هيبته ويذعن لجلاله ، ويقدّر غيرته تعالى على حرماته ، يقول ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ **فوالله** لأنا أغير منه **والله** أغير مني ، من أجل غيرة **الله** حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من **الله** » .

إن التهاون بالذنب والمجاهرة بالمعصية والمسارعة للخطيئة ، ليست من سمات المؤمن الحق ، وليست من صفات من يعظم **الله** ويعظم حرمات **الله** يقول ابن مسعود – رضي **الله** عنه – : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به (وأشار بيد) هكذا » .

ويقول ابن عباس – رضي **الله** عنه – : « يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته ، ولَمَا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته : قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لا تدري ما **الله** صانع بك أعظم من الذنب ، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب ، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب

فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته » .

ويقول بلال بن سعد – رحمه الله – : « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظم من عصيت » .

ومن تعظيم حرمات الله تعالى تعظيم كتابه الكريم ، فإن تعظيم كلام الله تعظيم لله ، قال النووي – رحمه الله – : « أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته » .

وقال القاضي عياض – رحمه الله – : « من استخف بالقرآن أو بالمصحف أو بشيء منه فهو كافر بإجماع المسلمين » .

وللمعظمين لكتاب الله تعالى قصص عظمى ، ومواقف تروى ، فقد كانوا يمتثلون أمره، ويحتكمون إليه ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ، ومن أطرف القصص في هذا المضمار : في إحدى غزوات النبي ﷺ قام رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار بالحراسة ليلاً ، فاضطجع المهاجري وقام الأنصاري يصلي فجاء رجل من العدو فلما رأى الأنصاري رماه بسهم فأصابه ، فنزعه الأنصاري حتى رماه بثلاثة أسهم ، ثم ركع وسجد ، فانتبه صاحبه وهرب الرجل ، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال : سبحان الله ألا أنبهتني أول ما رمى : قال كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها .

أما الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – فقد كان ذات يوم يصلي فلسعه الزنبور سبع عشر مرة فلما قضى صلاته قال : انظروا أي شيء هذا الذي آذاني في صلاتي ، فنظروا فإذا الزنبور قد ورمه في سبعة عشر موضعاً

ولم يقطع صلاته . وقال مرة : كنت في آية فاحببت أن أتمها .

إن تعظيم كلام **الله** تعالى ليس بتجويد قراءته فقط وإقامه حروفه ، وليس بتزيينه وتفخيم طباعته وكتابته ، وليس بتعليقه على جدران البيوت وليس بجعله افتتاحاً واختتاماً للمؤتمرات والمنتديات ، وليس بقراءته على الأموات ، بل بإقامة حروفه وحدوده ، والاحتكام إليه ، والعمل به ، وتعظيم شانه ، والسير على منهاجه ، ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ .

ومن تعظيم حرمات **الله** تعالى : تعظيم نبيه ﷺ وتقديم أمره ونهيه على أي كائن كان من المخلوقين ، والرضى بدينه والاتباع لسنته والذب عن شريعته ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ ، ولا يؤمن أحد حتى يكون النبي ﷺ أحب إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين .

ومن تعظيم حرمات **الله** تعالى تعظيم حرمة المؤمن واحترام حقوقه وعدم النيل من كرامته والتعدي عليه ، يقول ﷺ في حجة الوداع : « .. فإن **الله** تبارك وتعالى قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» ، ويقول عبد **الله** بن عمر - رضي **الله** عنهما - يوماً بعد ما نظر إلى الكعبة : «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمنون عند **الله** أعظمُ حرمةً منك» .

ومن تعظيم حرمات **الله** تعالى تعظيم المقدسات الإسلامية وتعظيم الشعائر الدينية ، تعظيم المسجد الحرام ومعرفة مكانته ومنزلته ، وأنه أشرف البقاع على وجه الأرض ، وأن الذنوب فيه أشد حرمة وأعظم مكاناً من غيره

ويجب تعظيم شعائر الله جل وعلا : **﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾** ، وتعظيم مسجد رسول الله ﷺ ، والأدب مع صاحبه وعدم رفع الصوت على سنته أو تقديم قول أحد من البشر على قوله .

وتعظيم المسجد الأقصى والسعي في إنقاذه من أيدي أعداء الله ، ولو لم يملك الإنسان إلا الدعاء الصادق واللجوء إلى الله تعالى دائماً وأبداً بأن يفك أسره من أعداء الدين وقتلة الأنبياء ، وأن يكون في قلبه متألماً متحسراً لما هو عليه من تسلط أعداء الله .

لقد كان صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله – في مجلس من المجالس ودارت بعض أحاديث الأنس وضحك القوم وهو لا يضحك ، فقالوا له : مالك لا تضحك أيها القائد العظيم ، فقال : إني استحيي من الله أن يراني ضاحكاً والمسجد الأقصى بأيدي الصليبيين .

ومن تعظيم حرمات الله تعظيم جميع بيوت الله جل وعلا ، ومعرفة مكانتها والسعي في عمارتها ، وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ، والمحافظة على الصلاة فيها ورفعها عن الدنس والشرك ، قال تعالى : **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾** .

وقال تعالى محذراً من انتهاك حرمات المساجد أو التعدي على إقامة ذكر الله فيها ونشر نور الهداية من على منابرها : **﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها**

إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

إن تعظيم حرمات الله تعالى واحترام أوامره وامتثالها ومعرفة نواهيه واجتنابها ، لهو طريق إلى الفلاح ، وسبيل للنجاح ، ودليل على الإيمان ، وبرهان على الإحسان ، وسبب للغفران .

* الغيرة لله *

قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

الغيرة حرقة في القلب ، وهزّة في الوجدان ، وتفتت في الأكباد ، وتمزّق للفؤاد ، وتبدد للأحشاء ، وألم للفكر ، وشغل للعقل ، وسهر للعين ، وغصة للمحب ، وقلق للغيور .

إنها امتلاء القلب بالحميّة ، وفيضان الفكر بالأنفة .

الغيرة سمة القلوب المحبة ، والضمائر المتوقدة ، والأنفس الصادقة ، إن لم يغر المحب لمحبوبه وعليه فليس بصادق في حب يدعيه ، إن المرء إذا أحب شيئاً من زينة الدنيا وصدق في حبه فإنه يمتلىء غيرة عليه ، وحرصاً عليه ، واهتماماً به ، ودفاعاً عنه ، وذبّاً عن جنابه ، فكيف بمن يدعي محبة الواحد الأحد .

والدعاوى ما لم يقيموا عليها
بينات أصحابها أدعياء

البيّنة الصادقة على حب الله أن تغار إذا انتهكت حرماته ، وتغضب إذا نيل من شريعته ، وتثور إذا انتُقص منهاجه ، أو حورب كتابه ، أو عودي

دعاته ، يجب أن تتفجر براكين الغيرة في قلبك إذا استهين بالدين ، وأُعلن المنكر ، ورؤيت الفواحش ، يجب أن تعلن الرفض ، وتصدع بالإنكار ، وتبادر بالمواجهة على حسب تعليمات الدين ، وتوجيهات المصطفى ﷺ ، باليد إن استطعت فإن لم تستطع فباللسان ، فإن لم تستطع فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان .

إن القلب الذي يرى محارم **الله** تنتهك ثم لا يغضب ولا يثور ولا ينفعل لهو قلب ميت ، ووجدان مريض ، وضمير متهالك ، وشيطان أخرس إنه قلب طمست غيرته ، وذهبت بصيرته ، وانطفأ نوره . ثم إن بعض الناس إذا اعْتُدِي على حقوقه الشخصية أو نيل من مطالبه الذاتيه ، غار وثار ، وانتفض وانتفش ، وأقام دولة الغضب ، وشيد صروح الغيرة ، أما **لله** فلا ، وأما على حرمات **الله** فلا ، وهذا هو عكس حال المصطفى ﷺ فهو الغيور لربه ، المناضل عن شرعه ، الغاضب لأجله ، لم ينتقم لنفسه قط ، ولكن إذا انتهكت حرمات **الله** (لم يقم لغضبه شيء) ينفعل وجدانه ، ويرجف فؤاده ، ويحمر وجهه ، وتنتفخ أوداجه ، وكأنه منذر قوم يقول صَبَّحكم ومَسَّاكم .

إن الغيرة صفة من صفات الباري ، وسمة من سمات العظيم ، وقد أخبر بذلك الرسول الكريم حيث يقول : « ما أحد أغير من **الله** ، ومن غيرته : حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، وإنه جل وعلا يحب لعباده أن يتصفوا بهذه الصفة ، ويتحلّوا بهذا الخلق .

يقول ﷺ : « إن **الله** يغار وإن المؤمن يغار وغيرة **الله** أن يأتي العبد ما حرّم عليه » .

ويقول ﷺ : «أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني» .

الغيرة نوعان : غيرة من الشيء وغيرة على الشيء .

فالغيرة من الشيء : هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك .

والغيرة على الشيء : هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك أو يشاركك في الفوز به .

أما الغيرة الإيمانية الربانية فهي نوعان أيضاً : غيرة الله تعالى على عبده ، وغيرة العبد لربه .

فغيرة الله تعالى على عبده هي أنه لا يريد منه أن يتجه إلى سواه ، أو يوجه شيئاً من العبودية لغيره ، بل يريده له سبحانه خالصاً من كل شائبة ، فإذا أشرك معه غيره تركه وشركه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، فهو لا يقبل في عبده مشاركاً ، ولا في محبته منافساً . ولا يقال : أنا أغار على الله ، ولكن يقال : أنا أغار لله . ومن طريف ما يرويه بعض العلماء أن الله تعالى حينما اتخذ إبراهيم – عليه السلام – خليلاً سأل إبراهيم ربه الذرية فأعطاه الله تعالى إسماعيل ، فتعلقت به شعبة من قلب إبراهيم . والخلّة منصب لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره . فأمره بذبح الولد . ليخرج المزاحم من قلبه . فلما وطّن نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزماً جازماً : حصل مقصود الأمر ، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبح العظيم ، وقيل له : ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ نجزي من

بادر إلى طاعتنا ، فيُقرُّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه ، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته . فيتم عليه نعمه ، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً .

يقول بعض العارفين : احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده غيره .

أما غيرة العبد لربه ، فهي أن يغضب لمحارمه إذا انتهكت ، ولشعائره إذا انتقصت ، ولحقوقه إذا نيل منها ، وإن لم توجد هذه الغيرة في العبد فإيمانه مدخول ، وحبه معلول ، وفعله مرذول ، ومما يروى أن الله تعالى أمر جبريل أن يدمّر قرية من القرى ، فقال : يا رب إن فيها عبدك الصالح فلاناً ، فقال تعالى : «به فابدأ فإنه لم يتمعّر وجهه مرّةً من أجلي» .

فواعجباً من قلوب ألفت رؤية المنكرات ، وتعودت على مظاهر الخنا ومناظر الفحش ، فلم تعد تجد لها جفوة ، أو تحس منها برعدة ، أو تتخذ منها موقفاً .

لقد بليت الدنيا في هذا الزمن بمنكرات لا قبل لأهل الخير بها ، ومآثم لا حيلة لهم فيها ، أصبح المرء رغماً عن أنفه لا بد أن يرى أو يسمع أو يقرأ كثيراً مما يخالف الشرع ، ويحارب الرب ، ويناقض الدين . مظاهر مفزعة ، ومناظر مزعجة ، قنوات هابطة ، وأفلام ساقطة ، وشاشات مدمرة ، وإذاعات مزمجرة ، وأفكار محيرة ، شهوات تباع ، وجنس يذاع ، قلاع للفضائح ، وأوكار للقبائح ، ومعارض للرذائل ، وحروب على الفضائل ، نسأل الله العلي العظيم أن يحمي بلاد المسلمين ، وأن يحفظها من كيد الأعداء ومكر ذوي المكر .

تبجّحتْ معظم الشاشات معلنة
حرباً ضروساً على الآداب والطُّهُرِ
سحائب الكفر والإلحاد ممطرةٌ
على رؤوس البرايا أسوء المطرِ
فضائح بأنف الإنسان رؤيتها
تدنوا بأربابها عن مستوى البقرِ
أين الحياء من الجبار يا أمماً
غاصت بأقدامها في أقذر القذرِ
أين الحضارة يامن تدّعون بها
تَقَدُّماً بل هَوَيْتم أنتن الحفرِ
إن الحضارة سُسْنا أمرها زمناً
فازّينت بنقاء الفِكْر والفِكَرِ
أجدادُنا أسعدوا الدنيا بروعتهم
وطُهْرِ آثارهم عن كل مُحتقرِ
حضارة بالهدى والعدل عابقةٌ
تَفَيّأ الناس في منهاجها العَطِرِ
أين الحميّة يا أرباب أُمّتنا
أين التَّمَعُّر إجلالاً لمقتدرِ
إن التّقيُّ الذي في قلبه وجل
يقضي الليالي بين الهمّ والسهرِ
اليس من غضبةٍ لله صادقةٍ
جبارةٍ ضد أهل الحيف والضررِ

دسائس المكر حاكوها لأمتنا
لكي يبثوا الخنا والذل والخورِ
إذا تدنَّتْ رؤوس الكفر جاهدة
لجرٌّ أجيالنا للمنبع العكرِ
هُبُّو لهم يا ذوي الألباب وانتصروا
لله وارمو دعاة السوء بالشررِ
وإننا يا ولاة الأمر في ثقة
فيكم فكونوا لها من خير منتصرِ
وامضوا على سنة الهادي وغيرته
لله ولتقتدوا بالموقف العُمَري
إني أناجي الذي ما خاب سائله
بحِفْظِكُمْ من صروف الدهر والغِيَرِ

وإن العاقل الذي يتأمل ما وصلت إليه البشرية اليوم من انتهاك فاضح ، واعتداء صارخ ، ومجاهرة سافرة ليحترق أسى ، ويذوب حياء ، ويكتوي لوعةً ، ويلتهب حرقة ، ويرتعد خوفاً ، ويرتجف فرقاً ، حق للقلوب المؤمنة أن تنقطع ألماً ، وآن للأنفس الطاهرة أن تتمزق ندماً ، وحان للأعين الصادقة أن تبكي دماً ، فكيف يهنأ المؤمن زاداً ، وكيف يسيغ شراباً ، ويتبسم ضاحكاً ويمضي سالياً ، ويعيش هانئاً ، وينام قريراً وهو يرى ما يُمِضّ الأجسام ، ويمزق الأفئدة ، ويبدد القلوب من اعتداء على الحرمات ، وانغماس في الشهوات ، وتحدٍّ لرب الأرض والسماوات ، ومجاهرة بالقبائح ، وإعلان بالفضائح؟ لقد كان ﷺ يغضب غضباً شديداً إذا انتهكت حرمة من حرمات الله ، فكيف ظنك به لو اطلع على هذا الانتهاك المرير ، والاعتداء

الخطير الذي لم تعد تراعى فيه حرمة ، أو يحترم شرع ، أو يُستحى من رب – إلا من رحم **الله** – ، ومع كل تلك المظاهر فإن الخير موجود ، والفرقة الناجية موجودة ، وأولياء الرحمن كُثر .

وقف ﷺ خطيباً في الناس فقال : «والله يا أمة محمد ما أحد أغير من **الله** أن يزني عبده أو تزني أمته» .

فكيف إذا فشا الزنا ، وظهرت الفواحش ، وأذيعت المنكرات ، ونودي على انتهاك الحرمات في وضح النهار ، وعلى مسمع الناس ، ومرأى البشرية ، إنها علامة من علامات الساعة ودمار الديار ، وخراب البلاد ، وانطماس البصائر .

بيارق العار باتت تفضح الأدبا
على منازلهم تستمطر الغضبا
على منازلهم كالجن شاخصة
إلى السماء تبث العار والعطبا
كانت أكف التقى **لله** ضارعة
تدعو ترجو وكان الدمع منسكبا
واليوم يرفع أفواه الدشوش له
وينثني يلثم الفحشاء والصخبا

وطالما في القلب غيرة ، وفي الفؤاد حمية ، وفي النفس تمزّق ، وفي الوجه تمعُّر ، فالأمر أهون ، والمسألة أخف ، والخطب أيسر ، ولكن الكارثة العظمى ، والفادحة الجلّى أن بعض المسلمين تعوّد على ذلك حتى ألفه ، وتأقلم لتلك الأجواء حتى استمرأها ، وهنا مكمن الخطر ، وموطن الحذر ،

فلنتعهد أشجار الغيرة في نفوسنا ، ولنَسْقِ ثمار الحميّة في قلوبنا ، ولنشيد قلاع الغضب لحرمات الله في ضمائرنا ، يجب أن يمتزج ماء الغيرة بدمائنا ، ويختلط عبير الحمية بأنفاسنا ، ولنتذكر دائماً أمر الحبيب الغيور لنا بقوله : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذنّ على يد السفيه ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليوشك أن يعمكم الله بعقاب فتدعونه فلا يستجاب لكم» .

قال تعالى في سورة المائدة : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ .

ومن طريف ما يذكر في الغيرة لله أن بعض العلماء أورد في الحديث عن الغيرة قوله تعالى حاكياً عن نبيه سليمان - عليه السلام - ﴿ردوها عليّ * فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ ، ووجه استشهاده بالآية : أن سليمان - عليه السلام - كان يحب الخيل . فشغله استحسانها والنظر إليها - لما عُرضت عليه - عن صلاة النهار ، حتى توارت الشمس بالحجاب . فلحقته الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها ، والنظر إليها عن خدمة مولاه والقيام بحقه . فقال : ﴿ردوها عليّ﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله .

فكم في حياتنا من ملهيات عن طاعة الله ، وصوارف عن عبادة الله ، وشواغل عن ذكر الله ، فالجأ لربك يا عبد الله ، وليخشع له قلبك ، ولْتَثُر له حميتك ، ولْتعظُم لحرماته غيرتك ، ولا تتبع سبيل الخائنين ، ولا يغرنك بريق دعوات الخاسرين ،ولا تكن كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم

الأمد فقست قلوبهم ، وفسدت نواياهم ، وخربت نفوسهم ، وفسقت أعمالهم ، فباؤوا بالغضب ، وخرجوا بالسخط ، وحلت عليهم اللعنة ، وكان عاقبة أمرهم خسراً ، وأخزاهم الله في الأولى والأخرى ، **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾** ، **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾** .

* اسجد واقترب *

يعلم خفيات الأمور ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، تصمد له الكائنات وتسجد له المخلوقات ، ويسبح له ما في الأرض والسماوات **﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾** .

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس﴾ .

سبحان من لو سجدنا بالعيون له
على حمى الشوك والمحمي من الإبر
لم نبلغ العُشْر من معشار نعمته
ولا العشير ولا عُشْراً من العُشُر
هو الرفيعُ فلا الأبصارُ تدركه
سبحانه من مليك نافذ القدر

سبحان من هو أنسي إن خلوت به
في جوف ليلي وفي الظلماء والسحر
أنت العظيم وأنت الحب يا أملي
من لي سواك ومن أرجوه يا ذُخري

الله .. ﴿يسجد له ما في السموات وما في الأرض﴾ ، فالسجود له أعظم دلائل الإجلال ، وتمريغ الوجه في التراب أقصى علامات التذلل للوهاب .

فهو أقصى درجات العبودية ، وأجل مظاهر التذلل ، وأصدق دلائل الإذعان ، وأجمل رسائل الحب ، وأعذب مناظر الخشوع ، وأفضل أثواب الافتقار .

وهو انطراح للجبار ، وتذلل للقهار ، وتمريغ للأنف ، وتعفيرٌ للوجه وتزلف للمحبوب ، وانطلاق من أسر الدنيا ، وهروب من قيود الطاغوت وتجرد من أوسمة العظمة ، وتخلٍّ عن رتب الفخامة ، وألقاب الزعامة ، ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ ، يسجد الملك والمملوك ، والغني والفقير ، والسيد والمسود ، والرجل والمرأة ، كلهم سواءٌ في فقرهم إلى الكريم ، وذلهم للعظيم .

والسجود رسالةٌ معبرة لكل ملوك الأرض ، وكل عظماء الدنيا أن التذلل الحق ، والخشوع الحق ، للملك الحق ، للواحد القهار ، للكبير المتعال لمن بيده مقاليد السموات والأرض .

إن السجود بمظهره الخاشع ، ومنظره المخبت يثير في النفس أن العظمة

لله ، والكبرياء لله ، والاستعلاء لله ، والقوة لله ، والجبروت لله ، والملك لله ، والعبودية لله ، فهو انحناء لعظمته ، وافتقار لجوده ، وارتماء على أعتابه ، واعتراف بفضله ، وإقرار بنعمه ، واستسلام لجلاله .

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم
وكان بكل الخلق يلهو ويمرحُ
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فلست أراه عن فنائك يبرحُ
فلا تحرمن النفس من فيض جودكم
فلست أرى قلبي لغيرك يصلحُ

بقدر سجودك لله بقدر رفعتك عند الله ، فالسجود لغيره ذلة واتضاع والسجود له عزة وارتفاع .

« عليك بكثرة السجود لله ، فإنه لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك خطيئة » .

و « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

إذا سجد الإنسان فك سلاسل التقليد من الأعراف والعادات ، فخرّ ساجداً يمرغ جبينه لله تعالى ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلى مرجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، واشتعلت حرقات الفؤاد ، إنها السجدة التي يرتعد لها القلب ، وترتعش لها الجبال الراسيات ، وتهتز بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة والطغاة .

كن مع الله ، وابتغ الله وحده
ليس إلاه في العوالم عُدَّهْ
واجعل الله خفق قلبك حمداً
ورجاءً .. وخشيةً ومودَّه
كابد الوجد بالذي لا تراهُ
واجعل القرب من إلهك سجده
هو نور السماء والأرض فاقبس
منه ، واقدح به لروحك زنده
وتنفّس بذكره ، وتلبّثْ
لتجليه ، مُدّةً إثر مُدّه ..

«للعبد بين يدي الله موقفان : موقف بين يديه في الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لقائه . فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر ، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف قال تعالى : ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا * إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا﴾» .

* الاعتصام بالله *

الاعتصام بالله عصمة للقلب ، وملاذ للنفس ، وطمأنينة للفؤاد ، إذا كثرت بك الهموم ، وحلّت عليك الغموم ، فاعتصم بالحي القيوم ، إذا اشتدت بك الكروب ، وأظلمت أمامك الدروب فاعتصم بعلام الغيوب ، إذا

كثرت البدع ، وظهر الشقاق ، وانتقش النفاق ، فاعتصم بحبل الخلاق ، فليس لك من دونه من واق

الاعتصام : الاستمساك بالشيء ، وأصل العصمة : الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، وأعصم الرجل بصاحبه إعصاماً إذا لزمه ولاذبه .

ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أحفظ ولا أسلم للمؤمن من الاعتصام بالواحد الأحد جل وعلا ، فهل يُهزم من اعتصم بجنابه؟ ، وهل يخاف من لجأ إلى محرابه؟ ، وهل يحرم من انطرح على أعتابه؟ .

إن الاعتصام به جل وعلا حفظ للمرء ، وصيانة للنفس ، وحماية للدين ، وأمن من المخاوف ، وضمان من المخاطر ، ونجاة من المهالك ، ونصرة على الأعداء ، وحرز من الألداء .

الاعتصام **بالله** تعالى نوعان : اعتصام **بالله**، واعتصام بحبل **الله**.

قال تعالى : ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ .

وقال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ .

ومدار السعادة وآية الفلاح وطريق النجاة في الدنيا والآخرة هو في الاعتصام **بالله** والاعتصام بحبله .

والاعتصام بحبله يعصم من الضلال ، ويحفظ من الهلاك ، وحبل **الله** هو كتابه الكريم ، ودينه القويم ، وعهده المتين .

والاعتصام **بالله** تعالى هو : التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به واللجوء إليه ، فيورث ذلك حفظ العبد ودخوله في رحمة **الله** وحماية **الله**

له من أسباب الشر ، وكيد الأعداء ، ومكر الشيطان ، وشهوات النفس ، ومضلات الفتن .

﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ .

* أفلا يتدبرون القرآن *

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ .

« إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهن . وجعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل . وقدر اختلاف الليل والنهار .. هذه الظواهر البارزة تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعي المدرك .. إن الله الذي خلق هذا ودبره هو الذي يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه .. أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التي يعلكها الذهن باردة جافة ، ولا تدفىء القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟! .

إن هذا الكون الهائل . سماواته وأرضه . شمسه وقمره . ليله ونهاره . وما في السماوات والأرض من خلق ، ومن أمم ومن سنن ؛ ومن نبات ومن طير ومن حيوان ، كلها تجري على تلك السنن ..

إن هذا الليل الطامي السادل الشامل ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح . هذا الفجر المتفتح في سدف الليل كابتسامة الوليد الراضي . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحياء . وهذه الظلال السارية يحسبها الرائي ساكنة وهي تدب في لطف . وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال . وهذا النبت النامي المتطلع أبداً إلى النمو والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة في تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام التي تدفع والقبور التي تبلع ، والحياة ماضية في طريقها كما شاء **الله** ..

إن هذا الحشد من الصور والظلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والرواح والذهاب ، والبلى والتجدد ، والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تني ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار ..

إن هذا كله ليستجيش كل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر ، حين يستيقظ القلب ، ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة في ظواهر الكون وحناياه .. والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات .

﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض؟** ﴾ .. من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض. وهو أوسع من ذلك بكثير . وما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن

رزق بعد رزق في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ويستخدمونه أحياناً في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتل . وكله من رزق الله المسخر للإنسان . فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق . ومن سطح الماء أرزاق ومن أعماقه أرزاق . ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق ! .

﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ .. يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره .. ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والبصر ، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات ، لعالم وحده يدير الرؤوس ، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث! وإن كان الناس يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان ، لا يقاس في شيء إلى صنع الله . بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون! .

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟ ﴾ .. وكانوا يعدون الساكن هو الميت ، والنامي أو المتحرك هو الحي . فكان مدلول السؤال عندهم مشهوداً في خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ .. إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو في ذاته عجيب حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة

وأمثالهما ليست في الموتى بل في الأحياء ؛ بما فيها من حياة كامنة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشياتها لأعجب العجب الذي تصنعه قدرة الله ..

وإن وقفة أمام الحبة والنواة ، تخرج منهما النبتة والنخلة ، أو أمام البيضة والبويضة منهما الفرخ والإنسان ، لكافية لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش ! .

وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة ؟ وأين كان يكمن العود؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق؟ وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء؟ والساق السامقة والعراجين والألياف؟ وأين كان يكمن الطعم والنكهة واللون والرائحة ، والبلح والتمر ، والرطب والبسر .. ؟ .

وأين في البيضة كان الفرخ؟ وأين يكمن كان العظم واللحم ، والزغب والريش ، واللون والشيات ، والرفرفة والأصوات .. ؟ .

وأين في البويضة كان الكائن البشري العجيب ؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وارثات موغلة في الماضي متشعبة المنابع والنواحي ؟ أين كانت نبرات الصوت ، ونظرات العين ، ولفتات الجيد ، واستعدادات الأعصاب ، ووارثات الجنس والعائلة والوالدين؟ وأين وأين كانت تكمن الصفات والسمات والشيات؟ .

وهل يكفي أن نقول : إن هذا العالم المترامي الأطرف كان كامناً في النبتة والنواة وفي البيضة والبويضة ، لينقضي العجب العاجب الذي لا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله وتدبير الله ؟ .

وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي ، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة ! .

﴿ومن يدبر الأمر؟﴾ .. في هذا الذي ذكر كله وفي سواه من شؤون الكون وشؤون البشر؟ من يدبر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هذه الحياة فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر ، والتي لا تخطىء مرة ولا تحيد؟ ومن .. ومن؟ .

﴿فسيقولون الله﴾ .. فهم لم يكونوا ينكرون وجود **الله** ، أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك **بالله** ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها **الله** .

﴿فقل أفلا تتقون؟﴾ .. أفلا تخشون **الله** الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذي يدبر الأمر كله في هذا وفي سواه؟ إن الذي يملك هذا كله لهو **الله** ، وهو الرب الحق دون سواه .

﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ .. والحق واحد لا يتعدد ، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل ، وقد ضل التقدير .

﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ .. وكيف توجهون بعيداً عن الحق وهو واضح بين تراه العيون؟ » [ظلال القرآن] .

* هداية الخلق *

الله .. ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ .

قال ابن القيم - رحمه الله - : فإعطاء الخلق : إيجاده في الخارج ، والهداية : التعليم والدلالة على سبيل بقائه ، وما يحفظه ويقيمه . فإن هداية **الله** شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه ، وطيره ودوابه ، فصيحه وأعجمه . والهداية إلى التقام الجنين ثدي أمه عند خروجه من بطنها ، والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حيث يتبعها أينما ذهبت ، والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه ، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان ، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ، ثم عودتها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم .

عجائب النحل :

يقول ابن القيم - رحمه **الله** - : (وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب ، وذلك أن لها أميراً ومدبراً وهو اليعسوب ، وهو أكبر

جسماً من جميع النحل ، وأحسن لوناً وشكلاً . وإناث النحل تلد في إقبال الربيع ، وأكثر أولادها يكون إناثاً ، وإذا وقع فيها ذكرٌ لم تدعه بينها ، بل إما أن تطرده وإما أن تقتله ، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك ، وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب . ثم تجمع الامهات وفراخها عند الملك فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصر الطرق وأقربها ، فتجتني منها كفايتها فيرجع بها الملك ، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها ولم يدع ذكراً ولا نحلة غريبة تدخلها ، فإذا تكامل دخولها دخل بعدها ووجدت النحل مقاعدها وأماكنها ، فيبتدىء الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه ، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه ، ويترك الملك العمل ويجلس ناحية حيث يشاهد النحل ، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والانوار ، ثم تقتسم النحل فرقاً فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب ، وهم حاشية الملك من الذكورة ، ومنها فرقة تهيء الشمع وتصنعه ، والشمع هو ثقل العسل ، وفيه حلاوة كحلاوة التين ، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل ، فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه من أبوالها وغيرها ، وفرقة تبني البيوت ، وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها ، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل ، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهم بقية العمل وتعديهن ببطالتها ومهانتها .

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته ، فيبنى له بيتاً مربعاً يشبه السرير والتخت ، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه ، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك

طعاماً للملك وخواصه ، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية وكأنها سكك ومحال ، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع كأنها قرأت كتاب إقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ، لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة . والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى ، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ، ويشد بعضه بعضاً حتى يصير طبقاً واحداً محكماً لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر ، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله ، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين :

إحداهما : أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً .

والثانية : أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض امتلأت العرصة منها فلا يبقى منها شيء ضائعاً . ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة ، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلىء العرصة منها بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة . وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين ، فهداها سبحانه إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه . وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلآت الكبيرة فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها إلى قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها ولا تضل عنها ، وأن تجتني أطيب ما في المرعى والطفه ، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها : ﴿ **شراب مختلف ألوانه فيه شفاء**

للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبالاً فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطاناً وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة ، تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجاً ، ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى ، فإذا امتلات تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتاً ، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى ، فإذا برد الهواء وأخلف المرعى حيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها وتغذت بما ادخرته من العسل . وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل ، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها ، فإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعها أعوان ، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها ، فإن وجد منها رائحة منكرة أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة أخرى ، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قده نصفين ، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية ، هذا دأب البواب كل عشية . وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً إذا اشتهى التنزه ، فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه .

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها ويتبعه جميع النحل وتبقى الخلية خالية ، فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل

ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه ، فيتعرف موضعه الذي صار إليه النحل فيعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً ، وهو إذا خرج غضباً جلس على مكان مرتفع من الشجرة وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ويدنيه إلى محل الملك ، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شي من آلات الطرب فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك ، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث وتبعه خدمه وسائر النحل ، فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام .

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ، ولا تدين لطاعتها . والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة ، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا ، وإذا فعلت ذلك جاد العسل ، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم . وبينها وبين العسالة حرب ، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها ، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها ، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاورتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر ، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية . وقد ذكرنا ان الملك لا يخرج إلا في الاحايين ، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان ، وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك اليوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها ، فيخرج ويخرجن

معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه ، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ ، ولا يقتل ملك منها ملكاً آخر ، لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها . وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية وخاف من تفرق النحل بسببهم احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحداً ، ويحبس الباقي عنده في إناء ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم ، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث مرض أو موت أو كان مفسداً فقتلته النحل أخذ من هؤلاء المحبوسين واحداً وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها .

ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزهاً ومعه الامراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ . وفي النحل كِرام عُمَّال لها سعي وهمه ، واجتهاد ، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة ، فالكرام دائماً تطرد الكسالى وتنفيها عن الخلية ولا تسكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها . والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ، ولذلك لا تُلْقي زَبَلَها إلا حين تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة ، وأبكارها وفراخها أحرص وأشد اجتهاداً من الكبار ، وأقل لسعاً وأجود عسلاً ، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار .

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها ، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام ، والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام ، كان أكثر الحيوان أعداءها وكان أعداءها من أقل الحيوان منفعة وبركة ، وهذه سنة الله في خلقه ، وهو العزيز الحكيم) .

يقول كريسي موريستون صاحب كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» : (إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية . وتعد الحجرات الصغيرات للعمال ، والأكبر منها لليعاسيب (ذكور النحل) وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل . والنحلة الملكية تضع بيضاً غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور ، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات . والعاملات اللائي هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلاً مجيء الجيل الجديد ، تهيأ أيضاً لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث ، ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات .

أما الإناث اللائي في حجرات الملكة ، فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتي يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملكات نحل ، وهن وحدهن اللائي ينتجن بيضاً مخصباً . وعملية تكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة ، وبيضاً خاصاً ، كما تتضمن الأثر العجيب الذي يلزم لتغيير الغذاء ، وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف أثر الغذاء! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ، وتبدو ضرورية لوجودها ، ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية ، وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ، ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان في معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة! .

*شوقي ومملكة النحل *

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي يصف حياة النحل وحالته ومملكته :

مملكةٌ مُدبَّره   بامْرأةٍ مُؤمَّرهْ
تحمل في العمال والصـ   ـناع عبْءَ السيطره
فاعجب لعمال يُولُـ   ـون عليهم قيصره
تحكمهم راهبةٌ   ذكارةٌ مُغيره
عاقدةٌ زنارها   عن ساقها مُشَمَّره
تلثَّمت بالأرجـ   ـوان وارتدته مئزره
وارتفعت كأنها   شرارة مُطيَّره
ووقعت لم تختلج   كأنها مُسمَّره
مخلوقة ضعيفة   من خُلُقٍ مُصوَّره
يا ما أقل ملكها   وما أجل خطره
قف سائل النحل   بأيِّ عقل دبَّره؟
يُجبك بالأخلاق وهـ   ـي كالعقول جوهره
تغني قُوى الأخلاق ما   تغني القوى المفكره
ويرفعُ الله بها   من شاء حتى الحشرة
أليس في مملكة النحـ   ـل لقوم تبصره؟
مُلك بناه اهله   بهمَّة ومجدرَه
لو التمست فيه بطـ   ـال اليدين لم تره
تقتلُ أو تنفي الكسا   لى فيه غير مُنذره
تحكم فيه قصره   في قومها موقره
من الرجال وقيو   د حكمهم مُحرره

لا تورث القوم ولو   كانوا البنين البرره
الملك للإناث في الد   ستور لا للذكره
نيّرة تنزل عن   هالتها لنيّره
فهل ترى تخشى الطّما   ع في الرجال والشره
فطالما تلاعبوا   بالمهج المصيّره
وعبروا غفلها   إلى الظهور قنطره
وفي الرجال كرم الضع   ف ولؤم المقدره
وفتنة الرأي وما   وراءها من أثره
أنثى ولكن في جنا   حَيْها لباة مخدره
ذائدة عن حوضها   طاردة من كدّره
تقلدت إبرتها   وادّرعت بالحبره
كأنها تُركيةٌ   قد رابطت بأنقره
كأنها (جاندرك) في   كتيبة مُعسكره
تلقى المغيرَ بالجنو   د الخُشْن المُنَمّره
السابغين شكةً   البالغين جسره
قد نثرتهم جُعبة   ونفضتها مقبره
من يَبنْ ملكا او يذُد   فبالقنا المجوّره
إن الأمور همّةٌ   ليس الأمور ثرثره
ما الملك إلا في ذرى الـ   ألوية المنشّره
عرينُه مُذكان لا   يحميه إلا قسورَه
رب النيوب الزرق والـ   مخالب المذكره
مالكةٌ عاملةٌ   مُصلحةٌ مُعمّره

المال في أتباعها   لا تستبين أثره
لا يعرفون بينهم   أصلاً له من ثمره
لو عرفوه عرفوا   من البلاء أكثره
واتخذوا نقابة   لامرهم مُسيَّره
سُبحان من نزه عنـ   ـه ملكهم وطهره
وساسهُ بحُرَّةٍ   عاملة مُسخَّره
صاعدة في معملٍ   من معمل مُنحدره
واردة دَسكرة   صادرة عن دسكره
باكرة تستنهضُ الـ   ـعصائب المبكِّره
السامعين الطائعيـ   ـن المحسنين المهره
من كل من خط البنا   ء أو أقام أسطُره
أو شد أصل عقده   أو سدَّه أو قوَّره
أو طاف بالماء على   جدرانه المجدَّره
وتذهبُ النحل خفا   فاً وتجيء مُوقره
جوالب الشمع من الـ   ـخمائل المنوَّره
جوالب الماذي من   زهر الرياض الشيره
مشدودة جيوبها   على الجنى مُزرَّره
وكُلِ خرطوم أدا   ةُ العسل المقطرة
وكلُّ أنف قانيء   فيه من الشهد بره
حتى إذا جاءت به   جاست خلال الأدوره
وغيبتهُ كالسلا   ف في الدنان المحضره
فهل رأيت النحل عن   أمانة مقصره؟

مـا اقترضتْ من بقلة أو استعارت زهره
أدّت إلى الناس به سُكْرةً بِسُكْرهْ

التغير : ترديد الصوت بالقراءة . الاختلاج : الاضطراب .الذكرة : الذكور . الطماع : الطمع . اللباة : اللبؤة وهي أنثى الأسد . الشكة : السلاح . المئبرة : بيت الإبر . القسورة : الأسد . الجسرة : الجسارة . الدسكرة : القرية . المجدرة : أي المشيدة . الشيرة : الحسان . البرة : الحلقة في الأنف . الأدورة : الديار يراد بها الخلايا هنا . السلاف : أفضل الخمر . العصائب : جمع عصابة . الماذي : العسل .

عجائب النمل :

يقول ابن القيم – رحمه **الله** – : (وهذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء ، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان ، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت ، فإن كان ينبت مع فلقة باثنتين فلقته بأربعة ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى **الله** إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا

نملة واحدة .

وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال لتنتهن أو يحرقن عليكن ونفعل ونفعل ، قال : فذهبن .

وقال أبو موسى الأشعري : إن لكل شيء سادة ، حتى للنمل سادة. ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بانه فوق سماواته على عرشه .

وروى الإمام أحمد أبي الصديق الناجي قال : خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا ، وإما أن تهلكنا ، فقال : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقد ذكر أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق ، فذهبت وجاءت معها باعوان يحملنه معها، قال : فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها ، قال : فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته ، فطافت فلم تجده فانصرفوا ، قال : فعلت ذلك مراراً فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً .

والنمل من أحرص الحيوان ، ويضرب بحرصه المثل ، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تاكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة ، فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل

معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت ، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة ، فقال : أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات ، فقالت : نعم ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي ، فعجب سليمان من شدة حرصها ، وهذا من أعجب الهداية والعطية .

ومن حرصها أنها تكد طول الصيف وتجمع للشتاء ،علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه . وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها .

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابساً فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة ، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه ، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحملونه ، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه ، فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع ، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها ، وإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً حتى يتساعدوا على حمله ونقله . وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها ، وإن وجدتها شعيراً فلا . ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها .

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل ، إلا أن لها رائداً

يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات . وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحبها .

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء ، أو يتخذ إناءً كبيراً ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه ، فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه . وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد ، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق ، وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان من المحيط) .

يقول كريسي موريسون : (وفي بعض أنواع النمل يأتي العملة منه بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل في فصل الشتاء ، وينشيء النمل ما هو معروف بمخزن الطحن ، وفيه يقوم النمل الذي أوتي أفكاكاً كبيرة مُعدَّة للطحن ، بإعداد الطعام للمستعمرة ، وهذا هو شاغلها الوحيد ، وحين يأتي الخريف ، وتكون الحبوب كلها قد طحنت ، فإذا أعظم خير لأكبر عدد ، يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام ، وما دام الجيل الجديد سينتظم كثيراً من النمل الطحان ، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود من ذي قبل ، ولعلها ترضي ضميرها الحشري بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافي ، إذ كانت له الفرصة الأولى في الإفادة من الغذاء أثناء طحنه! .

وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير – واختر منهما ما يحلو لك – إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن تسميته بحدائق الأعشاش ،

وتصيد أنواعاً معينة من الدود والأرق أو اليرق ، وهي حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية ، فهذه المخلوقات هي بقر النمل وعنزاتها! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاماً له .

والنمل يأسر طوائف منه ويسْتَرِقُّها ، وبعض النمل حين يصنع أعشاشه يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب ، وبينما يضع بعض عملة النمل الأطراف في مكانها ، تستخدم صغارها - التي وهي في الدور اليرقي تقدر أن تغزل الحرير - لحياكتها معاً! وربما حُرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه ، ولكنه قد خدم الجماعة! ، فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة أن تقوم بهذه العمليات المعقدة؟ لا شك أن هناك خالقاً أرشدها إلى كل ذلك) .

*شوقي وملكة النمل *

هذه قصيدة طريفة لشوقي ، ولها مغزى ووراءها معنى :

سعْيُ الفتى في عيشه عباده
وقائدٌ يهديه للسعادهْ
لأن بالسعي يقوم الكونُ
واللهُ للساعين نعم العون
فإن تشا فهذه حكايهْ
تُعدُّ في هذا المقام غايهْ
كانت بأرضٍ نملةٌ تَنْبالَه
لم تَسْلُ يوماً لذّة البطالهْ
واشتهرت في النمل بالتَّقشُّف
واتَّصفت بالزُّهد والتَّصوُّف

لكن يقوم الليل من يقتاتُ
فالبطنُ لا تملؤه الصلاةُ
والنملُ لا يسعى إليه الحبُّ
ونملتي شقَّ عليها الدأبُ
فخرجت في التماس القوت
وجعلتْ تطوفُ بالبيوت
تقولُ : هل من نملة تقيَّهْ
تُنعمُ بالقوت لذي الوليّه؟
لقد عَيِيتُ بالطوى المبرِّح
ومُنذ ليلتين لم أصبِّح
فصاحت الجاراتُ : يا للعار
لِمْ تترُك النملةُ للصرصارا
متى رضينا مثل هذي الحال؟
متى مددنا الكفَّ للسّؤال؟
ونحن في عين الوجود أمَّهْ
ذاتُ اشتهارٍ بعُلوِّ الهمّهْ
نحملُ مالا يصبِرُ الجمّالُ
عن بعضه لو أنها نِمالُ
ألم يقلْ من قولُه الصوابُ:
ما عندنا لسائل جوابُ؟
فامضي ، فإنا يا عجوز الشُّومِ
نرى كمال الزُّهد أن تصومي!

من علمك هذا ؟!

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (وقيل لرجل : من علمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب ؟ قال علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها ، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد .

وقيل لآخر : من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها ، وإن استعصت حتى تظفر بها ؟ قال : من علم الخنفساء إذا صعدت الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مراراً عديدة ، حتى تستمر صاعدة .

وقيل لآخر : من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به، قال : من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض .

وقيل لآخر : من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته ؟ فقال : الذي علم الهرة أن ترصد جحر الفارة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة ، حتى إذا برزت لها الفارة وثبت عليها كالأسد .

وقيل لآخر : من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون ؟ قال : من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمال وضربه ، فالثقل والكل على ظهره ومرارة الجوع والعطش في كبده وجهد التعب والمشقة ملء جوارحه ولا يعدل به ذلك عن الصبر .

وقيل لآخر : من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل ؟ قال : من

علم الديك يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به ، وإذا وضع له الحب الكثير فرقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد ألف البذل والجود فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام .

وقيل لآخر : من علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال : من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها ، وهي أكثر من أن تذكر .

ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويُطلب عفى أثر مشيته بذنبه ، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه لأن اللبؤة تضعه جرواً كالميت فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك ، ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها ، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع .

ومن علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظن الظان أنه ميتة فيقع عليه فيثب على من انقضى عمره منها .

ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم .

ومن علم الدب إذا أصابه كَلْم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ .

ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنى وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد

فيه لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان ، وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أوينشق فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم .

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر .

ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره والذكر من الأنثى فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة ويدع الأنثى على نقصان عدوها لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله ، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن ، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو فيقل عدوه فيدركه الكلب وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القُبُل وسهولة المخرج فيدوم عدْوُها ، ومن علمه أنه إذا كسا الثلة الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلة فيرق .

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى قال بعض العرب :

ينام بإحداى مُقلتيه ويتّقي
باخرى المنايا فهو يقظانُ نائم

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم . قال بعض الصيادين : ربما رأيت العصفورة على الحائط فأومىء بيدي كأني أرميه فلا يطير ، وربما أهويت إلى

الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك ، فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي .

ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والاب في بناء العش ، وأن يقيما له حروفاً تشبه الحائط ، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبا البيض في الأيام ، ومن قسم بينهما الحضانة والكد فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب ، وإذا خرج الفرخ عَلما ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخاً متداركاً حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئاً قبل الطعام ، وهو كاللبن للطفل ، ثم يَعْلَمان احتياج الحوصلة إلى دباغ فيزقانه من أصل الحياطان من شيء بين الملح والتراب تندبغ به الحوصلة ، فإذا اندبغت زقاه الحب ، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق على التدريج، فإذا تكامل قوته وسألهما الكفالة ضرباه .

ومن علمهما إذا أرادا السفاد أن يبتدىء الذكر بالدعاء فتتطارد له الأنثى قليلاً لتذيقه حلاوة المواصلة ثم تطيعه في نفسها ، ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه ، ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها وتعرض محاسنها ، ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان .

ومن عَلَّم المرسلة منها إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها ، فتستدل بذلك وغيره إذا ضلت ، فإذا عرفت الطريق مرّت كالريح .

ومن علم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع

نفسه فيُري الذبابة أنه لاهٍ عنها ثم يثب عليها وثوب الفهد .

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها .

ومن علم الظبي أنه لا يدخل كناسه إلا مستدبراً ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه .

ومن علم السنّور إذا رأى فارة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط .

ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء ، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه . ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه .

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر .

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس وللريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو .

وهذا باب واسع جداً ، ويكفي فيه قوله سبحانه :

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا

في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون * والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ .

وإذا أردت مزيداً من العجب ، وإضافة من الإبداع ، فانظر إلى قوله تعالى : **﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾**) .

وقفة تأمل :

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها ، فنبه على الاشتراك والاختلاف ، فيشير إلى يسير منه ، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت في ما وراء ذلك أعظم تفاوت ، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ما وراء ذلك ، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك ، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال ، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره ، واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه ، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان .

فمن أعظم الحكم الدالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته ، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل بجميع هذه الأنواع وأضعافها مما لا تعلمه العقول البشرية كما قال تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ .

فتبارك الذي من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من أضدادها والأشياء من خلافها ، فأخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، والرطب من اليابس ، واليابس من الرطب . فكذلك أنشأ اللذات من الآلام والآلام من اللذات ، فأعظم اللذات ثمرات الآلام ونتائجها ، وأعظم الآلام ثمرات اللذات ونتائجها .

* لطائف *

يروي الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره « الجواهر » بعض لطائف المخلوقات فيقول :

اللطيفة الأولى :

لقد رأى العلماء الباحثون في العصر الحاضر ، وكشفوا أن بعض الذباب يحفر لبيضه جحراً في الأرض يضعه فيه ، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يمج فيها جزءاً من السم فتسكن حركتها ، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليها ، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتتغذت بها ، وسبب ذلك أن هذه الحشرات لا تأكل ميتة قط ،

وأمها لا ترى أولادها قط ، فتحضر لها هذه الحشرات التي خدرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلها ، أليس ذلك داخلاً تحت قوله تعالى : ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ ؟ فأين تعلمت هذا تلك الذبابة ولم تر أمها ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ؟ .

اللطيفة الثانية :

بعض أنواع الذباب لا يعيش أولاده إلا في جوف الحيوان الحي ، فتعمد الذبابة إلى دودة كبيرة فتخرق جلدها بخرطومها ، ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد ، فإذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن ولم تتعرض للأعصاب التي عليها مدار الحياة ، ومتى قدرت على الخروج شرعت تأكل الأعصاب فتموت تلك الدودة ، ثم تخرج تلك الحشرات ، ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكماً تلتف فيه ، وتتراكم فوق سطح الجثة ، فتغطيها بكثرتها لتأكلها فلا يرى الراؤون منها شيئاً ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

اللطيفة الثالثة :

الأرانب تنتف شعر بطنها ، فتجعله فراشاً لأولادها ، وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة ؛ فإنها تنتف شعرها كله ، ولا تكتفي بجزء منه ، ومتى باضت لفت بيضها في شعرها فجعلته أثواباً تصنعها لوقايته من الحر والبرد والعوارض الجوية ، ثم تموت .

اللطيفة الرابعة :

إن يعسوب النحل التي يقال لها أم النحل إذا ماتت اخترن واحدة منهن وهيأن لها مكاناً أوسع خمس مرات ، وأخذن يخدمنها ويطعمنها

الشهد الذكي الرائحة فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ، ولا يخترنها إلا إذا كانت فيها تلك الصفات التي يعرفنها بالإلهام .

اللطيفة الخامسة :

إن النحل إذا دخل عليه عدو من الحشرات مزقه ، فإذا كان العدو صغيراً رموه ، وإن كان كبيراً اجتمعن عليه ولسعته معاً حتى يموت ، ولما لم يكن في قدرتها إخراجه فإنها تعمد إلى صمغ تحضره من بعض النباتات فتلفه به وتغلفه ، فبالسم تخلصت من حياته ، وبالصمغ تخلصت من ضرره بعد موته ؛ لأنه محنط ، ويلاحظ أنني أترك بعض اللطائف لعدم أهميتها في الموضوع .

اللطيفة السادسة :

إن القنفذ يصعد إلى الكرم فيرمي بالعنقود ، ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه ، وإن كان له فراخ تمرغ على الباقي فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده .

وإن بين الغراب والذئب ألفة ؛ فإنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره .

وإن الفارة تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه ، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها ، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت بماء في فيها وتصبه فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه .

يقول كريسي موريسون : (وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده ،

فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح . ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه ، بعينين تأثرتا قليلاً بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافىء اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل) .

ويقول : (والكلب بما أوتي من أنف فضولي ، يستطيع أن يحس الحيوان الذي مر ، وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوي حاسة الشم الضعيفة لديه ، ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا – على ضعفها – قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تتبين الذرات المكروسكوبية البالغة الدقة) .

ويقول : (وكل الحيوانات تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا ، وذلك بدقة تفوق كثيراً حاسة السمع المحدودة عندنا ، وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أذنه ،ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمس!) .

ويقول : (إن إحدى العناكب المائية تضع لنفسها عشاً في شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت ، وتعلقه بشيء ما تحت الماء ، ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها ، وتحملها إلى الماء ، ثم تطلقها تحت العش ، ثم تكرر هذا العملية حتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صغارها وتربيها ، آمنة عليها من هبوب الهواء ، فها هنا نجد طريقة النسج ، بما شمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية!) .

ويقول : (وسمك السلمون الصغير يمضي سنوات في البحر ، ثم

يعود إلى نهره الخاص به ، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه ، فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟ إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعداً إذا نُقلتْ إلى نهير آخر أدركت تواً أنه ليس جدولها فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ، ثم تحيد ضد التيار قاصدة إلى مصيرها !) .

ويقول : (وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل ، وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك ، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها هاجرت في مختلف البرك والأنهار ، وإذا كانت في أوروبا قطعت آلاف الأميال في المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا ، وهناك تبيض وتموت ، أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطيء الذي جاءت منه أمهاتها ، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار ، لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطيء ، وهي الآن يتاح لها النمو ، حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها ، فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك ؟ لم يحدث قط أن صِيْد ثعبانُ ماء أمريكي في المياه الأوروبية ، أو صيد ثعبان ماء أوروبي في المياه الأمريكية ، والطبيعة تبطيء في إنماء ثعبان الماء الاوروبي مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها (إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكي) ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معاً في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ ؟!) .

ويقول : (وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك فإنها لا تلبث حتى ترسل إشارة خفية ، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى هذه الإشارة ويجاوبها ، مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما ، ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي ، فضلاً عن السلك اللاقط للصوت (إيريال)؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟! .

إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية ، وهما يتيحان لنا الاتصال السريع ، ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان ، وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة) .

ويقول : (والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم! كالحشرات التي تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى ، والرياح وكل شيء يطير أو يمشي ، ليوزع بذوره) .

ويقول : (وكثير من الحيوانات من سرطان البحر الذي إذا فقد مخلباً عرف أن جزءاً من جسمه قد ضاع ، وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ، ومتى تم ذلك توقفت الخلايا عن العمل ، لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان) .

ويقول : (وكثير الأرجل المائي ، إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين ، وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع إلى صنع رأس بدلاً منه ، ونحن نستطيع أن ننشط التئام الجروح ، ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعاً جديدة ، أو لحماً أو عظماً أو أظافر أو أعصاباً؟ إذا كان ذلك في حيز الإمكان؟) .

ويقول : (إن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لان تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب) .

هذا غيض من فيض من أعاجيب خلق الله وصنعه في الكون ، فهل عرفت معنى قوله تعالى : ﴿ والذي قدّر فهدى ﴾ .

* أحسن الحديث *

الله .. أسعد عباده بكتابه ، وأبهج قلوبهم بكلامه ، وأنار بصائرهم بقراءته ، أكثرهم قراءة له من أشدّهم تعظيماً له . وأقربهم منزلة منه . أقربهم من كلامه ، أقرؤهم لوحيه ، كلام معجز ، وقرآن مبهج ، وحبل متين ، ونور مبين ، ينطق بالعظمة ، ويهتف بالإبداع ، ويصدح بالألوهية ، ويشهد للربوبية :

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل اللهُ فما له من هاد ﴾ .

انظر إلى روعة كلمة **﴿ أحسن ﴾** وما لها من الأثر في النفس ، والموقع من القلب ، فلو وضعت مكانها أي كلمة أخرى مثل : أجمل ، وأفضل ، وأجود ، فلن تجد لها من الأثر ما لكلمة **﴿ أحسن ﴾** ، ثم انظر إلى تكرار لفظ الجلالة في هذه الآية أربع مرات ، وما له من معنى عميق، وأثر بديع .

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

انظر إلى عظمة هذا الكتاب كيف طبّق الأرض بأنواره ، وجلل الآفاق بضيائه ، ونَفَذ في العالم حكْمُه ، وقُبل في الدنيا رَسْمُه ، وأصبحت نغماته الحانية تلامس القلوب قبل الأسماع في أنحاء الدنيا وأصقاع المعمورة ، فيحيي قلوباً ميتة ، وينير عقولاً مظلمة ، ويبعث أجساداً هامدة ، ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ روحاً من أمرنا ﴾ يدل على صدوره من الربوبية ، ووروده عن الألوهية ، فهو روح لأنه يحيي الخلق ، ويبعث في النفوس الحياة ، فله فضل الأرواح في الأجساد ، وهو نور لأنه يضيء للقلوب والعقول والبصائر ضياءَ الشمس في الآفاق .

دعى إلى الوحدانية في أجمل أسلوب ، وأصدق عبارة ، فقال : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .

ويقول : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيءٍ فقدره تقديرا ﴾ .

ودعا إلى التفكير في آيات الله والتأمل في مخلوقاته والنظر في ملكوته ، وربَطَ ذلك بتوحيده جل وعلا فقال : ﴿ أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن

تنبتوا شجرها أءلهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون * أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلاً ما تذكرون * أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أءلهٌ مع الله تعالى الله عما يشركون * أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

انظر إلى هذا الجمال الخلاب ، والروعة الفائقة ، والبيان المعجز الذي يأخذ بالألباب، ويمتلك النفوس في قوله : ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ كم في ذلك من آيات العظمة ، ودلائل الربوبية .

وَرَدَّ شبه الملحدين في أسلوب معجز ، وبيان مفحم ، وحجة دامغة، فقال : ﴿ لو كان فيهما ءالهةٌ إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ .

وقال لمنكر البعث : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .

وبين تعالى الأسلوب الأمثل ، والطريق الأكمل ، والنهج الأجمل في الدعوة إلى الله تعالى ، فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ .

وحث على الوحدة ولزوم الجماعة ، والبعد عن الفرقة ، فقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ .

وبين النهج الأسلم ، والطريق الأحكم ، والخلق الأعظم ، وجمع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب في آية واحدة ، فقال : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

وبين القاعدة في الحلال والحرام في جزءٍ من آية ، فقال : ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ .

وأوجز ما في القرآن كلّه في سورة الفاتحة ، فهي أم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم .

وأوجز رسالة الإنسان في الحياة في سورة واحدة ، قال عنها الشافعي : لولم ينزل الله إلا هذه السورة على الناس لكفتهم ، وهي قوله تعالى :

﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .

وبين جل وعلا عظمته وسلطانه ، وأن كل ما في الكون تحت أمره ومشيئته في كلمتين ، فقال : **﴿ألا له الخلق والأمر﴾** ، وأخبر عن تمام الدين وصدق الرسالة ، ونقاء المنهج بكلمتين اثنتين ، فقال تعالى : **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا﴾** أى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام .

وبين مهمة نبيه ﷺ بقوله : **﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾** .

وبين صفته جل وعلا وكماله وجلاله في جزء من آية ، فقال : **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** .

ودعى إلى الجنة ونعيمها بكلمات حانية ، وعبارات مؤثرة ، وأسلوب ماتع فقال : **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾** .

وحذر من النار وجحيمها ، وجهنم وأهوالها ، في أسلوب مرعب ، وبيان مذهل ، وكلمات مدوية ، فقال تعالى : **﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾** .

وحينما نتأمل في تلك السور التي أمرنا بقراءتها ، ودعينا إلى الترنم بها

تجدها في الغالب قد حوت موجز الدين ، وملخص الرسالة ، وحقيقة المنهج .

فسورة الفاتحة مثلاً هي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم ، فيها الثناء على **الله** وتمجيده ، وفيها التوحيد ، وفيها التذكير باليوم الآخر ، وفيها حث الناس على اللجوء إلى **الله** تعالى ، والتضرع إليه ، وفيها الحث على إخلاص العبادة **لله** تعالى ، وفيها سؤال **الله** الهداية للطريق المستقيم والثبات عليه ، وفيها الترغيب في الأعمال الصالحة ، والتحذير من مسالك أهل الباطل والضلال ، فهي موعظة ربانية عظيمة القدر ، عميقة الأثر ، بديعة النظم ، جامعة مانعة ، تتردد على الأسماع ، وتتلى على القلوب والأفئدة في أثر متجدد ، وقبول مستمر ، ونغم مستحسن .

وسورة البقرة ، سورة عظيمة المنزلة ، كبيرة المنفعة ، والشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأفيه سورة البقرة ، ولكن من فاتته قراءة سورة البقرة ، فقد اختير له منها مقطعان عظيمان فيهما الخير الكبير ، والمنفعة العظمى ، والبركة القصوى ، الأول هو آية الكرسي ، وهي أعظم آية في كتاب **الله** تعالى ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ ، وقد حث النبي ﷺ على قراءتها واتخاذها ورداً من الأوراد ، والمسلم لا يزال عليه من **الله** حفيظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح إذا قرأها حين يأوي إلى فراشه ، فهي آية بديعة شاهدة بالعظمة ، معلنة بالتوحيد ، ناطقة بالكمال والجلال والجمال:

قال تعالى : **﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾** .

والمقطع الثاني من سورة البقرة ، وهو من الأوراد المأمور بها هو الآيتان الأخيرتان منها ، قال ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » ، قيل معناه : كفتاه المكروه تلك الليلة ، وقيل : كفتاه من قيام الليل ، وهما قوله تعالى :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وإذا تأملت آية الكرسي والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ، عرفت الحكمة من اختيارهما ، وعرفت أسباب الروعة ، ومواطن الجمال ، ودلائل العظمة .

ومن لم تُتَح له الفرصة لقراءة قدرٍ كبير من القرآن فإن بإمكانه أن يعوض ذلك التقصير الذي يطرأ بقراءة سورة من أربع آيات ، ولكنها تعدل ثلث القرآن .

قال ﷺ : « ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن » .

وقال رجل : يا رسول الله ، إني أحب هذه السورة : قل هو الله أحد قال : « إن حبّها أدخلك الجنة » ، فالمسلم يترنم بهذه السورة آناء الليل وأطراف النهار لما فيها من الأجر ، وما لها من القدر .

ومما حث عليه النبي ﷺ من السور التي يجعلها المسلم ورداً يفتتح به يومه ويختمه : المعوذتان ، قال ﷺ : « اقرأ : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء » .

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه نفث في يديه ، وقرأ فيها بقل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده .

ويقول ﷺ : « من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك » ، فكم فيها من التذكير وكم فيها من الوعد والوعيد .

إن هذا الاختيار لهذه السور المخصوصة ، والآيات المعلومة له فوائد جمة ، ومنافع عظيمة : فهي تعوض تقصير الإنسان مع القرآن ، وهي تحفظ المرء من المكر والكيد والشيطان ، وهي تربط المرء بالواحد الديان ، والمتأمل في كل ما يُختار من سور ، ويحدد من آيات يجد أن اختيارها حكيم ، ومدارها عظيم .

وهي جميعاً في الغالب تدور حول إثبات عظمة الله تعالى وتوحيده واللجوء إليه ، والإقرار بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، والتذكير بالجنة والنار ، ويوم العرض على العزيز الجبار ، حتى يبقى المرء على بصيرةٍ من أمره وذكر من ربه ، وصلة بمعبوده .

وهذا الباب الحديث فيه واسع ، والمجال لا يسمح بالتفصيل والتطويل ، والشرح والتعليل ، وإلا فهو باب كريم ، ونبأ عظيم ، فيه إيجاز وإعجاز ،

وحكم وأحكام ، وروعة وإحكام ، وإمتاع وإبداع ، وسلوة وإقناع ، فتأمل مثلاً الحث على قراءة سورة السجدة ، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر في صلاة الفجر يوم الجمعة ، وكم في ذلك من الحكم ، وكم له من الأثر ، فقد اختيرت هاتان السورتان لما اشتملتا عليه من التعظيم والتقديس لله تعالى ، وما اشتملتا عليه من آيات الوعد والوعيد ، وعدٌ تطرب له النفوس ، وتنجذب إليه القلوب ، وتشتاقه الأرواح ، ووعيد يهز الوجدان ، وترتعد له الفرائص ، وتذهل له الأفئدة . وانظر إلى اختيار سورتي سبح والغاشية في صلاة الجمعة ، أو سورة الجمعة والمنافقون .

وانظر إلى اختيار سورة الكهف ، والحث على قراءتها في يوم الجمعة بحيث تكون زاداً أسبوعياً للمؤمن في كل جمعة ، يجد فيها ما لذ وطاب مما يغذي الروح ، ويروي ظمأ النفس ، ويبرد حرارة الفؤاد ، ويجد فيها الذكرى الواعظة ، والعبر الخالدة ، بما فيها من القصص ، وما تحمل من الأحداث ، ففيها قصة أصحاب الكهف ، وقصة الجنتين ، وإشارة إلى قصة آدم وإبليس ، وقصة موسى مع العبد الصالح ، وقصة ذي القرنين ، وفيها التركيز والتأكيد على توحيد الله تعالى ، فهو في بدايتها ، وهو مسك ختامها : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ .

وفيها آيات الوعد الماتعة ، وكلمات الأمل الرائعة ، يقرأها المؤمن متطيباً متسوكاً لابساً أحسن ملابسه في هذا اليوم ، ثم يتذكر بها الجنة ونعيمها ، والفردوس ولباسها : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق**

متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ .

وفيها من آيات الوعيد ما يخلع القلوب ، ويصدع النفوس ، فيتذكر المؤمن وهو في هذا الجمع الهادىء الآمن ، ذلك الجمع الرهيب ، واللقاء المهيب : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

قال رسول الله ﷺ : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » .

وروي عنه ﷺ : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء ، يضيء له يوم القيامة ، وغفر له ما بين الجمعتين » .

فهل تدبرنا هذه السور وهذه الآيات ، وهل عقلناها وعقلنا الحكمة من قراءتها ، والفائدة من تردادها ، أم أن القلوب غافلة ، والأنفس لاهية ، والشهوات جاثمة ، أين نحن من نداء سورة الكهف في كل جمعة ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ .

وأين نحن من قوله تعالى فيها : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

* تبارك الله *

﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين﴾ .

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .. وليس هناك من يخلق سوى الله. فاحسن هنا ليست للتفضيل ، إنما هي للحسن المطلق في خلق الله .

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ .. الذي أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار ، وفق السنة التي لا تتبدل ولا تنحرف ولا تختلف ، حتى تبلغ بالإنسان ما هو مقدر له من مراتب الكمال الإنساني على أدق ما يكون النظام ! .

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه «معجزات العلم» حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقة خاصة في تحركه ، دون تدخل مباشر من الإنسان .. فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها ، وتحولات كاملة في ماهيتها ؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون ، مغلقي القلوب ، لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب وإن مجرد التفكر في أن الإنسان - هذا الكائن المعقد - كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة ؛ وإن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور

الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوراثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة الصغيرة .. إن مجرد التفكر في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة ، لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب ...

* تبارك الذي نزل الفرقان *

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ .

والتبارك : تفاعل من البركة ، يوحي بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعاً . ولم يذكر لفظ الجلالة واكتفى بالاسم الموصول **﴿ الذي نزل الفرقان ﴾** لإبراز صلته وإظهارها في هذا المقام ، لأن موضوع الجدل في السورة هو صدق الرسالة ، وتنزيل القرآن .

وسماه الفرقان ، بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد .

ومرة أخرى لا يذكر لفظ الجلالة ، ولكن يذكر الاسم الموصول لإبراز صلته الدالة على صفات يراد توكيدها في هذا المقام .

﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ .. فله السيطرة المطلقة على السماوات والأرض . سيطرة الملكية والاستعلاء ، وسيطرة التصريف والتدبير وسيطرة التبديل والتغيير .

﴿ولم يتخذ ولداً﴾ .. فالتناسل ناموس من النواميس التي خلقها الله لامتداد الحياة ؛ وهو سبحانه باق لا يفنى ، غني لا يحتاج .

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ .. وكل ما في السماوات والأرض شاهد على وحدة التصميم ، ووحدة الناموس ، ووحدة التصريف .

﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ . قدر حجمه وشكله ، وقدر وظيفته وعمله . وقدر زمانه ومكانه . وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ، لما يدعو إلى الدهشة حقاً ، وينفي فكرة المصادفة نفياً باتاً . ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره ، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير . وكلما تقدم العلم البشري وكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل : ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ .

يقول (أ . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان : «الإنسان لا يقوم وحده» :

« ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغاً هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي

تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق ، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره ! .

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم ، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء – أي المحيط – الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات . وأخيراً الإنسان نفسه ..» .

ويقول في فصل آخر :

«لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المائة مثلا أو أكثر في الهواء بدلاً من ٢١ في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المائة أو أقل ، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها من خلال الدهور . ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان – كالنار مثلاً – تتوافر له» .

ويقول في فصل ثالث :

« ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منه أي حيوان – مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره – من السيطرة على العالم ، منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوان من مكان إلى آخر . وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات .

والواقعة الآتية فيها مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان . فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار في استراليا . كسياج وقائي . ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة . ولم يجد الأهالي وسيلة تصده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت ، يتقدم في سبيله دون عائق! .

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها في استراليا . وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار . ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد .

وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية .

ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها ، أو يكسبون مناعة منها؟ ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت

إلى نيويورك . كذلك البعوض كثير في المنطقة المتجمدة . ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش أيضاً في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب ، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري رغم ذلك يدعو حقاً إلى الدهشة! . .

إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ؛ ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب . وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الانابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها . ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً . وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة . وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم . ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض . وتصور إنساناً فطرياً يلاقي دبوراً يضاهي الأسد في ضخامته ، أو عنكبوتاً في مثل هذا الحجم! .

ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات ، والتي بدونها ما كان أي حيوان – بل كذلك أي نبات – يمكن أن يبقى في الوجود .. إلخ » .

وهكذا ينكشف للعلم البشري يوماً بعد يوم ، شيء من تقدير **الله** العجيب في الخلق ، وتدبيره الدقيق في الكون ، ويدرك البشر شيئاً من مدلولات قوله في الفرقان الذي نزله على عبده : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ .

* تبارك الذي جعل في السماء بروجاً *

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا* وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

يعرض مشهد الليل والنهار وتعاقبهما . وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس ، وفيهما الكفاية : ﴿ لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا ﴾ . ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس ، ويخلف أحدهما أخاه ، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب لإنسان ولا لحيوان ولا لنبات . بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة .

جاء في كتاب : « الإنسان لا يقوم وحده » (العلم يدعو إلى الإيمان) : « تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة . والآن افرض أن تدور بمعدل مائة فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون ليلنا ونهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات . في هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار . وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض! » .

فتبارك الذي خلق السماوات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

* تبارك الذي بيده الملك *

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ .

يقول ﷺ : « من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفر له ،

وهي : تبارك الذي بيده الملك » .

هذه التسبيحة في مطلع السورة توحي بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية ، وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ .. فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه .. وهي حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد ! .

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .. فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء ، ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره ؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود .. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله ، وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال .. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة

الله كل شيء بلا حدود . ويكلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

وهذه السورة – سورة تبارك – تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الارض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فترى هناك آثار يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض – على سعتها – إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء » [التعليق على الآيات السابقة من ظلال القرآن] .

تعالى الواحد الصمد الجليل
وحاشى أن يكون له عديل

هو الملك العزيز وكل شيء
سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه
وإن سبيله لهو السبيل
وإن له لمنّاً ليس يُحصى
وإن عطاءه لهو الجزيل
وإن عطاءه عدل علينا
وكل بلائه حسن جميل
وكل مفوّه أثنى عليه
ليبلغه فمُنْحسر كليل
أيا من قد تهاون بالمنايا
ومن قد غرّه الأمل الطويل
ألم تر أنما الدنيا غرور
وأن مقامنا فيها قليل؟

* تجليات الرب *

قال ابن القيم - رحمه الله - : «القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته ، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال ، فتخضع الأعناق ، وتنكسر النفوس ، وتخشع الاصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء ، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال ، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها ، بحسب ما عرفه من صفات جماله

ونعوت كماله ، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء ، كما قيل :

يرادُ من القلب نسيانُكم
وتأبى الطباعُ على الناقلِ

فتبقى المحبة طبعاً لا تكلفاً . وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره . وكلما قوي الرجاء جد في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغلّ غلّق أرضه بالبذر ، وإذا ضعف رجاؤه قصَّر في البذر .

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة ، انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات ، وانقبضت أعنَّة رعوناتها ، فاحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر .

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ، انبعثت منها قوة الامتثال في التنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي .

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم ، انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره ، أو يسمع منه ما يكره ، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه ، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى .

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم ، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه . والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له .

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ، ويذهب طيشه وقوته وحِدَّته .

وجماع ذلك : أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة ، وبصفات ربوبيته تارة ، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة ، والشوق إلى لقائه . والأنس والفرح به ، والسرور بخدمته ، والمنافسة في قربه والتودد إليه بطاعته ، واللهج بذكره ، والفرار من الخلق إليه ، ويصير هو وحده همه دون ما سواه . ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به ، والذل والخضوع والانكسار له . وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته ، وإلهيته في ربوبيته ، وحمده في ملكه ، وعزه في عفوه ، وحكمته في قضائه وقدره ، ونعمته في بلائه ، وعطاءه في منعه ، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته ، وعدله في انتقامه ، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه ، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه ، وعزه في رضاه وغضبه ، وحلمه في إمهاله ، وكرمه في إقباله ، وغناه في إعراضه .

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرْته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين ، أشْهَدك - أي القرآن - مَلكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده ، يامر وينهى ، ويرسل الرسل وينزل الكتب ، ويرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ، ويعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، يرى من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السر والعلانية ، فعال لما يريد ، موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب ، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع» .

* من دلائل العظمة *

الله .. لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون .

الله .. عظيم في ذاته ، عظيم في صفاته ، عظيم في علمه ، عظيم في قدرته ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ .

عظمة السماوات والأرض :

الله .. يطوي السموات يوم القيامة ثم ياخذهن بيده ، ثم يقول: «أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ثم يطوي **الله** الارضين ، ثم ياخذهن ، ثم يقول : «أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ، هذه السماوات وهذه الأرضون على الرغم من عظمتها وعجيب خلقها ، يطويها

الرحمن بيده .

وفي الحديث : « ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء وأرض خمسمائة عام ، ونضد كل سماء وأرض - يعني غلظهما - مسيرة خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء » .

وفي الحديث الآخر : « ما موضع كرسيه من العرش إلا مثل حلقة في أرض فلاة » .

وقال ﷺ : « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة **الله** عز وجل من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خمسمائة عام - أو قال : خمسين عام » .

وليس في هذا غرابة أو عجب ، وما ذلك على **الله** بعزيز ، وقد آمن السلف رضوان **الله** عليهم بكل ذلك إيماناً جازماً لم يخامرهم شك، أو يداخلهم ريب ، فجاء العلم الحديث فأثبت تلك الأعاجيب ، ولازالت الدراسات قائمة والبحوث جادة ، وكل يوم يأتي العلم بخبر أعجب ، ونبأ أعظم ، وإليك شيئاً مما أثبتته الدراسات الحديثة :

عظمة الشمس والقمر :

بُعد الأرض عن الشمس يساوي ١٤٩,٦ مليون كيلو متر تقريباً ، والشمس والقمر ما هما إلا جزء من المجموعة الشمسية ، والتي تتألف من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي : عطارد ، الأرض ، المريخ، الزهرة ،

المشتري ، زحل ، أورانوس ، بلوتو ، نبتون . وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلا جزء صغير من المجرة (المسماة : درب التبانة) وهناك أكثر من عشر آلاف مجرة في هذا الكون العظيم .

هذه الشمس التي نراها ضئيلة وصغيرة ، إنها تكبر الأرض بمئات المرات إذ يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية!!

والشمس هي أهم شيء بالنسبة لحياتنا من الناحية الفلكية ، فهي التي تمدنا بالضوء والحرارة ، وهي التي بتبخيرها لمياه الأرض تسبب سقوط الأمطار ، وهي التي بتسخينها لليابسة والبحار بدرجات مختلفة تسبب هبوب الرياح ، وهي التي تمد النبات بالغذاء ، وهي التي تمدنا بمصادر القوة ، لان الخشب والفحم والبترول ومساقط المياه كلها تعتمد على الشمس بقدرة الله تعالى .

أما القمر فهو أقرب إلينا من الشمس ومن النجوم وبعده عنا لا يقل عن ربع مليون ميل ، والقمر إذا قورن بالأرض يعتبر صغيراً فهي أكبر منه بخمسين مرة .

يبعد القمر عنا مسافة مائتين وأربعين ألفاً من الأميال ، ويذكرنا المد الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر . والمد الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن . بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية .

والمريخ له قمر ، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال ولو

كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كله يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها . وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم .

عظمة النجوم :

والنجوم كذلك غاية في العجب والغرابة ، وعالم عظيم مهيب غريب وهي وإن ظننا أنها قريبة منا إلا أنها أبعد من الشمس بما لا يقارن . وقد واصل الفلكيون دراسة النجوم ، وعرفوا ألوان لمعان عدد كبير منها ، والتي تصل أبعادها إلى مائة سنة ضوئية ، بل وأبعد من ذلك ، وبعض النجوم الزرقاء يزيد ضوؤها على ضوء الشمس ١٠,٠٠٠ ضعفاً ، ومقابل كل نجم من هذه النجوم يوجد ١٠٠,٠٠٠ نجم مماثل للشمس في لمعانها ، وبعض النجوم يزيد في ضخامته عن الشمس بمائة ضعف .

والنجوم ملايين مملينة حيث لا يستطيع أحد مهما استخدم من المناظير أن يحيط بها كلها .

يقول أحد الفلكيين : إنَّ عدد النجوم يزيد على عدد حبات الرمال التي على شواطىء جميع بحار الدنيا .

أبْعَدَ الدهر في الفضاء مكرَّه
عالقاً في مكرِّه بالمجرَّة
إن أم النجوم بنت زمان
لم تزل حادثاته مستمرة

في فضاءٍ لو سافر البرق فيه
ألفَ قرن لما أتى مُستقرَّه
ولو الشمس ضوعفت ألف ضعف
لم تكن في أثيره غير ذرَّه
سعة تحسب المجرّة فيها
حلقةً ألقيت بصحراء قفرَه
يقف الفكر دونها مُكْوَندًا
مُقْشعراً فشمسنا منه قطره

لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة .

ولو كان الهواء أقل ارتفاعاً مما هو عليه ، فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق .

ولو كان قمرنا يبعد عنا (٢٠,٠٠٠) ميلاً بدلاً من بعده الحالي ، لكان المد يبلغ من القوة حيث إن جميع الأراضي تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها .

ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات ، لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي الليل يتجمد كل نبت في الأرض.

ولو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المائة أو كان أكثر من الهواء بدلاً من ٢١ في المائة ، فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلتهب الغابة كلها .

ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠ في المائة ، لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم .

ولو لا المطر ، لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها ، فلولا الرياح والبحار والمحيطات ، لما كانت حياة ، ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح ، لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء ، لما كانت حياة .

ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض ، حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم ، لما كان ملح ، وبالتالي ما كانت حياة .

ولو كان محور الأرض معتدلاً بدل هذا الميل الحالي الذي مقداره ٢٣ درجة مع سكون الأرض ، لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب ، وكونت قارات الجمد ، ولظل الصيف دائماً والشتاء إلى الأبد ، ولهلك الناس والحياة والأحياء .

ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة ، فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ، ومن أين تكون الشمس شمساً ، والأرض أرضاً؟ ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي؟ ولو بقيت فكيف تكون الحياة، وكيف يسير الإنسان .

وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر ، أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي ، لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت .

ولو كانت الالكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة ، والذرات

ملتصقة ببعضها حيث تنعدم الفراغات ، لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة ، فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره؟ وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته .

ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها ، لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

ولولا أن في الأرض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى .

* وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟ *

الله .. الواحد المنان ، الملك الديان ، عظيم الشان ، انظر إلى روعة إبداعه ، وبديع آياته في خلق الإنسان ، قال تعالى : **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** .

فهو الذي أوجد من العدم ، وأحيا من الموات ، وبدأ الخلق ، وهو الذي ينشىء النشأة الآخرة ، ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون ، **﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾** .

خلق الإنسان آية للمتوسمين ، وعبرة للمعتبرين ، وعظةٌ للمتعظين: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ، كثرت الآيات في القرآن الكريم التي تدعو العبد إلى النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره ، فإن نفس الإنسان وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه ، والإنسان غافل عنه معرض عن التفكير فيه ، ولو فكّر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقه عن اعتراضه وكفره بخالقه : ﴿قتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره﴾ ، وإليك شيئاً من عجائب خلقه ، وإشارة إلى عظمة تكوينه :

١ – وزن القلب حوالي ٣١٢ جراماً ، حجمه في قبضة اليد ، تبلغ ضربات قلب الرجل حوالي ٦٠ – ٨٠ / د ، وينبض في العام حوالي ٤٠ مليون مرة ، وفي كل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم ، ويضخ في يوم واحد ٢٢٠٠ جالون من الدم ، وحوالي ٥٦ مليون جالون على مدى حياة بأكملها ، ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة ، دون أن يحتاج لإصلاح؟

٢ – ويبلغ مقدار الدم الذي يدفعه قلب رجل صحيح أثناء القيام بتمارين قاسية حوالي ٢٠ ليتر في الدقيقة ، ويستغرق مرور دفعة واحدة من الدم خلال القلب حوالي ١,٥ ثانية ، والطريق من القلب إلى الرئة ثم إلى القلب مرة أخرى ست ثوانٍ .

٣ – الدم الذاهب إلى الدماغ يعود إلى القلب في ٨ ثواني ، بينما يعود الدم الذاهب إلى أصابع القدم في ١٨ ثانية .

٤ – إذا افترضنا أن القلب لم يضطر إلى زيادة سرعة ضرباته عن الطبيعي فإن الكرية الحمراء تمر في الدورة ١٥٠٠ مرة في المتوسط على مدى يوم كامل (حمال يحمل يومياً ١٥٠٠ مرة بدون تعب) !! .

٥ – في الدم ٥ ملايين كرية حمراء في كل ملمتر مكعب واحد من الدم أي تبلغ من مجموع الدم العام حوالي ٢٥ مليون مليون كرية حمراء ، وتفرش سطحاً مقداره ٣٤٥٠ متر مربع ، وإذا صُفُتْ كريات حُمْر بدن واحد بجانب بعضها البعض ، فإن مجموع أقطار الكريات (قطر الكرية الواحدة في المتوسط ٧ مكرون) ينشيء طولاً يغلف الكرة الأرضية ٦ – ٧ مرات ، وتعيش الكرية وسطياً ١٢٠ يوماً ، ويمكن أن ينقص عمر الكرية حتى ٢٠ يوماً بدون ظهور دلائل فقر الدم ، وتمشي الكرية الحمراء في رحلتها لنقل الأوكسجين ١١٥٠ كلم في عروق البدن ، وفي الكرية الواحدة يكمن مركب الخضاب المعقد الذي يحوي ٥٧٤ حمضاً أمينياً ، بالإضافة إلى الشحم والسكاكر والخمائر والفيتامينات.

وفي نقص الأكسجين يرتفع عدد الكريات الحمر إلى ٧ – ٨ مليون / ملم مكعب خاصة في الارتفاعات ، وفي الأجنة باعتبار أن الرئة لا تعمل ، مما دعا إلى القول بأن الجنين الإنساني يجلس على قمة أفرست!! .

٦ – الخلايا الجدارية التي تفرز حمض كلور الماء في المعدة قدر عددها بـ (مليار) خلية ، والطاقة الإفرازية في مدى ١٢ ساعة بعد التنبيه بالهستامين ١٦ ملم مكافىء ، وتركيز الإفراز هو ما بين ٢ – ٤ بالألف بشكل ثابت ومركز .

٧ – يحوي الجسم البشري أكثر من ٦٠٠ عضلة ، وأكثر من ٢٠٠ عظم وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على ١٠ ملايين ليف عضلي وتحوي عظمة الفخذ أكثر من ٣٠ ألف عمود كلسي خاص .

٨ – في كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥ ألف مرة ، يسحب فيها ١٨٠ متر مكعب من الهواء ، يتسرب منها ٦,٥ متر مكعب من الأكسجين .

٩ – عمل العضلات مجتمعة في اليوم يساوي ما حمولته ٢٠ طن .

١٠ – في المعدة ٣٥ مليون غدة للإفراز ، وفي العفج والصائم (الأمعاء) ٣٦٠٠ زغابة معوية للامتصاص في كل ١ سم مربع ، وفي الدقاق ٢٥٠٠ ، مع العلم أن طول الأمعاء حوالي ثمانية أمتار .

١١ – في الدماغ ١٣ مليار خلية عصبية ، و ١٠٠ مليار خلية دبقية استنادية ، تشكل سداً مارداً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة .

١٢ – في العين الواحدة حوالي ١٤٠ مليون مستقبل للضوء ، وهي ما تسمى بالمخاريط والعصبي ، يبلغ عدد المخاريط في كل عين ٧ ملايين وعدد العصيات ١٣٠ مليون ، مهمة الأولى للضوء المركز والألوان ، والثانية للضوء الضعيف والعادي .

١٣ – في الدم الكامل ٢٥ مليون مليون كرية حمراء لنقل الأكسجين ، و ٢٥ مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن ، وهي بخمسة أشكال ، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضد النزف ، وإيجاد التخثر في أي عرق نازف ، وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية من مخ العظام الذي يصب في الدم بمعدل ٢,٥ مليون كرية

حمراء في الثانية ، و ٥ ملايين صفيحة ، و ١٢٠ ألف كرية بيضاء ، وجدير بالذكر أن الكريات الحمر تقوم بنقل ٦٠٠ ليتر من الأكسجين لخلايا الجسم كل ٢٤ ساعة .

١٤ – تحت سطح الجلد يوجد حوالي ٥ – ١٥ مليون مكيف لحرارة البدن ، والمكيف هنا هو الغدة العرقية ، لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن ، وسطح الجلد الذي يبلغ ٨ . ١ متر مربع تتفاوت فيه الغدد العرقية قلة وكثرة . والغدة العرقية هي أنبوب متعرج طويل لضخ سائل العرق الذي يمتاز بصفات خاصة ، ويبلغ إفرازه اليومي حوالي اللتر ، ومجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد حوالي ٤ – ٥ كيلو مترات .

١٥ – يقوم اللسان بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت ، فيه ١٧ عضلة تحركه إلى كافة الجهات ، وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد ٩٠٠٠ نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح ، وإن حركة اللسان في أي اتجاه ينتج حرفاً معيناً، وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة ، وأثناء المضغ والبلع تفرز ست غدد بفوهات ست اللعاب إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع ٣٦ جهاز قاطع وطاحن وهي الأسنان.

١٦ – يعتبر الكبد أكبر غدد البدن إذ يزن ١٥٠٠ غرام ، ويحوي ٣٠٠ مليار خلية يمكن أن تتجدد كلياً خلال أربعة أشهر ، فخلاياه أسرع من خلايا الجنين المعروفة بسرعة الانقسام ، ووظائف الكبد مدهشة ما بين مستودعات السكر والدهن والفيتامين ، أو احتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة ، أو تحويل الفضلات مثل النشادر الناتج عن

فضلات البروتين إلى مادة غير ضارة هي البولة ، ويبقى الكبد مركز التموين الرئيسي لسكر الدم ، وبروتينات الدم، والحفاظ على تخثره بتكوين مولد الليفين ، كما يقوم بإفراز الأصبغة ، وتكوين الكولسترول ذي الشخصيات السبعة .

١٧ – تزن الكلية الواحدة ١٥٠ غراماً ، فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم ، تسمى (النفرونات) ويرد إلى الكلية في مدى ٢٤ ساعة ١٨٠٠ ليتر من الدم ، ويتم رشح ١٨٠ ليتر منه ، ويعاد امتصاص معظمه ، ويطرح منه حوالي ١,٥ ليتر ، وهو المعروف بالبول . ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي ٥٠ كليو متراً ، وبهذه الطريقة يتم تصفية الدم من كل شوائبه وبشكل مدهش ، وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظف ليس مرة واحدة في اليوم ، بل ٣٦ مرة ويزيد ، ولا تقف وظائف الكلية عند التصفية بل فيها جهاز منبه مصنع العظام (النقي) لتنظيم إفراز عناصر الدم ، كما أن فيها جهازاً منظماً لضغط الدم بالتعاون مع الكبد ، وهي ما يسمى (بالهايبرتنسين) وفوق الكلية تتربع غدة تزن سبعة غرامات، وهي الكظر ، وتفرز من قشرها عشرات الهورمونات المنظمة للسكاكر والأملاح والماء في البدن ، ولإقرار شحنة الجنس كما أن لب هذه الغدة يفرز مادة الإدرينالين المنظمة لتوتر الدم .

١٨ – يضخ القلب يومياً ٨٠٠٠ ليتراً من الدم ، داخل الجملة الدورانية التي تمتد حوالي ١٥٠ كلم طولاً عبر أنسجة البدن كلها ، ناقلة الدم بما فيه من غذاء وأكسجين ، ويكفي أن نعرف حيوية النقل عندما يتخرب الدماغ بشكل لا رجعة فيه عندما ينقطع ورود الاكسجين

عنه لمدة خمس دقائق فقط .

١٩ – لا يمكن أن تتشابه بصمتان في العالم سواءٌ ما مر من تاريخ وجود الإنسان على الأرض أو حالياً ، أو ما يأتي في المستقبل من البشر، وذلك قوله تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ ، بل الأعجب من ذلك أن العلم الآن يستطيع أن يحدد المجرم من خلال وجود شعرة من شعرات رأسه ، فسبحان الله أحسن الخالقين ، خلق أجسادنا في أرحام أمهاتنا فصورها كيف يشاء ، ثم جعل لها أركاناً وجعل فيها عظماً ، وشق لها أسماعاً وأبصارا ، ونفخ فيها روحاً وهيأ لها رزقاً ، ثم يَسَّر خروجها ، وأذن بوجودها (كتاب الطب محراب الإيمان) .

* أعد النظر في نفسك *

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – : (فاعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية : من الذي دبرك بالطف التدبير وانت جنين في بطن أمك ، في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر عنك ، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات ، وقلب ذلك الدم لبناً ، ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وابعدها من حلية التكسب والطلب حتى إذا كَمُل خلقك واستحكم ، وقوي أديمك على مباشرة الهواء ، وبصرك على ملاقاة الضياء ، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء : هاج الطلق بأمك فازعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى اعالم الابتلاء ، فركَضك الرحم ركضةً منه كأن لم يضمك قط ، ولم يشتمل عليك ، فيا بُعد ما بين ذلك

القبول والاشتمال حين وُضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والإخراج ، فكان مُبتهجاً بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك .

فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت ، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكمُلت ، ثم فتح لك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر؟! لم يخنقك ضيقه ، ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ، فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب ! فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نُطفة حتى لا تفسد هناك ، ثم أوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليماً ، إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضعيفاً لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال ، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم ، فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ، ثم ساقه إلى تلك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطُرق قد تهيات له ، فلا يزال واقفاً في طرقه ومجاريه حتى يستوفي ما في الخزانة فيجري وينساق إليك ، فهو بئر لا تنقطع مادتها ، ولا تنسد طرقها ، يسوقها إليك في طرق لا يهتدي إليها الطواف ، ولا يسلكها الرجال .

فمن رققه لك وصفّاه وأطاب طعمه وحسّن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام ؛ لا بالحار المؤذي ، ولا بالبارد الرديء ، ولا المر المالح ، ولا الكريه الرائحة؟! بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن ، فوافاك في أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء ، فحين تولد قد تلمّظت وحرّكت شفتيك للرّضاع فتجد الثدي المعلق كالإداوة قد تدلى إليك وأقبل بدرّه عليك ، ثم جعل في رأسه تلك الحلمة التي هي بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولا

يتعب بالتقامها ، ثمّ نقب لك في رأسها نقباً لطيفاً بحسب احتمالك ، ولم يوسّعه فتختنق باللبن ، ولم يضيقه فتمصّه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك .

فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها؟! فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على مدى الأنفاس ، منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان ، تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها ، وأنه لم يطرقك منه شيءٌ ، وأن حياتها تزاد في حياتك ، فمن الذي وضع ذلك في قلبها حتى إذا قوي بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك ، وضع في فيك آلة القطع والطحن ، فنصب لك أسناناً تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها؟! فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعك رحمةً بأمك ولطفاً بها ، ثم أعطاكها أيام أكلك رحمةً بك وإحساناً إليك ولطفاً بك ، فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس ، كيف كان حال أمك بك؟ ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تُسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها؟ وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة زيد لك في تلك الآلات حتى تنتهي إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ، ثم إذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس .

فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء؟! .

ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً ، بل غبياً لا عقل ولا فهم ولا علم ، وذلك من رحمته بك ؛ فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع ، بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئاً فشيئاً ، فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة ، بل يُصادفك يسيراً يسيراً حتى يتكامل فيك .

واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سُبي صغيراً من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فإنه لا يُؤلمه ذلك ، وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشقّ عليه وأصعب ، حتى إذا كان عاقلاً فلا تراه إلا كالواله الحيران .

ثم لو ولدت عاقلاً فهيماً كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص ، وتنكدت أعظم تنكيد ، لأنك ترى نفسك محمولاً رضيعاً معصباً بالخرق مربطاً بالقمط مسجوناً في المهد عاجزاً ضعيفاً عما يحاوله الكبير ، فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام في هذه الحالة؟ ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل ، بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولاً ، وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي لا تعقل شيئاً ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ، ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئاً فشيئاً حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحُسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها .

دبرت أمرك عندما
كنت الجنين ببطن أمّك

وعليك قد حننتها
حتى لقد جادت بضمّك
إنا لكافوك الذي
يأتي بهمك أو بغمّك
فاضرع إلينا ناهضاً
ناخذ بكفك في مهمّك

* المخ سنترال عظيم *

يقول الدكتور مصطفى محمود في كتابه «لغز الحياة» في صدد الكلام عن مخ الإنسان :

(المخ سنترال عظيم ، فيه مائة الف مليون خط عصبي قادمة إليه من مختلف أماكن الجسد . والعصب البصري وحده فيه مليون خط عصبي قادم إليه من العين ، وقس على ذلك باقي الأعصاب .

وكل هذه الخطوط تلتقي في الدماغ ، حيث يقوم المخ بتحليل رسائلها والرد عليها باجوبة وافعال فورية .

وبالإضافة إلى هذه الخطوط نجد آلاف الملايين من الخطوط الأخرى التي تقوم بدور الترابط في داخل السنترال نفسه بين مختلف المراكز ، حيث يقوم المخ بدور آخر هو التفكير بالإضافة إلى ردود الفعل التي يجيب بها على كل صنوف التنبيهات والحواس الهامة في المخ لها مراكز محددة وسنترالات أصغر خاصة بها .

فالمركز البصري يقع في مؤخرة الدماغ ، ومراكز اللمس والسمع على الجانبين ، ومراكز الحركة في المنتصف ، ومراكز التوازن أسفل الدماغ في فصوص صغيرة خاصة بها اسمها « المخيخ » ومراكز التنفس والدورة الدموية في أعلى الحبل الشوكي عند اتصاله بالمخ ، أما التفكير والخيال والتصور والذاكرة وإدراك المستقبل والإحساس بالكيان والتدبر والعزم والتخطيط فلها فص أمامي هائل (خلف الجبهة) خاص بها ولا مثيل له في الحيوان .

وهكذا كل نشاط له مركز خاص حتى العاطفة والغريزة والجنس والألم واللذة والنوم لها مراكزها ، وفي كل مركز ملايين الخلايا ساهرة موظفي « السويتش » في حالة يقظة دائمة تجيب وتستجيب لأدق الهمسات العصبية وفي كل لحظة تتدفق ملايين الإشعارات والرسائل العصبية من الجلد والعين والأذن والأنف ومن الاحشاء والقلب والأوعية الدموية والكبد والرئتين ، وكل مكان بالجسد حاملة المعلومات والتنبيهات إلى المخ ، هذا بالإضافة إلى خطوط الترابط الداخلية في المخ نفسه بين المراكز المختلفة ، وهي الخطوط التي تقوم بالتنوير الضروري بين مختلف المراكز .

وفي نفس اللحظة تحمل ملايين الخطوط العصبية الصادرة عن المخ ردود الأفعال على هذه التنبيهات على شكل أوامر بالحركة إلى العضلات وتعليمات بالإفراز للغدد المختلفة وإثارات باتخاذ إجراءات سلوكية معينة لكل عضو ، هذا النشاط المعقد هو عمل المخ ودوره) آهـ .

أليس هذا داخلاً تحت قوله تعالى : ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

وهل يمكن أن يكون ذلك كله من صنع الحكيم الخبير القائل : ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

* ألم نجعل له عينين *

قال تعالى ممتناً على الإنسان : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين ﴾ .

النعم كلها دقيقها وجليلها من الله جل وعلا ، ولكن الإنسان يغفل أو يتغافل في أحيان كثيرة ، ويتنكر للمنعم ، ويتناسى المتفضل ، وينفرّ بما أوتي ، فلا يشكر الله على ما انعم ، ولا يحمده على ما أعطى . أو يشكر شكراً باللسان ويتجاهل عمل الاركان ، والواجب ان يكون الشكر قولاً وعملا : ﴿ اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ .

إن الله جل وعلا زوّد الإنسان بجوارح ، وكمّله بخصائص ، وجمّله بعقل يتدبر ، وفكر يتأمل ، أعطاه العينين ، وأعطاه اللسان والشفتين ، ودله على طريقين ، وهو بما أوتي من خصائص يختار أحدهما إما الخير وإما الشر إما الشكر وإما الكفر .

ورد في هذه الآية ذكر العينين واللسان والشفتين ، ووردت في آية أخرى مماثلة لهذه الآية إلا انه ذكر فيها النظر والسمع ، ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا * إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ﴾ ، فهذه هي منافذ الفكر ، ورسل القلب ، ومميزات الإنسان ، إما شاكر لنعمة الخلق بأن يوحد الخالق ، وشاكر لنعمة السمع فلا يسمع إلا ما يرضيه ، وشاكر لنعمة البصر بأن يطلقه فيما يقرب إليه ، وإما كفور بنعمة الخلق فيعبد غير الخالق ، كفور بنعمة السمع فلا يسمع إلا ما يغضبه ، كفور بنعمة البصر فلا يرى إلا ما حرّم عليه .

هاتان الآيتان وردتا مرتبطتين ببيان الطريقين ، وإيضاح السبيلين ،

والهداية للنجدين ، وفيهما لفتة لطيفة وهي أنه ذكر في الآية الأولى : ﴿ فجعلناه سميعاً بصيرا ﴾ ذكر السمع قبل البصر ، وفي الآية الثانية – في ترتيب المصحف – ذكر ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين ﴾ ، فذكر البصر قبل اللسان ، وكأن في ذلك إشارة إلى أن المرء يجب عليه أن يستمع إلى داعي **الله** وإلى نداء الحق ، ثم يطلق بصره متأملاً في الكون ليرى ما يصدق براهين الربوبية ، ودلائل الوحدانية التي سمعها وذُكّر بها ، فإذا أطلق بصره في الكون ورأى شواهد العظمة فالواجب عليه أن يطلق لسانه مسبحاً ذاكراً شادياً بجلال صاحب العظمة ، وإذا نظر إلى ما يغضب **الله** فيجب أن يترنم بالاستغفار والتوبة .. و**الله** أعلم .

أما الآيات التي تتحدث عن امتنان **الله** جل وعلا على خلقه بنعمه العظيمة من إحسان الخلق ، وإعطاء السمع والبصر ، وإتمام العقل ، وإغداق الرزق ، فهي كثيرة جداً : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ ، وقد بين جل وعلا أن هذه النعم مما يسأل عنه المرء ويحاسب عليه ، بل سوف تنطق هي بما فعلت : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ .

إن البصر من أعظم نعم **الله** على الإنسان ، هاتان العينان الجميلتان ، الدقيقتان في تركيبهما وقدرتهما على الإبصار ، وما أودع **الله** فيهما من دلائل العظمة ، وإن اللسان من أعظم النعم على الإنسان ، وقد جاء ذكرهما والتذكير بهما في هذه الآية : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين ﴾ لأمرين هامين :

الأول : بيانٌ للإنسان أن **الله** يعلم كل صغيرة وكبيرة ، فلا تخفى عليه

خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم زلات اللسان ، وخطرات الوجدان ، وكيف لا يكون كذلك جل وعلا وهو الذي منح الإنسان البصر ، ومنحه اللسان ، فكيف يغفل الإنسان عن مراقبة الديان : **﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾** ، ولذلك جاء التذكير بهذه النعمة بعد قوله تعالى : **﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾** .

الثاني : أن البصر واللسان من أجل النعم على الإطلاق ، العينان ينظر بهما المرء ، ويرى بهما الحياة ، وينظر في صفحات هذا الكون فيرى آيات الجمال ، ودلائل الإبداع ، وشواهد القدرة ، وموجبات الإيمان.

واللسان والشفتين هما أداة التعبير ، وسبيل المفاهمة وطريق التعايش وآلة البيان والتعبير ، فالإنسان لولا البيان آلة معطّلة ، أو بهيمة مهملة ، باللسان والشفتان يمكن للمرء أن يبلغ أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة ، بل ربما بكلمة واحدة يرفع الله المرء إلى أعلى عليين .

ونعمتا البصر والنطق هما في الوقت ذاته من أخطر الأشياء على الإنسان ، ومن أفتك الجوارح به ، فأغلب نكبات الإنسان إن لم تكن جميعاً هي بسبب العين أو بسبب اللسان .

لخطر العين أمر الله المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ، لأن إطلاق البصر يجر المرء إلى كوارث جمة ، ولذلك قرن الأمر بغض البصر في الآية بحفظ الفرج ، لأن البصر أصل في حفظ الفرج ، وبين تعالى أن ذلك أزكى للقلوب وأطهر للنفوس : **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا**

فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ .

من فوائد غضّ البصر :

ولغض البصر فوائد عظيمة ، ومنافع جمّة ، وثمرات يانعة ، يقطفها المرء في الدنيا والآخرة ، من ذلك :

١ - تخليص القلب من ألم الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضرُّ شيء على القلب إرسال البصر ، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ، ولا وصول له إليه ، وذلك غايةُ ألمه وعذابه ، قال الأصمعي : رأيت جارية كأنها مهاةٌ ، فجعلتُ أنظر إليها ، وأملأُ عيني من محاسنها ، فقالت لي : يا هذا ما شأنُك؟ قلت : وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول :

وكنتَ متى أرسلت طرْفك رائداً
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلّه أنت قادرٌ
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والنظرة تفعل في القلب ما يفعلِ السهم في الرمية ، فإن لم تقتله جرحته ، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس ، فإن لم تُحرقه كله أحرقت بعضه ، كما قيل :

كلُّ الحوادث مبداها من النظر
ومُعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها
تلك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلّبُها
في أعين الغيد موقوف على الخطر
يَسُرّ مقلته ما ضرّ مهجته
لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

والناظر يرمى من نظره بسهام تُصوَّب إلى قلبه وهو لا يشعر ، فهو إنما يرمي قلبه ، ويطعن فؤاده ، ويمزق أحشاءه

متيم يرعى نجوم الدجى
يبكي عليه رحمةٌ عاذلُهْ
عيني أشاطت بدمي في الهوى
فابكوا قتيلاً بعضه قاتله

ويقول آخر :

وأنا الذي اجتلب المنية طرفُه
فمن المطالبُ والقتيلُ القاتلُ؟

وقال آخر :

إذا أنت لم ترع البروق اللوامحا
ونمت جرى من تحتك السيل سائحا
غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته
وأهملته مستانساً مُتسامحا
ولم تدر حتى أينعت شجراتُه
وهبّت رياح الوجد فيه لواقحا
فأمسيت تستدعي من الصبر عازباً
عليك وتستدني من النوم نازحا

وقال آخر :

يا من يرى سُقمي يزيـ ـد وعلّتي أعيت طبيبي
لا تعجبن فهكذا تجني العُيون على القلوب

٢ – إن غضَّ البصر يورث نوراً للقلب ، وانشراحاً للصدر ، وجلاءً للبصيرة ووضوحاً في الرؤية ، ويجعل الإنسان أكثر إيماناً وأكثر يقيناً وأكثر استمتاعاً بالنظر الأجمل ، والنور الأكمل ؛ نور **الله** جل وعلا . والحكمة معينة جاء بعد هذه الآيات قوله تعالى : ﴿**الله** نور السماوات والأرض﴾ ، **فالله** تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه ، فلما منع العبد نور بصره أن ينفُذ إلى ما لا يحل له ، أطلق **اللهُ** نورَ بصيرته ، وفتح عليه باب العلم والمعرفة .

٣ – إن العين مرآة القلب ، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق العبد بصره أطلق القلب شهوته ، إن النظرات كلما تواصلت وكثرت كانت كالماء يسقي الشجرة ، فلا تزال تنمو حتى يفسد القلب ويُعرض عن الفكر فيما أمر به ربه ، ويخرج بصاحبه إلى المحن ، ويوقعه في الفتن .

يقول الإمام أحمد – رحمه **الله** – : (كم نظرة قد ألقت صاحبها في البلابل) .

٤ – أنه يورث صحّة الفراسة ، فإنها من النور وثمراته ، وإذا استنار القلبُ صحّت الفراسةُ .

٥ – أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ، ويسهّل عليه أسبابه ، وذلك بسبب

نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات ، وانكشفت له بسرعة ، ونفذ من بعضها إلى بعض . ومن أرسل بصره تكدّر عليه لبُه وأظلم ، وانسدّ عليه بابُ العلم وطُرُقه .

٦ – أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة .

٧ – أنه يُورث سروراً وفرحاً ، وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر ، وذلك لقهره عدوّه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه ، وأيضاً فإنه لما كفّ لذته وحبس شهوته لله ، وفيها مسرّةُ نفسه الأمّارة بالسوء ، أعاضه الله سبحانه مسرّةً ولذة أكمل منها ، كما قال بعضهم : والله لَلَذّةُ العفة أعظم من لذة الذنب ، ولا ريب ان النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى .

٨ – أنه يسدّ عنه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر بابُ الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل .

٩ – أنه يقوّي عقله ويزيده ويثبّته ، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب .

وأعقل الناس من لم يرتكب سبباً
حتى يُفكّر ما تجني عواقبه

١٠ – أنه يُخلّص القلب من سُكر الشهوة ورقدة الغفلة ، فإن إطلاق البصر يُوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ، ويوقع في سكرة العشق ، كما قال الله تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ .

١١ – أنه سبب لمرضاة الله تعالى ونيل كرامته ، والفوز بجنته ، والتلذذ برؤية أكمل مطلوب ، وأجمل محبوب ، وهو وجهه الكريم جل وعلا .

يقول ﷺ : « اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدّثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدّوا إذا اؤتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضّوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » .

وقد وردت عدّة أحاديث في الأمر بغض البصر وبيان خطورته .

ويقول ابن مسعود – رضي الله عنه – : (حفظ البصر أشد من حفظ اللسان) .

ويقول أحد العلماء : (لا تُتْبع بصرك حُسن ردف المرأة ، فإن النظر يجعل الشهوة في القلوب) .

ويقول العقلاء : (من سرّح ناظره أتعب خاطره ، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته ، وضاعت عليه أوقاته ، وفاضت عبراته) .

إن غض البصر شيمة العقلاء ، وديدن الشرفاء ، ولذلك يقول عنترة وهو رجل جاهلي :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

فأين كثير من المسلمين عن هذا الخلق الرفيع ، والأدب الجميل :

يا وجه عنترة العبسي معذرة
إني أراك كسيف البال مكتئبا
أراك تنكر قوماً كنت تعرفهم
وتنكر الوجه والأخلاق والنسبا

كأنما لم تجد ما كنت تعهده
من غيرةٍ وحياءٍ يبلغ السحبا
ذاك امرؤٌ جاهليٌ ما رأى خلقاً
من النبي ولم يستنطق الكتبا
لكنه العربي الشهم يمنعه
حياؤه من صفات تحرق الادبا

يقول بعض السلف : (من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته) .

لا تعجب إذاً إن لم تجد للطاعة حلاوة ، وللعبادة لذة ، وللذكر نشوة ، وللقلب بصيرة ، وللنفس فرقاناً ، فإن من أهم أسباب منع الانس بذلك هو إطلاق البصر فيما يصرف عن الحبيب القريب ، والسميع المجيب .

فالنظرة الغاشمة سهم من سهام إبليس ، والعين تزني وزناها النظر ، ومتى أطلق البصر فقد حصل الخطر .

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

كم من إنسان تبدد قلبه ، واحترق فؤاده ، وتمزقت كبده ، بسبب عينيه .

كأن قطاةً علّقت من جناحها
على كبدي من شدّة الخفقان

وهذه أبيات رائعة لأحد قتلى النظر ، وضحايا البصر ، يقول :

يقول طرفي لقلبي هِجْتَ لي سقماً
والعين تزعمُ أنّ القلب أنكاها

والجسم يشهد أن العين كاذبةٌ
وهي التي هيّجت للقلب بلواها
لولا العيونُ وما يجنين من سقمٍ
ما كنتُ مُطّرحاً من بعض قتلاها
فقالت الكبدُ المظلومةُ اتّئدا
قطّعتُماني وما راقبْتُما اللهَ

ما ظنك بمن ضجّ سمعُه ، وكلّ بصره وهو ينظر إلى الحرام ، ويتابع سيء الأفلام ، ويطلق العنان لسمعه وبصره في الآثام ، هل راقب الخالق ، أو شكر المنعم أو استحيى من ملك الملوك؟ يسمع الفاتنات ، ويدقق النظر في الغانيات ، ويتأمل مفاتن السافرات : **﴿حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾** ، **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾** .

ولخطر اللسان بين تعالى أن المرء محاسب على كل ما يقول : **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** ، ويقول ﷺ لمعاذ بن جبل : **« كف عليك هذا»** وأشار إلى لسانه ، ، فقال : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، قال : **« ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»** .

بل إن كلمة واحدة قد يقولها المرء لا يلقي لها بالاً تهوي به في جهنم سبعين خريفاً .

﴿ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين﴾ .. اللسان مزود بسبع عشرة عضلة تسمح له بحركة كبيرة ، ونسيج الشفتين نسيج خاص بتشكل حسب الحاجة ، وهذه المرونة التي يتمتع بها نسيج اللسان ونسيج الشفتين هي التي أتاحت له القيام بوظيفتين مختلفتين «الأكل والكلام» .

إن القلب ملك الجوارح واللسان ترجمانها قال ﷺ : «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفّر اللسان تقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا» .

باللسان يُسَبِّح الواحد الاحد ، ويذكر الفرد الصمد ، ويدعى إلى الإيمان ، ويُحث على الفضيلة ويُحذر من الرذيلة وتقام الحجة على المُعْرِض ويُبين الهدى ، ويُردّ عن الردى ، قال ﷺ : «من وقاه الله شر ما بين لحييه ، وشر ما بين رجليه دخل الجنة»

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعان

يقول ﷺ : «إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه» .

ويقول إبراهيم التيمي – رحمه الله – : (المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر ، فإن كان كلامُه له تكلم ، وإن كان عليه امسك عنه ، والفاجر إنما لسانُه رسْلاً رَسْلا) .

تكلم وسدد ما استطعت فإنما
كلامك حيٌ والسكوت جماد

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله
فصمتك عن غير السداد سداد

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّاتنا أبداً ما أحييتنا ، واجعله الوارث منّا .

كأن رقيباً منك يرعى جوانحي
وآخر يرعى مسمعي وجناني
ولم أطلق العينين فيما نهيتني
ولم يرتضي سوء الكلام لساني

* أفلا يتدبرون القرآن *

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

*إن من الشعر لحكمة *

وهذه أبيات رائعة للشاعر إبراهيم بريول – رحمه الله – :

بك أستجيرُ فمن يجيرُ سواكا
فأجرْ ضعيفاً يحتمي بحماكا
إني ضعيفٌ أستعين على قوى
ذنبي ومعصيتي ببعض قواكا
أذنبتُ يا ربي وآذتني ذنوب
ما لها من غافر إلا كا
دنيايَ غرَّتني وعفوُك غرَّني
ما حيلتي في هذه أو ذاكَ
يا مدرك الابصاروالأبصار لا
تدري له ولكُنْهِه إدراكا
إن لم تكن عينيْ تراك فإنني
في كل شيء أستبين عُلاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشذا
هذا الشذا الفواح نَفْحُ شذاكا
ربّاهُ ها أنذا خلصت من الهوى
واستقبل القلب الخِليُّ هواكا
وتركتُ أنسي بالحياة ولهوها
ولقيتُ كَل الانس في نجواكا
ونسيتُ حبي واعتزلت أحبتي
ونسيت نفسي خوف أن أنساكا

أنا كنت يا ربي أسير غشَاوةٍ
رانتْ على قلبي فضل سناكا
واليوم يا ربي مسحت غشاوتي
وبدأتُ بالقلب البصير أراكا
يا غافر الذنب العظيم وقابلاً
للتوب قلب تائب ناجاكا
يا رب جئتك ثاوياً أبكي على
ما قدمته يداي لا أتباكى
أخشى من العرض الرهيب عليك يا
ربي وأخشى منك إذ ألقاكا
يا رب عدت إلى رحابك تائباً
مستسلماً مستمسكاً بعراكا
ما لي وما للأغنياء وأنت يا
ربي الغني ولا يُحد غناكا
ما لي وما للأقوياء وأنت يا
ربي عظيم الشان ما أقواكا
إني أويت لكل مأوى في الحياة
فما رايت أعز من مأواكا
وتلمستْ نفسي السبيلَ إلى النجاة
فلم تجد منجىً سوى منجاكا
وبحثتُ عن سِرِّ السعادة جاهداً
فوجدت هذا السر في تقواكا

فليرض عني الناس أو فليسخطوا
أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا
أدعوك يا ربي لتغفر حوبتي
وتعينني وتمدني بهداكا
فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي
ما خاب يوماً من دعا ورجاكا
يا رب هذا العصر ألحد عندما
سخَّرت يا ربي له دنياكا
ما كان يطلق للعلا صاروخه
حتى أشاح بوجهه وقلاكا
أو ما درى الإنسان أن جميع ما
وصلت إليه يداه من نعماكا
يا أيها الإنسان مهلاً و اتَّئِدْ
واشكر لربك فضل ما أولاكا
أفإن هداك بعلمه لعجيبة
تزورُّ عنه وينثني عِطفاكا
قل للطبيب تَخَطَّفَتْه يَدُ الردى
يا شافي الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعدما
عجزت فنون الطب ، من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة
من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟

قل للجنين يعيش معزولاً بلا
راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا
عند الولادة ما الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه
فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو
تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
شهداً وقل للشهد من حلاكا؟
بل سائل اللبن المصفى كان
بين دم وفرث ما الذي صفاكا؟
وإذا رأيت الحي يخرج من
ثنايا ميت فاسأله من أحياكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى
عن عيون الناس من أخفاكا؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشراً
أنواره فاسأله من أسراكا؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى
فاسأله من يا نخل شق نواكا؟
وإذا رأيت النار شب لهيبها
فاسأل لهيب النار من أوراكا؟

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً
قمم السحاب فسله من أرساكا؟
وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه فسله
من بالماء شق صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى
فسله من الذي أجراكا؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى
فسله من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيا
فاسأله من يا ليل حاك دجاكا؟
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً
فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هذي العجائب طالما أخذت بها
عيناك وانفتحت بها أذناكا
والله في كل العجائب مبدع
إن لم تكن لتراه فهو يراكا
يا أيها الإنسان مهلاً مالذي
بالله جل جلاله أغراكا
فاسجد لمولاك القدير فإنما
لا بد يوماً تنتهي دنياكا
وتكون في يوم القيامة ماثلاً
تجزى بما قد قدُمته يداكا

* اعتبروا يا أولي الألباب *

يقول الإمام حسن البنا – رحمه الله – : (أنت إذا نظرت إلى هذا الكون وما فيه من بدائع الحكم ، وغريب المخلوق ، ودقيق الصنع ، وكبير الإحكام ، مع العظمة والاتساع ، والتناسق والإبداع ، والتجدد والاختراع ؛ ورأيت هذه السماء الصافية بكواكبها وأفلاكها وشموسها وأقمارها ومداراتها ؛ ورأيت هذه الأرض بنباتها وخيراتها ومعادنها وكنوزها وعناصرها وموادها ، ورأيت عالم الحيوان وما فيه من غريب الهداية والإلهام ، بل لو رأيت تركيب الإنسان وما احتواه من أجهزة كثيرة ، كلٌ يقوم بعمله ، ويؤدي وظيفته ، ورأيت عالم البحار وما فيه من عجائب وغرائب ، وعرفت القُوى الكونية وما فيها من حكم وأسرار من كهرباء ، ومغناطيس ، وأثير ، وراديوم ، ثم انتقلت من النظر إلى ذوات العالم وأوصافها ، إلى الروابط والصِّلات فيما بينها ، وكيف أن كلاً منها يتصل بالآخرة اتصالاً محكماً وثيقاً ، بحيث يتألفُ من مجموعها وحدة كونية ، كلُّ جزءٍ منها يخدم الأجزاء الأخرى ، كما يخدم العضو في الجسم الواحد بقية الأعضاء ، لخرجت من كلِّ ذلك – من غير أن يأتيك دليلٌ أو برهانٌ ، أو وحي أو قرآن – بهذه العقيدة النظرية السهلة ، وهي : أن لهذا الكون خالقاً صانعاً موجداً ، وأن هذا الخالق لا بد أن يكون عظيماً فوق ما يتصور العقل البشريُّ الضعيف من العظمة ، وقادراً فوق ما يفهم الإنسان من معاني القدرة ، وحيّاً بأكمل معاني الحياة ، وأنه مستغنٍ عن كلِّ هذه المخلوقات ؛ لأنه كان قبل أن تكون ، وعليماً بأوسع حدود العلم ، وأنه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها ، وأنه قبل هذه الموجودات لأنه خالقها ، وبعدها لأنه الذي سيحكم عليها بالعدم ؛ وإجمالاً سترى نفسك مملوءاً بالعقيدة بأن

خالق هذاالكون ومدبِّره : متصفٌ بكلِّ صفات الكمال ، فوق ما يتصورها العقل البشري الصغير ، ومنزَّهٌ عن كل صفات النقص ؛ وسترى هذه العقيدة وحي وجدانك لوجدانك ، وشعور نفسك لنفسك : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ .

ونسوق إليك بعد هذه المقدمة بعض غرائب الحوادث في هذا الكون ، وسترى أنها - على قلتها بالنسبة لعظمة الكون وما في من دقة وإحكام - ستكون كافية لأن تشعر في نفسك بما قدَّمتُ لك .

الملاحظة الأولى :

هذا الهواء الذي نستنشقه مركبٌ من عدة عناصر ، منها جزءان هامان : جزء صالح لتنفس الإنسان ، ويُسمَّى باصطلاح الكيميائيين الأوكسجين ، وجزء ضار به ويُسمَّى الكربون ، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسُه النباتُ وهو نافع له ، ففي الوقت الذي يكون الإنسانُ فيه يستنشق الأوكسجين ويطردُ الكربون يكون النباتُ يعمل عكس هذه العملية ، فيستنشق الكربون ويطرد الأكسجين ، فانظر إلى الرابطة التعاونية بين الإنسان والنبات في شيء هو أهم عناصر الحياة عندهما ، وهو التنفس . وقل لي بعد ذلك ؛ هل يفعل هذا الكون العظيم غيرُ عظيم قادر واسع العلم ، دقيق الحكمة؟ .

الملاحظة الثانية :

أنت تأكل الطعام ، وهو يتركبُ من عدة عناصر نباتية أوحيوانية ، يقسمها العلماء إلى مواد زُلالية ، أو نشوية ، أو دهنيَّة مثلاً ، فترى أن الريق

يهضم بعض المواد النشوية ، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزُلالية كاللحم وغيره ، والصفراء المفرزة من الكبد تهضم الدهنيات ، وتجزئُها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها ، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة : النشوية ، أو الزلالية ، أو الدهنية ، والرابعة تحول اللبن إلى جبن ، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري ، وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان .

الملاحظة الثالثة :

ترى الزهرة في النبات فترى لها أوراقاً جميلة جذّابةً ملونةً بألوان بهيجةٍ ، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك ، أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة ، حتى إذا وقف على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها ، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح . فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج! .

كل ما في الكون ينبئك بوجود حكمة عالية ، وإرادة سامية ، وسيطرة قوية ، ونواميس في غاية الدقة والإحكام يسير عليها الوجود ، وربُّ هذه الحكمة ، وصاحب هذه العظمة ، وواضع هذه النواميس هو : **الله** .

* علماء الغرب وفلاسفته والإيمان بالله *

الإيمان **بالله** تعالى هو أساس الأمن والفلاح ، والسعادة والنجاح ، والطمأنية والارتياح . والكفر **بالله** تعالى ضلال وضياع ، ودمار وهلاك ، ونكد وقلق ، وجحيم وشقاء ، ولست تجد أطيب قلباً ، ولا أشرح صدراً، ولا أصفى ذهناً ، ولا أهنأ عيشاً من المؤمنين **بالله** إنهم يعيشون سعادةً لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدوهم عليها بالسيوف .

﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ..﴾

إن الإيمان نور ، نور في القلب ، ونور في الجوارح ، ونور في الحواس . نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والاحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد . فالمؤمن ينظر بهذا النور ، نور **الله** ، فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها ، ولا يخبط في طريقه ولا يلطش في خطواته! .

والإيمان بصر ، يرى . يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة . ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان.

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب ، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل! .

والإيمان حياة . حياة في القلوب والمشاعر . حياة في القصد والاتجاه . كما أنه حركةٌ بانية . مثمرة . قاصدة . لا خمود فيها ولا همود . ولا عبث فيها ولا ضياع .

إن المؤمن ليس بحاجة إلى من يؤكد له وجود **الله** تعالى ، أو يشرح له ضرورة الإيمان ، ولكنني أورد هنا مقاطع وكلمات وشهادات واعترافات

لبعض رجال العلم ، وأهل الفكر ، وأرباب الفلسفة .

هذا الطبيب النفسي الأمريكي الشهير الدكتور « هنري لنك » الذي كفر بالدين ، وحارب الإيمان ، وانكر وجود الإله ، عاد بعد رحلة طويلة ، وتجارب عديدة ، عاد إلى رحاب الإيمان ، وله مقالات عديدة وشهادات فريدة ، ومما قال : (الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة ، هذه القوة هي قوة الله ، مدبر الكون ، خالق السموات ، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الإلهي الذي سنه الله في كتبه المتعاقبة ، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تغترف منه الحقائق الدينية ، وهي اسمى في مرماها من العلوم كلها مجتمعة) .

ويقول : (لقد أدت دراستي العميقة للأفراد إلى مشاهدتي ذلك القبس المضيء من نور الهداية . وسواء كان أمل الإنسان هو في الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الاقتصادي أو الاطمئنان الاجتماعي أو السعادة الزوجية ، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حرباً لا هوادة فيها ، توقد جذوتها عدة من المثل العليا العملية الصادقة .

فالدين الذي أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء ، ولكنه سلاح الأقوياء فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها ، لا فريستها وعبدها الخانع) .

ويقول أحدهم : (إن العالم في حقيقة أمره يزيد عجائبنا ولا يحلها ، هذا الفلكي بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلته ، ماذا صنع؟ أبان بأن ملايين النجوم في السماء بالقوة المركزية بقيت في أماكنها أو أتمت دورتها ، كما أن

قوة الجاذبية في العالم حفظت توازنها ، ومنعت تصادمها ، ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم ، ويبينوا حجمها وسرعتها وبُعدها عن الأرض ، فزادونا عجباً . ولكن ما الجاذبية ؟ وكيف وجدت؟ وما القوة المركزية ؟ وكيف نشأت؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد؟ أسئلة تخلى عنها الفلكي لما عجز عن حلها ، وأبان الجيولوجي لنا من قراءة الصخور كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت؟ وكم الاف من السنين مرّت عليها في عصرها الجليدي ، وكيف غمرت بالماء؟ وكيف ظهر السطح؟ وأسباب البراكين والزلازل ، وكذلك فعل علماء الحياة في حياة الحيوان ، وعلماء النفس في نفس الإنسان ، ولكن هل شرحوا إلا الظاهر ، وهل زادونا إلا عجباً؟ سلهم كلهم بعد السؤال العميق الذي يتطلبه العقل دائماً وهو : من مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التي شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها؟ أتاليف ولا مؤلف ، ونظام ولا منظم ، وإبداع ولا مبدع؟ من أنشأ في هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه؟ من عقله الذي يدبره) .

(إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً للمبدع ، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر ، وكلما تكشفت أسرار العالم ، وتكشفت وحدته ووحدة تدرجه ووحدة نظامه وتدبيره ، كان الإنسان أشد عجباً ، وأشد إمعاناً في السؤال ، وليس يقنعه بعد كشف العلم عن أسرار العالم وعجزه عن شرحها وتعليلها إلا أن يهتف من أعماق نفسه : «إنه **الله** رب العالمين) .

يقول الأستاذ «هوشل» :

(كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود

خالق أزلي ، لا حد لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة **الله** وحده) .

وأفاض « هربرت سبنسر » في هذا المعنى في رسالته في « التربية » إذ يقول :

(العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لا يناقض الدين نفسه ، يوجد في كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة ، ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية ، ورسب في أعماق الحقائق ، براء من هذه الروح ، العلم الطبيعي لا ينافي الدين ، والتوجه إلى العلم الطبيعي عبادة صامتة ، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي نعانيها وندرسها ، ثم بقدرة خالقها ، فليس ذلك التوجه تسبيحاً شفهياً ، بل هو تسبيح عملي ، وليس باحترام مدعى ، وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل ، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم الإنسان استحالة إدراكه كنه السبب الأول ، وهو : « **الله** » ، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التي لا يستطاع اجتيازها ، ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك يرينا بكيفية لا تعادل صغر عقل الإنسان إزاء ذلك الذي يفوت العقل ...) .

ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما ذهب إليه فقال :

(إن العالم الذي يرى قطرة الماء ، فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والهيدروجين بنسبة خاصة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء ، يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته ، وعلمه الواسع بأشد

وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب ، وكذلك العالم الذي يرى قطعة البرد (قطعة الثلج الصغيرة النازلة مطراً) وما فيها من جمال الهندسة ، ودقة التصميم ، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ، ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البر) .

وهذا هو الدكتور « دي نوي » الطبيب العالم الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعي ، يقول :

(كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان **بالله** ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور « **الله** » إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور « الكهرب » ، فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل ، وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي وإنه – مع هذا– لأثبت في آثاره من قطعة الخشب) .

وهذا العالم الطبيعي « سير آرثر طومسون » المؤلف الإسكتلندي الشهير يقول : (إننا في زمن فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغو في التأويلات المادية) .

ويقول في مجموعة « العلم والدين » :

(فنحن نقرر عن رويّة أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن **الله** أنبل وأسمى ، ولا نجاوز المعنى الحرفي حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلي ، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث يتخطى

مدى الفهم ، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله) .

أما الكاتب الأمريكي الشهير « ديل كارينجي » صاحب كتاب « دع القلق وابدأ الحياة » ، فيقول :

(إنني يهمني الآن ما يسديه إليّ الدين من النعم ، تماماً كما تهمني النعم التي تسديها إلينا الكهرباء والغذاء الجيد ، والماء النقي ، فهذه تعيننا على أن نحيا حياة رغدة ، ولكن الدين يسدي إليّ أكثر من هذا . إنه يمدني بالمتعة الروحية ، أو هو يمدني – على حد قول « وليم جيمس » – بدافع قوي لمواصلة الحياة .. الحياة الحافلة ، الرحبة ، السعيدة ، الراضية . إنه يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة ، ويقصي عنا المخاوف والاكتئاب والقلق ، ويزودني بأهداف وغايات في الحياة ، ويفسح أمامي آفاق السعادة ، ويعينني على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا) .

أما « وليم جيمس » العالم النفسي الشهير ، فيقول :

(إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه – سبحانه وتعالى – تحققت كل أمنياتنا وآمالنا) .

وقال : (الإيمان من القوى التي لا بُد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة) .

وقال حين كان أستاذاً للفلسفة بجامعة هارفارد :

(إن أعظم علاج للقلق – ولا شك – هو الإيمان) .

ويعقب على ذلك « كارنيجي » بقوله :

(ولا يتحتم أن تتعلم في هارفارد لتدرك هذه الحقيقة ، فقد أدركها والداي في بيتهما الريفي المتواضع ، فما استطاعت الفيضانات ، ولا الديون ولا النوازل أن تنال من روحهما القوية ، المستبشرة الظافرة ويسعني الآن أن أتسمع فيتردد في أذني صوت أمي تترنم بالأغنية التالية ، بينما هي تدير شوون المنزل :

الأمان ، الأمان .. يا لروعة الأمان
إذ يسكبه في نفوسنا الرحيم الرحمن
إليك اللهم أدعو أن تحيطني بالأمان
فياضاً غامراً يملأ القلب والجنان »

ويقول « ديل كارينجي » أيضاً :

إني لأذكر تلك الأيام التي لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة ، فإن أحدث العلوم – وهو الطب النفسي – يبشر بمبادىء الدين . لماذا؟.

لان أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي ، والاستمساك بالدين ، والصلاة ، كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبي ، وأن تشفي أكثر من نصف الأمراض التي نشكوها . نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك ، وقد قال قائله الدكتور « أ . أ . بريل » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعاني مرضاً نفسياً قط » .

وعندي أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد . فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توقياً لعذاب الجحيم في الدار

الآخرة ، وإنما يوصوننا بالدين توقياً للجحيم المنصوب في هذه الحياة الدنيا جحيم قرحات المعدة ، والانهيار العصبي ، والجنون .. إلخ .

يقول الدكتور « كارل يونغ » - أعظم الاطباء النفسيين في هذا الجيل بأمريكا - في كتابه « الرجل العصري يبحث عن روح » :

(استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى ، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر - أي الخامسة والثلاثين أو نحوها - لا ترجع في أساسها إلى افتقادهم الإيمان ، وخروجهم على تعاليم الدين .. ويصح القول بان كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض ؛ لأنه حرم سكينة النفس التي يجلبها الدين - أي دين - ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة) .

لماذا يجلب الإيمان بالله ، والاعتماد عليه - سبحانه وتعالى - الأمان والسلام والاطمئنان؟ .

سادع « وليم جيمس » يجيب على هذا السؤال :

(إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق ، ولا تُقلق أمنه ، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله خليق بالا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة ؛ فالرجل المتدين حقاً عصيّ على القلق محتفظ أبداً باتزانه ، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف) .

الدين علاج للأمراض العقلية والعصبية :

ونشرت جريدة الجمهورية يوم السبت ٢٩ / ١١ / ١٩٦٢ م ، تحت عنوان : « العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية » :

(عزاء وسلوان لأولئك الذي تشبثوا بدينهم ، ولم يتزعزع إيمانهم في أحلك لحظات المدنية وأنصعها ، أقصد تلك اللحظات التي يتشدق فيها دعاة النظريات العتيدة ، وفي مقدمتها نظرية النشوء والإرتقاء « لداروين » ويتشدقون فيها بأن الدين بدعة ، وبان الإنسان يقف وحده في هذا الكون ، كما زعم « جوليان هاكسلي » .

إن علماء الأمراض العقلية لا يجدون اليوم سلاحاً أمضى ، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان **بالله** .. والتطلع إلى رحمة السماء والتشبث بالرعاية الإلهية . والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه !! .

لقد بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ ، والعقاقير المسكنة والمهدئة للأعصاب .

وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذي تعذر شفاؤهم .. بل فقدوا الأمل فيه ، انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء .. أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وهم مسلوبوا الإرادة ، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، ويذرفون الدمع ندماً ، وكلهم أمل في رحمة السماء ، ومغفرة **الله** .

واستسلم العلماء ، ورفعوا أيديهم إلى السماء ، يعترفون بضعفهم ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان ، وليس أبداً إلى الإلحاد) .

يقول الدكتور « بول أرنست أدولف » - أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جميعة الجراحين الأمريكيين - : (لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بُد أن يشمل الروح والجسم معاً في وقت واحد ، وأدركت أنه من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية ، إلى جانب إيماني **بالله** وعلمي به ، ولقد أقمت كلتا الحالتين على أساس قويم ، بهذه الطريقة وحدها ، استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه ، ولقد وجدت بعد تدبر عميق ، أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في **الله** هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة .

وقد وجدت أثناء ممارستي للطب أن تسلحي بالنواحي الروحية ، إلى جانب إلمامي بالمادة الطبية يمكنانى من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقية ، أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط ، فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج ، بل قد لا تبلغ هذا القدر .

فما هي الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية؟

إن من الأسباب الرئيسية لهذه الأمراض : الشعور بالإثم والخشية والحقد والخوف والقلق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم . ومما يؤسف له أن كثيراً من المشتغلين بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات ؛ لأنهم لا يلجأون في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى) .

فإذا كان بعض المثقفين في أوطاننا لا يصغون إلا لصوت يجيئهم من الغرب ، فإن عليهم أن يستمعوا وينصتوا لتلك الصيحات المخلصة ، التي

أطلقها أناس ليسوا بالأدعياء المتطفلين على العلم ، ولا بالسطحيين المحكومين بالعاطفة ، ولا بالخياليين المتعلقين بالأحلام ، الذين يسبحون في غير ماء . إنما هم « علماء » يحكمون منطق العلم العصري وحده ، القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء .

والعجب أن تصدر هذه الصيحات من بلد بلغ القمة في الارتقاء العلمي والغنى المادي ، والرخاء الاقتصادي ، واستطاع أن يضع أقدام أبنائه على سطح القمر ! بلد يؤمن بالمنافع العلمية ، والحياة الواقعية ، لا بالمدن الفاضلة والمثل الأفلاطونية . ولكن أعلامه – كما رأينا ينادون بضرورة التشبث بالإيمان ، وقاية وعلاجاً ، وزاداً وسلاحاً ، وهداية ونوراً ، وصاحباً ودليلاً .

فلنركل بقوة وإلى الأبد تلك الأكذوبة الكبرى ، التي يرددها هنا أناس لا يمتازون إلا بصفاقة الوجوه وعمى القلوب : أن العلم يناقض الإيمان ، أو يستغني عن الإيمان . هيهات هيهات لما يدعون) [نقلاً عن كتاب الإيمان والحياة للدكتور القرضاوي] .

هذه ثمرة الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته وحكمته بصرف النظر عن النهج المتبع والدين المقتفى ، فهذا بلا شك أرحم من الإلحاد بالله والكفر بوجوده ، فما بالك بمن رضي بالله رباً ، والقرآن منهجاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، إنها السعادة الأكمل ، والحياة الأجمل ، والراحة الأفضل ، والمصير الأمثل .

قال ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » .

* فبهت الذي كفر *

وجود **الله** جل وعلا امر ثابت في الانفس ، متمكن في الفطر ، مزروع في الأذهان ، مغروس في الأفئدة ، لا يحتاج إلى دليل ، ولا يتطلب إثبات ، ولا يفتقر إلى تأكيد .

وليس يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن بعض ذوي الفطر المنكوسة ، والأنفس المريضة ، والعقليات المتعنتة قد يجادلون في ذلك مع أنه مغروس في حقيقة ضمائرهم : **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾** ، وقد ينفّر بكلامهم ، وينخدع بأضاليلهم بعض عديمي الفهم ، و قليلي العلم ، فجاء القرآن الكريم مزدهراً بآيات تنطق بالعظمة ، وتشهد بالربوبية ، تسُرّ أنفس الواثقين ، وتدحض مزاعم المارقين ، **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ...﴾** .

وقد تعرّض أنبياء **الله** وأمناء الوحي وحملة الدعوة ومصابيح الدُجى وأنصار التوحيد ، تعرضوا لعدد من المتعنّتين على مرّ العصور مع اختلاف في طبقاتهم ، وتباين في تفنّناتهم ، إلا أن بعضهم وصل به الأمر أن ادعى أنه رب العالمين ، فأيد **الله** أولياءه بحجج قاهرة ، ودلائل باهرة ، وأدلة قاصمة ، وصواعق مرسلة تدمر أباطيلهم ، وتنسف افتراءاتهم ، وتزلزل كياناتهم ، وتظهر سُخف عقولهم وقلة فهمهم وانحطاط أمانيهم .

إبراهيم يحاور النمرود :

أقبل ملك بابل « نمرود بن كنعان » مغروراً بأبّهة الملك ، مخدوعاً بزينة

الدنيا ، محفوفاً بعمالقة العسكر ، أنعم الله عليه بمملكة كبيرة يقال إنها استمرت أربعمائة سنة فلم يشكر النعمة ، ولم يقدّر الملك الحق والخالق الأجل ، بل طغى وتجبّر ، وعتا وتكبّر ، وادعى الربوبية من دون المولى جل وعلا . أقبل إلى إبراهيم – عليه السلام – يحاجه في ربه ، ويعانده في دعوته ، ويريد هزيمته أمام الملأ فاستمع للمحاجة :

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهتَ الذي كفر و الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .

فحينما أدلى إبراهيم بالدليل الأول على وجود الله تعالى وربوبيته فقال : ﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ قال النمرود : وأنا أحيي وأميت ، أي أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحياه وأمات الآخر!! وهذه حجة واهية ، ورد سخيف ، ولكن الخليل – عليه السلام – تدّرج معه في المحاجة فأتاه بالضربة القاضية ، والحجة الدامغة فقال : ﴿ **إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ : أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيّرها وقاهرها وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت أنك تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل

وأذل من أن تخلق بعوضة أو تتصرف فيها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل – عليه الصلاة والسلام – به بل انقطعت وسكت ، ولهذا قال تعالى : **﴿فبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** .

موسى يحاور فرعون :

أما نبي **الله** موسى – عليه السلام – فقد حدث معه الموقف نفسه ، والقضية ذاتها ، إذ وقف في وجهه فرعون الذي كان يقول : **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** ، ويقول : **﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾** وقف فرعون في وجه موسى – عليه السلام – مناظراً ومعاندا ، قال تعالى : **﴿قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾** .

فتدرّج معه موسى – عليه السلام – في المحاجة والمناظرة وهو لا يرعوي ولا يرتدع ، فوجه له سهماً قاتلاً كالسهم الذي وجهه الخليل – عليه السلام– للنمرود فقال : **﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾** أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها وهو **الله** لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء رب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وكل في فلك يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى

الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء . فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، والثابت سائراً والسائر ثابتاً كما قال تعالى عن الذي حاجَّ إبراهيم في ربه في الآية السابقة . ولما قامت الحجج على فرعون وذهبت شُبَهُهُ وغُلبَ وانقطعت حجته ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال جاهه وقوته ، وسلطانه وسطوته ، واعتقد ان ذلك نافعٌ له ونافذ في موسى – عليه الصلاة والسلام – فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال : ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ إلى آخر ما قص الله عز وجل عنه ، حتى قصمه الله تعالى قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر .

المصطفى ﷺ يحاور المشركين :

أما النبي ﷺ فمحاورته ومحاجته لقومه كثيرة جداً ، حفل بها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد آتاه الله بلاغة معجزة ، واسلوباً أخاذاً ، وكلاماً نفاذاً ، يمتلك به قلب الخصم ، ويقطع به حجة المعاندة ، إلا أن قومه ﷺ لم يكن فيهم من يجحد الخالق ، أو يدعي الربوبية ، بل هم مقرون بربوبيته جل وعلا ، غير أنهم لم يقدروه حق قدره ، بل عبدوا معه غيره ، واستمع إلى هذه المجادلة بالحسنى ، والمناظرة الاسمى ، قال تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * والذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تُخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كُنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون * وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ .

واستمع إلى رائعة أخرى من المناظرة ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * ولله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد * ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمُده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم * ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير * ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير * ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ .

الإمام مالك :

ومن الأئمة الذين جرت معهم بعض المناظرات حول وجود الله تعالى وربوبيته الإمام مالك – رحمه الله – فاكتفى بدليل واحد لإفحام الخصم ، وهو آية الله تعالى في خلق الناس واختلاف لغاتهم وأصواتهم ونغماتهم . فاكتفى بهذا الكلام اليسير على وجود القدير ، إنها إشارة موجزة ، وعبارة خاطفة ، ولكنها تحمل معنى عميقاً ، وفكراً وثيقاً ، وبعداً عريقاً ، إنها تنم عن فهم ثاقب ، وفكرٍ نيّر ، وذكاء بعيد ، ومعرفة واثقة ، وفطرة بالإيمان عابقة . تأمل اختلاف اللغات ، تأمل كم لغة على وجه الأرض ، لك أن تتأمل في الحج ، في يوم عرفة فقط ، أكثر من ثلاثمائة لغة تتكلم مع الله ،

وتدعو **الله** ، وتناجي **الله** ، ومع ذلك يعرف لغاتهم ، ويدرك أصواتهم ، ويعلم حاجاتهم ، لا تختلف عليه اللغات ، ولا تشتبه عليه الأصوات . انظر إلى تميّز كل إنسان بصوت مختلف ونغمة معينة ، لو كان لك ألف صديق وكلموك عن طريق الهاتف لعرفت كلاً منهم بلغته ، وميّزت كلامه بنغمته ، إن اختلاف اللغات وتباين الأصوات وتنوع النغمات من أعظم الشواهد على إبداع رب الأرض والسماوات .

قال تعالى : **﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾** .

الإمام أبو حنيفة :

أما الإمام أبو حنيفة – رحمه **الله** – فيروى أنه أقبل إليه بعض الزنادقة فسألوه عن وجود **الله** تعالى فقال لهم دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

الإمام الشافعي :

وعن الشافعي – رحمه **الله** تعالى – أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل ، فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه

الإبريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً ، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ، وهي شيء واحد .

الإمام أحمد بن حنبل :

وعن الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز ؛ فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح .

أبو نواس :

أما أبو نواس – رحمه الله – بالرغم من أنه اشتهر بكثير من الأشعار النابية والقصائد الماجنة فحينما شعر ببعض المترددين والشاكّين في وجود الله تعالى وربوبيته أخذته الغضبة الدينية والحمية الإيمانية ، فأفحم الخصم بقطعة بيانية ساحرة قال فيها :

تأمل في رياض الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين شاخصات
بأهداب هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

ابن المعتز :

وهذا شاعر آخر قيل إنه ابن المعتز ، و قيل هو أبو العتاهية – رحمهما الله

جميعاً – فيقول :

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـ
ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة
وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

الأعرابي يُسئل عن وجود الله :

بل استمع إلى هذا الأعرابي الذي ما قرأ وما كتب حينما سئل عن دليل على وجود **الله** قال : (يا سبحان **الله** ، إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟) .

خطيب الحنفاء قس بن ساعدة :

ومما يروى من خطب قس ابن ساعدة الإيادي وكان على ملة إبراهيم – عليه السلام – : (أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات . ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام . إن في السماء خبراً ، وإن في الأرض عبراً ، يحار فيهن البصر ، مهاد موضوع وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تغور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ووزن القسطاس . اقسم قسٌ قسماً ، لا كاذباً فيه ولا آثماً .

لئن كان في هذا الأمر رضى ليكونن سخط ، ثم قال : أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه . وهذا زمانه وأوانه ثم قال : مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُركوا فناموا وفي بعض ألفاظها قال : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام . لقد ضل الأنام ، نُشُوُ مولود ، وَوَأْدُ مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغني ، ومحسن ومسيء ، تبّاً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل آمله ، كلا بل هو إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد لتحشرن على الانفراد ، في يوم التناد ، وإذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ . فويل لمن صدف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، فريق في الجنة وفريق في السعير) آهـ .

وهي موعظة جليلة ، وذكرى بديعة ، سواءً ثبتت لقس أو لم تثبت ، فالعبرة بالمقول لا بالقائل .

* فبأي آلاء ربكما تكذبان *

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا

بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

- ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ .

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٨٠) ﴾.
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا (٤٨) ﴾.
- ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا (٥٤) ﴾.
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا (٦٢) ﴾.
- ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٧٠) ﴾.
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٢٧) ﴾.
- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا

تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

* ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ .

* ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ

ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾.

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) ﴾.
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾.
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) ﴾.
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ﴾.
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾.
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥)﴾ .

* إنه كان غفارا *

إلهي لا تعذبني فإني
مقر بالذي قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي
لعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا
وأنت عليَّ ذو فضل ومنْ

الله .. غفور رحيم ، عزيز حكيم ، جواد كريم ، محسن ودود، صبور شكور، يُطاع فيشكر ، ويعصى فيغفر ، «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، يدعون له ولداً وهو يعافيهم ويرزقهم» ، «ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك أثنى على نفسه ولا أحد أغيرُ من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين» .

الغفور والغفّار وغافر الذنب من أسماء الله تعالى ، وأصل الغفر : الستر والتغطية . يقال غفر الله ذنوبه أي سترها .

والغفران والمغفرة من الله تعالى للعبد أن يصونه من أن يمسه العذاب ، وأن يستره فالمغفرة هي إظهار الجميل وستر القبيح .

والذنوب من جملة القبائح التي سترها الله بإسبال الستر عليها في الدنيا ، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة ، والغفار صيغة مبالغة ، وهي تدل على كثرة الفعل ، فهو تعالى يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة كلما تكررت

التوبة من الذنب تكررت المغفرة من الغفار ، وإليك حديثاً من أمتع وأعجب وأعظم ما تقرأ .

يقول ﷺ فيما يحكي عن ربه - عز وجل - : « أذنب عبدٌ ذنباً . فقال : اللهم اغفر لي ذنبي . فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب . فقال : أي رب ، اغفر لي ذنبي . فقال تبارك وتعالى : عبدي أذنب ذنباً . فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال : أي رب اغفر لي ذنبي . فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً . فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

ومن أرجى الآيات للمستغفرين قوله تعالى : ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

غالباً ما يرد الحديث عن الغفران مقروناً بالرحمة فهو الغفور الرحيم فمغفرته جل وعلا لعباده ثمرة من ثمرات رحمته التي وسعت كل شيء ولأن رحمته سبقت غضبه فإنه يغفر الذنب ، ويقبل التوب ، ويعفو عن السيئات ، قال تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب ﴾ ، وقد وردت آيات عظيمة وأحاديث كثيرة تجلي هذه الصفة الربانية ، وتنبىء عن هذه العظمة الإلهية .

قال جل وعلا : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾.

وقال تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ .

بل إنه جل وعلا ينادي عباده نداء المتلطف ، ويدعوهم دعاء المشفق بأن لا يقنطو من رحمته أو ييأسوا من مغفرته ، فتنزل تلك الكلمات على القلوب برداً وسلاماً وكأنها الماء البارد على الظمأ : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ .

بل إنه جل وعلا ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا – نزولاً يليق بجلاله – وذلك حين يبقى الثلث الأخير من الليل فيقول: « من يدعوني فاستجيب له ومن يسألني فاعطيه ، ومن يستغفرني فاغفر له » .

تفيض نفوس باوصابها
وتكتم عوّادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي
هواها إلى غير أحبابها

ولقد هيأ الله جل وعلا لعباده مواسم عظيمة ، وفرصاً عديدة ، يغفر بها ذنوبهم ، ويكفر بها خطاياهم .

ولقد أخبر ﷺ في عدد من الأحاديث البديعة بكلمات جامعة وعبارات ماتعة تغفر بها الذنوب ، وتمحى بها الخطايا ، ومن أعظم ذلك قوله ﷺ : « من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه (ثلاثاً) غفر له وإن كان فر من الزحف » .

وقوله ﷺ : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سُبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » .

ولقد أهدى ﷺ لامته كنزاً من كنوز الاستغفار جعله تاجاً على الاحاديث ، وملكاً على آثار الاستغفار ، فهو سيدها جميعاً ، فقال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وانا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . قال : « من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة » .

وفي هذا الحديث من بديع المعاني ، وحسن الألفاظ ، ما يحق له أن يُسمى سيد الاستغفار ؛ لانه جامع لمعاني التوبة كلها ، وفيه الإقرار **لله** وحده بالإلهية والعبودية ، والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعهد الذي أخذه **الله** عليه ، والرجاء بما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافة النعماء إلى موجدها جل جلاله ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته في المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو جل وعلا .

إن الذنب مصاحب لبني آدم إلا من عصمه **الله** تعالى ، فالمرء يجهل ، والإنسان يخطىء ، والعبد يهفو ، والرب جل جلاله يغفر ، ولكن خير الخطائين التوابون .

سبحان من نهفو ويعفو دائماً
ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يقول ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب **الله** بكم ، ولجاء

بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » .

ويقول ﷺ في الحديث القدسي عن الله تعالى : « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم »

ويقول جل وعلا : « يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي . يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

والنبي ﷺ وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول لأصحابه : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

إن المؤمن الحق مراقب لربه ، متعهد لقلبه ، مطهر لنفسه ، يعظم الجبار وينطرح للقهار ، ويكثر الاستغفار ، وإن الاستغفار ليس كلمات تقال ، وعبارات تطلق ليس لها شاهد من الواقع أو دليل من العمل ، أو تصديق من الفعل ، أو تغير في الحال ، يقول ابن عباس – رضي الله عنه – : « المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه » .

رؤي رجل متعلق بأستار الكعبة يناجي ربه قائلاً : « اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم ، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز ، فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني ، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك ، يا من إذا وعد وفّى ، وإذا توعد تجاوز وعفا ، أدخل عظيم جُرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين » .

الاستغفار والتوحيد :

والعجيب أن كثيراً من نصوص الحث على الاستغفار في الكتاب والسنة تكون مصحوبة بالدعوة إلى توحيد الخالق والاعتراف بالوهيته والإذعان لربوبيته ، وهي بذلك إشارة بديعة إلى ان أعظم سبب بل أول سبب لحصول المغفرة هو التوحيد الخالص ، وأن جميع الاسباب الاخرى لا تغني شيئاً إذا فقد هذا الأصل العظيم ، فهو أساس الدين ، وأصل العبادة ، وعنوان الملة ، وإذا رسخ في قلب العبد وانغرس في وجدانه فقد أهّل نفسه لنيل مغفرة المولى جل وعلا : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ .

فتأمل معي عدداً من النصوص الآمرة بالاستغفار لترى ذلك المعنى الذي أشرت لك إليه ، وذكّرت نفسي وإياك بما يعنيه :

قال تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ .

وتأمل قوله ﷺ : «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف» .

وتأمل سيد الاستغفار ، وكيف بدأ بإعلان التوحيد الخالص لله تعالى : «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» .

وتأمل كفارة المجلس : «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» .

وهكذا يتجلى هذا المزج الرائع ، والربط الماتع بين الإقرار بالألوهية والاعتراف بالوحدانية ، وبين طلب المغفرة من الغفور الرحيم .

إن الذنب سمة العبد وإن العفو صفة الرب عز وجل ، وقد بين تعالى أن المتقين قد يقع منهم الذنب ، ويحدث منهم الزلل ولكنهم لا يصرون على الخطأ ، ولا يقيمون على المعصية ، وقد امتدحهم جل وعلا بذلك فقال : **﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس و الله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾** .

* مواسم المغفرة *

سبحانه ما أوسع رحمته وأعظم مغفرته :

هيأ تعالى لعباده مواسم للخير عظيمة ، تغفر فيها ذنوبهم ، وتكفر فيها سيئاتهم ، وتُرفع فيها درجاتهم ، وتُحط بها خطاياهم ، منها ما هو يومي ، ومنها ما هو أسبوعي ، ومنها ما هو شهري ، ومنها ما هو سنوي، فاليومي : الصلوات الخمس ، قال تعالى : **﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾** ، وقال ﷺ : « ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » ، ويقول ﷺ :

« خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن ، وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن ، وسجودهن ، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له » .

بل الأعجب من ذلك ، والأعظم مما هنالك أن الإنسان قد تغفر ذنوبه ، وتمحى عيوبه ، قبل أن يدلف إلى الصلاة ، وقبل أن يمثل بين يدي مولاه ، وذلك بالوضوء ، قال ﷺ : « من توضأ فاحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

ويقول ﷺ : « من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رضيتُ بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

ويقول ﷺ : « من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

ومن المواسم ما هو أسبوعي ، وذلك مثل صوم يومي الإثنين والخميس اللذين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى ، ومثل يوم الجمعة الذي فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، يقول ﷺ : « من توضأ فاحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام » .

وأما المواسم الشهرية فمثل صيام أيام الليالي البيض ، قال ﷺ : « صوم

ثلاثة أيام من كل شهر ، صوم الدهر كله » .

وأما المواسم السنوية فكثيرة ، منها ما هو يوم في السنة مثل صوم يوم عرفة ، قال ﷺ حينما سئل عن يوم عرفة : « يكفر السنة الماضية والباقية » ، ومثل صوم يوم عاشوراء الذي سئل عنه النبي ﷺ فقال : « يكفر السنة الماضية » .

ومن المواسم السنوية ما يستمر شهراً كاملاً تتنزل فيه الرحمات وتفتح فيه أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب النيران ، وتصفد مردة الشياطين « من صام رمضان إيمانــاً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وجعل فيه عشر ليالٍ هي أعظم ما فيه ، وأعظمها ليلة واحدة هي ليلة القدر فمن أدركها غفر له ، وجعلها خيراً من ألف شهر .

ثم جعل تعالى من المواسم السنوية ما يستمر قرابة الأسبوع وهو حج البيت الحرام ، فمن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، وجعل في شهر ذي الحجة عشرة أيام هي أهم ما فيه وأفضل أيام السنة ، وهي العشر الأول من ذي الحجة ، وجعل أفضلها يوم عرفة ، فمن صامه غفر له السنة الماضية والباقية ، ومن شهده مع الحجيج فقد أشهد الله ملائكته أنه قد غفر لهم .

وهكذا لا يزال المؤمن يتنقل من خير إلى خير ، ومن موسم إلى موسم ومن فضل إلى فضل ، يتعرض لنفحات الله ، ويستنزل رحماته والأعجب من ذلك كله أنه تعالى قد هيأ أموراً أخرى عظيمة ، وطرقاً كثيرة متنوعة في منتهى اليسر ، وفي غاية السهولة ، ليس فيها تعب ، ولا يعتريها نصب ، وليس فيها غياب عن الأهل ، ولا مفارقة للأوطان ، ولا صرف للأموال ، بل

هي في متناول اليد ، وأقرب من شراك النعل ، ومن ذلك : ذكر **الله** تعالى وتسبيحه وتمجيده وتكبيره وتهليله ، واستمع إلى هذا الحديث لترى لطف المولى ، ونعمة الرب ، ورحمة الرحمن : «من قال سبحان **الله** وبحمده في يوم مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» .

ويقول ﷺ : «من قال أستغفر **الله** الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف» .

ويقول ﷺ : «سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ؛ فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة» .

ويقول ﷺ : «من قال لا إله إلا **الله** وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» .

وأبواب البر الأخرى أكثُر من أن تحصى ، ومن أخذ بشيء منها إيماناً به وتصديقاً بموعده ، محي عنه الوزر ، ونال أعظم الأجر ، ومن ذلك :

قوله ﷺ : «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله **الله** بها الجنة» .

ويقول ﷺ : «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين» .

ويقول ﷺ : «من أكل طعاماً ثم قال : الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ، ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» .

إن هناك أناساً يملأون أجوافهم بالطعام والشراب ، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليهم حقاً ، إنهم كأيّ دابة دسّت فمها في مِزْوَدِها حتى شبعت وحسب ، وهذا السلوك الدنيء لا يليق بمؤمن .

ويقول ﷺ : «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» .

ويقول ﷺ : «من انظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» .

ويقول ﷺ : «قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة» .

وفي الحديث : «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ، ثم يسأله فيما بينه وبينه ، ألم تفعل كذا في يوم كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك ، قال له : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» .

اذكر **الله** بكرةً واصيلا
وتبتل لذكره تبتيلا
اذكر **الله** ذكر صب مشوق
واجعل الذكر للوصال سبيلا
ارض **بالله** مؤنساً وأنيسا
واتخذه دون العباد وكيلا

* كل من عليها فان *

الله .. ملك الملوك ، خالق كل ملك وما ملك ، وصانع كل ذي صنعة وصنعته ، كل ملك سواه فملكه فان ، وظله زائل ، وحياته محدودة ، وأنفاسه معدودة ، وسلطانه ضعيف ، ومقامه قليل .

قضى **الله** عليهم بالفناء ، وحكم فيهم بالزوال ، وخلق الموت فجعله لهم بالمرصاد ، فكل ملك مهما طال ملكه ، وكل متكبر مهما عظم كبره ، فسوف يأتيه يوم يمرغ وجهه في التراب ، ويمسي طعاماً للهوام والدواب ، ليس يغنيه إلا ما قدم في مرضاة العزيز الوهاب .

* هادم اللذات *

الموت منا قريب   وليس عنا بنازح
في كل يوم نعيٌّ   تصيحُ منه الصوائح
تشجى القلوبُ ، وتبكي   مولولات النوائح

حتى متى أنت تلهو   في غفلةٍ ، وتُمازح؟!
والموتُ في كل يومٍ   في زنْدِ عيشكَ قادح
فاعمل ليوم عبوس   من شدة الهولِ كالحْ
ولا يُغرنك دنيا   نعيمُها عنك نازحْ
وبغْضُها لك زيْنٌ   وحبُّها لك فاضحْ

قصم **الله** بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة .

فإذا أعجبتك نفسك فذكرها الموت ، وإذا لفت انتباهك جمال منظرك فذكره أنه طعام للدود . وإذا غرتك دارك الجميلة وامرأتك الحسناء ومنصبك العظيم فتذكر أنك مفارقهم ، وإذا دعتك النفس إلى المعصية ، وقادك الهوى إلى الشهوة فتذكر الموت .

إذا نسيت الموت وشناعته ، والفراق وصعوبته ، وغرتك الحياة الدنيا ونعيمها ، فتذكر من سبقك بها ، وتلذذ بها ، وغره نعيمها ، وخدعه حسنها . هل خلد فيها ، هل دامت له؟ هل ذهب منها بشيء؟ تذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، تذكر صورهم وكيف أخذهم الموت من مناصبهم وأحوالهم ، وكيف محا التراب محاسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم . وكيف رملوا نساءهم ويتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، وقد كانوا يؤملون في طول العيش والبقاء ، ونسوا أنهم زرع الفناء . ركنوا إلى قوة الشباب ومالوا إلى الضحك واللهو ، وغفلوا عن الموت وأهواله ، والقبر وأحواله . فإذا هم بعد القوة تهدمت أرجلهم ، وبعد النطق أكل الدود

ألسنتهم ، وبعد الضحك أكل التراب أسنانهم . تذكر الموت قبل أن تندم فلا يفيدك ندمك ، وقبل أن تزل قدمك ، ويسلمك أهلك وخدمك ؛ ويفارقك حبيبك وقريبك ، ويتخلى عنك ولدك ونسيبُك ؛ فلا أنت للدنيا عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

أيا ابن آدم لا يهزأ بك الأمل
عن كلّ ما ادّخرت كفّاك ترتحلُ
أراك ترغبُ في الدّنيا وزينتها
وقد سعى قبلك الماضون والأولُ
قد حصّلوا المال من حلٍ ومن حَرمٍ
فلم يردّ القضا لمّا انتهى الأجل
قادوا العساكر أفواجاً وقد جمعوا
فخلّفوا المالَ والبنيانَ وارتحلوا
إلى قبورٍ وضيق في القرى رَقدوا
وقد أقاموا به رهناً بما عملوا
كأنّما الركبُ قد حطّوا رحالهُمو
في جنح ليلٍ بدارٍ ما بها نُزُلُ
فقال صاحبُها يا قومُ ليس لكم
فيها مُقامٌ فشدّوا بعد ما نَزلوا
فكلُّهم خائفٌ أضحى بها وجِلاً
ولا يطيبُ له حِلٌ ومرتحل
فقدّم الزاد من خيرٍ تسرّ غداً
وليس إلا بتقوى ربك العملُ

الموت زائرٌ لا يستأذن ، وضيف لا يعرف المجاملة ، وباطش لا ترده الواسطة . يستوي عنده الكبير والصغير ، والأمير والحقير ، والغني والفقير ، والملك والمملوك . ليس لزيارته موعد محدد ، ولا لقدومه زمن معين ، ولا لهجمته وقت معلوم ؛ يدلف في السحر ، ويقدم في الظهيرة، ويبهت في الغفلة ، يُنزل الراكب من على دابته ، ويبطش بالملك على كرسيه ، ويختطف الوالد من بين ذويه ، والصبي من يد والديه ، لا يمهل المفرط حتى يتوب **﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾** ، ولا يرجيء الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يشرب ولا المسافر حتى يعود إلى أهله ، ولا النائم حتى يفيق ، ولا الصغير حتى يكبر **﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾** .

يأخذ العريس في ليلة عرسه ، ويختطف الحسناء في يوم زفافها ، ويقبض صاحب المنصب في أول أيامه وأولى ساعاته . يحول الأفراح إلى أتراح ، والسعادة إلى شقاء ، وأيام الأنس إلى نكد ، وليالي الفرح إلى مأتم ، والضحك العريض إلى بكاء مرير ، والزغاريد إلى وَلْوَلة .

انظر إلى ما ترى يا أيها الرجل
وكن على حذر من قبل ترتحل
وقدم الزاد من خير تفوز به
فكل ساكن دار سوف يرتحل
وانظر إلى معشر زانوا منازلهم
فأصبحوا في الثرى رهناً بما عملوا

بنوا فما نفع البنيان وادخروا
لم ينجهم مالهم لما انقضى الأجل
كم أملوا غير مقدور لهم فمضوا
إلي القبور ولم ينفعهم الأمل
واستُنْزِلوا من أعالي عزٍّ رُتْبتهم
لذُلِّ ضيق لحود ساء ما نزلوا
فجاءهم صارخ من بعد ما دفنوا
أين الأسرّةُ والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة
من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين سائلهم
أما الخدود فمنها الورد منتقل
قد طال ما أكلوا يوماً وما شربوا
فأصبحوا بعد طيب الأكل قد أكلوا

* عظماء على فراش الموت *

أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - :

لما حضرت أبا بكر - رضي الله عنه - الوفاة ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك قال : قد نظر إليَّ طبيبي ، وقال : إني فعال لما أريد .

ولما أتوني بالطبيب وقد بدتْ
دلائلُ من دمعٍ سفوحٍ ومن سقمِ

نضا الثوب عن وجهي فلمّ يَرَ تحته
سوى نَفَسٍ من غيرِ روحٍ ولا جِسْم
فقال لهم ذا قد تعذّر بُرؤُه
وللحبِّ سرٌّ ليس يُدرك بالوهم

معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - :

ولما حضرت معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – الوفاة قال : أقعدوني ، فأقعد وبكى حتى علا بكاؤه ، ثم قال : يا رب ارحم الشيخ العاصي ، ذا القلب القاسي ، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة ، وَعُدْ بحلمك على من لا يرجو غيرك ، ولا يثق بغيرك .

عمرو بن العاص - رضي الله عنه - :

لما احتضر عمرو بن العاص سأله ابنُه عن صفة الموت ، فقال : و الله لكأن جنبيّ في تخت ، ولكأنّي أتنفّسُ من سمِّ إبرة ، وكأن غُصن شوكٍ يُجَرُّ من قدمي إلى هامتي .

عبد الملك بن مروان - رحمه الله - :

ولما حضرت عبد الملك بن مروان – رحمه الله – الوفاة نظر إلى غسّال يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال : ياليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ، ولم آلِ من أمر الدنيا شيئا . وقيل له في مرضه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ ، قال : أجدني كما قال الله ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ .

المأمون - رحمه الله - :

ولما حضرت المأمون – رحمه الله – الوفاة افترش رماداً ، ووضع خده عليه ، وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه .

أين من أسس الذرى وبناها
وتولى مشيدها ثم علّى
أين أهلُ الحصون منْ سكنوها
رحلوا كلّهم كمنْ قد تخلّى
أصبحوا في القبور رهناً ليوم
فيه حقاً كلُّ السرائر تبلى
ليس يبقى سوى الإله تعالى
وهو ما زال للكرامة أهلا

وقيل لرجل عند الموت : كيف تجدُك؟ فقال : اجدني أُجتذب اجتذاباً وكأنّ الخناجر مختلفة في جوفي ، وكأنّ جوفي تنُور محمّى يلتهبُ توقداً .

وقيل لآخر : كيف تجدُك؟ قال : أجدني كان السموات منطبقةٌ على الأرض عليّ ، وأجد نَفْسي كانها تخرجُ من ثقب إبرة .

فاحذر يا عبد الله متحولك من دار مهلتك ، إلى دار إقامتك . يوم تمسي في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ، أعاذنا الله وإياك من سوء المصرع ، وضيق المضجع .

عمر بن عبد العزيز يتذكر الموت - رحمه الله - :

كان عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – يجمع الفقهاء كل ليلة ،

فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

أين الملوك ومن بالأرض قد عَمروا
قد فارقوا ما بنوا فيها وما عمروا
وأصبحوا رهن قبر بالذي عملوا
عادوا رميماً به من بعد ما دثروا
أين العساكرُ ما ردّتْ وما نَفَعت
وزين ما جمعوا فيها وما ادخروا
أتاهُمُ أمرُ رب العرش في عجلٍ
لم يُنجِهم منهُ أموالٌ ولا نُصِروا

* سلعة الله غالية *

يا رب إن عظمت ذنوبي كثْرةً
فلقد علمتُ بأنَ عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ
فبمن يلوذُ ، ويستجير المجرمُ
ادعوك ربٌ كما أمرتَ تضرُّعاً
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحمُ
ما لي إليكَ وسيلةٌ إلا الرُّجا
وجميلُ عفوك .. ثمّ أني مُسلمُ

الله .. أعد لعباده داراً عظيمة ، وهيأ لأحبابه مقاماً كريماً ، وجعل لأوليائه منزلاً مباركاً ، أعد لهم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر :

قال تعالى : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورا** ﴾ .

ويقول ﷺ : « يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك يُلهمون التسبيح والتكبير كما يُلهمون النفس » .

ويقول ﷺ : « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا إن شئتم ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ » .

ويقول ﷺ : « آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، ولا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلبٌ واحد يسبحون الله بكرةً وعشيا » .

ويقول ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوفة

طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا » .

ويقول ﷺ : « إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم حسناً وجمالا » .

ويقول ﷺ : سأل موسى ﷺ ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي رب ، وكيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة ، رضيت ربي ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب قال - أي موسى - : فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ؛ غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » .

تصور نفسك في الجنة ، تشرب من الحوض ، تصافح أبا بكر ، وتقبل عمر ، وتناجي عثمان ، وتتحدث مع علي ، وتجلس إلى سعد بن معاذ أو معاذ بن جبل أو ابن مسعود!! .

قال تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم *

فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ .

يقول ﷺ : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : احل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» .

ويقول ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم» .

وأول من يدخل الجنة من البشر هو رسولنا محمد ﷺ ، يقول ﷺ : «أنا أول من يقرع باب الجنة » .

ويقول ﷺ : « آتي باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت؟ فاقول محمد ، فيقول : بك أمرت لا افتح لاحد قبلك» .

ويليه الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، فهو أول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ .

ومن عشاق الجنة الذين قدموا لها أغلى الأثمان ، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - يقول ﷺ : « رأيتني دخلت الجنة ، ورأيت قصراً بفنائه جارية ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فاردت أن أدخله فأنظر إليه ، فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار!» .

وأبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين .

والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

أما أفضل نساء أهل الجنة فهن : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

ولا شك أن مريم عليها السلام هي سيدة نساء العالمين في زمانها ، وأفضلهن على الإطلاق ، كما أخبر ﷺ ، وكما قال تعالى : ﴿**وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**﴾ مريم نالت الدرجة الرفيعة في الجنة لأنها أحصنت فرجها ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين .

وآسية – امرأة فرعون – ، هان عليها ملك الدنيا ونعيمها ، فكفرت بفرعون والوهيته المزعومة ، وكان يعذبها عذاباً شديداً ، يعذبها في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها . وكان فرعون يشد يديها ورجليها بالأوتاد ، وهي صابرة ، فرأت بيتها في الجنة فضحكت حين رأته ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك ، فقبض الله روحها في الجنة ورضي عنها .

وخديجة فازت بالجنة لأنها أول من آمن بالرسول ﷺ وصدقه وناصره وثبتت من غير شك ولا تردد . قال جبريل عليه السلام : يا رسول الله اقرأ على خديجة السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب .

وفاطمة ابنة رسول الله ﷺ وريحانته ، الصابرة المحتسبة ، النقية الورعة ، المؤمنة الطاهرة .

رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم وجمعنا بهم في جنات النعيم .

باحتْ بسِرِّي في الهوى أدمعي
ودلت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي
في الوجد والحزن فنوحوا معي
يحق لي أبكي على زلتي
فلا تلوموني على أدمعي

يا أيها المسلم أناديك بهذا النداء الإلهي الخالد ، فليس هنالك أجمل موعظةً ولا أصدق نصيحة ، ولا أوضح عبارة ، ولا أصدق إشارة من القرآن الحكيم ، والهدي القويم ، فهذا ربك يناديك : ﴿ولا يصدنك عن ءايات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً ءاخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ .

من صفا مع الله صافاه ، ومن أوى إلى الله آواه ، ومن فوض أمره إلى الله كفاه ، ومن باع نفسه من الله اشتراه ، وجعل ثمنه جنته ورضاه .

وعْدٌ صادق ، وعهد سابق ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ .

وليس الميت من خرجت روحه من جنبيه ، وإنما الميت من لا يفقه ماذ لربه من الحقوق عليه .

الكرامة كرامة التقوى ، والعز عز الطاعة ، والأنس أنس الإحسان ، والوحشة وحشة الإساءة ، وكل مصيبة لا يكون الله عنك فيها معرضاً فهي نعمة .

من لم يعتز بطاعة الله لم يزل ذليلاً ، ومن لم يستشف بكتاب الله لم يزل عليلاً .

أيا من ليس لي منه مجير
بعفوك من عذابك أستجير
أنا العبد المقر بكل ذنب
وأنت الواحد المولى الغفور
فإن عذبتني فبسوء فعلي
وإن تغفر فأنت به جدير
أفرُّ إليك .. وأين إلا
إليك يفرُّ منك المستجير

* الحمد لله *

نعم الله علينا عظيمة ، وآلاؤه جسيمة ، وفضله لا حد له ، وكرمه لا ند له ، وعطاؤه لا مثيل له ، الإسلام نعمة ، والإيمان نعمة ، والتوحيد نعمة والخلق في أحسن تقويم نعمة ، والأهل نعمة ، والأبناء نعمة ، والزوجة نعمة والمسكن نعمة ، والمطعم نعمة ، والمشرب نعمة، والملبس نعمة ، والأمن نعمة ، والعبادة نعمة ، والماء نعمة ، والهواء نعمة ، والبصر نعمة ، والسمع نعمة ، واليد نعمة ، والقدم نعمة ، والعقل نعمة ، والعافية نعمة ، والسلامة

من الكوارث والزلازل والرعب والدمار نعمة .

وخلاصة الأمر : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

فله الحمد على نعمه ، وله الشكر على عطائه ، وله الفضل ومنه الفضل ، وهو العزيز الحميد ، حمد نفسه جل وعلا في أول آية من كتابه ليثني على نفسه ، فهو أهل الثناء والحمد ، وليُعَلِّم عباده أن يحمدوه ويمجدوه ويشكروه ويبتدأوا بحمده ، وينتهوا بحمده ، ويلهجوا بحمده ، فهو أهل الثناء والمجد ، وله الحمد في الأولى والآخرة، وأي أمرٍ لا يبتدأ بحمد **الله** فهو أجذم ، افتتحت خمس سورٍ من أبدع السور في القرآن الكريم بحمد **الله** تعالى .

حمدٌ له على ربوبيته وألوهيته ، وحمدٌ له على خلق السماوات والأرض ، وحمدٌ له على إنزال الكتاب ، وحمدٌ له على سعة علمه وكمال إحاطته ، وحمدٌ له على أنه فطر السماوات والأرض ، وخلق الملائكة ، ويزيد في الخلق ما يشاء .

بدأت سورة الفاتحة بالحمد ، قال تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** ﴾ .

وبدأت سورة الأنعام بالحمد ، قال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾.

وبدأت سورة الكهف بالحمد ، قال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا** ﴾ .

وبدأت سورة سبأ بالحمد ، قال تعالى : ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾ .

وبدأت سورة فاطر بالحمد ، قال تعالى : ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ .

وقد ورد ذكر الحمد في القرآن الكريم كثيراً ومنوعاً ، ليعرّف الله تعالى عباده كيف يحمدونه ويثنون عليه : ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ ، ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ .

وقد حمد الله تعالى نفسه في أول الخلق وآخره ، وعند الأمر والشرع حمد نفسه على ربوبيته للعالمين ، وحمد نفسه على تفرُّده بالإلهية وعلى حياته ، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليقُ بكماله ، من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه ، وحمد نفسه على علوّه وكبريائه ، وحمد نفسه في الأولى والآخرة ، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي ، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه .

فالحمد كله لله رب العالمين ؛ فإن المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العبد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل

وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه ، فكلُّ ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ .

ولهذا يقول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع : « ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض ، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » .

فله سبحانه الحمد حمداً يملأُ المخلوقات والفضاء الذي بين السماوات والأرض ، وملء بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده .

وجميع أسمائه تبارك وتعالى حمد ، وصفاته حمد ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده .

والله تعالى أنزل كتابه بالحمد . وشرع دينه بالحمد . وأوجب ثوابه وعقابه بالحمد . . فحمده من لوازم ذاته . إذ يستحيل أن يكون إلا محموداً . فالحمد سبب الخلق وغايته . بالحمد أوجده وللحمد وجد . فحمده واسع لما وسعه علمه ورحمته . وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً . فلم يوجد شيئاً ولم يقدره ولم يشرع إلا بحمده ولحمده . وكل ما خلقه وشرعه فهو متضمن للغايات الحميدة ، ولا بد من لوازمها ولوازم لوازمها . ولهذا ملأ حمده سماواته وأرضه وما بينهما وما شاء من شيء بعد مما خلقه ويخلقه بعد هذا الخلق . فحمده ملأ ذلك كله . وحمده تعالى أنواع : حمد على ربوبيته ، وحمد على تفرده بها ، وحمد على ألوهيته وتفرده ، وحمد على

نعمته ، وحمد على منته ، وحمد على حكمته ، وحمد على عدله في خلقه ، وحمد على غناه عن إيجاد الولد والشريك والولي من الذل ، وحمد على كماله الذي لا يليق بغيره ، فهو محمود على كل حال وفي كل آن ونفس ، وعلى كل ما فعل وكل ما شرع ، وعلى كل ما هو متصف به ، وعلى كل ما هو منزه عنه ، وعلى كل ما في الوجود من خير وشر ولذة وألم وعافية وبلاء . فكما أن الملكَ كله له ، والقدرة كلها له ، والعزة كلها له ، والعلم كله له ، والجمال كله له ، والحمد كله له ، كما في الدعاء المأثور : « اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله، وأنت أهل لأن تحمد » .

وكما أن الله تعالى بدأ كتابه بالحمد ، فكذلك نبيه ﷺ كان يبتدأ كلامه بالحمد ، ويفتتح خطابه بالحمد : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه . . » ، بل حينما تتعمق في فهم أبعاد الحمد ، وأسرار الحمد ، ودقائق الحمد ، تجد أمراً عجباً ، فالله تعالى حميد مجيد ، وهو المحمود على كل حال ، وكتابه بدأ بالحمد ، وكلمة التوحيد تقرن بالحمد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على شيء قدير .

والركن الثاني من أركان الإسلام كله يفيض بالحمد ، وتضوع بالحمد ويبتدأ بالحمد : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك .

والقراءة فيها تبدأ بالحمد لله رب العالمين ، والركوع : سبحان ربي العظيم وبحمده ، والرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ، والمأموم يقول: ربنا ولك الحمد .

ومما يقال بعد الرفع من الركوع : **اللهم** لك الحمد حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، **اللهم** لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لك الحمد ملء السماوات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، وفي السجود : سبحان ربي الأعلى وبحمده ، وفي التشهد : إنك حميد مجيد ، وبعد الصلاة : الحمد لله ثلاثاً وثلاثين .

كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه ، فلما رفع رأسه من الركعة قال : «سمع **الله** لمن حمده» ، فقال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف ﷺ من الصلاة قال : «من المتكلم؟» قال الرجل : أنا ، قال : «رأيتُ بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول» .

وفي الحج يقول الأبرار : إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك.

والنبي ﷺ يُبتدأ بالحمد ، بل اسمه يحمل معاني الحمد ، فهو محمد وأحمد . .

قال تعالى : ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد﴾ فأحمد إشارة إلى النبي ﷺ باسمه وفعله ، وتنبيهاً أنه كما وجد اسمه أحمد ، فهو محمود في أخلاقه وأحواله وصفاته وأفعاله ، وخص لفظة أحمد فيما بشر به عيسى - عليه السلام - تنبيهاً أنه أحمد منه ومن الذين من قبله ، فهو أحمد وفعله أحمد وصفاته أحمد ، وعبادته أحمد ، وأخلاقه أحمد ، ودينه أحمد ، وقوله تعالى : ﴿محمد رسول **الله**﴾ فهو إشارة إلى اسمه ﷺ وإشارة إلى ما تحمله كلمة محمد من الصفات والأفعال المحمودة ، وهذا المحمد الأحمد ملأ الكون بابتهالات الحمد ، وعمر الليالي بأنوار الحمد ،

وملأ القلوب برحيق الحمد ، وبث في النفوس والأسماع والأفئدة عبير الحمد فإذا الثناء العاطر ، والدعاء الآسر ، والعبارات الخلابة ، والكلمات الجذابة : «**اللهم** لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت مَلك السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، **اللهم** لك أسلمت ولك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» .

ويُعَلِّم أصحابه أن يلهجوا بالحمد ، ويعمروا به أوقاتهم وينيروا به بصائرهم وأبصارهم ، فيقول ﷺ : «من قال لا إله إلا **الله** وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة خطيئة ، وكانت حرزاً له من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك» .

ويقول ﷺ : «أفضل الدعاء : الحمد **لله**» .

ويقول ﷺ : «الحمد **لله** تملأ ما بين السماوات والأرض» .

ويقول ﷺ : «من قال سبحان **الله** وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» .

فالله تعالى أحق من ذكر ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، أهلُ الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا له عبد ، له الحمد حمداً طيباً كثيراً مباركاً ، له الحمد ملء السموات والأرض ، وما بينهما وملء كل شيء بعد له الحمد حتى يرضى ، وله الحمد بعد الرضى ، وله الحمد عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ورضا نفسه ، ومداد كلماته ، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

لك الحمدُ طوعاً ... لك الحمدُ فرْضا
وثيقاً عميقاً ... سماءً وأرْضا
لك الحمدُ صَمْتاً ... لك الحمدُ ذكراً
لك الحمدُ خفْقاً حثيثاً ... ونبْضا
لك الحمدُ ملءَ خلايا جناني
وكل كِياني .. رُنواً وغمْضا
إلهي وجاهي إليك اتجاهي
وطيداً مديداً ... لترضى فأرْضى
فأنتَ قوامي .. وأنت انسجامي
مع الكونِ ، والأمرُ لولاكَ فوضى

الله .. له الحمد وله الشكر ، نور السماوات والأرض ومن فيهن له الحمد فهو قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، وله الحمد فهو رب السماوات والأرض ومن فيهن ، وله الحمد فهو الحق ، ووعده الحق ، وقوله الحق ، ولقاؤه حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق، ومحمد ﷺ

حق ، والساعة حق ، له أسلمنا ، وبه آمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وبه خاصمنا ، وإليه حاكمنا ، فنسأله أن يغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، فهو إلهنا لا إله إلا هو .

الله .. سبحانه . افتتح الخلق بالحمد ، وختم أمر هذا العالم بالحمد ، فقال : ﴿ الحمدُ لله الذي خلق السموات والأرض .. ﴾ ، وقال : ﴿ وقُضي بينهم بالحق وقيل الحمدُ لله رب العالمين ﴾ .

نوحٌ – عليه السلام – كان دائم اللهج بذكر **الله** ، كثير الشكر لله كثير الحمد لله ، لم يأكل شيئاً قط إلا قال : الحمد لله ، ولم يشرب شرباً قط إلا قال : الحمد لله ، ولم يمش مشياً إلا قال : الحمد لله ، ولم يلبس لباساً إلا قال : الحمد لله ، فأثنى **الله** عليه بقوله : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ .

ومما يروى أن نبيّ **الله** دانيال – عليه السلام – قبض عليه بُخْتُنصَّر وحبسه في مكان ، وأخذ أسدين فاضراهما ، وجوّعهما ، ثم حبسهما معه وأغلق عليهما ، وبعد مرور خمسة أيام فتح السجن فوجد دانيال – عليه السلام – قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجُبّ لم يعرضا له ، فقال له بُخْتُنصَّر : أخبرني ماذا قُلت فدُفع عنك؟ قال : قُلت : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي لا يُخيِّب من رجاه ، والحمد لله الذي لا يكلُ من توكل عليه إلى غيره ، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمدُ لله الذي يكشف ضُرّنا عند كربنا ، الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ،

الحمدُ لله الذي يجزي بالصبر نجاةً » .

ومن أشد الناس ذكراً لله ومعرفةً به وإجلالاً له : الحسن البصري - رحمه الله - الذي أثر عنه من كلمات الثناء ، وعبارات الدعاء ، ما ينبيء عن قلب حي ، وذهن متوقد ، ونفسٍ مؤمنة ، كان إذا جلس في مجلسه قال :

اللهم لك الحمدُ بما بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالأهل والمال ، ولك الحمدُ باليقين والمعافاة .

اللهم لك الحمدُ بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك من صالح أعطيتنا ، فلك الحمدُ كثيراً كما تُنعم كثيراً ، أعطيت خيراً كثيراً ، وصرفت شراً كبيراً ، فلوجهك الجليل الباقي الدائم ؛ الحمد لله رب العالمين .

وهذا مُحارب بن دثار كان قاضٍ من قضاة الكوفة ، يقول أحد جيرانه : كنا إذا أظلم الليل ، ونامت العيون نسمع محارب بن دثار وهو يدعو ويرجو ويهتف ويبكي في ظلمة الليل ، وكان مما يقول :

(يا الله أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد ، أنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد ، أنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد ، أنا الغريب الذي وصيته فلك الحمد ، أنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد ، أنا العزب الذي زوجته فلك الحمد ، أنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد ، أنا العاري

الذي كسوته فلك الحمد ، أنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد أنا الغائب الذي رددته فلك الحمد ، أنا الراجل الذي حملته فلك الحمد أنا المريض الذي شفيته فلك الحمد ، أنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد ، أنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد ، فلك الحمدُ ربنا حمداً كثيراً على حمدي لك) .

لك الحمد كُلّ الحمد . لا مَبْدأٌ له
ولا منتهى . والله بالحمد أعلمُ

قال ﷺ : « الحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض ، وما أسدى لأحد نعمة ، فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى خيراً مما أخذ ، وكلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، والعبد إذا قرأ قوله تعالى : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله حمدني عبدي ، فهو تعالى مستحق الحمد ، وهو أهل الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، نحمده حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه ، نحمده كما يحب تعالى ويرضى ، نحمده ملء السماوات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شاء من شيء بعد ، لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نلهج بحمد الله تعالى ، وأن نثني عليه ونحمده على كل حال ، وفي كل آن .

إذا طعم المسلم من فضل الله جل وعلا ، وهوالمنعم المتفضل ، الرازق الكريم ، يقول : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » ، وإذا شرب الماء القراح قال : « الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته ، ولم

يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا» .

والله تعالى يرضى عن العبد إذا أكل الأكلة أو شرب الشربة ثم حمد الله عليها ، و «إن للطاعم الشاكر من الأجر ، مثل ما للصائم الصابر» .

يا الله ما أعظمه وأجله وأكرمه !! النعمة منه ، والرزق منه ، والمطعم منه ، والمشرب منه ، ثم يتمتع العبد بذلك ، ويأخذ عليه الأجر من الله ، بل الأعجب من ذلك كله هذا الحديث العظيم ، الذي ينبيء عن الكرم ، ويخبر عن الرحمة ، ويدل على الفضل العظيم :

يقول ﷺ : «من أكل طعاماً ثم قال : الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» .

والمسلم إذا اكتسى ثوباً أو عمامة أو نحو ذلك قال : «الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له» .

وإذا ركب دابة قال ما علمه الله إياه : «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون» .

وإذا استيقظ من نومه قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» .

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال : « الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني » .

وإذا رأى مبتلى في جسمه أو حواسه قال : « الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه » .

وإذا تم له أمر على ما كان يبغي ويريد قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » .

وفي الحديث الحسن عن أبي موسى الأشعري : إذا مات ولدُ الرجل، يقول الله تعالى لملائكته : « أقبضتم ولد عبدي » ؟ فيقولون : نعم . فيقول: « فماذا قال عبدي؟ » ، فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول : « ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسمّوه بيت الحمد » .

وإذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره بطبيعته البشرية قال : « الحمد لله على كل حال » .

وإذا استقبل وجه الصباح قال : « اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر ، فأتم علي نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة، اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » ، وإذا أظله المساء قال مثل ما قال في الصباح .

فهذا هو شعور المؤمن دائماً ، شعور الذاكر لنعمة الله ، الشاكر لفضل الله ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

أنا بالله وحده وإليه
إنما الخير كله في يديه

أحمد الله وهو ألهمني الحمـ
ـد على المن والمزيد لديه
كم زمان بكيت منه قديماً
ثم لما مضى بكيت عليه

* الشكر لله *

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

الشكر لله اعتراف بفضله ، واحترام لكرمه ، وإجلال لنعمه ، وثناء على عطائه ، واعتراف بجميله ، إنه ظهور أثر النعمة ، وجلاء لطيف المنّة ، ووضوح فضل المتفضل بالثناء عليه ، والمحبة له ، واستعمال ما أعطى فيما يحب ، والانقياد لأمره ، والرضى بحكمه . معرفة مصدر النعمة شكر ، والثناء عليها شكر ، وتوجيهها في الطاعة شكر ، ومشاهدة المنّة بها شكر ، وحفظ حرمات المنعم شكر ، وامتلاء القلب بمحبته شكر ، ولهج اللسان بذكره شكر ، والتسبيح بحمده شكر .

الشكر يزيد النعم ، ويزيل النقم ، ويُبلِّغ المنى . إن الإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر ، بل قد لا يبعد الأمر إذا قلنا إن الدين كله شكر ، فمن شُكْر الله الاعتراف بوحدانيته ، والإيمان برسله ، والصلاة شكر ، والزكاة شكر ، والصوم شكر ، والحج شكر ، والذكر شكر ، والعابد لله حقاً هو الشاكر : **﴿ واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾** .

وقرن عبادته تعالى بالشكر فقال : ﴿ واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ ، وترك الشكر كفر : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وإبراهيم - عليه السلام كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ؛ لأنه كان شاكراً لأنعم ربه وأجلها نعمة التوحيد : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين * شاكراً لأنعمه ﴾ وامتدح الله نوحاً لأنه ﴿ كان عبداً شكورا ﴾ ، بل إن الله جل وعلا خلق الخلق وأوجدهم ليشكروه : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

ومن أسمائه جل وعلا ، شاكر وشكور ، ويحب لعباده أن يتصفوا بهذه الصفة الربانية ، والسمة الإلهية ، ولقد ورد في آية واحدة الحث على الشكر وبيان أن الله تعالى شاكر عليم ، وتلك فيها لفتة كريمة ، ولطيفة بديعة ، وكأنه تعالى يقول : إذا أمرتكم بالشكر فامتثلوا الأمر فإنها رتبة رفيعة ، ودرجة عالية ، ولذلك كانت من أسمائي وصفاتي وأنا أحبها لعبادي ، وأدفع عنهم بها العذاب : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ .

الشكر يرضاه الرب ، ويحبه المولى : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ والشاكر سعيه مأجور وعمله مشكور : ﴿ وكان سعيكم مشكورا ﴾ .

الله جل وعلا هدى الناس لعلهم يشكرون ، وأتم نعمته عليهم لعلهم يشكرون ، وبين آياته للناس لعلهم يشكرون ، ورزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون ، وسخر لهم ما في الأرض جميعاً منه لعلهم يشكرون ، وخلق البحر وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وجعل

للناس السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون .

إن نعم الله العظيمة ، وآلاؤه الكريمه ، ومننهُ المتتالية ، وأفضاله المتتابعة ، قد يسرها جميعاً للناس ، ووهبها للبشر ليقوموا بشكره ، ويسبحوا بحمده ، ويعترفوا بفضله ، فله الحمد والشكر في الأولى والآخرة .

ومن عظمة العزيز الشكور ، وفضل الرحيم الغفور ، أنه يجعل الشاكر مشكور ، انظر إلى بديع لطفه ، وعظيم فضله ، وواسع عطائه ، هو الذي خلقك ، وهو الذي رزقك ، وهو الذي هداك للإيمان ، وجملك بالإسلام ، وأعانك على ذكره ، ووفقك لشكره ، فكل الفضل والمن والثناء والحمد والشكر له جل وعلا ، ولكن مع ذلك فمن تمام نعمته ، وعظيم بره ، ووافر كرمه ، ولطيف جوده ، أن ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة ، ويوفقك إلى الثناء عليها ، ويرضى عنك ، ثم يعيد إليك منفعة شكرك له ويجعله سبباً لتوالي نعمه عليه ، واتصالها إليك ، ويمن عليك بالزيادة في الدنيا ، والمغفرة في الآخرة ، فهو يحب منك الشكر ، ويرضاه لك ، ويثيبك عليه ، ومنفعته لك ، وثمرته لك ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ ، فشكرك له إحسان منك إلى نفسك ، وتفضل منك على ذاتك في الدنيا والآخرة ، وهو غني عنك ، غير محتاج إليك ، فهو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يُشكر عليه ، ولا يستطيع أحد أن يكافىء نعمه ، ويقابل إحسانه ، ويحصي ثناءً عليه ، وإنَّ شُكْرك له نعمة منه تحتاج إلى شكر منك .

تعريف الشكر :

وردت تعريفات للشكر عديدة ، وأوصاف كثيرة ، ومعانٍ لطيفة ، ومن تعريفاته اللغوية قول الراغب الأصفهاني : (الشكر تصور النعمة

وإظهارها ، وقيل : هو مقلوب عن الكَشْر أي الكشف : ويُضاده الكفر الذي هو نسيان النعمة وسترها . وقيل أصله من عَينٍ شَكْرَى أي ممتلئة . فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذِكْر المُنْعِم عليه) .

وقال ابن منظور : (الشكر عرفان الإحسان ونشره ،وهو مأخوذ من قولك : شكرت الإبل تشْكُر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه ، والشُكران خلاف الكُفران . والشكر من الله : المجازاة والثناء الجميل ، ويُقال : شَكَرَه وشَكَر له يشكُرُ شُكْراً وشُكْراناً ، ويقال أيضاً : شكرت الله ، وشكرت لله وشكرت بالله ، وكذلك شكرت نعمة الله ، ورجلٌ شكورٌ . كثير الشكر ، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته) .

الشكر في الاصطلاح :

قال الكفوي : (الشكر كل ما هوجزاءٌ للنعمة عرفاً ، وقال أيضاً : أصل الشكر : تصور النعمة وإظهارها ، والشكر من العبد : عرفان الإحسان ، ومن الله المجازاة والثناء الجميل) .

وقال المناوي : (الشكر : شُكْران : الأول شكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، والآخر : شكر بجميع الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق ، والشكور الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً) .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : (الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة) .

ويقول صاحب المنازل – رحمه الله – : (الشكر اسم لمعرفة النعمة . لأنها السبيل إلى معرفة المنعم ، ولهذا سمى الله تعالى الإسلام والإيمان في القرآن شكراً) .

معاني الشكر :

قال صاحب المنازل : (ومعاني الشكر ثلاثة أشياء : معرفة النعمة ، ثم قبول النعمة ، ثم الثناء بها) .

وقد شرح ابن القيم هذا الكلام بقوله : (أما معرفتها : فهو إحضارها في الذهن ، ومشاهدتها وتمييزها .

فمعرفتها : تحصيلها ذهناً ، كما حصلت له خارجاً . إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري . فلا يصح من هذا الشكر .

قوله : « ثم قبول النعمة » .

قبولها : هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه ، ولا بذل ثمن . بل يرى نفسه فيها كالطفيلي ، فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة .

قوله : « ثم الثناء بها » .

الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان : عام ، وخاص . فالعام : وصفه بالجود والكرم والبر والإحسان ، وسعة العطاء ، ونحو ذلك .

والخاص : التحدث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته . كما قال تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما : أنه ذكر النعمة ، والإخبار بها . وقوله : أنعم الله عليّ بكذا وكذا . قال مقاتل : يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة : من جبر اليتم ، والهدى بعد الضلال ، والإغناء بعد العيلة .

والتحدث بنعمة الله شكر ، كما في حديث جابر مرفوعاً : « من صُنِع إليه معروف فليَجْز به ، فإن لم يجد ما يجزي به فليُثْنِ ؛ فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور » .

فذكر أقسام الخلق الثلاثة : شاكر النعمة المثني بها ، والجاحد لها ، والكاتم لها ، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها ، فهو مُتحلٍّ بما لم يُعْطه .

وفي أثر آخر مرفوع : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير . ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر . وتركه كفر . والجماعة رحمة . والفرقة عذاب » .

والقول الثاني : أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية : هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة . قال مجاهد : هي النبوة . قال الزجاج : أي بَلِّغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي آتاك الله . وقال الكلبي : هو القرآن . أمره أن يقرأه .

والصواب : أنه يعم النوعين . إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها . وإظهارُها من شُكْرِها) .

الله شكور حليم :

قال الإمام الغزالي – رحمه الله – : (الشكور في أسماء الله تعالى : هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود ، ومن جازى الحسنة باضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة ، ومن أثنى على المحسن أيضاً يقال : إنه شكر ، فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله عز وجل ، لأن زياداته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة) .

وقال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – : (وأما الشكور من عباد الله فهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته . ومن أسماء الله الحسنى الشكور ، وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع ، ويعفو عن الكثير من الزلل ، ولا يُضيع اجر من أحسن عملاً ، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة بغير عد ولا حساب . ومنْ شُكْره أنه يجزي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . وقد يجزى الله العبد على العمل بأنواع الثواب العاجل قبل الآجل ، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد ، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرماً منه وجوداً ، والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى) .

يا رب أنت خلقتني … وخلقت لي وخلقت مني
سبحانك اللهم عا … لم كل غيب مستكنّ
ما لي بشكرك طاقةٌ … يا سيدي إن لم تُعنّي

الفرق بين الحمد والشكر :

تكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر فقالوا: الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، والحمد يكون بالقلب واللسان .

وقال بعضهم : إن الحمد والشكر بمعنىً واحد .

وقالوا : إن الحمد يكون على كل حال ، والشكر يكون على وصول النعمة إلى الشاكر .

وعموماً فإن الحمد والشكر إعلان للثناء على الله ، واعتراف بفضله ، وامتنان لجوده ، فله الحمد وله الشكر وهو على كل شيء قدير .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : (اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجبا)

وقال الجوهري : (الحمد نقيض الذم ، نقول : حمدت الرجل أحمد حمداً ، فهو حميد ومحمود ، والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، والشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له ، وباللام أفصح) .

منزلة الشكر :

قال ابن القيم - رحمه الله - : (قرن الله سُبحانه الشكر بالإيمان ، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به ، فقال : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي إن وفيتم ما خلقتكم له ، وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟ . وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده . فقال : ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منْ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ .

وقسّم الله سبحانه وتعالى الناس إلى شكور وكفور ، فابغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله . قال تعالى : ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ، وهذا كثير في القرآن ، يُقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده . وعلّق الله سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . قال تعالى : ﴿وإذ تَأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

وأوقف سبحانه الجزاء على المشيئة كثيراً وأطلق ذلك في الشكر فقال تعالى : ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ ، بل قد جعل الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، فقال تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ ، وأخبر سبحانه أنه إنما يعبده من شكره ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ ، وقد أثنى الله سبحانه على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض

بالشكر فقال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ ، كما أثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكره نعمه ، فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ ، فأخبر عنه سبحانه بصفات ثم ختمها بأنه شاكرٌ لأنعُمه ، فجعل الشكر غاية خليله ، وأمر الله عز وجل عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة وتكليمه إياه بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ ، بل جعل الله عز وجل أول وصية وصّى بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين . فقال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾ ، كما أخبر سبحانه أن رضاه في شكره فقال :﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾) .

إن الشكر ليس كلمة تقال وعبارات تُردَّد ، بل هو قول وعمل ، ولفظ باللسان وعمل بالأركان ، إنه شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان ، وهو الثناء على المنعم ، وشكرٌ بالجوارح ، وهو العمل بما يحبه المشكور : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ ، ولذلك فلا يكون الشاكر شاكراً على الحقيقة إلا بقيامه بقواعد الشكر وهي : خضوع الشاكر للمشكور – حُبُّه له – اعترافه بنعمه – الثناء عليه بها – الا يستعملها فيما يكره .

الشكر سمة لأولي الألباب :

وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تدعو الناس إلى التفكر في ملكوت الله والتأمل في مخلوقاته والنظر في آلائه ، وأن تلك السمة سمة للشاكرين الذين يشكرون الله على نعمه ، ويشكرون الله على هدايته ،

ويشكرون الله على أن جعلهم من أولي الألباب وذوي البصيرة ، قال تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبُث لا يخرج إلا نكدا كذلك نُصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفُلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ .

الأنبياء يشكرون الله :

الأنبياء – عليهم السلام – أسبق الناس إلى كل خير ، وأقربهم من كل فضل ، وأعلمهم بعظمة المولى ، وفضل الخالق ، وقدر العظيم ، قليل من عباد الله الشكور ، والأنبياء – عليهم السلام – هم من هذه القلة الشاكرة الطاهرة .

أبو البشر آدم – عليه السلام – وأمهم حواء – عليها السلام – : ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ .

وفي أثر آخر إسرائيلي : أن موسى ﷺ قال : « يا رب ، خلقت آدم بيدك . ونفخت فيه من روحك . وأسجدت له ملائكتك . وعلمته أسماء كل شيء . وفعلت وفعلت . فكيف أطارق شكرك؟ قال الله عز وجل : علم أن ذلك مني . فكانت معرفته بذلك شكراً لي » .

نوح – عليه السلام – كان من أعظم الشاكرين ، وأحسن الحامدين ، قال تعالى : ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ .

إبراهيم – عليه السلام – قال عنه تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ .

داود – عليه السلام – قال تعالى له : ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾ .

ويروى أن داود – عليه السلام – قال : يا رب ، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة عليَّ من عندك تستوجب بها شكراً . فقال : الآن شكرتني يا داود .

سليمان – عليه السلام – لما كثرت عليه نعم الله ، وتعدَّدت آلاؤه ، ابتهل إلى ربه قائلاً : ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ .

لقمان – عليه السلام – قال تعالى عنه : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ .

وموسى – عليه السلام – قال تعالى له : ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ .

وهكذا تتجلى روائع الشكر ، وأفانين الثناء في حياة الأنبياء – عليهم السلام – .

وإن الله تعالى أمرهم وأمر الناس جميعاً بالشكر فقال تعالى :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

وإنه تعالى قد حث عباده المؤمنين إذا بلغوا أشدهم واستتم بناؤهم ، وبلغوا أربعين سنة أن يبتهلوا إلى الله جل وعلا سائلينه توفيقهم إلى شكره على نعمه وحمده على آلائه : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾ .

وفي أثر إلهي : يقول الله عز وجل : « أهلُ ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب » .

إمام الشاكرين :

أعظم الناس شكراً لله محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو إمام الشاكرين ، وسيد العابدين ، لقد امتزج الشكر بأنفاسه ، وسار في عروقه ، ورسخ في وجدانه ، لبس حلّة الشكر ، وارتدى برداء الثناء ، نطق لسانه بترانيم الشكر وعبقت جوارحه باريج الثناء ، وترجم شكره لله باعمال زاكية ، وأفعال رائعة ، وأقوال ذائعة ، قام حتى تفطرت قدماه فقيل له في ذلك : لماذا تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم يزد على الإجابة الشافية ، والعبارة الكافية : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ما أعظم الجواب ، وما أجمل العبارة ، وما أحسن المعنى ، لم يقل أفلا أكون شكوراً ، ولكن أفلا أكون عبداً شكوراً ، إشارة للسامع وتذكيراً للإنسان بمقام العبودية ، وأن

المرء مهما بلغ فإن قيمته ومنزلته في عبوديته لله وتذلله لمولاه وانطراحه لخالقه .

إن العبودية وحدها درجة رفيعة ، ورتبة عالية ، ومنّة كبيرة تستحق الشكر العظيم ، والثناء الكريم ، فضلاً عن بقية النعم ، وروائع الكرم ، وأفانين المنن .

ومما زادني شرفاً وتيهاً
فكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن صيرت أحمد لي نبيا

لقد اتصف ﷺ بالصفة التي أحبها له ربه ورضيها له مولاه صفة العبودية : **﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾** . إن هذه العبارة الموجزة منه ﷺ تحتاج إلى شرح كبير ، وكلام طويل لإعطائها حقها ، وتجلية معانيها ، وبيان روائع ما فيها « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

لقد كان ﷺ يسأل الله دائماً أن يجعله شاكراً لنعمه : « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك** » ، ومن دعائه : « **رب اجعلني لك شكاراً ، لك ذكّاراً ، لك رهّاباً** » .

وكان ﷺ إذا سرّ بالأمر ، وفرح بالخبر ، واستبشر بالنبأ ، فإن أول ما يخطر في ذهنه ، وينقدح في فؤاده أن يخر ساجداً شاكراً لله تعالى .

ويقرأ ﷺ قوله تعالى في سورة (ص) عن نبيه داود – عليه السلام –:

﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب﴾ فيسجد ثم يقول : «سجدها داود توبةً ونسجدها شكراً» .

وحينما وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء شكراً لله على ان نجى فيه موسى قال : «نحن أحق بموسى منهم» فصامه وأمر بصيامه شكراً لله تعالى

تربية الأمة على الشكر :

حرص النبي الكريم ﷺ ان يعلم أصحابه الشكر ويربيهم عليه ، وبين لهم فضله ، وعلو منزلته ، ورفيع درجته ، فامتثلوا الأمر ، وحفظوا الدرس ، وقاموا بواجب الشكر . يأخذ ﷺ بيد معاذ ثم يقول له : «يا معاذ ، والله إني لاحبك ، والله إني لاحبك» ، ثم قال له : «أوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دُبُر كل صلاةٍ تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

ويقول ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» .

وروي عنه ﷺ قوله : «من قال حين يُصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك . فلك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه ، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته» .

ويبين ﷺ روعة الدين وجمال الإسلام ، وأن الله جل وعلا قد جعل من شكره تقديم الشكر لعباده ، وإزجاء الثناء لذوي الإحسان وأرباب الأنعام من الناس ، فيقول : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

بل انظر إلى هذه الروعة في كتابه جل وعلا حيث قرن شكر الوالدين بشكره سبحانه فقال : ﴿وأن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ .

ويقول ﷺ : «من أعطي عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليُثن به فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره» .

قوافل الشاكرين :

كان أبو بكر – رضي الله عنه – يقول في دعائه : «أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها ، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا» .

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول : «ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم : إذا لم يكن في ديني ، وإذا لم يكن أعظم ، وإذا لم أُحرم الرضا به ، وإذا أرجو الثواب عليه» .

يقول أحد الشعراء حول هذا المعنى الذي أشار إليه الفاروق :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً
علـيَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمرُ
إذا مس بالسراء عم سرورها
وإن مس بالضراء أعقبها الأجرُ
وما منهما إلا له فيه منّة
تضيق بها الأوهام والبر والبحرُ

وتقول عائشة – رضي الله عنها – : «ما من عبد يشرب الماء القراح

فيدخل بغير اذى ويخرج الاذى إلا وجب عليه الشكر » .

وقال أبو حازم - رحمه الله تعالى - لرجل سأله : ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال : « إن رأيت بهما خيراً أعلنته ، وإن رأيت بهما شراً سترته » ، قال : فما شكر الاذنين؟ قال : « إن سمعت بهما خيراً وعيته وإن سمعت بهما شراً دفعته » ، قال : فما شكر اليدين؟ قال : « لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما » ، قال : فما شكر البطن؟ قال : قال الله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

ويقول الحسن البصري - رحمه الله - : « الخير الذي لا شرّ فيه : العافية مع الشكر ، فكم من مُنعم عليه غير شاكر » .

ويقول كعب الاحبار - رحمه الله - : « ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله ، وتواضع بها لله ، إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ، ورفع له بها درجة في الآخرة . وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها ، ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا ، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه » .

ويقول الفضيل بن عياض - رحمه الله - : « عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فَقَلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم » .

ويقول أبو حاتم البستي - رحمه الله - : « الواجب على العاقل أن يشكر النعمة ، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته إن قدر بالضعف وإلا فبالمثل ، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده ، مع بذل الجزاء له بالشكر » .

ويقول ابن قدامة – رحمه الله – : « الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح . أما بالقلب فهو أن يقصد الخير ويُضمره للخلق كافة . وأما باللسان : فهو إظهار الشكر لله بالتحميد ، وإظهار الرضى عن الله تعالى . وأما الجوارح : فهو استعمال نعم الله في طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، فَمِنْ شُكْر العينين أن تستر كل عيب تراه للمسلم ، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه » .

وقال أحد الحكماء : « من أُعطي أربعاً لم يمنع أربعاً : من أُعطي الشكر لم يُمنع المزيد ، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب » .

من روائع الشكر :

انظر إلى لطف المولى ، ورحمة العظيم ، وكرم الكريم ، وجود الرحيم ، قال ﷺ : « بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي . فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال : « في كل كبد رطبة أجر » ، فكيف بمن يحسن إلى المسلمين ويرفق بالمؤمنين ويتصدق على الموحدين .

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصن شوك على الطريق ، فأخَّره ، فشكر الله له ، فغفر له » ، فكيف بمن يزيل العوائق المعنوية من طريق الناس ، بتيسير أمورهم ، وتفريج همومهم ، وتنفيس كربهم ، ويزيل العوائق من طريق الدعوة إلى الله ، ويمهد الطريق للدعاة إلى الله ، والآمرين

بالمعروف والناهين عن المنكر .

ومن روائع الشكر أن تأكل من نعم **الله** ، وتتلذذ بما آتاك **الله** ، ثم تشكر **الله** على ذلك فتصل إلى درجة الصائم الصابر ، الذي أظمأ نهاره ، وجوّع نفسه ، وأتعب جسده ، يقول ﷺ : « إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر » .

فوائد الشكر :

١ – أنه اتصاف بصفة من صفات المولى جل وعلا التي يحبها ويرضاها ويثيب عليها ويحبها لعباده : ﴿ إن الله غفورٌ شكور ﴾ .

٢ – أنه سبب للنجاة من عذاب **الله** جل وعلا : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ .

٣ – أنه سبب لنيل الجزاء العظيم من **الله** تعالى : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾.

٤ – أنه استجابة **لله** تعالى وامتثال لأمره فهو الذي أمر عباده بالشكر .

٥ – أنه سبب لحفظ النعم وزيادتها ، وعظيم بركتها ، وجميل نفعها : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ .

٦ – أنه سمة من سمات أولي الألباب : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

٧ – أن الشاكر إنما يشكر لنفسه ، ويرفع من درجاته : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾.

٨ – أن شكر الناس يعتبر شكراً **لله** تعالى : « لا يشكر **الله** من لا يشكر الناس » .

٩ – أنه اتباع لسبيل المرسلين ، وسير في ركاب الشاكرين من الأنبياء والصالحين .

١٠ – أنه أمر يرضاه **الله** ويرضى عن أهله : **﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾** .

١١ – أنه تحدٍّ للشيطان ، وإخزاءٌ له ، ودحرٌ لمكره وكيده ، فهو حريص على صرف الناس عن الشكر : **﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** .

١٢ – أنه النصف الآخر من الإيمان ، فمن كمال الإيمان الشكر للديان ، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

١٣ – أنه دليل على كمال العقل ، ونقاء الفكر ، وصفاء النفس ، لأن من عرف قدر المنعم جل وعلا ، وتأمل بديع كرمه ، وعظيم عطائه ، فالأجدر به أن يترنم بشكره ، ويشدو بذكره .

ومن الرزيّة أن شكري صامت
عما فعلتَ وأن برَّك ناطقُ
أأرى الصنيعة منك ثم أُسرُّها
إني إذاً لندى الكريم لسارقُ

اللهم أوزعنا شكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا وأن نعمل صالحاً ترضاه وأصلح لنا في ذريتنا إنا تبنا إليك وإنا من المسلمين ،،،

* الخوف من الله *

قال تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين ءامنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ .

قال تعالى : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ .

الخوف من الله تعالى سمة المؤمنين ، وآية المتقين ، وديدن العارفين، خوف الله تعالى في الدنيا طريقٌ للأمن في الآخرة ، وسببٌ للسعادة في الدارين ، ودليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام وصفاء القلب وطهارة النفس ، إذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد بهرج الدنيا عنه ، وهو سوط الله يقوِّم به الشاردين عن بابه ويرد به الآبقين إلى رحابه . الله تعالى يريد لعباده أن يعرفوه ويخشوه ويخافوه ، وقد وصف لهم الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة التي تدل على عظمته ، وتنبيء بكبريائه ليهابوه ويخافوه ويجلّوه ، ووصف تعالى في كتابه العظيم ، وفيما أوحى إلى نبيه الكريم ؛ وصف شدة عذابه ، وقوة بطشه ، وسرعة أخذه ، ودار عقابه ، وما أعدّه لأعدائه من العذاب والنكال ، وذكر النار وأهوالها ، وما فيها من الزقوم والضريع ، والحميم والسلاسل والأغلال ، والفظائع والأهوال ، ودعا عباده إلى خشيته وتقواه ، والبعد عن سخطه والمسارعة إلى رضاه ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه .

قال تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن

ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

احتوى القرآن الكريم على آيات من الوعيد تزلزل الوجدان ، وتهز النفوس ، وتفتت الأكباد ، وتقرح الجفون ، وبين أنها تخويف لعباده ليسلكوا النهج القويم ويخالفوا أصحاب الجحيم .

قال تعالى : **﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين * لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾** .

وقد أخبر تعالى أن كتابه الكريم ، ومواعظه البالغة ، وحكَمه النافعة ، ونذره القاطعة لا تظهر ثمرتُها ، ولا تبدو بركتها إلا للخائفين من ربهم ، والمشفقين من معبودهم ، قال تعالى : **﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾** .

فالخائف يتذكر ويتعظ ، ويخشع ويعتبر ، ولذلك كان لسان حال الأنبياء - عليهم السلام - : **﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾** ، والمؤمنون الصادقون هم : **﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر**

الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، وهم الذين : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾** ، ومن أعظم صفاتهم أنهم : **﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ﴾** . فكانت النتيجة المبهجة ، والثمرة المباركة : **﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴾**.

المسلم الصادق ، والمؤمن الخاشع ؛ هو الذي عرف **الله** تعالى حق المعرفة ، وعرف قوله جل وعلا : **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** فهو يخاف **الله** ويحذره ، ويهابه ويتقيه ، قال ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل » .

وقال وهب بن منبه - رحمه **الله** - : ما عبد **الله** تعالى بمثل الخوف .

وقال أبو سليمان الداراني : أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو الخوف من **الله** عز وجل ، وكل قلب ليس فيه خوف **الله** فهو قلب خرب .

فأين القلوب الممتلئة بخوف **الله** ، المفعمة بخشية **الله** ، المترعة بمهابة **الله** ، أين القلوب التي ذلت لعزة الجبروت ، وخشعت لصاحب الملكوت ، وأعدّت لما بعد الموت .

الخوف شجرة طيبة إذا ثبت أصلها في القلب امتدت فروعها إلى الجوارح ، فآتت أكلها الطيبة بإذن ربها وأثمرت عملاً صالحاً ، وقولاً رابحاً ، وسلوكاً قويماً ، وفعلاً كريماً تخشع الجوارح ، وينكسر القلب، ويرق الفؤاد ،

وتزكو النفس ، وتجود العين .

إذا خاف المرء ربه أخاف **الله** منه كل شيء ، وإن لم يخف ربه أخافه من كل شيء .

الخوف منه تعالى ؛ مانع للذنب ، عاصم من الخطأ ، حافظ من الزلل ، مبعد عن الخلل ، حافز للنفس ، موقظ للضمير ، حاث على الاجتهاد ، وأنى لقلب لم يزرع فيه خوف **الله** أن يرتدع عن الهوى ، ويرعوي عن الجهل ، وكيف لفؤادٍ لم تسكنه خشية **الله** والهيبة لجلاله ، والوجل من بطشه ، والإشفاق من وعيده ؛ كيف له أن يعمر بالطاعة ، ويتجافى عن المعصية ، ويتنكر للخطيئة ، ويستوحش من الذنب .

إن الخوف سمة لأولى الألباب : **﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾** ، وخوف **الله** تعالى هو الذي حجب قلوب الخائفين عن زهرة الدنيا وعوارض الشبهات . وقوة مراقبة المرء لربه ، ومحاسبته لنفسه بحسب قوة معرفته بجلال ربه والخوف من وعيده .

إذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطار الخوف نومهمُ فقاموا
وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ

الخائف من **الله** تعالى عاقبته الأمن والسلام ، وثوابه أن يظله **الله** في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ذكر ﷺ السبعة الذين يظلهم **الله** في ظله يوم

القيامة فذكر منهم : « رجلاً دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف **الله** رب العالمين» ، وذكر منهم : « رجلاً ذكر **الله** خالياً ففاضت عيناه» .

لقد ورد الحديث عن الخوف من **الله** تعالى في القرآن الكريم والسنة النبوية بكلمات عدّة ، والفاظ متنوعة ، منها : الإشفاق ، والخشية ، والوجل ، والرهبة .

الإشفاق :

قال تعالى في وصف المتقين : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾ .

يقول إبراهيم التيمي – رحمه **الله** تعالى – : ينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا : ﴿ **إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين** ﴾ .

إن إشفاق المؤمنين في الدنيا كان سبباً لنجاتهم يوم القيامة : ﴿ **قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ .

الخشية :

قال تعالى : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ .

والهداية الحقّ ، والدين الأكمل ؛ هو الذي يثمر الخشية **لله** تعالى:

﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ .

وقد بين جل وعلا أن الجنة ونعيمها جزاء لمن خشي ربه وخاف مولاه فقال تعالى : **﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾** .

وقال ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية **الله** حتى يعود اللبن في الضرع » .

وقال ﷺ : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية **الله** ، وعين باتت تحرس في سبيل **الله** » .

يقول ابن رجب – رحمه **الله** – : قد تكاثرت النصوص على أن البكاء من خشية **الله** يقتضي النجاة من النار ، والبكاءُ خوف من نار جهنم هو البكاء من خشية **الله** ؛ لأنه بكاء من خشية عقاب **الله** وسخطه ، والبعد عن رحمته وجواره ودار كرامته .

ويقول ﷺ : « إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى **الله** » .

وبين لنا ﷺ أنه أعظم الناس خوفاً من **الله** تعالى ، وأشدهم له خشية ، وأكثرهم تقوى ، فيقول ﷺ : « والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له » .

الوجل :

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ .

تقول عائشة – رضي الله عنها – : سالت رسول الله ﷺ ﴿ والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ﴾ ، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ، قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون الا تقبل منهم ﴿ أولئك الذين يسارعون في الخيرات ﴾ » .

الفخر في هذه الدنيا لذي هدف
سامٍ فلا بهْرجٌ فيه ولا خللُ
الفخر فيها لقوم قدَّموا عملاً
يرضى به الله ما زاغوا وما عدلوا
ساروا على منهج الإسلام في ثقة
يحدوهمُ الحب للجنات والوجلُ

الرهبة :

قال تعالى : ﴿ فإياي فارهبون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

قال الحسن البصري : « هو الخوف الدائم في القلب » .

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك في الدنيا فأمنته يوم القيامة .

وما كثرت الذنوب وأظلمت القلوب إلا لقلة الخوف من علام الغيوب .

تحيط بنا العبر ، وتكثر الحوادث ، وتعظم الكوارث ، وتفتن الأمم ، وتحل النقم ، والأنفس لاهية ، والأفكار ساهية ، وحبال التقوى واهية .

قلوب تحجّرت ، وأحاسيس تبلدت ، وجوارح عطلت ، لا قلب يخشع ولا نفس تشبع ، ولا عين تدمع ، ولا فؤاد يرجف ، ولا لسان ينكر .. إلا من رحم **الله** .

أتخمت البيوت بالمعاصي ، وملأت العقول بالشبهات ، وأترعت النفوس بالشهوات ، تُسمع المعصية وقلَّ من ينكرها ، ويشاهد المنكر وكأنه المعروف ، ويؤكل الحرام وكأنه الحلال ، يجالس صاحب المعصية ، ويؤاكل ويشارب مرتكب الكبيرة دون حرج في النفس من فعله أو إنكار في القلب لسلوكه : **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾** .

آذان ألفت سماع المنكر ، وأبصار استمرأت رؤية الباطل ، وألسن استساغت اللغو والغيبة ، وقلوب أقفرت من الخشية ، وأجدبت من الخوف فاسودت وأظلمت ، وقست وتحجرت ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، لم تعد تهزها الموعظة ، أو تنفعها الذكرى ، أو تفيدها العبرة ، أو يحدوها الوعد ، أو يرهبها الوعيد ، إلا من رحم ربك .

﴿فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ .

والآن لنرى كيف ترجمت تلك المعاني ، وطبقت هاتيك القيم ، ولمع ذلك الإحساس في سماء صفوة من الناس ، عمرت بالخوف قلوبهم وتبددت من الإشفاق نفوسهم ، وطاشت خشية الهول عقولهم ، قلوب وجلة ، وأكباد محترقة ، وأعين باكية ، ودموع مسبلة ، احترقت وجناتهم ، وشحبت الوانهم ، ونحلت أجسامهم ، وكادت تزهق لشدة الخوف أرواحهم . أضناهم السهر ، وأفزعهم الخبر . خشوع وخضوع ، نحيب ودموع ، صلاة وصيام ، وجهاد وقيام ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، ويصبحون شعثاً غبراً صفراً :

تتجافى عن الفراش من الخوف   إذا الجاهلون باتوا نياما
بأنين وعبرة ونحيب   ويبيتون سجداً وقياماً

ومع كل ذلك كانوا كأن النار لم تخلق إلا لهم ، فاشفقوا من يوم الوقوف على الله ، وخافوا من هول المقام بين يديه ، ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ﴾ .

* خوف النبي ﷺ *

وإمام الخائفين وقدوة المتقين هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، فما هو موقفه من الخوف ، وما مدى خشيته؟ وما مقدارُ رهبته؟ يقول ﷺ : « أما والله إني لاتقاكم لله ، وأخشاكم له » .

كان ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، الا إن

سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .

وكان إذا صلى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل وصوت كصوت الرحى وذلك نشيجه وبكاؤه ﷺ .

لما أتتك قم الليل استجبت لها
العين تغفو وأما القلب لم ينم
تمسي تناجي الذي أولاك نعمته
حتى تغلغلت الأورام في القدم
أزيز صدرك في جوف الظلام سرى
ودمع عينيك مثل الهاطل العمم
الليل تسهره بالوحي تعمره
وشيبتك بهود آية استقم

لقد كان من دعائه ﷺ قوله : « **اللهم** أسألك خشيتك في الغيب والشهادة » .

تقول عائشة – رضي الله عنها – قام ليلة من الليالي فقال : « يا عائشة ذريني أتعبد لربي » ، قالت : « قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض . جاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ، لقد نزلت عليّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : ﴿ **إن في خلق**

السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾.

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

جلس ﷺ على شفير القبر في جنازة لأحد أصحابه فبكي حتى بل الثرى ، ثم نظر إلى أصحابه ونفسه واجفة ، وعينه واكفة قائلاً لهم: « يا إخواني لمثل هذا فاعدوا ، يا إخواني لمثل هذا فاعدوا».

كان ﷺ لشدة خوفه وعظيم خشيته وبديع رهبته يطير قلبه فزعاً ويخفق فؤاده خوفاً ، ويتغير وجهه حزناً لأي تغير يطرأ في الجو أو عارض يلوح في الأفق ، إذا هبت العواصف خاف ولجأ إلى ربه بالدعاء إذا انعقد الغمام خاف ، فإذا رأى غيمة أو ريحاً عرف ذلك في وجهه وإذا كسفت الشمس خاف .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفتُ في وجهك الكراهية ، فقال : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا ».

وكسفت الشمس في عهده ﷺ فخرج فزعاً مذعوراً لدرجة أنه نسي

رداءه فادركوه به ، وقام بين يدي ربه قياماً طويلاً ، وصلى صلاة طويلة ، وأخذ يدعو ويرجو وينطرح بين يدي ربه جل وعلا ويبكي ويقول : «لم تعدني هذا وأنا فيهم ، لم تعدني هذا ونحن نستغفرك» وكان يتسلل في ظلمة الليل وغفلة الأهل ونوم الأعين ينطرح بين يدي ربه - عز وجل - يدعوه ويرجوه ، ويستغفره ويناجيه .

تقول عائشة : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

ولقد كان ﷺ يزرع الخوف في نفوس أصحابه ، لعلمه بحسن عاقبة الخائفين ، وعظيم كرامة المشفقين ، يخوفهم بعظمة الله ، يخوفهم بعذاب الله ، يحذرهم من بطش الله ، يقول لهم : «إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أطّت وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله» ، فلما سمع أبو ذر هذا الحديث خاف قلبه ، وارتعدت فرائصه ، فقال والله لوددت أني كنت شجرة تعضد .

وخطبهم ﷺ في يوم من الأيام فقال : «عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد من ذلك اليوم وغطوا رؤوسهم ولهم خنين من البكاء

ووعظهم ﷺ في يوم من الأيام موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال رجل إن هذه موعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله ، قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » .

وكان ﷺ يبكي لموعظة القرآن ، ويهتز لنداء الرحمن ، بل شاب رأسه لهول ما حملته بعض السور وما قررته بعض الآيات ، حيث قال ﷺ : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت » .

قال لابن مسعود : « اقرأ عليّ القرآن » ، فقال : يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل ، قال : « إني أشتهي أن أسمعه من غيري ، فقرأ عليه من سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فرفع رأسه ونظر إلى النبي ﷺ فإذا عيناه تذرفان » ، لقد تذكر ﷺ ذلك اليوم الرهيب ، والموقف المهول ، والمشهد المخيف ، يوم يود الذين كفروا لو تسوى بهم الأرض ، و﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وكان ﷺ يغتنم الفرص ليذكر أصحابه ويخوفهم بآيات القرآن الكريم فيقرأ قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ فيقول: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل

الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه ».

ويحدِّث أصحابه قائلاً : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يامرك ان تُخرج من ذُرِّيتك بعثاً إلى النار . قال : يا رب وما بعث النار؟ قال : من كل ألف – أُراهُ قال – تسعمائة وتسعةً وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وهكذا كان خوفه ﷺ ، وهكذا كانت خشيته لربه ، وهو إمام المتقين وصفوة العالمين ، ما قارف خطيئة ، وما تلطخ بمعصية ، وما تعرض لخطأ ، ومع كل ذلك كان في الخوف آية ، وفي الخشية قدوة ، وهكذا عمر بالخوف قلوب أصحابه ، وأحيا بالترهيب نفوسهم ، وأيقظ بالخشية ضمائرهم ، فأتوا بالعجائب ، وجاؤا بالغرائب . أثمر ذلك الخوف في حياتهم فضربوا للدنيا أروع الأمثلة في التقوى ، وبلغوا القمة في العبادة ، والغاية في الزهد . طهرت نفوسهم ، وزكت قلوبهم ، وعظمت أعمالهم ، وحسنت أقوالهم ، خافوا الله تعالى فأخاف منهم كل شيء ، وخضعوا له فخضعت لهم الرقاب وذلت لهم الأمم ، ودانت لهم الشعوب :

عباد ليل إذا جن الظلام بهم
كم عابدٍ دمعه في الخد أجراه
وأسد غاب إذا نادى الجهاد بهم
هبوا إلى الموت يستجدون لقياه

* الخائفون *

أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - :

كان أبو بكر – رضي الله عنه – رجلاً أسيفاً كثير البكاء . إذا قرأ القرآن لم تكد تفهم قراءته من كثرة بكائه – رضي الله عنه وأرضاه – .

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
الصاحب التالي المحمود سيرته
وأول الخلق طراً صدّق الرسلا

الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

أما عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقد كان آية في التقوى ، أعجوبة في الخوف ، مذهلاً في البكاء ، بكى حتى اتخذت الدموع لها مجرى على خديه ، فرسمت لها خطين أسودين من كثرة تحدّرها، ويجب عليك وأنت تقرأ سيرة عمر وغيره من أولئك العظماء أن تنظر إلى هذا الربط البديع ، والتناسق العظيم ، بين شدة الخوف وكثرة البكاء ، وبين القوة والصلابة في الحق والعزيمة في رفعة الدين ، فلم يكن خوف خورٍ وخضوع ، وقعودٍ وخنوع ، بل هو خوف يدفع للقوة، وبكاء يثمر عطاء ، وخشية أوجبت التضحية .

يا من رأى عمراً تكسوه بردته
والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً
من خوفه وملوك الروم تخشاه

كان عمر يخوف نفسه **بالله** ، ويحب الذين يخوفونه **بالله** جل وعلا ويبحث عمن يخوفه **بالله** ويذكره بهول المطلع على **الله** ، لعلمه بثمرة الخوف وحسن عاقبته .

كان كعب – رضي **الله** عنه – عنده في يوم من الأيام ، فقال له عمر: يا كعب خَوِّفنا ، فقال له كعب : يا أمير المؤمنين أليس فيكم كتاب **الله** وحكمة رسول **الله** ﷺ ، قال : بلى ، ولكن يا كعب خوفنا ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافى القيامة بعمل سبعين نبياً لازدرأ عمله مما يرى من الهول .

كانت قُواه تنهار من خوف **الله** وخشيته ، كان يهوي إلى الأرض، ويأخذ التبنة بيده ويبكي قائلاً : « يا ليتني هذه التبنة ، ليتني لم أكن شيئاً ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسياً منسياً » .

لما خرج – رضي **الله** عنه وأرضاه – لاستلام مفاتيح بيت المقدس استقبلته الكتائب والجيوش والأمراء والعظماء ، فقال لهم : تفرقوا عني أين أخي أبو عبيدة ، فتقدم أبو عبيدة إليه فعانقه وبكى بكاءً طويلاً ، ثم قال عمر : يا أبا عبيدة كيف بنا إذا سألنا **الله** يوم القيامة ماذا فعلنا بعد رسولنا ﷺ ، قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين تعال إلى مكان لا يرانا الناس فيه لنتباكى ، فاتجها إلى شجرة ثم توقفا عندها وأخذا يبكيان بكاءً مريراً طويلاً يبكيان حنيناً لصاحبهم ﷺ ، ويتذكران أيامهما معه ، ويبكيان خوفاً من ربهم عز وجل إذا سألهم ماذا فعلا بعده .

حينما حضرت عمر الوفاةُ كان رأسه على فخذ ابنه عبد **الله** ، فقال

له: ضع رأسي على التراب عل الله يرحمني ، فلما وضع رأسه على الأرض قال : ويلي وويلُ أمي إن لم يرحمني الله . وكان يقول: والله وددت لو نجوت كفافاً لا لي ولا عليّ .

بكى عمر الفاروق خوفاً وخشية
وقد كان في الأرض الإمام المثاليا
وقال بصوت الحزن يا ليت أنني
نجوت كفافاً لا عليّ ولا ليا

عثمان بن عفان - رضي الله عنه - :

أما عثمان – رضي الله عنه وأرضاه – فقد كان إذا وقف على قبر يبكي حتى تخضل لحيته بالدموع ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، يذكر عندك الموت والجنة والنار فلا تبكي أحياناً ، فإذا ذكر القبر بكيت ، قال : لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه فمن نجا منه فما بعده أهون منه».

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

وقد كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه وأرضاه – كثير الخوف سريع العبر ، دائم الفكرة ، شديد الخشية ، صلى صلاة الفجر في يوم من الأيام فجلس حزيناً مطرقاً ، فلما طلعت الشمس قبض على لحيته وبدأ يبكي بكاءً مريراً ، فلما هدأت نفسه ، وسكنت عبرته قال : «لقد رأيت أصحاب النبي ﷺ فما رأيت شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم كأمثال ركب المعزى من كثرة السجود ، قد باتوا لله سجداً

وقياماً يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا طلع الفجر ذكروا الله ، فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهطلت أعينهم بالدموع ، والله لكأنهم أمسوا غافلين .

كان علي – رضي الله عنه – إذا أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه يقوم في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الملدوغ ، ويبكي بكاء الحزين ، وينادي ، يا ربنا ، يا ربنا ، يا ربنا .. آه ، آه ، آه من قلة الزاد بعد السفر ، ووحشة الطريق .

عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - :

وهذا عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه وأرضاه – أُتي له بطعام وقد كان صائماً فلما وضعوه أمامه قال : قتل مصعب بن عمير – رضي الله عنه – وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة ، إن غُطّي بها رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطّي بها رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط قد خشينا أن تكون حسناتنا عجُلت لنا ، ثم انهار بالبكاء حتى رفع طعامه وما أكل منه ، وأُتي له بعشائه في يوم آخر وقد كان صائماً ، فلما رأى الطعام قرأ قول الله تعالى : **﴿ إن لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليما ﴾** ، فلم يزل يبكي حتى رفع طعامه وما تعشى .

أبو هريرة - رضي الله عنه - :

أبو هريرة – رضي الله عنه وأرضاه – في مرض موته بكى بكاءً مريراً فقيل له ما يبكيك؟ فقال : أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكن أبكي على بعد سفري وقلة زادي ، وإني أمسيت في صعود المهبط منه على جنة أو نار ولا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي.

عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - :

أما عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فكأن النار لم تخلق إلا له ، وكأن الصراط لم ينصب إلا من أجله ، كان خليفة للمسلمين ، الدنيا طوع أمره ، والأموال تحت تصرّفه ، والكنوز ترتمي عند قدمه ، وأبّهة الملك تغازله ومع ذلك أعرض عنها جميعاً ، وطلب ملكاً لا يفنى ، ونعيماً لا يزول ، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك - رضي الله عنها- قد يكون في الرعية من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ، ولكن ليس بينهم من هو أشد خوفاً وبكاء من عمر .

كان إذا صلى العشاء جاء إلى بيته فالقى بنفسه في محرابه ، ثم رفع يديه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه ، وقد كان يبكي أحياناً حتى يطلع الفجر .

بكى في يوم من الأيام واشتد بكاؤه فسمع أهله بكاءه فبكوا لبكائه ثم سمع الجيران البكاء فبكوا لبكاء عمر وأهله ، وقد كادت روحه تذهب من شدة البكاء ، فلما سكن فؤاده ، وهدأت نفسه ، قالو له : يا أمير المؤمنين ما الذي أبكاك؟ فوالله لقد أشفقنا عليك ، قال : تذكرت يوم القدوم على الله فريق في الجنة وفريق في السعير ، ولا أدري أين يذهب بي .

قيل لعمر في يوم من الأيام : لو جعلت على طعامك أميناً لا تُغتال ، وحرساً إذا صليت لا تُغتال ، وتنحَّ عن الطاعون . فقال : «اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي» .

الحسن البصري - رحمه الله - :

وكان الحسن البصري – رحمه الله – من أعظم الناس خوفاً ، وأكثرهم بكاءً وخشية من الله تعالى ، بكى في يوم من الأيام ، فقيل له ما يبكيك؟ قال : أخاف أن يطرحني غداً في النار ولا يبالي .

أُتي له بكوز من ماءٍ ليفطر عليه وقد كان صائماً عطشان ، فلما أدناه إلى فيه بكى وأسبلت عيناه لدموع فقال : ذكرت أمنيه أهل النار وقولهم: **﴿ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾** .

الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - :

أما الفضيل بن عياض فيقول عنه أحد العلماء الذين عرفوه : ما رأيت أحداً كان خوف **الله** في صدره أعظم من الفضيل ، كان إذا ذَكَرَ اللهَ أو ذُكر اللهُ عنده ، أو سمع القرآن ظهر به خوف وحزن شديد وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره ويشفق عليه ، وكنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يبكي بكاءً شديداً ويعظ ويذكر ، وكأنه ذاهب إلى الآخرة .

وكان يقول : رهبة العبد من **الله** على قدر علمه **بالله** ،وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة .

ذكر عنده شيء من صفات النار فبكى وصاح حتى غُشي عليه وخَرَّ صريعاً .

رُؤي يوم عرفة وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض علي لحيته ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأتاه

منك وإن غفرت .

هذا غيض من فيض من تلك النماذج الرفيعة ، والسير البديعة ، لأناس عرفوا حقيقة الأمر ، وتمثلوا عظمة **الله** ، وعلموا هول المطلع عليه ، وشدّة الموقف بين يديه ، وخافوا ذنوبهم ، وتهيبوا تقصيرهم ، ولم ينخدعوا بأعمالهم ويباهوا بأفعالهم .

تتجافى جنوبهم   عن وطيء المضاجع
كلهم بين خائف   مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى   للعيون الهواجع
واستملت عيونهم   فائضات المدامع
ودعوا يا مليكنا   يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا   للعيون الدوامع
اعف عنا ذنوبنا   للوجوه الخواشع
أنت إن لم يكن لنا   شافع خير شافع

هكذا رأينا كيف كان خوف السلف الصالح ، وكيف كانت هيبتهم من **الله** وخشيتهم له ، مع ما لهم من أعمال جليلة وعبادة عظيمة وسيرة قويمة ، فما بالك بمن بضاعته وأعماله ناقصة وذنوبه كبيرة ، ثم مع ذلك يحمل قلباً ميتاً ومشاعر متجمّدة ، قلبه آمن ، ونفسه لاهية ، وعينه جامدة وكأنه قد أمن المرور على الصراط ، وضمن النجاة من النار ، وسلم من بطش الجبار ، أين القلوب الخاشعة والأنفس المنكسرة ، والأعين الباكية ، والأفئدة الخائفة .

من ثمرات الخوف :

قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » .

يقول وهب بن منبه : ما عبد الله بمثل الخوف .

ويقول أبو سليمان الداراني : « أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خَرِب » .

ويقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه بالسهل في أصل جبل يخشى أن يقلب عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا » .

إن الخوف علامة الإيمان الصادق بالله تعالى : ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ ، وقد وصف الله تعالى المتقين أنهم : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ ،

إن الذي يخاف الله تعالى في الدنيا يكون جزاؤه أن يؤمن الله خوفه يوم القيامة ويجعله من أهل الجنة : ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾، وقال تعالى : ﴿ فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن

الجنة هي المأوى ﴾ .

وإن خوف الله تعالى وخشية عقابه سبب من أسباب فلاح الأمم وتمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم ، قال تعالى : ﴿ .. لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، اللهم اجعلنا من أهل خشيتك ، وأرباب طاعتك ، اللهم آمن خوفنا في الدنيا والآخرة.

* الرجاء *

قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب ، ويطيّب السير إلى العزيز القدير إنه استبشار بجود الرب ، وطمع في كرم الكريم ، وأمل في رحمة الرحيم ، وثقة في فضل العظيم ، ونظر إلى سعة الرحمة ، وجميل العفو ، والامتنان بالغفران ، والتعلق بالمحسن المتفضل ، ولولا روح الرجاء لعُطّلت عبودية القلب والجوارح ، وهدمت صوامع وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . لولا روح الرجاء ما تحركت الجوارح بالطاعة ، ولما ترنمت الألسنة بالدعاء ، ولما فاضت القلوب بالثناء .

إن الرجاء دليل على محبة الله ، وثمرة من ثمرات الخوف ، وكل محبٍ على الحقيقة فهو راج لله خائف من عذابه ، وعلى قدر تمكن المحبة في القلب يشتد الرجاء والخوف .

إن المؤمن بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو صلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها ، وصراط يرجو الثبات عليه ، وقرب من الله يرجو وصوله إليه .

فالرجاء حياةٌ للقلب ، ونور للعين ، وجلاء للبصيرة ، وحافز للعمل ، وإن الخوف ملازم للرجاء ، والرجاء ملازم للخوف ، وهما كجناحي الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا فقد أصبح الطائر في عداد الموتى وجملة المفقودين .

إن هذا الدين العظيم ، والنهج الأكمل ، يربي الناس على الرغبة والرهبة ، والخوف والرجاء ، فكما أن هنالك من آيات الترهيب وأحاديث التخويف ما يزلزل النفوس ، ويهز الأفئدة ، ويرهب القلوب ، فإن هنالك من آيات الترغيب وأحاديث الرجاء ما يطمئن النفس ، ويسلي القلب ، ويؤنس الخاطر ، ويبعث على الأمل .

قال تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ﴾ .

وقال ﷺ : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من جنته أحد » .

وقال ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » .

ومن الواجب على العالم في علمه ، والمربي في تربيته ، والواعظ في وعظه أن يجمع بين الأمرين ، ويقرن بين الحسنيين ، ويمزج بين الغرضين ، فليس التخويف بمفرده سبيل للعلاج ، وأداة للتقويم ، وطريقة للدعوة ، بل قد يكون الرجاء أجمل ، والترغيب أوقع ، وإن المتأمل لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه ﷺ يجد جانب الترغيب ، ونصوص الرجاء أكثر عدداً وأجمل موقعاً ، وألذ سماعاً ، وأطرب استمتاعا .

والرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة ، ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوباً بالعمل ، مقروناً بالطاعة ، ممزوجاً بالعطاء ، فليس معنى الرجاء أن ينغمس المرء في الذنوب ، ويتقاعس عن الطاعة ، ويتنكر للعبادة ، ويفرط في الحقوق ، ويضيع الواجبات ، ثم يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة ، بل هو يعمل ويرجو ، ويجتهد ويطمع ، ويبذل ويرغب ، وهو معترف بتقصيره مقرٌ بذنوبه ، مؤمل في نيل غفران ربه .

وإذا تأملت الآيات القرآنية أدركت هذه الحقيقة ، وآمنت بهذا المبدأ :

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ أمن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر

الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .

فهؤلاء الذين تعلقوا بالرجاء ، وطمعوا في العطاء كانت لهم مؤهلات ولديهم مسببات ، يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : « المقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه ، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها ، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور ، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي : من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو » .

وقد روي عنه ﷺ أنه دخل على شاب وهو في الموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال : والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » .

المؤمن كلما كثرت ذنوبه ، وتعددت هفواته يكون رجاؤه في الله أعظم ، وطمعه في مغفرته أكبر ، فإن أسواط الذنوب ، ولذعات المعاصي تحرك القلب وتؤنب الضمير ، وتدعو إلى المناجاة ، ومتى ما انقدح في ذهن العبد أن الذنب من سماته ، والخطأ من لوازمه ، وأن له رباً غفوراً كريماً يغفر الذنب ، ويأخذ بالذنب فقد وصل إلى مرتبة رفيعة ومنزلة عالية ، يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال : « أذنب عبدٌ ذنباً ، فقال اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي . فقال

تبارك وتعالى : عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب . فقال : أي رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

يا ربُّ إن عظُمت ذنوبي كثيرةً
فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ
فمن الذي يرجو ويدعو المُجرم
مالي إليك وسيلةٌ إلا الرجا
وجميل عفوك ثم إني مسلم

ومن أروع ما قرأت وأجمل ما وجدت من كلمات الرجاء ، كلمات بديعة ، وعبارات موحية لإمام من أئمة الدين ، وأستاذ من أساتذة البيان ، وهو يحيى بن معاذ – رحمه **الله** – حيث يقول : « يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال ، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟» .

وقال أيضاً : « **إلهي** ، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك . وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك »

وإني لآتي الذنب أعرف قدره
وأعلم أن **الله** يعفو ويغفرُ
لئن عَظَّم الناس الذنوب فإنها
وإن عَظُمتْ في رحمة **الله** تصغرُ

من آيات الرجاء :

قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

من أحاديث الرجاء :

قال ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

وقال ﷺ : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب مني شبراً ، تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة » .

وقال ﷺ لمعاذ وهو رديفه على الرحل : « يا معاذ » قال : لبيك يا رسول اله وسعديك ، قال : « يا معاذ » قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « يا معاذ » ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً ، قال : « ما من

عبد يشهد أن لا إله إلا **الله** ، وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه **الله** على النار» قال : يا رسول **الله** أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال : «إذاً يتّكلوا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً .

وقال ﷺ : «جعل **الله** الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» .

وقدم على النبي ﷺ سَبْيٌ فإذا امرأة من السبي تسعى ، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته ، فألزقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول **الله** ﷺ : «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا : لا والله . فقال : «**لله** أرحم بعباده من هذه بولدها» .

وقال ﷺ : «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : رب أعرف ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته» .

وجاء رجل إليه ﷺ فقال : يا رسول الله أصبت حداً ، فأقمه عليّ ، وحضرت الصلاة ، فصلى مع رسول **الله** ﷺ فلما قضى الصلاة قال : يا رسول **الله** إني أصبت حداً ، فأقم فيّ كتاب **الله** ، قال : «هل حضرت معنا الصلاة؟» قال : نعم . قال : «قد غُفر لك» .

وقال ﷺ : «قال **الله** تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان

السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » .

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي
جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما

من فوائد الرجاء :

إلى الله كل الأمر في الخلق كله
وليس إلى المخلوق شيءٌ من الأمر
إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما
تكرَّهت منه ، طال عتبي على الدهر
تعوَّدت مس الضُّر حتى ألفتُهُ
وأحوجني طول العزاء إلى الصبر
وصيَّرني يأسي من الناس راجياً
لسرعة لُطف الله ، من حيث لا أدري

ذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله – عدداً من فوائد الرجاء ، وبعضاً من محاسنه ، وإليك موجزاً لها وطرفاً منها :

١ – إظهار العبودية والفاقة ، والحاجة إلى ما يرجوه العبد من ربه ، ويترقبه من إحسانه وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين .

٢ – أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ، ويسألوه من فضله .

٣ - أن الرجاء حاد يحدو بالعبد في سيره إلى **الله** ، ويطيب له المسير ، فلولا الرجاء لما سار أحد ، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد ، وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء .

٤ - أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ، ويلقيه في دهليزها ، فإنه كلما اشتد رجاؤه ، وحصل له ما يرجوه ، ازداد حباً **لله** تعالى وشكراً له ، ورضى به وعنه .

٥ - أنه يبعث العبد على أعلى المقامات ، وهو مقام الشكر ، الذي هو خلاصة العبودية ، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره .

٦ - أنه يوجب للعبد المزيد من معرفة **الله** وأسمائه ومعانيها ، والتعلق به ، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى ، متعبد بها ، داعٍ بها .

٧ - أن الرجاء مستلزم للخوف ، والخوف مستلزم للرجاء ، فكل راج خائف وكل خائف راج ، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف .

٨ - أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه ، كان ذلك اللطف موقعاً وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه ، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار ، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوّهم واندفاع مخاوفهم .

٩ - أن **الله** سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته ، من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة ، والخوف ، والرجاء ، والصبر ،

والشكر ، والرضى ، والإنابة ، وغيرها . ولهذا قدّر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحسن عبوديات عبده إليه ، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف .

١٠ - أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره ، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته ، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة .

إلهي لا تعذّبني فإن
مُقرٌّ بالذي قد كان مني
ومـا لي حيلة إلا رجائي
وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا
وأنت عليَّ ذو فضل ومنّ
ذا فكرّت في ندمي عليها
عضضت أناملي وقرعت سني
ظن الناس بي خيراً وإني
لشرُّ الناس إن لم تعف عني
أجن بزهرة الدنيا جنوناً
وأفني العمر فيها بالتمني
وبين يدي مُحتبس ثقيل
كأني قد دعيت له كأني
ولو أني صدقت الزهد فيها
قلبت لأهلها ظهر المجن

* الكلام الأخاذ ليحيى بن معاذ *

ليحيى بن معاذ الرازي – رحمه الله – روائع مذهلة ، وكلمات نفاذة خلابة ممتعة ، تسمع بعضها فتمتلىء عجباً ، وتنثني طرباً ، وتسجد للباري حياءً وادبا .

يحيى بن معاذ في الوعاظ كالشافعي في الفقهاء ، وابن تيمية في العلماء ، والمتنبي في الشعراء ، والجاحظ في الأدباء ، والجرجاني في البلغاء ، وسحبان في الخطباء ، وحاتم في الكرماء ، توفي رحمه الله سنة ٢٥٨ هـ .

أيها الاحبة أرخوا أسماعكم ، وافتحوا منافذ قلوبكم ، فأنتم الآن على موعد مع الإمام الرباني : يحيى بن معاذ الرازي – رحمه الله – :

كيف أمتنع بالذنب من رجائك ، ولا أراك تمتنع للذنب من عطائك .

◆

إلهي ذنبي إلى نفسي فأنا معناه ، وحبي لك هو لك فأنت معناه ، والحب أعتقده لك طائعاً والذنب آتيه كارهاً ، فهب كراهة ذنبي لطواعية حبي إنك أرحم الراحمين .

◆

إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة ، وإن أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة .

◆

سَبَحُوا في بحار البلايا حتى جاوزوها إلى العطايا ، ثم سبحوا في بحار العطايا حتى جاوزوها إلى رب البرايا .

من أشخص بقلبه إلى الله انفتحت ينابيع الحكمة في قلبه وجرت على لسانه .

◆◆◆

لا تستبطىء الإجابة وقد سددت طرقاتها بالذنوب .

◆◆◆

إن أعرضت عنا بوجهك الكريم استعطفناك بقول لا إله إلا الله.

◆◆◆

ربما رأيت أحدهم يقول : عشرين سنة أطلب ربي ، ويحك اطلب نفسك حتى تجدها ، فإذا وجدتها فقد وجدت ربك .

◆◆◆

يا جهول يا غفول لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لَمتَّ طرباً .

◆◆◆

إلهي إن كانت ذنوب عظمت في جنب نهيك فإنها قد صغرت في جنب عفوك . **إلهي** لا أقول لا أعود لما أعرف من خلقي وضعفي . **إلهي** إنك إن أحببتني غفرت سيئاتي ، وإن مقتَّني لم تقبل حسناتي ثم قال : أواه قبل استحقاق قول أواه .

◆◆◆

ترى الخلق متعلقين بالاسباب والعارف متعلق بولي الاسباب ، إنما

حديثه عن عظمة **الله** وقدرته وكرمه ورحمته ، يحترف بهذا دهره ، ويدخل به قبره .

◆

سبحان من طيب الدنيا للعارفين بمعرفته ، وسبحان من طيب لهم الآخرة بمغفرته ، فتلذذوا أيام الحياة بالذكر في مجالس معرفته ، وغداً يتلذذون في رياض القدس بشراب مغفرته ، فلهم في الدنيا زرعُ ذكْر ، ولهم في الآخرة ربيع برّ ، ساروا على المطايا من شُكْرِه حتى وصلوا إلى العطايا من ذُخرِه ، فإنه ملكٌ كريم .

◆

أوثق الرجاء رجاء العبد ربه ، وأصدق الظنون حسن الظن بالله .

◆

طَربُ الحُبُّ على الحبّ   مع الحُب يدوم
عجبا يا من رأينـ   ـاه على الحب يلوم
حول حب **الله** ما عشـ   ـتُ مع الشوق أحوم
وبه أقعدُ ما عشـ   ـت حياتي وأقوم

◆

رضيت بسيدي عوضاً وأنساً
من الأشياء لا أبغي سواه
فيا شوقاً إلى ملك يراني
على ما كنت فيه ولا أراه

إلهي كيف أفرح وقد عصيتك ، وكيف لا أفرح وقد عرفتك ، وكيف أدعوك وأنا خاطىء ، وكيف لا أدعوك وأنت كريم .

◆

ويقول : **إلهي** لا تنس لي دلالتي عليك ، وإشارتي بالربوبية إليك ، رفعت يداً بالذنوب مغلولة ، وعيناً بالرجاء مكحولة ، فاقبلني لأنك ملك لطيف ، وارحمني لأني عبد ضعيف .

◆

يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟ .

◆

العارف يخرج من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربه .

◆

اللهم إني جعلت الاعتراف بالذنب وسيلة لي إليك ، واستظللت بتوكلي عليك ، فإن غفرت فمن أولى بذلك منك ، وإن عاقبت فمن أعدل في الحكم منك؟ .

◆

اللهم إن نظرتْ إليّ بالهلكة عيون سُخطك فلم تغفل عن استنقاذي منها عيون كرمك ؛ **اللهم** إن كنت غير مستأهلٍ لكرمك ومعروفك فكن

أهلاً للتطول ، فإن الكريم ليس يضيع معروفه عن جميع مستحقيه .

◆

إلهي إن كان ذنبي عرّضني لعقابك ، فقد رجوت الدنُّو برجائي من ثوابك ، لولا ما اقترفته من الذنوب ما خفت من العقاب ، ولولا ما عرفتُ من الكرم ما رجوتُ الثواب .

◆

إن سيئة المؤمن مقرونة بحسنتين : الخوف والرجاء وكل حسنة بعشر أمثالها ، فصارت سيئة مقرونة في الحقيقة بعشرين حسنة .

◆

الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال .

◆

الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها .

◆

العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

◆

من عبد الله بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار

عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف ودّه؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟

◆ ◆ ◆

مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

◆ ◆ ◆

إلهي إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً اخذتني إليك ، وسربلتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الاحوال ، وقلبتني في الأعمال ، ستراً وتوبة ، وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحباً ، تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازماً لامرك ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لاني محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

◆ ◆ ◆

يرجع الأمر كله إلى هذين الاصلين : فعل منه لك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل ، وتخلص فيما تعمل .

◆ ◆ ◆

صبر المحبين أشدّ من صبر الزاهدين ، واعجباً كيف يصبر الإنسان عن حبيبه! .

◆ ◆ ◆

* سمة المؤمن *

المؤمن لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولايفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يخاف إلا من سقوطه من نظر الله ، فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائماً إلى الله ، يحب الله ويحبه الله ، ويرضى بالله ، ويرضى عنه الله .

رقادي يا طرْفي عليك حرامُ
فخلْ دموعاً فيضُهُن سِجامُ
ففي الدمع إطفاءٌ لنار صبابةٍ
لها بين أحناء الضُّلوع ضِرامُ
ويا كبدي الحرَّى التي قد تصدَّعت
من الوجد ذُوبي ما عليك ملامُ
ويا وجه من ذلت وجوهٌ أعزَّةٌ
له وزها عزّاً فليس يُرامُ
أجر مُستجيراً في الهوى جاء باسطا
إليك يديه والعيونُ نيامُ

إن بين العبد وبين ربه مسافة ، لا تقطع إلا بقطع العلائق ، ورفض العوائق . وعلى مرآة القلب صدأ ، لا يجلوه إلا نسيان الخلق في جنب ذكر الخالق ، فمن أراد أن يصل إلى ربه ، فليتفرغ لمواصلة السّرى ، ومن اثر جلاء مرآة قلبه ، فليتناسى ذكر الورى . كيف يصل إلى الله من لا يسير ،

وهو في قبضة العوائق أسير؟ .

الله تعالى مستغنٍ عما سواه ، وكل ما سواه إليه فقير ، يجير على كل أحد ، وما أحد عليه يجير .

هو القاهر فوق عباده ، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، لا يتأخر عن مراده .

لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تتمثله الأفكار ، كل الخلائق عن إدراكه قاصرون ، وفي تيه معرفته حائرون .

له مقاليد السموات والأرض ، وبيده البسط والقبض ، والرفع والخفض نصب الجبال فأرساها ، وفجر المياه وأجراها ، وسمك السماء وأعلاها ، ووضع الأرض ودحاها ، وسخر الشمس والقمر دائبين ، وجعل الليل والنهار متعاقبين .

الملائكة من خشيته مشفقون ، والرسل من هيبته مطرقون ، والجبابرة لعظمته صاغرون ، وكل من في السموات والأرض له قانتون.

ما وعظ الواعظون بمثل التخويف من الانقطاع عن الوصول ، ولا أطرب الحادون بمثل التشويق إلى النظر إلى جمال وجه الله ، ومرافقة رسول الله ، ولا يسمع السامعون بمثل حسرة المحجوبين يوم القيامة عن الله ، وعن شفاعة رسول الله ﷺ .

كم من قريب أبعده التباعد؟ وكم من قائم أقعده التقاعد؟ لا يزال رجالٌ يتأخرون حتى يؤخرهم الله يوم القيامة .

يا إلهي ، فارحم رهافة حسي
واحْبُ نفسي قلباً وطرفاً غضيضا
أنا في غفلتي ألجُّ وأمضي
وكياني منها يمضُّ مضيضا !
يا إلهي ، ولي إلى التوب توقٌ
لاح في غوْرِ مُقْلتيَّ وميضا
وسناك العُلويّ يَغْسل روحي
وجروحي ، يأسو المريض الرَّميضا
صفحاتي تضُجّ من سيّئاتي
ودعائي يؤجّ بي مستفيضا
يا **إلهي** الرحيم ، فامننْ لتغدو
بالتجلّي ، سُودُ الصحائف بيضا

* فِرّوا إلى الله *

لا رب أرجوه لي سواكا
إذْ لم يَخبْ سعيُ من رجاكا
أنت الذي لم تزل خفيّاً
لم تبلغ الأوهام مُنتهاكا
إن أنت لم تهدنا ضللنا
يا رب! إن الهدى هداكا
احطت علماً بنا جميعاً
أنت ترانا ولا نراكا

قال تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

كل شيء تخافه فإنك تفر منه وتهرب عنه إلا الواحد الأحد فإن من خافه يفر منه إليه ، ويهرب من سخطه إلى رضوانه ، ومن وعيده إلى وعده فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، الفرار إلى الله تعالى هو الانطراح ببابه والانكسار لجنابه ، هو اللجوء إليه تعالى والدخول في الإيمان والطاعة ، والهروب من المعصية والخطيئة ، والفرار نوعان : فرار السعداء وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء : هو الفرار إلى الله عز وجل ، وفرار الأشقياء : هو الفرار منه تعالى لا إليه.

والذي يظن أنه يستطيع أن يفر من الله تعالى وأن يفلت من قبضته فهو جاهل أحمق ، فإن المرجع إليه ، والمصير إليه .

﴿ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ﴾ .

إن المؤمن يهرب من ضيق الصدور بالهموم والغموم ، ويفر من الأحزان والمخاوف إلى سعة فضاء الانس بالله ، والثقة بنصره ، وصدق التوكل عليه ، وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، والطمع في رحمته وغفرانه .

والله جل وعلا لا يخيب رجاء من رجاه ، ولا يضيع من أحسن الظن به ، ومن تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة ، فلطفه قريب ، وجوده كبير وعفوه عظيم.

ما بات يثني على علياك إنسانُ
إلا وأدهشه حُسْنٌ وإحسانُ
يا رب رحمتك المسعود قاصدها
فإنما ظلها أمن وإيمان
مولاي هل لفتىً بالباب معذرةٌ
فعقلُهُ في جلال الملك حيران
سعى على قدم الإخلاص ملتمساً
رضاك فَهْو على الإقبال عنوان
أرى رحابك روضاً للندى نضراً
لأن غصن رجائي فيه ريّانُ
مولاي فامنن بإحسان ومغفرة
فنحن يا واسع الإكرام ضيفان

* دعاءٌ ورجاء *

اللهم لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وبك وإليك ، **اللهم** ما قلت من قول ، أو نذرت من نذر ، أو حلفت من حلف ، فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، أسألك **اللهم** الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الممات ، ولذة نظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضرّاء مضرّة ، ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك

اللهم أن أظلم أو أُظلم ، أو أعتدي أو يُعتدى عليّ ، أو أكتسب خطيئة مُحبطة أو ذنباً لا يُغفر .

اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأُشهدك وكفى بك شهيدا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور ، وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وتُبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم .

اللهم يا من ليس في الوجود رب سواه ، يا من عليه يعتمد ، ومن فضله يُسأل وإليه يستند ، يا أحد ، يا صمد ، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، يا كثير الخير ، يا دائم المعروف ، يا من الملائكة في خدمته صفوف ، وعلى طاعته عكوف .

يا جار المستجير ، ومن هو على كل شيء قدير .

يا غياث الملهوف ، يا من بيده القبض والبسط ، وبيده تقوم السموات والأرض .

يا من امتدت لمسألته أكف السائلين ، وخرّت لعبادته وجوه الساجدين وعجّت بتلبيته أصوات الملبين ، وطمحت إلى معروفه أبصار الآملين . يا عالم السر والنجوى ، يا من إليه المشتكى . يا من عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات .

يا من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . يا من إذا انتهت الشكوى إليه فقد بلغت المنتهى . يا فالق الحب والنوى .

اللهم نشكو إليك ما نحن فيه من طاعتك مقصّرون ، وعلى معصيتك مصرون ، وبعظمتك جاهلون ، وبحكمك مغترّون ، وعن القيام بما يلزمنا في حقك عاجزون .

اللهم اجعلنا من الذين يعاملونك بما تحب ، وتعاملهم بما يحبون ، وينصرفون عما تكره ، وتصرف عنهم ما يكرهون . وألحقنا بالذين وجهوا إليك وجوههم ، وأخلصوا لك أعمالهم ، ولم يعتمدوا على أحد إلا عليك ولم يستندوا إلا إليك ، ﴿ **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ .

اللهم إنا نسألك بأنا نشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا هو أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

نسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أن تغفر لنا ذنوبنا .

اللهم إنا نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علينا غضبك ، أو ينزل علينا سخطك، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

اللهم يا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا إلى دينك وطاعتك، **اللهم** إنك عفو تحب العفو فاعف عنا ، **اللهم** إنا نعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك .

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك ، ومعافاتك من عقوبتك ، ونعوذ بك منك لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم نواصينا بيدك ، ماضٍ فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك ، نسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا .

اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماوات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

اللهم لك أسلمنا ، وبك آمنا ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وبك خاصمنا ، وإليك حاكمنا ، فاغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا **بالله**.

الفهرس